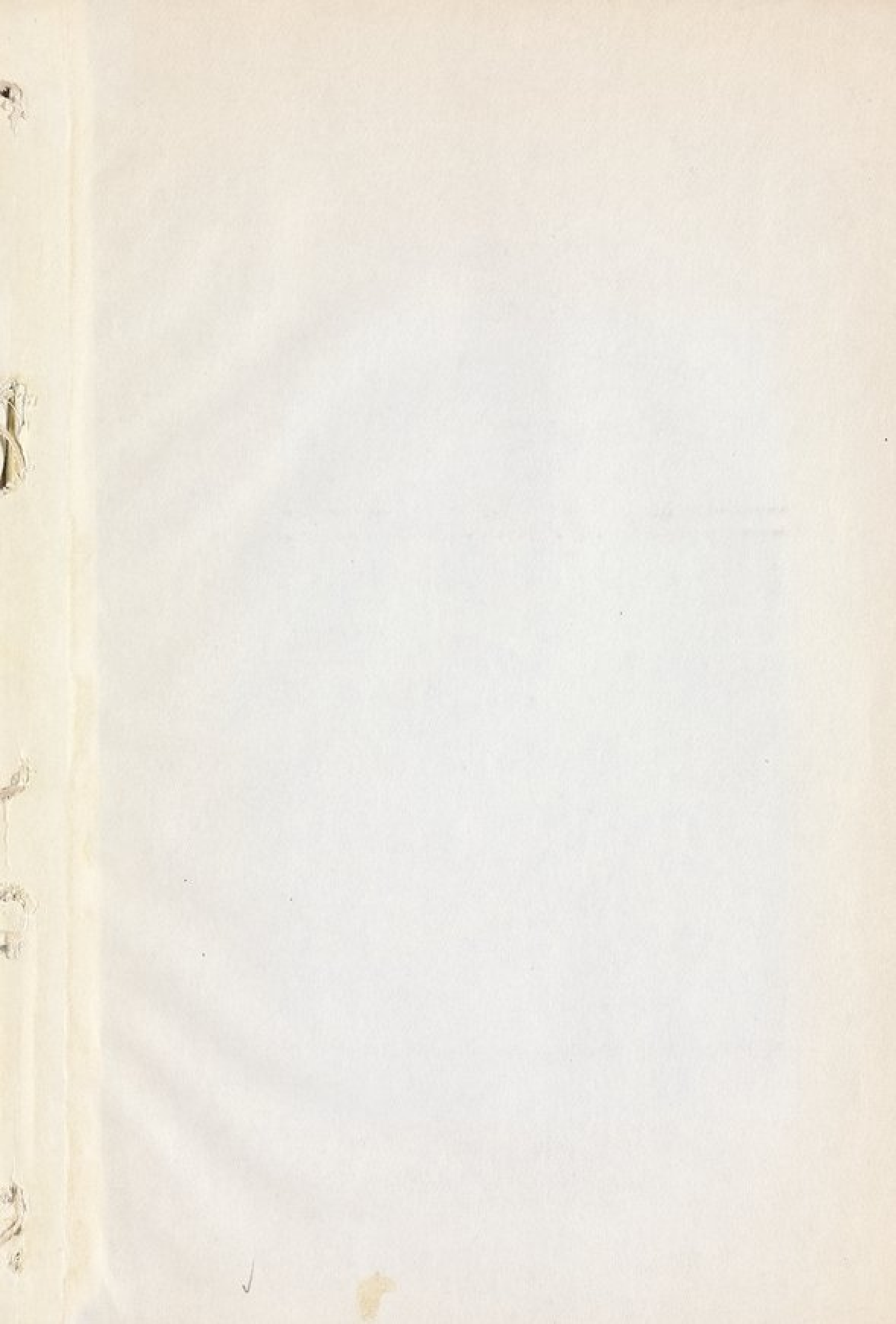




الإرث الفكري

للمصلح الاجتماعي

عبد الحميد الزهراوي

جمعه وحققه

الدكتور جودة الركابي

الدكتور جميل سلطان

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الإرث الفكري

للمصلح الاجتماعي

عبد الحميد الزهراوي

جمعه وحققه

الدكتور جودة الركابي — الدكتور جميل سلطان

دمشق

١٣٨٢ هـ – ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

شهيد من شهداء الحرية ، ومناضل في سبيل القومية العربيـة ، ذهبت روحه الطاهرة فداء لأمته ووطنه ، ذلك هو شهيدنا المفكر الحر ، والمصلح الاجتماعي الفذ عبد الحميد الزهراوي الذي نقدم له في هذا الكتاب ما عثرنا عليه من تراث فكري أصيل تتراءى في تضاعيفه النبرة المخلصة ، والفكرة الاصيلة ، والدعوة الجريئة ، هذا الى اسلوب مشرق، وعبارة رصينة ، وواقعية محببة ، وإيمان صادق أمين ، يصدع بالحق وينعى على الظلم والظالمين .

ولد السيد عبد الحميد الزهراوي في حمص سنة ١٢٧٢ هجرية (١٨٥٥ ميلادية) وبدأ دراسته بتعلم العربية وقواعدها ، وعكف على التركية فحذقها كالعربية ، وأتم دراسته في المدرسة الرشدية ، إحدى مدارس وزارة المعارف ، ثم أخذ يتعمق في الفقه والتفسير والحديث والكلام والعلوم العقلية على أيدي علماء عصره بحمص أمثال الشيخ حسن الخوجة والشيخ عبد الستار الأتاسي والشيخ عبد القادر الافغاني .

ولما اكتمل تفكيره في سن الشباب واطلع على ما كانت تعانيه البلاد من الحكم العثماني الحميدي الغاشم أخذ يصدر في حمص جريدة سرية سماها (المنير) وكان يطبعها على (الجلاتين) ويوزعها سراً على الناس يثير فيها كوامن النفوس ، ويوقظ بها الشعور الوطني الهضيم . وسافر الى الاستانة وهو في حوالي العقد الثاني من عمره ، وهناك أسهم في إنشاء جريدة « **معلومات** » التركية التي كانت تصدر بالتركية ويصدر قسم منها بالعربية يحرره كاتبنا الزهراوي .

وعرفت السلطة الحميدية بأمره فنفته من الاستانة الى دمشق ، فأقام فيها يكتب الى جريدة (المقطم) المصرية ، وعلم به والي دمشق ناظم باشا فأرسله مخفوراً الى الاستانة ، وهناك توسط في أمره أبو الهدى الصيادي فأعيد الى حمص ، ثم فرَّ منها الى مصر وعمل في الصحافة هناك حتى أعلن الدستور عام ١٩٠٨ ، ففتحت صفحة جديدة في حياة الزهراوي ، وعاد الى سورية ليجدد النضال ضد أعداء العروبة الجدد « الاتحاديين » وانتخب مبعوثا عن حماة ، وفي الآستانة اشترك في تأسيس حزب « **الحرية والاعتدال** » وحزب « **الائتلاف** » المناوئين لحزب الاتحاديين وبدأ جهاده الصحفي المستقل باصدار جريدة « الحضارة » أسبوعية ، ولما ظهرت الحركة الاصلاحية في سورية وانعقد المؤتمر العربي الاول في باريس انتخب الزهراوي رئيسا له ، ثم أقنعه الاتحاديون بعزمهم على الاصلاح الذي كان ينشده في نطاق الجامعة العثمانية ، وجعلوه من أعضاء مجلس الاعيان العثماني .

وحينما نشبت الحرب العالمية الاولى تخيل الاتحاديون أن الزهراوي

ورفاقه المنادين بالاصلاح كانوا أعداء الدولة الالداء فقبضوا على من استطاعوا القبض عليه ، وجيء بهم الى المحاكمة ، وكان الزهراوي أحد هؤلاء الذين حوكموا في ديوان (عالية) العرفي وحكم عليه بالموت ، ونفذ به الحكم شنقا في دمشق في السادس من أيار سنة ١٩١٦ مع غيره من الشهداء .

آثاره :

ليس للزهراوي آثار أدبية كثيرة عدا ما خلف من المؤلفات التي تدل على ثقافة دينية واسعة ومعرفة بالسياسة دقيقة .

فلقد نشر في سورية **رسالة الامامة وشروطها** أغضبت السلطة التركية لأنها تصم السلاطين الاتراك باغتصاب الخلافة وانتهاك شروط الإمامة . وله رسالة أخرى **في الفقه والتصوف** ، أثارت عليه حفائظ الجامدين من علماءالدين،وله مقالات متفرقةفي ((**المؤيد**)) و ((**الجريدة**)) مفعمة بروح الحرية والوطنية والاصلاح .

وفي مصر نشر كتابه الفريد ((**خديجة أم المؤمنين**)) الذي دلّ على توقد ذهنه ، ودقة تفكيره ، وبلاغة تعبيره ، وعمق قوميته وانسانيته . ونشر في مجلة « المنار » للشيخ رشيد رضا فصولا ذات طابع فلسفي تحليلي اسماها : **رسالة في الحب والبغض** ، كما ألف هناك في **النحو والبلاغة والمنطق** ، ووضع سفراً جليلا**في الفقه** كتبه تلبية لرغبة الشيخ رشيد رضا وأحمد فتحي باشا زغلول .

أما مقالاته في **جريدة ((الحضارة))** الاسبوعية التي عاشت نحو

ثلاث سنوات ، فقد حفظت لنا عن الزهراوي صدق كلمتــه ، وجرىء لهجته ، وطاهر عقيدته ، وعروبة قلبه وفكره ، وقد بدا فيما كتبه فيها من مقالات وطنياً مخلصاً يدعو للعروبة دون ان يتنكر للخلافة التي كان يريدها سليمة من الشوائب ، عزيزة في كل جانب ، معترفــةً للعرب بحقوقهم القومية في ظل الجامعة العثمانية .

واختتم الزهراوي بهذه الجريدة حياته الصحفية الضخمة التي بدأت بنشرة صغيرة لم تحفظ الايام لنا منها شيئاً .

ويظهر أن للزهراوي كثيراً من المقالات التي نشرهــا في مختلف الصحف العربية ، وقد صادرها الأتراك من منزله في الآستانة عنــدما قبضوا عليه وساقوه الى المحاكمة في عالية مع ما عثروا عليه من الاوراق، وكان من بينها مقالات طريفة لم تنشر . ويقال انه كان يقرض الشعر وليس في أيدينا شيء منه أصلا .

* * *

لم يكن الزهراوي كاتباً مجيداً فقط وانما كان فوق ذلك خطيبــا مفوّها ومصلحاً اجتماعياً فذّاً ، وكانت له مواقف مشهودة في مجلس المبعوثان التركي الذي كان عضواً فيه .

واذا كانت السياسة قد استحوذت على جانب من حياته ، فهو إنما ابتغاها ليدافع عن وطنه ويدعو الى اصلاح شؤون أمته وهو الذي كان يشعر بانهيار الخلافة العثمانية ويتألم لذلك ، اذ يرى فيه انهيار دولــة

اسلامية كبرى جديدة بأن ترفع عَلَم العدل ، ولكنها اخفقت في ذلك ولم ترع حقوق الاقوام المنضمة اليها ، ولا أكرمت القوميات التي تتألف منها كيانها .

والمتتبع لمقالات الزهراوي يرى من خلال نزعته العثمانية شعوره القوي بضرورة دعم القومية العربية وشدّ أزرها ، وهو السبب الذي أثار حفيظة الاتراك عليه ولا سيما بعد أن قام مع نفر من أعلام العرب وأحرارهم بتأليف **حزب « الحرية والائتلاف »** الذي أخذ يطالب بالاصلاح ويندد بسياسة الاتحاديين الرامية الى التتريك وكبت حرية الاقوام التي تعيش في ظل الامبراطورية العثمانية .

قيمته الوطنية

لقد سكت ذلك الصوت المدوي الذي آمن بالحرية ، وبالفكر ، وبالاصلاح ، وكان هو ورفاقه الشهداء أبطالا في الدفاع عن عروبة وطنهم واصلاح شأن أمتهم ومقارعتهم للظلم والطغيان من أجل الحرّية والفكر والكرامة . واذا كانت قافلة القومية العربية قد خسرت بفقدهم روّاداً أبطالا فانها ظلت من بعدهم تسير في طريق الحرية والاستقلال والكرامة مما أنار للآتين طريق الكفاح نحو غد عربي مشرق تجتمع فيه الامة العربية على كلمة واحدة وتتحقق فيه آمالها في السيادة والحرية.

عبقريتــه

وبعد فلم يكن الزهراوي فقيها عالما فحسب ، ولا رجل نضال ، أو

مصلحا اجتماعيا فقط ، وما كان سياسيا ولا حقوقيا ولا أديبا أو خطيبا أو بليغا فقط ، وانما كل أولئك ، وكان فوق ذلك شعلة من الاخلاص والتوقد والجرأة .

إننا نلمح فيه صفات قلما اجتمعت في رجل غيره : فهو **انسان محب للناس جميعا** ويريد أن يتحابّ الناس ويبتغوا الخير ، بعضهم لبعض على اختلاف الجنس والعرق ، وكان يرى كما يقول « أن تبنى التربيـة على محبة الناس بعضهم بعضا بقدر الامكان وإن كان بعضهم أجنبيا عن بعض »[1] .

وكان يدعو الى أن يتعارف العرب بعضهم الى بعض بعد أن لمس جهلهم بجغرافية بلادهم : « فالسوري مثلا ـ كما يقول ـ لا يعرف ما في العراق ، والعراقي ما في سورية ، والحجازي ما في طرابلس الغرب ، والمصري ما في اليمن وهلم جرا ... » ولا شك في أن هذه الملاحظة التي أبداها الزهراوي آنذاك تبين مدى حرصه على شدّ أواصر التعارف بين العرب الذين يراهم أمة واحدة تقطعت أوصالها بالجهل ، فيجب ان تتوثق اجزاؤها بالمعرفة . وبرغم ما نعرف من نشأة الزهراوي الدينية وزيّه الاسلامي الخاص فقد كان يوصي بنبذ النعرات الدينية وألا نجعلها سببا في الاختلاف والشقاق ، وكان يلح في الدعوة الى طرح التعصب جانبا داعيا الى الالفة والتحاب والتعاضد .

---

(١) من مقالة له بعنوان « خواطر السياحة » .

وكان يرى أن الاختلاف العرقي أو الديني لا يمنع من أن يعيش المتخالفان معا حياةً طيبة ، **فكأنه كان ينادي بالتعايش السلمي** الذي ينادي به زعماء العالم اليوم فيقول : « الاختلاف الديني قديم ولكنا لم نر على عراقته في القدم أنه وقف الدهر كله حائلا دون تعاون المختلفين فيما لهم فيه فائدة مشتركة كعمران المزارع ، واقامة المتاجر والمصانع ، والتوسع في الاختراع ، وتكثير أنواع البضائع ، وهكذا وجدنا الاختلاف الجنسي [1] أيضا لم يحل دون هذه الفوائد ، ووجدناهما لم يمنعا من أن يتساكن المتخالفان في بلد واحد وبيت واحد » [2] .

ويرى الزهراوي أن اعتداء الاوربيين علينا ليس ناجما عن دافع ديني وانما هو ناجم عن مطامعهم فينا وعن ضعفنا وجهلنا فيقول في نهاية احدى مقالاته « اللهم هل هذا كاف في تذكير الناسين أن هجوم الغرب على الشرق ليس هو هجوم دين على دين وانما هو هجوم قوة على ضعف ، وعلم على جهل ، وغنى على فقر ، فانظروا وتساءلوا لماذا أنتم ضعفاء ! » .

وهكذا كان الزهراوي يحث بني قومه على التزود من المعرفة والقوة لرفع كابوس الجهل والضعف عن النفوس وليقابل الشعب قوة الغرب

---

(١) يستعمل الكاتب كلمة (الجنس) بالموضع الذي تستعمل فيه كلمة (العرق) في ايامنا هذه .

(٢) من مقالة « تربيتنا السياسية » رقم ٩

بقوة مماثلة ، وبذلك يتم دفع العدوان وقمع الطغيان •

* * *

هذه الافكار الحرة الاصيلة سبكها الزهراوي في اسلوب سهل متين تظهر عليه آثار الثقافة الدينية واللغوية والادبية الاصيلة كما نلاحظ ذلك في أمثال هذه العبارات التي نجدها في طيات كتاباته كقوله : « إن لنفسه عليه حقاً » و « لكل منهم شأن يغنيه » و « لا هو حي فيرجى ، ولا هو ميت فينسى » ••• الخ ، وفي القول الاول اشارة الى حديث نبوي مشهور ، وفي الثاني آية قرآنية كريمة ، وفي الثالث قول مشهور قيل للخنساء عن شقيقها السقيم •

والزهراوي ذواقة في اختيار المفردات والتراكيب كما نرى في قوله: « فاما استحسان فاقتران ، واما استهجان فابتعاد » ، وكثيرة أمثال هذه العبارات • ونراه أحيانا يسجع الا أن ذلك لا يؤثر في أسلوبه السهل كقوله : « الا ببذل عزائم ، وملاقاة عظائم » • ويرتفع أسلوبه أحيانا الى درجة الجودة الفنية عندما نقرأ له أمثال هذه العبارات : « فاليوم لا عذر لنا بعد أن استيقظ منا الهاجع ، وصحا الوسنان ، ورأينا أنفسنا في مأسدة قد شرهت لبؤاتها ، وتعودت طعم أمثالنا لهواتها » •

على أن ذلك الاسلوب السهل يعمد أحيانا الى الاطالة والتكرار بغية تثبيت المعاني وترسيخ الافكار ويبقى بذلك محافظا على روائه وطلاوته وسهولته •

ويحاول الزهراوي أحيانا أن يفلسف الحياة ويغوص الى أعماقها

لاستخراج العظات بفكر فلسفي يعتمد على الوقائع والتجارب الانسانية الواسعة الا أنه يبقى في حدود الملاحظات العامة • ويميل كذلك الى أن يكون مؤلفا اجتماعيا الى جانب كونه ملاحظا سياسيا ووصافا للاوضاع التي كانت عليها الدولة في عهده ، راغبا تشخيص الداء وذكر الدواء •

والخلاصة فأسلوب الزهراوي أسلوب واقعي فيه صورة المفكر الاجتماعي الذي وصف الحياة التي عاشها ونادى بالاصلاح الذي ينشده، ولذلك جاءت مقالاته مصورة لعصره ولطراز الحكم والتنازع عليه بين الفئات المختلفة بعبارات واقعية تعتمد على التصوير أكثر مما تعتمد على الخيال ، وتعمد الى السهولة أكثر مما تتكلف الزخرف ، وتختار المألوف أكثر مما تميل الى البعيد ، وتترك النفس على سجيتها أكثر مما ترهقها بالتقديم والتأخير ، وحسن الصوغ ، وبليغ الاداء •

ولعله في ذلك كان يعتمد على طبع اصيل يثق به ، وثروة جيدة يغترف منها فهو في غير حاجة الى إمعان الفكر في الصوغ ، وكثرة التنقيب عن المفردات •

يضاف الى هذا أن كتابته في الصحيفة كانت تحمله على هذا النوع من الكتابة السهلة التي تتطلب الاعتماد على السليقة وحسن الإبانة أكثر مما تعتمد على التخير وحسن الصوغ •

ومن هنا نرى عباراته قد جاءت معبرة أفضل تعبير عن آرائه وأفكاره ودعوته المخلصة الجريئة للحياة المثلى النقية للدولة العثمانية بشكل عام،

ولأمته العربية التي كانت ترغب في تدعيم شخصيتها واستقلالها في ظل الخلافة الاسلامية بشكل خاص .

عملنا في هذا الكتاب :

وقد عمدنا من أجل ابراز الكتاب الى المجموع من مقالاته المدونة في جريدة « الحضارة » التي احتفظ أنسباؤه بنسخة وحيدة منها مؤلفة من مجموعتين نشرتا خلال العامين ١٩١١ و ١٩١٢ أولاهما : تضم أعداد « الحضارة » في سنتها الثانية ، وثانيتهما : تضم أعدادها في سنتها الثالثة . أما مجموعة السنة الاولى فلم نعثر عليها .

وقد أشرنا في الهامش الى رقم العدد وتاريخه كما عمدنا الى تقويم بعض الألفاظ وتحقيقها . وجعلنا في القسم الاول من الكتاب المقالات التي تحمل توقيعه الصريح وأكثرها افتتاحيات للجريدة ، ثم جمعنا في قسم ثان المقالات التي هي بتوقيع « س » ونرجح أنها له وإن ظن أنها لصديق حميم له ، كما جمعنا في قسم ثالث المقالات التي لا تحمل توقيعه الصريح وكانت توقع أحيانا بكلمة « عثماني » أو « عثماني حر » ونعتقد أنها له لأنها تحمل طابعه في الكتابة .

ونرجو في الختام أن ينتفع الناس بهذا الكتاب القيم الذي يصوّر لنا جهاد علَم من أعلام العرب والمسلمين في سبيل الحق ، كما يصور لنا أصالة فكره ، وبعد نظره ، وقوة أسلوبه ، في زمان طغى فيه الظلم، وحُفَّت طريق الحرية فيه بالمكاره، فخفتت الألسنة ، واضطربت الضمائر، وأظلمت الآفاق ، حتى قيّض الله لهذه الامة ألسنةً ناطقة ، وقلوبا جريئة،

وأقلاما مستعرة ، فكانت نفثات الاحرار وصيحات الثائرين أنورا هادية، ومعالم مشرقة ، نهضت عليها الامة لتعاود السير في طريق الامجاد والخلـــود .

وحسبنا نحن في صنيعنا من إبراز هذا الكتاب أن نكون في عداد هذا الركب الباني ، والله من وراء القصد .

الدكتور جودة الركابي **الدكتور جميل سلطان**





الشهيد عبد الحميد الزهراوي

تربيتنا السياسيّة

تربيتنا السياسية (*)

— ١ —

أيها القارىء العثماني :

سلام عليك وبركات من الله . إعلم ــ رعاك الله ــ أن موضوع هذه المقالة خاص لك ، كما هو عام في حد ذاته ، فاقرأه بإمعان ، ولا يهولنك طول هذه المقالة ، فان ما فيها عدة مباحث لا مبحث واحد ، وكلها مما يهمك ويعنيك لانك بالطبع تريد لبلادك صلاحاً وفلاحاً ، وتكره لها الخراب والفساد والتأخر عن بلاد الآخرين في العزة والرغد . والذي نكتبه هنا هو شرح لأسباب الصلاح والفساد في بلادنا ، وبيان لحقائق ما هي حكومتهم [1] اليوم وما هو موقفهم أمامها وموقفها أمامهم ، وتفصيل لما هو الأضر والانفع في هذه الابواب والمسالك ليُجتنب الاضر ويؤخذ [2] بالانفع على قدر الامكان .

كيف كانت الحال قبل الدستور ؟ كثيرون يظنون أن الحال التي كانت قبل الدستور لا تزال معروفة ، أما أنا فأؤكد لقرائنا الأعزاء أن تلك الحال قد أصبحت ــ بسبب النسيان الذي هو الغالب ــ مجهولةً ، كما أنها لم تكن معروفةً على وجهها عند كثيرين ، لأن كل أحد كان يعرف قسماً مما هو أشد تعلقا به ، ولذلك كان جمع الناس لا يخلو من كثيرين راضين حقيقة عن مجموع الأحوال ، وحاسبين أن ذلك هو الداخلُ في

(*) جريدة (الحضارة) ــ السنة الثانية ــ العدد ٥٣ (١٣ نيسان ١٩١١)

(١) لعل الضمير عائد الى « الآخرين » الواردة من قبل .

(٢) في الاصل « يأخذ » .

الامكان وخلاصة بذل الجهد ، في حين أن الاكثرين كانوا ناقمين ساخطين متأففين متبرمين مستغيثين • ولذا رأيتُ من المناسب أن أذكر قبل كل شيء في هذا المقال كيف كانت الحال قبل الدستور ، لنجـدد ذكرى التأفف من تلك الحال ونحول بين نفوسنا وبين أولئك الذين لا يفتأون يغتنمون كل فرصة لتحنين النفوس الى محاسن ذلك العهد كلما رأوا سيئة في عهدنا هذا ، فنحن نحب أن نكون عارفين بسيئات هذا العهـد ومنكرين عليها ، وأن نكون مع هذا متذكرين تدهورنا في ذلك العهـد الى هوة العدم • وقبل كل شيء ينبغي أن نتذكر أن الأمة بمجموعها كانت عاجزة عن الانكار على السيئات •

يوجد في عهدنا هذا سيئات كثيرة ولكن ينبغي ألا نغفل عن أن هذه السيئات كلها أثرٌ من آثار الماضي كما سنوضحه ، ولكن السيئة العظمى التي هي غلبة الاستعباد ــ ولا أقول الاستبداد ــ قد زالت بحول الله ، وأعظم ما يجب علينا اليوم هو سدُّ كل المنافذ التي يُخشى أن تعود تلك السيئة من جهتها •

نعم إن الروح الذي كان غالبا في ذلك العهـد هو روح استعبـاد ــ لا روح استبداد بسيط ــ وقد ظهرت مجاليه أيما ظهور بالفعل والاسم معا في كل شيء من حركات الناس وسكناتهم ، حتى أصبح من أبـده الأشياء أن يقول الناس أجمعون : نحن عبيد السلطان ، وعبيد الحكومة، وصار أحبُّ الألقاب الى المقربين لقبُ « العبد الخاص » ، وبديهي أن وصف الخاص هنا للتمييز عن العبودة [1] العمومية ، وحقاً أصبح الناس يعاملون معاملة العبيد، لا تقول هذا مبالغة، فانها ليست من دأبنا كما يعرفه متتبع كلامنا ،وذلك لان العبد هو الذي يصرّف في الأمور كما يهوى سيدة بغير

(١) العبودة والعبودية بمعنى واحد .

قيد وشرط ، وهو الذي لا يملك الا ما يملكه إياه سيده من الأموال، وكل ما بيده هو تحت أمره كل ساعة • ولأجل أن تظهر سلامة هذا القول من المبالغة نورد هنا شيئاً من الأمثلة : فالعسكرية مثلا كانت بحسب الظاهر مربوطة بقوانين ، وفي الحقيقة لا قانون ولا نظام الا ما تصدر به الارادة ، فالضباط لا يتناولون كل شهر ما عيّن لهم لينفقوه على أنفسهم وعيالهم بل تمضي الشهور في الغالب وهم يبذلون ماء الوجه لهذا وذاك ليستقرضوا ما به يعيشون ، واذا طلبوا ما عُين لهم نهرهم الاكبر منهم أو وعدهم فيسكتون ، ثم تضايقهم الحاجة ويعدمون من يقرضهم فيضجون ويستغيثون حتى تتكرم العواطف باعطاء شيء مما عين لهم ، وهكذا الامر مستمر كل هذه السنين المعهودة التي مضت • والافراد من العسكر كانوا يخدمون في تلك العسكرية ثماني سنين وتسع سنين في الغالب ، وأكثرهم لا يفرحون بلباس جديد يناسب الانسان طول هذه المدة ، وبعضهم تأتي عليهم ظروف لا يكفَون فيها ألم الجوع • والمغرمون بالمعارف مثلاً قد حيل بينهم وبين المباحث والكتب الاجتماعية والسياسية وحرّم عليهم اقتناء شيء من تلك الكتب تحريما يؤيده العقاب الشديد اذا وقعت المخالفة • والزراع مثلا حالهم معلومة وان قلتَ إنّ حالهم لم تزل باقية نقول ان ذلك من آثار الماضي وهي لا تزول بسرعة وسهولة • لا تسل عن حال الفلاح المسكين فان الاستعباد قد أناخ عليه بكلكله حتى تركه لا يستفيد من كل متاعبه المتمادية الا أخشن العيش مشوباً بالذلة والمهانة • والصناع مثلا قد تنزلت مكاسبهم مع تزايد نفقاتهم وأنهكتهم تلك العسكرية التي وصفناها حتى أصبح الفلاح الموصوف آنفاً أحسن حالا منهم • والتجار بحسب الظاهر أبعدُ عن هذه الاحوال ، ولكن الذين شاهدوا منهم بلاد الآخرين كانوا يعرفون

الفرق بين البلاد التي تتجلى فيها حقوق الانسان من حيث أنه انسان، وبين البلاد التي يقول أهلها نحن عبيد الحكومـة • ومن أظهر أمثلة العبودة اذ ذاك أن الاموال كانت تؤخذ من الناس بأسماء شتى ، كثير" منها غير مرتبط بقانون مستمر ، ومن تلك الاسماء الاعانات والقروض الجبرية • وأيكم يا معشر القراء ينسى أن الناس كانوا يحبسون اذا امتنعوا عن دفع الاعانات ، فهل تلك إعانات أم أخذ أموال من العبيد بغير قانون تنفيذا للإرادة ؟

أمثلة الاستعباد الذي كان في ذلك العهد كثيرة ، وحسبك بعدما قدمناه من الامثلة أن يلتفت بصرك الى ما امتلك القلـوب من الرهب ومحاذرة كل بحث سياسي يتعلق بشؤون المملكة ومصالحها ، فلقد صار الناس يومئذ يخشون من الجدران ان تنم عليهم فراحوا يتسابقون في الرياء ، والسعيد عند نفسه من رأى أنه أجهرُ الناس وأفصحهم وأبلغهم في مدح ذلك الحاكم المطلق ، واذا تتبعت ما كانوا يعبرون به عن ذلك الرجل يزداد وقوفك على مقدار ذلك الاستعباد وخنوع النفوس أمامه ، ويكفيك من تلك التعابـير قولهـم « وليُ النِّعَم » و « مالك رقاب الامم » •

بعد أن تتذكر كل هذا جيدا ، أحب أن أذكرك بأن الانسان لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئا • وبديهي أن لا عزة مع الاستعباد ، بل أولئك الذين كانوا يظهرون أمام الناس بمظهر الاعزاء كانوا في الحقيقة يتحسرون على العزة أحيانا كثـيرة ، وان علت لهم القصور والشرفات ، لانهم كانوا لا يأمنون على النعيم الذي فتنوا به حتى ينتمـوا الى عظيم من آلات الاستعبـاد ، ولا تسل عن صور استخذائهم وصغارهم أمام ذلك العظيم الذي ينتمي أحدهم اليه ، بل

لقد كان أكثرهم يفوضون الامر كله الى أولئك العظماء ، ويجعلون لهم التصرف المطلق عليهم ، كل هذا ليغتنموا حماية يصونون بها ـ على رأيهم ـ نفوذهم من سطوة الولاة والمتصرفين ، فما بالك بسائر الناس الذين لم يكونوا يتوصلون الى الأعاظم ؟ لعمرك ان أولئك الذين لا حامي لهم قد أصبحوا مع الاستعباد يكرهون الحياة كلما أخذتهم هِزَّةٌ من حبِّ الشرف وعزة النفس ، وهذا مايدعونا أن نسمي الاستعباد بالسيئة العظمى ، وهذا ما يحملنا أن نذكّر بعهدهم كثيرا لنعرف النعمة التي انتقلنا اليها فنشكرها ، ولنقاوم كل روح فيها شبه أو قرابة من تلك الروح التي جرَّت ذلك الاستعباد ، ولا يجرُّ الاستعباد سوى الاستعداد ، فوجِّه لي نظرك الى هذه الكلمة واترك لي الآن نغمة الاستبداد .

الاستعداد للامم هو كالاستعداد الذي للفرد ، هو الذي يرفع وهو الذي يحط ، هو الذي يجمع وهو الذي يفرق ، هو الذي يعمر وهو الذي يدمر ، هو الذي يثمر العز وهو الذي يثمر الذل .

لسنا في الوجود أمةً لم يسبق لها أمثال ، بل قد خلت من قبلنا أممٌ تنوعت أطوارها ، وفي كل أمة عبر قد نقشت على جبين الدهر ، وتسلسلت أحاديثها في صدور العقلاء الذين يتذكرون ، وقد علمنا من هذه الاحاديث التي لها سند الى سنن الكون لا ينقطع كيف تكونت الجماعات والامم بعد أن لم تكن متجمعة ومرتبطة برابطة واحدة ، وعرفنا كيف استحوذ بعض الافراد على الافكار في الجماعات والامم حتى أصبحوا فيها مسيطرين ونافذي الامر ، ووقفنا على أسرار القوة وما تصنعه وأسباب تكونها وأشكال خنوع الناس لها ، وكيف تنصر الحق ظاهراً وباطنا وكيف يظن الناس أنها تخذل الحق ، فوجدنا الاستعداد هو ملاك الامر في هذه الاشياء كلها ، وأنعمنا النظر في الاستعداد فاذا

هو باذن الله ونظام تدبيره يقبل الامتزاج وتجري عليه أحكام التربية ، ولهمم النفوس فيه مجال يظهر فيه نقشها وطبعها ، ومن ههنا كان لارسال الرسل عليهم السلام فائدة لا يحمل منكريها على الجحود الا نوع من الجمود ، ومن ههنا لم يجد الحكماء والمصلحون من العبث أن يقوموا بين أقوامهم بالنصح والارشاد ، وكم في بطون الاسفار وأمام الأسماع والأبصار من الشواهد البينة على تأثير ما شغلوا به أنفسهم من إعداد أممهم الى ما هو الاصلح ، ولأجل هذا نحب من قارئنا أن يتنبه لانتقالنا الى الشكل الجديد في الحكومة وينعم النظر هل نحن على استعدادنا الأول أم حدث فيه شيء من التغير وما هي حالنا اليوم ؟

* * *

كيف زال الاستعباد ؟

انظر أيها العزيز الى هذه الأمة العثمانية التي تقدم لك وصف موقفها مع ذلك الاستعباد الحائق بأفرادها ومجموعها وظلت ترسف في قيوده عمراً من السنين ، هذه قد أتاحت لها الايام الخلاص من تلك الأغلال ونالت من تيسير الله تعالى نعمة « الدستور » والحكم النيابي ، هـذه نفضت عن وجهها غبارا من الماضي كان قد أرهقها ، هذه استطاعت بعد كل ما حاق بها من الرهب أن تنادي وتصيح قائلة أريد « الحرية » وقد فازت وأفلحت ونوديت أن دونك ما تطلبين وتريدين .

سيقول قائل ان الأمة ليست هي التي رفعت صوتها ونادت مطالبة بهذه الحرية ، وإنما أولئك أفراد قوي إحساسهم بوجوب هذا النداء ، وقوي عزمهم على النهوض الى هذا المطلب ، غير حاسبين حساباً للعوائق التي كان الناس يكبرون أمرها في خيالاتهم . فلما أقدموا على عملهم

تبين أن تلك العوائق سواء كانت كبيرة في حد ذاتها أم صغيرة تخضع لنواميس الاجتماع وتتضاءل أمام القوة اذا تألفت ونمت ، وتأليف هذه القوة لم يقم في فكر الأمة بل في أفكار اولئك الافراد من الضباط الذين في سلانيك ومناستر [1] .

نحن يمكننا أن نسلم لهذا القول كيلا تطول المحاورة ولكنا مع هذا نطلب من قائله وصاحبه أن يوافقنا على أمر يظهر له بأقل تأمل ، وهو أن الامم ليست الا عبارة عن مجموع أفراد ، وأن كل الأعمال التي تعمل في الامم فانما يعملها أفراد ، وأن استعداد الافراد هو من رزق الامم واستعداد الامم يظهر بواسطة الافراد ، وبيسير من النظر يظهر أنه لولا نفاد صبر الامة على الاستعباد لتعسر سريان الروح التي بواسطتها تألفت تلك القوة ، ولولا اشتياق جمهور الامة الى نسيم العتق من ذلك الرق لما كانت تلك الشجاعة التي أظهرها أولئك الافراد كافية لانتاج تلك النتيجة التي شوهدت في أيام الانقلاب : أعني اشتراك الناس كلهم بالفرح والانبساط الذي أدهش حزب الاستعباد أجمعين فسكنوا خاضعين ، على أننا اذا قلنا ان الفكرة الاولى في تقويض الاستعباد قد وجدت عند أفراد فليس يصح أن نقول ان المنادين بطلب الحرية كانوا أفرادا بل هم كانوا من غير ما ريب جمعاً عظيماً من الامة ، في مقدمتهم ألوف من ضباط وعسكر قد فهموا ما ألقى اليهم الضباط من الخطر على الوطن اذا لم يعلن القانون الاساسي . وقد كان فهم ذلك صعبا على العسكر قبل أن يحدث هذا الاستعداد الجديد في الأمة .

---

(١) يشير الى ضباط الانقلاب العثماني الذين توجهوا من هاتين المدينتين الى استامبول .

وكان من وراء الضباط حشد كبير من مفكري الامة في الروم إيلي والآستانة نفسها ينادون هذا النداء نفسه .

ولا تحسبنّ أن مفكري الامة من سورية وغيرها من البلاد العربية كانوا متأخرين عن هذه الحركة الفكرية السياسية التي انبجست يوما من الايام دفعة واحدة ، كلا بل كان منهم عدد كبير مع الجيشين القلمي والسيفي، في كل مواطن هذا الجهاد السياسي في أوربا ومصر والروم إيلي وآستانة وسائر الولايات ، سواء كان ذلك في الجمعيـة الاتحاديـة الأخيرة أم في الجمعية الاتحادية الاولى أم في جمعيات اخرى . فهكذا زال الاستعباد لما حدث في الامة استعداد جديد لمقاومته ، وسرت روح مقاومته من رأس الى رأس حتى جاء وقت تجلي الاتحاد على العمل جهرا بعد أن كان الافراد يهمسون همساً في الآستانة والولايات ، وهكذا حل الدستور والحكم النيابي محل الحكم المطلق .

كيف الحال بعد الدستور ؟

قد علمت أيها القارىء العزيز أن شيئا من التغير في استعداد هذه الامة قد وقع ، وإن سألت عن أسباب ذلك فهي شتى لا تتمكن من تفصيلها في هذه المقالة . ولكن لا تظن أن المقدار الذي حدث من التغير هو مقدار كبير ، كلا بل يمكنك أن تحصره بنفاد الصبر على الاستعباد ، وأما الاخلاق الاخرى التي كانت قد تفشت في العهد الاخير بصورة هائلة فلا يزال أكثرها ظاهرا تمام الظهور ، ولهذا يرتفع اليوم من آفاق الامة صدى شكاية وتأفف ، ولكن لا يشكو اليوم سائر الطبقات كما كان الامر بالامس ، على أن الشكوى من بني آدم لا تزول ما دام بنو آدم ، لأن كل شيء من القوانين والاصطلاحات يحتال عليها

بنو آدم الذين في طبع جمهورهم وأكثرهم حب الاثرة والاستبداد على الاضعف ، والحيلة والخداع في تحصيل هوى النفس •

نعم لا تزول الشكوى فان كل شيء في هذه الحياة الاجتماعية والسياسية يناط بالاشخاص ، والكفاءة التامة نادرة ، والعصمة من النواقص كلها مفقودة ، فمن كان قد حسب أن الدستور يعمر الدنيا ، ويصحح أخلاق الموظفين وغير الموظفين ، ويعطي قوة عظيمة أمام الاجانب ويشفي الإخاء الوطني من مرضه ، كل ذلك في يوم أو أسبوع أو عام أو عامين فانه قد ظن خطأ وسها في الحساب • كلا بل يجب أن نعرف أن الدستور أو الحكم النيابي انما هو المنهاج اللائق والمناسب لحقوق الإنسان من حيث أنه انسان ، سواء وصل القوم به الى ازالة الشكوى أم لم يصلوا ، هذا بالدرجة الاولى من النظر ، ثم في الدرجة الثانية نجد أن غيرنا من الناس قد وصلوا بهذا المنهاج الى مالم يصلوا بغيره اليه من المظاهر اللائقة بالانسان : مظاهر العزة والرفعة والإخاء الوطني والمساواة في الحقوق والطموح في المساواة الى ماهو أبهى من الحاضر منظرا وفوق ذلك مظهرا • فنحن نرجو لهذه الامة ما ناله غيرها من ثمرات الدستور والحكم النيابي ، بيد أننا لا نطمع أن تنضج وتينع هذه الثمرات في وقت أقصر مما هو مقدر لنضج أمثالها ، واذا رأينا اليوم مشابهة بين بعض الاحوال اليوم والاحوال التي كانت بالامس فالواجب فيها عندي على الكتاب والعقلاء ثلاثة امور : الاول ألا يكتموها كما يحاول بعضهم في كثير من الاشياء ، وعبثا يحاولون ، ومن كتم داءه قتله ؛ والثاني أن يقاوموا مصدرها ومنبعها جهد طاقتهم ؛ والثالث أن يفندوا مزاعم من يريدون القاء تبعتها على طبيعة الدستور والحكم النيابي في بلاد العثمانيين ناسين أو متناسين طول تأثير العهد الماضي •

الجماعات في عهد الدستور :

وبعد كل الذي تقدم يجب أن نوجه النظر الآن الى أمر شأنه عظيم ، وهو في الحقيقة مرمى الفكر في هذه المقالة الجامعة ، ذلك هو أن من طبيعة هذا المنهاج الجديد انهماك كثير من الناس في السياسة ، وهذا لان المجال للتكلم يتسع فيكثر الكلام في حقوق الافراد والجماعات والبلاد والاقاليم وتنفتح بذلك أبواب للجرائد التي تدعو حينئذ أسباب متعددة لكثرتها ، وأكثر ما يشغل الجرائد والافكار حينئذ أخبار الجماعات وتصاريف أمورها .

إن تكوّن الجماعات وتعددها وتناظرها وتسابقها أمور قضت بها سنة الفاطر المبدع سبحانه منذ خلق النوع وتناسل . وقد ربط كل واحد من هذه الامور الاربعة بأسباب تعاد وتتسلسل دائما ولا تنقطع أبدا ، فلأجل هذا ينبغي أن نخفف تأففنا من تحمل أعباء ما هنالك من التناظر والتسابق ، لان هذا أحد الشروط الطبيعية للحياة ، فكما لا يحسن التأفف من تحمل أعباء ما يسد به الجوع مثلا لا يحسن أيضا التأفف من تحمل أعباء ما به كفالة عزة النفوس ، وذلك انما يكون بتكوين قوة وهي انما توجد بالاجتماع والتعاون ، وهذا هو الذي لأجله تصير الجماعة جماعة والى هذا الاشارة بالقول النبوي الشريف « يد الله مع الجماعة » (١) .

ونحن ، معشر العثمانيين ، بالنظرة الاولى جماعة واحدة ؛ ولكن باعتبار أن الارتباط بين الحاضر والماضي دائم الاتصال وباعتبار أن

---

(١) الرواية : « يد الله على الجماعة » .

التخالف بالأفكار من طبيعة البشر كالتخالف بالصور تجدنا بالنظرة الثانية جماعات متعددة • فباعتبار الدين مثلا نحن جماعات نعد لا جماعة واحدة، وباعتبار اللسان نحن جماعات ، وباعتبار الاقليم نحن جماعات ، وباعتبار المسلك الاجتماعي والسياسي نحن جماعات •

والذي يستدعي النظر في هذه الجامعات أمران : الأول أن كل واحدة منها لا تنافي الاخرى اذا نظفت العقول وصلحت التربية ، أما اذا لم تصف العقول وتصلح التربية فان المنافاة تحدث وتقلق حينئذ نتائجها ؛ والامر الثاني هو أنها ان تركت هذه الجامعات وشأنها على سذاجة سيرها يكثر الشقاق في التسابق الذي هو طبيعي كما قدمنا ويختل نظام أكثر المتسابقين ، فتضعف قوى بعضهم وبذلك يسري قدر من الضعف الى القوة العمومية اللازمة للجامعة العمومية أعني « العثمانية » • فلأجل علاج هذا التفرق الطبيعي وتسييره على نظام نافع مثمر ثمرات جميلة للجامعة العمومية أصبحت كل جماعة في حاجة الى ما يسمونه « التربية السياسية » لان طريقة الحكم قد تغيرت ، وبعد أن كانت السياسة في يد رجل واحد وأهل بلاطه أصبح للامة حظ من النظر في السياسة ، وما الامة الا جماعاتها •

❋ ❋ ❋

في العدد الآتي تتم هذا الموضوع ان شاء الله تعالى ، أما الآن فنقول انا انما أنشأنا « الحضارة » لتكون مجالا لأفكار العقلاء من جماعتنا « العرب » فيما يتعلق بتربيتنا السياسية ، وبهذا العدد قد دخلت « الحضارة » في سنتها الثانية تقدم لقرائها الاعزاء شكرا على المؤازرة وسلاما •

تربيتنا السياسية (*)

— ٢ —

قلنا في أواخر مقالتنا السابقة ما خلاصته : إننا معشر العثمانيين جماعات متعددة ، وإن كل واحدة من جامعاتنا لا تنـافي الأخرى اذا نظفت العقول وصلحت التربية ، ولكن اذا تركت الجامعات وشأنها على سذاجة سيرها لا تكون النتائج حسنة ، وانه لأجل هذا أصبحت كل جماعة في حاجة الى ما يسمونه « التربية السياسية » ، لأن طريقة الحكم قد تغيرت وأصبحت الامة شريكة في السياسة بعد أن لم يكن لها شيء من هذا الامر ، وما هذه الامة الا مجموع جماعات ، ووعدنا أن تتمّ الموضوع في هذا العدد .

نبين الآن سبب احتياج كل جماعة منـا ، معشر العثمانيـين ، الى « التربية السياسية » ؛ ونبين الطرق التي ينبغي أن نسلكها والوسائل التي يحسن بنا الاخذ بها ، ونذكر أوصاف القائمين بالتربية السياسية ، ولهذه المباحث فروع كثيرة يأتي بعضها في هذه النبذة وتترك بعضها الى وقت آخر .

الاتحـاد :

قبل كل شيء نتكلم قليلا في « الاتحاد » فانه أول ما يتبادر اليه

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٥٤ (٢٠ نيسان ١٩١١) .

الذهن من العلاجات لامراض العثمانيين ، ولذا كثر القول فيه منذ صار الانقلاب وأصبح موضوعه مما يستحق العناية • وقد كتبنا في السنة الماضية فصولا كثيرة شرحنا فيها رأينا في الاتحاد ، وأنه أمنية الجميع وأن بعض الناس أساءوا تفسيره وتأويله لما كلفوا الجماعات به ، وأن الطريقة التي سلكوها لم تؤد اليه بل الى ضده ، ونرى اليوم من الواجب أن نعيد ذلك الشرح الآن بصورة أوسع وأجلى لان موضوع الاتحاد من أقرب الموضوعات الى « تربيتنا السياسية » •

يقول بعض الناس ان الاتحاد شيء جميل يزيد القوة ويزيل أسباب الضعف ويسر الانسانية باحياء روابط الاخاء ويعلي كلمة المدنية بتعاضد الاقوام المختلفة في اقامة نظام الاجتماع على أحسن مثال • هذا القول جميل ولكن اذا بقي على إطلاقه لا يفهم منه شيء ولا تحصل منه الفائدة المطلوبة ، لان الجماعات من البشر قد صنعت أنواعا من الاتحاد ألوفاً من المرات حتى يومنا هذا فينبغي اذا قلنا « الاتحـــاد » أودعونا الى « الاتحاد » أن تتبعه بتفسير وشرح يفهم منه نوعه وصفته ، فحينئذ يكون للنظر والبحث مجال فاما استحسان فاقتراب ، واما استهجـــان فابتعـــاد •

الاتحاد في الاصل هو صيرورة الاشياء المتعددة شيئا واحدا ، وهو على أنواع كثيرة فمنه ما يكون الاتحاد فيه تاما حتى يغيب أثر التعدد ، ومنها ما يبقى فيها أثر للاجزاء كلها مع غلبة لأحد الاجزاء أو تساو فيها ، والاتحادات السياسية والاجتماعية ليست الا على هذا النمط من التنوع ، ومن المعلوم أن كل شيء لا يكون الا بسبب ، ولدى التأمل نجد للاتحادات البشرية ــ من حيث هي ــ ثلاثة أسباب : الاول سائق الدين ، الثاني سائق الاسر والقسر والاضطرار ، الثالث داعي الاحتيـــاجات المدنيـــة

والعمرانية • فلا نبحث هنا عن سائق القسر والاضطرار لانه من الحالات المستثناة التي لا تحوم حولها أفكار المفكرين ولا تحتمل قياسات المستبصرين ، ولا نبحث أيضا هنا عن سائق الدين لوجوه كثيرة من أهمها أننا مع تسليمنا بأن الدين داع عظيم الى الاتحاد لا نأمل أن نستطيع فيه خرق السنة الكونية الجارية من عهد الفاروق الى عهدنا هذا ، وانما نبحث على الداعي الثالث داعي الاحتياجات المدنيةوالعمرانية ولكن قبل أن نفيض فيه نذكر للقارىء أن فئة من الاغرار قد تفهمُ أو قد يلقى اليها أن المقصود المدعوٌ اليه إنما هو اتحاد المسلمين العثمانيين ، وفئةٌ أخرى قد تفهم أو قد يلقى اليها أن المقصود المدعو اليه هو اتحاد الترك ؛ فنحن ابتداء من هذه النقطة نقول لهؤلاء وهؤلاء لا كلام لنا معكم وانما كلامنا في مسألة الاتحاد مع الذين يقولون نحن مدنيون • ونوضح كلامنا فنقول نحن مسلمون ولكنا لا نريد اتحادا يكون خارجه أبناءُ وطننا من غير المسلمين ، ونحن عثمانيون ولكن لا نريد اتحاداً يكون خارجه كل أبناء الوطن من غير الترك • نقول هذا من أول وهلة ثم ندخل في أصل الموضوع وهو داعي الاحتياجات المدنية والعمرانية •

نعم ان هذا الداعي يدعونا ، معشر العثمانيين ، بحق لا جدال ولا خلاف فيه الى الاتحاد ، ولكن الاتحاد المفيد الذي يدعونا اليه هو من النوع الذي يكون فيه للأجزاء والعناصر العثمانية شيء من الظهور ، وليس هو من النوع الذي لا ترضى بعض الاجزاء فيه الا أن تلاشي في جانب ظهورها سائر الاجزاء الاخرى • تفسير هذا الكلام بغاية الصراحة : أن الاتحاد النافع هو الذي يبقى فيه العربي مثلا عربياً ، والرومي رومياً ، والالباني ألبانيا ، ولا يسيء أحد بأحد الظنٌ حين يريد خدمة لسانه ، ويسعى في ترقية أفكار قومه ، ويظهر تمنيه بأن

يكثر بينهم العلماء والادباء ، وأن يتعارف شعبه فيما بينهم ويتعاضدوا على ما به تحسين أحوالهم الاجتماعية ، سواء فعل ذلك العرب أم الارمن أم الترك أم الكرد أم الجركس أم الروم أم الارناؤوط . وأما الاتحاد الذي يراد به أن ينسي العناصر أصلهم ويتغافلوا عن لسانهم وذوي قرباهم في اللسان والاقليم فهو اتحاد لا أقول الآن شيئا من جهة نفعه وضرره ، وانما أقول انه في هذا العصر قريب من المحال ، لان قسر الناس عليه غير متيسر ، ولا يأمر بمثله دين من الاديان القديمة المعروفة ، ولا يرجى أن ينتشر بسرعة دين جديد يلتزم مثل هذا النوع من الاتحاد . وأقول أيضا اذا كان الاتحاد لاجل الوطن فالرجل الذي يستطيع أن ينسى قومه وقوميته لا يأمنه على الوطنية الا أحمق ، فان من لا قوم له لا وطن له ، ومن ينسى أهله فهو ناس وطنه قبل ذلك .

الاتحاد جميل ولكن ينبغي أن ننظر فيما هو الاسهل والاقرب حصولا من أنواعه ونأخذ به ، وأما النوع الشديد الصعوبة فان الاشتغال به فيه مضيعة للوقت ، ويخشى أن يؤدي الى نتائج هي عكس المطلوب .

الاتحاد أمنية كل عقلاء العثمانيين ، ولكن العقلاء يعلمون أن الاشياء لا تنال بالتمني والاحلام والالفاظ والاسماء بل يتوقف تحصيلها على علوم وأعمال وهمم وأزمان ، ويتقاضى من طلابه ومريديه صحة عزائم واخلاص سرائر وتساهلا مع الاخ المساعد اذا لم يتنازل عن أنانية جنسيته .

الاتحاد الاسهل والاقرب حصولا هو تزايد المحبة والمودة بين العناصر العثمانية المتعددة المتباينة في الانانيات ، وانتباههم أجمعين لاعلاء شأن الوطن ، واحترام كل عنصر من العناصر إخوانه الآخرين ،

وتذكره اشتراكهم بسائر الحقوق السياسية ، وخروج كلمـة العنصر الحاكم من الافكار لا من قاموس السياسة فقط • ولا يقتضي هـذا الاتحاد الجميل أن يكون أعضاء مجلس المبعوثان كلهم على فكر واحد تديرهم سياسة حزب واحد ، ولا يقتضي أيضا أن يوصم كل من لم يدخل تحت عنوان « الاتحاد » بأنه يريد الافتراق وان كان لا يريد الا اعتلاء شأن هذا الوطن ، ولا يقتضي أيضا أن يحرم من كل معونة أدبية وسياسية من يبحث عن أحوال قومه ، مع أن قومه جزء ذلك الكل الذي اليه مرجع الجميع • وأما الاتحاد الشديد الصعوبة فهو ما يراد به أن يتنازل التركي مثلا عن تركيته أو العربي مثلا عن عربيته لأجل خاطر « الاتحاد » ، فهل فهم الآن دلائلو « الاتحاد » ؟ •

بحق عظيم أقول هذا الكلام لانني منذ خمس عشرة سنة أي منذ ولجت هذه الابواب أسعى للاتحاد معروفا فيه ، ولا أزال أسعى لـه ما دام في رأسي العقل الذي يفهم أن الاتحاد قوة للعثمانية وأن تقوية العثمانية هو الذي يسر أرواح الاسلاف ونفوس المعاصرين والاخلاف ، وهؤلاء هم الذين بيني وبينهم الحساب •

تربيتنا السياسية (*)

— ٣ —

بعدما أوضحنا في المقالة السابقة ما يجب ايضاحه في الاتحاد ، نظن أنه لم يبق مقال لقائل الا أن يكون مكابرا ، وانما بقي لنا نحن كلمة واحدة في ذلك المبحث ، وهو أن الاتحاد العمومي لا يرسخ أساسه حتى تقوى التربية السياسية عند كل جماعة من جماعات العثمانيين ، وحتى تأخذ كل جماعة بنصيب من الاتحاد فيما بينها ، فالذين يفزعون من تعارف كل شعب واتحادهم فيما بينهم والذين يقاومون هذه الطريقة هم في نظرنا اما قصار النظر في المسائل الاجتماعية والسياسية واما سيئو النية ، والا فماذا تأمل الجامعة العثمانية من أفراد قليلين يدخلون في غمار الجمعيات التي تنادي وتدعو الى الاتحاد اذا كان أكثر الافراد في أممهم يغلب عليهم الاهمال وعدم المبالاة ، وبسبب ذلك يكونون مستعدين من حيث لا يشعرون لقبول أنواع شتى من الاراجيف والاخاديع .

الروح العمومية في كل جماعة :

فَلِما تقدم نرى أن أجدر شيء بأن تتوجه اليه الابصار هو أمر الروح العمومية في كل جماعة ، وذلك أن كل جماعة فيها شيء من الحياة يكون شائعا فيها مؤثر تحس به نفوس الافراد يسمى على موجب هذه

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٥٥ (٢٧ نيسان ١٩١١) .

الاصطلاحات بالروح العمومية ، أما الجماعة التي ليس فيها أثر من الروح العمومية فهي الى الموت أقرب منها الى الحياة ، ثم على نسبة قوة الروح العمومية في الجماعات تكون درجات حياتها ، وعلى نسبة حياة الجماعات تكون درجات الحياة للامة العظمى التي تتكون منها •

لو كان النوع الانساني طليقا من الروابط الاجتماعية لما كانت حاله أحسن مما أتته به هذه الروابط ، فانها أتته بأصول الاخلاق التي رفعت من شأنه الى هذه الدرجات الحاضرة ، ولو لم يكن لهذه الروابط الا يدها الطولى في إرجاع الرغبة والرهبة دائما الى حدود الاعتدال بقدر الامكان لكان ذلك كافيا أن نعرف مقدار فضلها علينا ، ولذلك لا يجوز أن تتأفف من واحدة منها بل يجب العناية بها ودرس طبائعها وحسن السلوك الى استخراج نتائجها • وبديهي أن القومية هي من الروابط الاولى التي نفعت النوع ولا تزال تنفعه ، فالالتفات الى الروح العمومية في الاقوام على انفرادها هو عندي التفات أيضا الى المنافع العامة في الاقوام المتجمعة ، لاننا ما دمنا عاجزين عن جعل البشر جماعة واحدة يكون الأولى للبشر أن تتحسن حال كل جماعة منهم •

الجماعات التي لها وجود ولكن لا روح عمومية فيها تكون لاحية فترجى ولا ميتة فتنسى ، وتكون أشبه شيء بالاعضاء المشوهة في الجسم ، والجماعات التي روحها العمومية غير مطهرة من أوضار الجاهلية، أو غير مؤيدة بقوة الحق والانصاف ، أو غير مفعمة شوقاً الى المعالي وحرارة في المباراة ، أو غير مرزوقة مصابيح من عقول النوابغ وعرى من عزائم المخلصين ، يكون لها تيه طويل في أودية الفوضى ، وتخبط كثير على صخور المصائب ؛ ويفرح بحالها حينئذ أفراد من البشر يخيل اليهم أن فائدتهم بضلال الناس عن مصالحهم ، ولكن للجامعة العظمى

(الانسانية) أمام أحوال هذه الجماعات المتخبطة أنين وبكاء لا يسمعه ولا يبصره الا قليل من الصدور والبصائر •

من عرف هذا وكان مخلصا بعيد النظر سره كل ارتقاء لاية جماعة كانت ولا سيما جماعته ، وأحزنه كل تسفل لأية جماعة كانت ولا سيما جماعته ، وانما يكون سرور المخلص بارتقاء جماعته أكثر لانه يجد بذلك أملا أوسع لما يوده من السعي لمصلحة الآخرين ، وان أحد أصر على أن يسمي هذا تعصبا وحب نفس فلا يجزعن المخلص لان التعصب وحب النفس ليسا مذمومين على اطلاقهما بل منهما ما يصح أن نسميه قوام الانسانية •

قد وصلت معنا ، أيها القارىء العزيز ، الى هذه النقطة الخطيرة من هذا المقال وههنا ستسمع تفاصيل وافية في التعصب وحب النفس فتضع يدك على شيء تقول هذا « من تربيتنا السياسية » التي ينبغي أن تقوم معها وتقوم معنا ، وسيطلع عليك هذا في العدد الآتي ان شاء الله تعالى •



تربيتنا السياسية (*)

— ٤ —

حب الذات وحب الغير

« من كان مخلصا بعيد النظر سره كل ارتقاء لأية جماعة كانت ولا سيما جماعته ، وأحزنه كل تسفل لاية جماعة كانت ولا سيما جماعته » .

هذا ما قلناه في نتيجة النبذة الماضية ، وقد خشينا أن يعترض أحد على زيادة فرح المرء بارتقاء جماعته وأن تكون حجة المعترض أن هذا من حب الذات والتعصب ، فقلنا هناك « ليس حب النفس والتعصب مذمومين على اطلاقهما » ووعدنا أن نأتي في هذا العدد بتفاصيل وافية لحب النفس والتعصب .

اذا أردت أن تضايق المنكرين على حب الذات فقل لهم إن كان هذا مكروها منكرا وجب أن يكون ضده مستحسنا مطلوبا ، وليس لحب النفس من ضد الا كرهها ، والكاره مولع بالاساءة ، وأعظم إساءات المرء لنفسه كرهه الحق وابغاضه الصالحات وتبعيده نفسه عن الخير في الدنيا وعن الحضرة القدسية في الآخرة ، وحينئذ لا يكون ممدوحا لديكم الا الذين يعملون الشر لاجل أن يسيئوا الى أنفسهم .

واذا أردت أن ترحمهم وتخلصهم مما يأتي عليهم من مثل هذه الصوادم لاصطلاحهم ، فاستخرج لهم من نيتهم بيانا لمقصودهم ، وقل لهم أنتم

---

* جريدة (الحضارة) ٥٦/٢ (٤ مايس ١٩١١) .

تريدون بإنكاركم حب الذات انكار الافراط والخطأ في طريقته ، ولا شك في أن الخطأ في طريقته مهلك ، ولكن هل تكون الاغذية مذمومة بكون بعض الناس يفرطون بها ويسلكون فيها طرائق رديئة ؟ فالأجدر بكم أن تتزحزحوا عن هذا الاصطلاح الذي يمجه التحقيـــق ، فمتى تزحزحتم عنه قليلا يلوح لكم حينئذ أن التنفير من حب النفس على الاطلاق هو كالتنفير من غذاء معروف بوضع كلمة السم مثلا علما عليه ، وهي طريقة لا تأتي بشيء سوى زيادة كلمة اصطلاحية في قاموس اللغو .

أجل ان حب المرء نفسه مثله كمثل الغذاء من وجوه كثيرة ، فكما أن سنة الفاطر البديع جل شأنه قد اقتضت ان يناط قيام الجسم بتغذيه، هكذا اقتضت هذه السنة الحكيمة أن يناط قيام النوع الانساني وارتقاؤه بحب الناس أنفسهم . وكما أن الجسم يفسد كيانه بترك الغذاء البتة ، هكذا يفسد كيان النوع وكيان الانسانية بابغاض الناس أنفسهم ، لان مبغضي أنفسهم لا يحفلون بعمل ، ثم كما أن الجسم يفسده أخذ المقادير الزائدة جدا عن حاجة الجسم من الغذاء ، هكذا يفسد المرء بالافراط في حب النفس . وكما أن الجسم المحتاج الى الغذاء هو لاشيء بالنسبة الى الروح ولكن بينهما ارتباط ، هكذا المصلحة الانسانية المحتاجة الى حب النفس هي لا شيء بالنسبة الى اقامة أمر الله ، سبحانه ، وسنته وحكمته ولكن بينهما ارتباط . وكما أن الاغذية مختلفة شكلا وطعما وأثرا وبعضها حسن وبعضها رديء بالاجمال ، هكذا حب النفس مختلف الصور باختلاف الآخذين به فمنه المقبول ومنه الممجوج ، ومنه حسن الاثر ومنه رديئه .

ما أظن القارىء بعد سماعه هذا التمثيل الواضح المحكم يبقى في نفسه ميل الى اتخاذ « حب النفس » عَلَماً على الشر والفساد وانما الذي يبقى في نفسه هو الحرص على معرفة تفاصيل المقبول منه والممجوج

والحسن أثرا والرديء ، وقبل كل شيء نشير هنا الى الخطأ في ظن أن حب النفس لا يقتضي حب الغير أو ظن أنه يقتضي ابغاض الغير ، ونذكر أولي الفكر السليم بأنه لا يتم حب النفس الا بحب الغير .

نعم إن المشروع والمقبول منه يقتضي أن يحب صاحبه جميع البشر أولا ، ومعنى حبه إياهم هو حب ارتقائهم وصلاحهم وازدياد معارفهم وابتعادهم عن التذابح والتناكر واقترابهم من التواد والتعارف ، وذلك لأن في تقدم البشر على هذه الصورة حظا طيبا للشخص الكائن معهم . ثم يقتضي هذا المشروع المقبول أن يحب صاحبه الاقرب فالاقرب اليه من البشر ، وهذا لا غضاضة فيه لانه كلما كان بين المرء وغيره شيء من القرابة ــ قرابة العشيرة أو قرابة السكن أو قرابة الفكر والقلب ــ كانت أسباب التعارف بينهما أكثر . والتعارف بريد التعاطف . وليس معنى هذا أن محب نفسه لا يبغض أحدا البتة ، كلا بل معناه انه لا يبغض أحداً لانه بعيد عنه شيئا من البعدبل اذا أبغض أحداً فانما يبغضه لانه مؤذ على زعمه له أو لبني نوعه ، وتكون درجة الكره على نسبة قرابة من آذاهم البغيض .

ونعني بالمشروع المقبول من حب النفس ما ليس فيـــه إفراط ولا تفريط ، فان التفريط قد يسوق الى خمول لا يرضى عنه الباريء الذي عظّم من شأن النفس وحب القريب ، والافراط قد يسوق الى أنانية تريد أن تملأ الدنيا وحدها في حين أن المبدع عز وجل قد سبقت حكمته بوضع الحاجة والنقص في عنق كل شخص ، وجعل سؤله وكماله عند غيره وكمال غيره عند آخر وهلم جرا . فليعلم المسكين الذي قد أتخمته الانانية أن الدنياليستلشخصأوقوموأنلهذهالتخمة رائحة كريهة يشمها العشير ويتأذى بهـا ويصبح كارهاً له من أجلها ، وليعلم أن الخالق العظيم قد خلق غـيره مثلما خلقه ، ولم يخلق ذلك الغير عبثا ، ولم

يجعله مباينا له سدى ، ثم ليعلم أخو التفريط أن لنفسه عليه حقا ، ولأهله عليه حقا ، ولبلده عليه حقا ، ولدينه عليه حقا ، وليعلم أن الباريء قد برأه مثل غيره ولم يخلقه عبثاً فلا يجوز أن يهمل نفسه ويغدو كأنه ليس بموجود ، فانه إذا كثر في أمة أفراد من ذلك القبيل تصبح أرذل الامم والعياذ بالله .

وبعد فان حب النفس أصل يتفرع عنه فروع ونتائج فالمقبول منه تكون فروعه على مثاله ، والممجوج الرديء يكون نتاجه على نحوه ، فحب الحق وحب العلوم والمعارف ، وحب البدائع الكونية والصناعية ، وحب السلام بين البشر ، وحب المرء أهله وقومه والأقرب فالأقرب إليه من جميع الأنس كل ذلك من فروع حب النفس المقبول . أما نتائج الرديء من حب النفس فهو كحب البطالة ، وكحب السيطرة بغير حد .

التعصب :

والتعصب من فروع حب النفس فهو يكون على نسبة الاصل الذي ينتج منه ، ومن هذا يعلم القاريء أن التعصب ليس مذموما على اطلاقه بل منه ممدوح ومنه مذموم كما هو الشأن في حب النفس .

التعصب في اللغة هو التجمع للتعاون ، ثم أخذ من الاصطلاح معنى التشدد فيما يعتقده المرء ، ثم أشربه بعض كتاب عصرنا معنى البغضاء للمخالف والتحامل عليه وعدم إنصافه ، ولا شك في ان التعصب بالمعنى الأخير مذموم ولكن لا يجوز أن نحصر التعصب كله بهذا المعنى ولا أن ننسب العيب فيه الى طبيعة التعصب لكي لا تضل بعض الفهوم ويسرى اليها أن كل أخذٍ بجامعة من الجامعات ورابطة من الروابط مذموم لأنه تعصب .

نعم إن الأخذ بجامعة من الجوامع ورابطة من الروابط هو من

التعصب ولكن ليس هو بمذموم ، بل الانسانية التي ظهرت بهذه المجالي حتى الآن قد ظهرت مع هذه الروابط ، بل قامت بهذه الجواذب . وما سمعناه في تاريخ الشعوب الى يومنا هذا من البغضاء والتذابح بين عشيرة وعشيرة أو بين أهل إقليم وأهل اقليم آخر أو بين أهل دين وأهل دين آخر ليس العيب فيه على التعصب بل على الذين أتخمتهم الأنانية من جهة وعلى الذين قد خوى منها وجودهم من جهة أخرى ، أي على إخوان الافراط والتفريط في حب النفس ، بل لولا التعصب لكان التذابح أكثر وقوعا ، وأوفر شيوعا وأسوأ أثرا ، لان هذا التعصب هو الذي رد جماح كثيرين من إخوان الافراط وأوقفهم عند حدود من البغي والعدوان .

لو لم يجد اخوان الافراط من أهل دين مثلا من يقف أمامهم بقوة وعصبية من المخالفين لقضي على الأديان كلها منذ زمن قديم بالانقراض، إذن لكان اليوم في الارض دين واحد لا نعرف شكله ولكن نعرف أنه بعيد جدا عن الدين المبين الذي ينادى فيه « لا اكراه في الدين » . ولو لم يجد إخوان الافراط من بعض الاقوام والاجناس مثلا من يقف أمامهم بقوة وعصبية لقضي على الأقوام والاجناس كلها منذ زمن قديم أيضا ، إذن لكان اليوم في الارض جنس واحد من البشر ولكن لا نظنه يكون مرتقياً وأحسن حالا من البشر الأول .

صيرورة البشر جنساً واحدا قد تكون من الاحلام اللذيذة ، أما وقوعها في عالم الحقيقة ففوق تصورنا ، وهل يكون ذلك أقرب الى الابداع لو صار البشر هكذا . أنا لا أقول بهذا الرأي ولذا لا أتعب نفسي بتمنيه وانتظاره ، بل أنا مسرور الآن أمام حكمة المبدع الذي جعل من آياته العظمى اختلاف ألسنتنا وألواننا .

وصيرورة البشر على دين واحد حالها كحال صيرورتهم جنساً واحدا ، ولذا ينبغي أن تتذكر دائما هذه الحقائق عسى أن نعلم جيدا أن البشر الذين كتب الله عليهم الخلاف الجنسي والديني لم يكتبهما عليهم لتعذيبهم بهما بل قد يسر لهم أن يعيشوا مع وجود هذين الخلافين بحيث يجاور بعضهم بيت بيت ، ويعاون بعضهم بعضا كتفاً لكتف ، ويربط بعضهم لبعض قلبا بقلب ، ويصافح بعضهم بعضا يداً بيد ، ويأتمن بعضهم بعضاً على المال والروح والناموس [1] كما هو جار منذ تمدنت الأمم الى عهدنا هذا وذلك أمد بعيد . وقد يظن بعضهم أن التعصب يؤدي الى المضادة والمنافرة ، أما الذي ظهر لنا فهو أنه هو الذي يمنع المضادة والمنافرة ، إن لم يكن عاجلا فآجلا ، وذلك أن القوة تحرس الحق دائماً والقوة إنما تأتي بالتجمع .

نعم يمنع التعصب المضادة والمنافرة ، فإن القوة اذا وجدت أمامها قوة اضطرت أن تقف وتؤدي الاحترام ، وأما إذا وجدت أمامها عدماً فانها تدوس ، وحق لها أن تدوس ، لأن من أسقط نفسه من حظ الوجود لا ينبغي أن يلوم غيره على المرور فوقه فان هذه سنن البشر أجمعين .

ولعلك تقول كيف يصنع القليلون حينئذ اذا كانوا في محيط أكثر أهله مخالف لهم ، فالجواب إن لذلك علاجا مركباً من جزأين ، يؤخذ أحدهما من طبيعة نفوس القليلين والآخر من طبيعة المحيط ، فالذي من طبيعة نفوسهم هو الصبر والثبات وحسن الاستعداد حتى تقوم كثرة الفوائد من وجودهم مقام كثرة عددهم ، والقليلون الذين لا يعتصمون بالصبر والثبات وحسن الاستعداد فهم بين الكثيرين أعداء

(١) الناموس : الشرف

أنفسهم لا الكثيرون ، وأما الذي من طبيعة المحيط فهو العدل . نعم هـذا أحسن كافل لبقـاء وجودهم وحفظ حقوقهم ، والمحيط الذي لا عدل فيه لا ينبغي أن يجزع القليلون فيـه على أنفسهم فإن أولئك الكثيرين الذين فيه لاحقون بهم الى الذلة ثم البوار وبئس القرار .

أي والله ، الى الذلة والبوار ينقلب المجتمع الذي لاعدل فيه، وهذاهو الذي يجعلنا ندخل هنا العدل مع بحث حب النفس والتعصب ، فإن من أحب نفسه وقومه ودينه وكلَّ ما هو من توابع حب نفسه كان من البديهي أنه يرجو لكل هذه الاشياء العزة وطول البقاء ، ومتى علم أن العزة والبقاء يرافقـان العدل ، والذلة والبوار يصحبـان الظلم ، كان أحبَّ شيء اليه العدلُ ، وأبغض شيء اليه الظلمُ ، وحينئذ يكون تعصبه للعدل وبالعدل ومنتجا للعدل .

ولا بأس بعد ما قدمناه من التفاصيل العمومية أن نذكر أمثلـة خصوصية فنقول اننا معشر العثمانيين ، شئنا أم أبينا ، ننقسم انقساما أول وبحسب اللسان ، وننقسم انقساما ثانيـا بحسب الدين . فعلى الكل قبل كل شيء أن يكونوا عصبة واحدة في تقوية هذه الرابطة العظمى التي يطلب منها إقامة العدل فيما بينهم (نعني العثمانية) ، ثم عليهم كلهم أن يحترم كـلُّ قسم منهم اخوانه الآخرين لأن العـدل يقضي بهذا . وعليهم كلهم أن لا يشمئزوا ممن تعصب ضمن دائـرة القانون لقوميته أو دينـه فمتى خالفنا العدل والسنة الكونية في هذا انصرم حبل وئامنا ، وسقط ركن اعتصامنا .

نحن نقول مثلا إن جميع المسلمين الذين في الارض إخوة فـلا ينبغي حينئذ أن تتأفف من أبنـاء وطننا المسيحيين اذا أرادوا أن يقولوا

إن جميـع المسيحيين الذين في الأرض إخوة واذا قال الترك إنهـم والتتار شيء واحد مثلا فلا ينبغي أن يتأففوا من قولنا إننا معشر العرب في الشرق والغرب شيء واحـد • وصيرورة العثمانية جامعة عظمى للعثمانيين عامة لا تمنـع أن يحبّ كل جماعة منهم جامعتهم الخاصة ، بـل يجوز لهم أن يحبوها ويتعصبوا لها ، والمنع منها هو التعصب المذموم الذي لا تثبت ظلاله لانه صدٌ عن حب النفس ، وليس شيء في نظر العقل بأسمج من صدّ رجل أتخمته الأنانية رجلا آخر يحب أن يتغذى بقليل من حب نفسه وقومه •

* * *

على هذه الذكرى نقتطف هنا شيئاً من مقالة أنشأناها في العددالثاني عنوانها « الى المجد » قلنـا :

« نحن لا يغيظنا أحد في الدنيا يدعو قومه الى التزيّد من المجد ، ولا نقبل من أحد أن يغيظه منا دعوة الى مثل ذلك • إنّا لنعلم أنه يوجد في الدنيا من يغفرون لكل الشعوب التداعي الى طلاب المجـد وترديد صداه إلاّ للعرب ، فعلينا أن لا نظن بسبب هؤلاء المهاويس أن الدنيـا كلها أصبحت تكـره العرب وتشمئز من سماع هذا الاسم بل علينا لو أصبحت الدنيا كلهـا ـ على الفرض ـ بهذا الشكـل أن لا نخفت الصوت بترديد ما ينفعنا وينفع دولتنا من هذا الصدى • أمـا ذلك المجد الذي أعيدُ ذكراه لقومي فهو التحلي بتلك القوة الاخلاقية التي كانت لأسلافهم الذين استطاعوا بها أن يحبوا الناس كما أحبوا أنفسهم ، فكانوا أحباء المعالي والمكارم وخصوم الفظاظة والنذالة

دائماً ، وبذلوا جهدهم للانسانية في سبيل إحياء العدل والاحسان وإزهاق البغي والعدوان •

« المجد لذة روحية فهو في حلاوته لدى الروح أمنية كل فرد بالاصالة ، وبغية كل أمة بالتبعية ، فالآمال كلها الى المجد مسيرها ، والاعمال جميعها اليه مصيرها ، ولولا المجد لتضاءل الأمل ، ولولا الامل لبطل العمل • يعبر أحد حكماء العرب عن مثل هذا المعنى بقوله :

ولو انما أسعى لأدنى معيشة كفاني — ولم أطلب — قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد الموثل أمثالي[1]

« المجد لا يأتي الا بالتعاون ، فالمجد الانساني من حيث هو يكون بتعاون أفراده وجماعاته ، ومجد كل قسم من البشر يجيء بتعاون أفراده كلهم ، ومجد كل فرد انما يقام بأن يكون معينا ومعانا ، وعن مثل هذا المعنى يعبر أحد أمجاد العرب بقوله :

وما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكبي[2]

هذا ما قلناه قبل عام وهذا ما نقوله اليوم • نعم ان المجد لا يأتي الا بالتعاون ، والتعاون لا يأتي الا بالروابط ، ولا تقوم الروابط الا بما فصلناه من حب النفس الذي من بعض آثارة الشوق الى المجد ، ولولا المجد لتضاءل الامل • فالى المجد والى الروابط • ان من لا رابطة لهم لا مجد لهم ، ومن لا مجد لهم لا سياسة لهم ، بل تدوسهم السياسة بسنابكها ، نعوذ بالله منها •

---

(١) البيتان لامرىء القيس .

(٢) قال أبو علي القالي : انشدنا محمد بن يزيد :

واني وان كنت ابن فارس عامر وفي السر منها والصريح المهذب

ثم أورد البيتين ، وآخرهما (بمنكب) . ذيل الامالي ص ١١٨

تربيتنا السياسية (*)

— ٥ —

ليس بعبث اسهابنا في هذه النبذ المتقدمة بشأن الروابط عامة ، وتنويهنا تلويحا وتصريحا برابطة القومية خاصة ، فان الاصل الاول في سياستنا الداخلية بعد الآن هو تذكر أن هذه الدولة مؤلفة من أجناس غير مستنكفين عن رابطة جنسياتهم ، وأن نجاح هذه الدولة انما يكون بتوجه قلوب جميع هذه الاجناس ، أو الجمهور الاعظم منهم ، الى تأييد الرابطة العامة فيما بينهم . ومن المعلوم أن الصعوبة انما هي في هذه الوظيفة نعني ضم القلوب التي بينها شيء من التفرق ، وهذا العمل أي جمع هذه القلوب هو الجدير أن نطلق عليه كلمة « السياسة » في هذا المقام ، والاشتغال باستكشاف طرقه واستعراف وسائله هو رأس التربية السياسية بالنسبة الى العثمانيين .

وههنا مسائل ذات شأن نحب أن يتوعاها القارىء جيدا فانها عمدة الموضوع ، والاحاطة بها جيدا هي الثمرة العظمى منه .

قلنا في النبذة الاولى ان السياسة قد انتقلت من يد الفرد الى يد الامة، وما الامة الا الجماعات التي تتألف منها، فنسأل الآن هل الجماعات العثمانية اليوم سواء أم لبعضها شيء من التميز ؟ وإن كان لبعضها شيء من التميز، فهل هو نافع للجماعة المتميزة ، وهل هو مضر بغيرها أم لا ضرر منه ؟

---

*جريدة (الحضارة) ٢/٥٧ (١١ مايس ١٩١١) .

وعلى أي قاعدة يقوم هذا التميز ؟ وكيف يا ترى يدير الجماعات السياسة في حين أنها تتألف من أفراد متباينين ومتفاوتين كثيرا في المدارك والرغائب ولكل منهم شأن يغنيه من صناعة أو زراعة أو تجارة . وليسوا بقليلين : بينهم من يمضون العمر كله من غير أن يتفكروا في شيء مما يسمى السياسة بل أنّى يجد أحدهم وقتا لسلوك هذه المسالك مع ما هو آخذ به من حرث الارض وتدبير ما يتعلق بزرعها مثلا ؟ وكيف يُعلم أن للجماعة في مسألة من المسائل رأياً واحداً وقع عليه اجماعها أو قد اتفق عليه أكثرها ؟ وكيف يصنع الفرد أو الافراد المفكرون في أممهم اذا كان رأيهم على خلاف رأيها ؟ وما هي طرق الوفاق اذا حدث بين واحدة وأختها شيء من الاختلاف في الرأي ؟

إن شرح هذه المسائل يحتاج الى مطولات من الكتب ، ولكن اذا كان الكاتب مضطرا الى الاختصار مراعاةً للمقام ولأذواق القراء يستطيع أن يلخص الكثير من التفاصيل بخلاصات كافية مغنية ، وهذا هو الذي نراه واجبا علينا هنا .

(١) هل الجماعات العثمانية اليوم سواء ؟

أحبُ أن أنبه ذهن القارىء الى أن السؤال انما هو عن حالة الجماعات لا عن حالة الافراد ، لانه لو كان السؤال عن الافراد لكان سهلا أن يقال في الجواب سريعا نعم هم سواء في نظر المحاكم ونظر سائر موظفي الحكومة في المعاملة والحقوق ثم هم متفاوتون فيما بينهم في المظاهر والمراكز الاجتماعية كما هو شأن الافراد في سائر الامم ، أما الجواب عن حالة الجماعات فليس بالسهل ولا يمكن إعطاؤه بسرعة من غير روية وإمعان .

لقد فكرنا كثيرا في هذا الامر فوجدنا أنه اذا كان بين الجماعات العثمانية شيء من التميز فلا يُعرف الا اذا كان قانونيا معترفا بـه ، ووجدنا أن هذه المسألة لا يحلها الا القانون الاساسي الذي تعتصم به اليوم كل الجماعات ، ولما رجعنا اليه رأينا أنه يوجد بين هذه الجماعات تساو في كل الحقوق العمرانية والمدنية وفي أكثر الحقوق الاساسية والسياسية ، ويوجد مع ذلك شيء من التميز لبعض هذه الجماعات في حقوق أساسية سياسية وذلك في موضعين : موضع من جهـة الدين وموضع من جهة اللسان •

والقارىء العزيز يعرف أن انقسام العثمانيين الى جماعات هو على نوعين : الاول بحسب الـدين والثـاني بحسب الجنس أو اللسان • فباعتبار الاول نجد لجماعة المسلمين في القانون الاساسي تميزا ضمنيا في كون الحكومة متدينة بدينهم ومضطرة بسبب ذلك الى أمور كثيرة تعد امتيازات لهم ، منها أنها تفسح صدر بلادها وماليتها للمهاجرين من إخوانهم في الدين من أي قطر كانوا ، ومنها أنها تجتنب أن تأتي في قوانينها باجتهاد يخالف ويصادم الدين المحمدي مصادمة لا تقبل التأويل عند جميع علمائهم المجتهدين من السالفين والعصريين ، ومنها أنها تأخذ بيد التعليم الديني الاسلامي ، ومنها أنها تحمي المسلمين الذين ليسوا في بلادها بقدر ما يمكنها وبالنحو الذي تستطيعه ، ومنها أنها تَعُدُّ قوتها وسلطنتها اسلاميتين •

كل هذه الواجبات التي سردناها هي تفسير ما صرح به في القانون الاساسي من أنها حكومة اسلامية وعلى هذا النحو سيرها غالبا ، وكل هذه الواجبات هي حقوق لجماعة المسلمين على الحكومة يتمكنون كل وقت من مطالبتهـا بها اذا قصرت ولا تستطيع ان تسكتهم عنهـا الا

إذ عمدت الى الاستبداد كما كان يصنع الملك السابق الذي عرف العالم كيف كان عاقبة أمره •

(٢) هل هذا الامتياز نافع لجماعة المسلمين وهل هو مضر بغيرهم وما نفعه وما ضرره ؟

لا شك في نفع هذا الامتياز لهم جدا ، فان الحق على حسب ما يعتقده كل طائفة من الناس لا يحتاج في حد ذاته الى حارس من القوة وانما يحتاج المستمسكون به الى قوة تحميهم من تعصب المتعصبين الآخرين ، وبهذه الحجة تدعي أوربا المسيحية حماية المسيحيين في الشرق حتى دخلت هذه المسألة في المعاهدات التي بين الدولة العثمانية وتلك الدول • والمسلمون اليوم في أمراض اجتماعية قد قضت عليهم مع كثرتهم أن تستذلهم الحكومات الاجنبية وتحكم عليهم بما تشاء ، فلا شك أن المسلمين الذين هم في ظل دولة كهذه الدولة تسجل في قانونها الاساسي أنها اسلامية تكون حالهم أحسن من حال أولئك المسلمين الذين يئنون اليوم أنواعا من الانين لكسر حكوماتهم قلوبهم كل يوم بنوع من الكسر •

نعم هو نافع لهم وليس بضار غيرهم من أهل الاديان والمذاهب المعروفة كاليهودية والمسيحية ، فان أهل هذه الاديان المعروفة أحرار في عقائدهم ومراسم عباداتهم ولا تمَسّ حرمة معابدهم وتعاليمهم الدينية، ولعل القارىء يتذكر أن الحكومة في العام الماضي ارتأت أن تكلف نفسها بناء كنائس في بعض جهات الروم ايلي لتصلح بين الروم والبلغار وتحل الاشكال الذي طال عهده بينهم وأدى الى وقائع كثيرة من تذابحهم وتخريب بعضهم بيوت الآخرين ، وقد وافق على ذلك الاكثرون في

مجلس الامة من المسلمين وبينهم كثير من الشيوخ المنتمين الى العلوم الدينيـة •

وأما المذاهب التي هي ليست بمعروفة وقد اعتاد أهلها أن يُخفوا حقائق أمرها فان هذا الامتياز قد يصادمها ، وذلك أن الحكومة تستطيع اذا شاءت أن تمانع في اشاعة تلك المذاهب عملا بسياستها نفسها أو اجابة لرغبة المسلمين ، ومن هذا القبيل ما يحكى عن مذهب جماعـة متوحشة ضمن ولاية الموصل يقال انهم يعبدون الشيطان ، ومعلوم أن عبادة الشيطان ليست من المعروف أمرها • وهذا الحق تستعمله جميـع الحكومات الراقية أيضا اذ ربما كان فيما خفي من تعاليم ذلك المذهب ما يضاد مصلحة الدولة والبلاد • ومنع الجمعيات السرية عندنا وعنـد غيرنا من الدول ليس هو الا من هذا القبيل •

أما التميز الثاني الذي هو من جهة اللسان فذلك في كون اللسان التركي هو اللسان الرسمي ، وكون الحكومة لا تقبل في وظائفها من لا يعرف هذا اللسان ، وبديهي أن في هذا تميزا ضمنيا لجنس الترك •

(٣) على أي قاعدة قام هذا ؟

وقد نظرنا على أي قاعدة قام هذا التميز الذي شرحناه في الموضعين، وهل لهما نظير عند غيرنا ، فوجدنا كثيرا من نظائره في كثير من البلاد • فانكلترة والمانية مثلا بروتستانيتان ، والروسية والبلغارية أرثوذكسيتان، والنمسة وايطاليا كاثوليكيتان ، وفي كل واحدة من هذه وأخواتها تعنى الحكومة بالمذهب الذي هو الرسمي فقط • وأما مسألة اللسان في البلاد التي تتعدد فيها لغات الشعوب فلها تاريخ وأدوار ، ولم تتخلص الاقوام من أسر ذلك التميز أعني تميز لسان الشعب الذي منه الملك الا ببذل

عزائم وملاقاة عظائم ، ومع كل هذا لا يزال القوم في الروسية لا ينظرون الى ألسنة الترك والقفقاسيين والبولونيين مع أنه يوجد ملايين من كل فريق من هؤلاء في تلك المملكة ، وكذلك لا ينظرون في المانية الى لسان الداخلين في دولتهم من البولونيين •

ولئن سألت أنصار التميز في كل أمة كيف ثبت لهم ذلك الحق لتجدنّ لدى كل منهم كثيرا من الحجج • وخلاصتها أن الحكم للاكثرية بصرف النظر عن الخطأ والصواب في الحكم نفسه ، فالقاعدة التي يبنى عليها التميز هي مبنية عندهم من العدد غالبا ، أما كثرة المسلمين في هذه الدولة فظاهرة ، وكثرة الترك على من عدا العرب ظاهرة أيضا ، وانما الشك والخلاف في كثرتهم بالنسبة الى العرب العثمانيين ، والذي يظهر لنا أن العرب العثمانيين على اطلاقهم أكثر لانه يدخل تحت هذا الاطلاق كل أهل جزيرة العرب مع باقي الولايات العراقية والسورية والافريقية ، ولكن أهل جزيرة العرب لم يدخلوا في دفاتر الحكومة من جهات كثيرة ولذلك يبقى الداخلون في هذه الدفاتر من العرب العثمانيين أقل •

أحصيت الآن في فكري الألوية التي فيها الاتراك وألوية الولايات العربية فوجدت الاولى اثنين وستين لواء ، والثانية ثلاثين ، وأحصيت مبعوثي الولايات العربية ومبعوثي الالوية التي فيها الاتراك فوجدت الاولين سبعة وخمسين ، والآخرين مئة واربعة عشر ، وبديهي أن هذه أكثرية لا يستهان بها ، بل علينا أن ننظر اليها بعين الاحترام وننظر معها الى أنفسنا جيدا ، وسنزيد القول في هذا الموضوع وتتم الاجوبة على المسائل المتقدمة في الآتي إن شاء الله تعالى •

تربيتنا السياسية (*)

— ٦ —

الكثرة ليست من الادلة في المنطق لإثبات رأي ، ولا هي من الادلة في الديانات لإثبات عقيدة ، بل الآراء والديانات هي التي تجتذب الكثرة بما يتاح لها من الاسباب ، ولكن الكثرة في السياسة والاجتماع قوة يلتفت اليها ويحسب حسابها . ولذلك تجعل معيارا اذا اختلف القضاة ، وتعدُ مرجحا اذا تعارض المتشاورون ولا سيما في التقنين . ومن كانت الكثرة لهم وعرفوا قيمتها كان وجودهم قويا متمكنا ، ومن كانت عليهم وجهلوا عواقبها كان وجودهم ضعيفا متزلزلا .

ذكرنا في آخر النبذة المتقدمة كثرة أخواننا الترك في هذه الدولة ، وأوضحنا ان العرب العثمانيين على اطلاقهم أكثر ، ونعني بهم جميع الذين في جزيرة العرب مع من في الولاياتالسورية والعراقية والافريقية، وأما العرب الداخلون في دفاتر الدولة في كل شيء فهم أقل ، وأتينا بشاهد لذلك من عدد الألوية التي فيها الفريقان وعدد المبعوثين من كل ، وقد سهونا في احصائنا مبعوثيهم مئة واربعةعشر بل هم نحو مئة وثلاثين، كما أننا سهونا في احصائنا مبعوثي الولايات العربية سبعة وخمسين بل هم ستون .

وقد قلنا ثمة إن هذه أكثرية لا يستهان بها ، بل علينا أن ننظر اليها بعين الاحترام وننظر معها الى أنفسنا جيدا ، ووعدنا أن نزيد القول في

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٥٨ (١٨ مايس ١٩١١)

هذا الموضوع ، فالآن نقول نحن نود ونتمنى أن يزيد عدد اخواننا الترك أضعافا مضاعفة لان كثرتهم لنا لا علينا في الحقيقة ، كما أن كثرتنا لهم لا عليهم ، وذلك أن هذين العنصرين الكبيرين قد تقادم العهد على تضامنهما وتآخيهما حتى كاد كل واحد منهما يتناسى أنانيته أمام الآخر ، وما زال أحدهما مفاخرا بأخيه منذ دهر طويل ، وانكار هذا ينشأ اما من الجهل واما من التعنت والعناد كائنا من كان منكره وجاحده ، ولكن مع تمنينا كثرة اخواننا يصح أن نقول : بما أن لجماعتنا وجودا وحيزا معروفا نتمنى أيضا أن يكون لنا نصيب وحصة مع اخواننا من الفخر باعلاء شأن هذه الدولة ، ونصيبنا انما يكون على نسبة حيزنا وهي انما تكون على مبلغنا من عدد النسمات لما قدمنا من أن الكثرة في السياسة والاجتماع قوة يلتفت اليها ويحسب حسابها . فلأجل هذا قلنا يجب علينا أن ننظر الى كثرتهم بعين الاحترام وننظر معها الى أنفسنا جيدا .

وما هو نظرنا الى أنفسنا ؟ هو في هذا المقام أن نبني سياستنا معشر العرب على جعل جميع العرب الذين تشتمل عليهم الجغرافية العثمانية عثمانيين بالفعل ، وأعني بقولي « بالفعل » أن يكونوا مشتركين في جميع التكاليف التي أصبحت شرعية ـ بكل معنى الكلمة ـ لانها صارت تفرض بالشورى من قبل أولي الامر وذوي الالباب والفكر في الامة من جميع أجناسها وطبقاتها الاجتماعية غالبا ، فمتى صار جميع أهل جزيرة العرب مع جميع سكان البوادي بين الشام والعراق مع جميع أهل الولايات الشامية والعراقية والافريقية مشتركين بهذه التكاليف وقائلين بجميع القوانين الصادرة من دار الشورى العظمى فيما يتعلق بالعسكرية والمالية والقضاء والادارة والسياسة يصبح لهذه الدولة قوة تقاوي بها

من يشاء ، ويومئـذ يمحى باذن الله من قاموس السياسة الاوروبيـة ما يسمونه « المسألة الشرقية » • وما أدراكم ماهية ، هي النار الحامية ، ويومئذ يتنازل لنا اخواننا الترك عن تميزهم الذي ذكرناه من جهة اللسان لانه يصبح لنا يومئذ كثرة جديرة بالالتفات في حكومة شورية •

هذا ما نوجه الانظار الى استجلاء جمال حقائقه التي يحسبها بعضهم طيفا ، ونستميل الاقلام الى استنزال عُصْمِ نسوره ، هذه غاية جليلة يسهل على جماعة العرب أن يتفقوا في السير اليها ، فمتى مضوا في سبيل متفقين حييت رابطتهم التي أكل الدهر عليها وشرب ، ومتى حييت رابطتهم انتعشوا وانتعشت بهم الدولـة ، وأصبـح اخوانهم الترك لا يزيدونهم في النصيب من الفخر في المحافظة على وطن أورثتناه واياهم نفوس وهمم كريمة عرفت الانسانية وآثرت لأجلها التعب على الراحة حتى بها صار التركي والفارسي والهندي والصيني أخا العربي بعد ان كان العربي منعزلا في قفاره ورماله لا يعرفه الا قليل ولا يعرف الاقليلا، وحتى بها نقلت وسائل العلم الى تلك العدوة من الارض أعني القارة الاوربية ويكاد لا يحصى ما جاءت به تلك الهمم التي قد أورثتنا هـذا الوطن المجيد •

أجل هي غاية جليلة بل هي أجل الغايات وأقربها وأسهلها ، فان القوة المؤلفة بنظام (قوة الحكومة) مساعدة في الوصول اليها ، ونفوس جميع عقلاء الترك وعقلاء العرب موافقة عليها ، ونجاة الفريقين من البراثن الاوربية واقفة لديها ، فان كان الاستبداد بل الاستعباد قد أنامنا وأنسانا أنفسنا وحال بين الجماعات منا وبين التفكر فيما ينفعها ويضرها ، فاليوم لا عذر لنا بعد أن استيقظ منا الهاجع ، وصحا الوسنان ، ورأينا أنفسنا في مأسدة قد شرهت لبواتها ، وتعودت طعم أمثالنا لهواتها ، فالى النجاة

يا بني قومي الى النجاة ، اعرفوا أنفسكم ولا تنسوها ، ووازوا بمناكبكم مناكب اخوانكم الترك في اجتلاب أسباب القوة لهذه الدولة واجتناب أسباب الضعف لها ، فان عرف لكم حيزكم ووجودكم ورتبتكم بين صفوفهم فذاك ، وان جهلها جاهل أو نسيها ناس منهم فان جمعهم المحترم لا يخلو من عقلاء يعرفون ، وألباء يذكرون ، ولا سيما اذا ظللتم أنتم مذكرين أنفسكم وعارفين بها وبموضوعها من هذا الوجود الواحد الذي يسطع فوقه هلال بني عثمان .

الله الله في الإخاء ، تعارفوا وتعاطفوا ، تضاموا واعتصموا بحبل الله جميعا ، ذلك هو ذكر الذي يجمع بعد فرقة ، ويرفع بعد ضعة ، ويضاعف بعد تِرَة ، وانما ذكره أن تتذكر سننه في الكون ، ونعمل بما أوحي الينا من هداياته فيما يعلي الهمم ، ويجعلنا من الصالحين للحياة الطيبة بين الامم .

وربما قال قائل ماذا تريد أن تصنع جماعة العرب العثمانيين وهم من أشد الناس إخلاصا وحرصا على سلامة هذه الدولة ، فنقول نعم ان الامر كما ذكرت ولكن الاخلاص شيء والاشتراك بالعمل في كل ما يقنن شيء آخر ، وليس من يجهل أن جزيرة العرب تشتمل على ملايين كثيرة لا يدخل منها جند الدولة شخص ، ولا يلج خزينة الدولة منها درهم ، ولا يقام فيما بينها من قوانين الدولة حكم واحد .

ينبغي أن نعرف ما نحن ما وهي حسناتنا لنزيدها ، وما هي سيئاتنا لننقصها ، فمن عرف داءه وعالجه عاش قُرّةَ عين للولي ، وحسرة نفس للعدو ، ومن جهل داءه أو كتمه وتغافل عنه أماته داؤه أو يبقى ــ إن عاش ــ حسرة نفس للولي وقرة عين للعدو .

يجب أن نعرف أن بقاء قسم كبير من العرب في حال البداوة في مثل هذا العصر العجيب العصيب ، وبقاء أكثر أقسامهم متناكرة متدابرة متقاطعة ، وبقاء كثير منهم بعيدين عن حياض هذه الدولـة التي تعـُد وطنهم وطنا مقدسا وتقدم للذود عنه أفلاذ كبدها ، وبقاء عدد يسـير منهم فقط مشتركين وحدهم كما يجب في كل شؤونها من غير رابطة ترفع لهم شأن حيزهم ، كل ذلك من الادواء التي لا تسمح النفوس المستيقظة بكتمها واهمال علاجها . فالله الله في الرابطة الخاصة والرابطة العامة . الله الله في مجد موروث لا تضيعوه ، وفيكم من عون الله قدرة على صونه ، ان يد الله مع الجماعة .



تربيتنا السياسية (*)

— ٧ —

ـ بحث في الانتخابات والزعامات والصحافة ـ

٤ ـ كيف تدير الجماعات السياسة ؟

كان من جملة المسائل العظيمة التي أوردناها في صدر النبذة الخامسة ووعدنا بشرحها هذه المسألة « كيف يا ترى تدير الجماعات السياسة في حين أنها تتألف من أفراد متباينين ومتفاوتين كثيرا في المدارك والرغائب ولكل منهم شأن يغنيه من صناعة أو زراعة أو تجارة ؟ » .

يرى القارىء أن سبب هذا السؤال تفاوت أفراد الجماعة ، وهناك سبب آخر له وهو أن المشاهد في كل عمل هو أنه يرجع الامر والفصل في ادارته الى شخص يعتبر الرئيس والاكبر والاعلى وحينئذ ما معنى ادارة الجماعات للسياسة أي كيف تكون هي المديرة اذا كنا لا نشاهد الا فرداً أو أفراداً .

الجواب من جهة هذا السبب الذي ذكرناه الآن سهل ، وذلك أن الجماعة متى صار فيها روح عمومية يكون خط سياستها هو حيث تتوجه تلك الروح العمومية . حينئذ تشيع رغائب الجماعة ومطالبها بظهور تلك الروح على ألسنة أكثر الافراد ، ثم يكون بينهم طائفة

---

* جريدة (الحضارة) ٥٩/٢ (٢٥ مايس ١٩١١) .

هم أشد حرصاً على كل تلك الرغائب ، فيتقدمون الى الملأ بأنهم المرتادون للجماعة ، الطالبون لها الفوائد ، والصارفون عنها المضار ، فالنفر الذين يفوزون من هذه الطائفة باقبال الجماعة وتسليمها اليهم أعنة الامور هم الذين يكونون مديري سياستها ، ويكون حينئذ عملهم هذا ، أعني الادارة ، هو عمل الجماعة عينه ، وأقرب مثال وشاهد لهذا حال الشركات فان الروح العمومية في الشركة هي اتفاق جميع المشتركين على طلب الربح ، ومتى تقدم اليهم شخص يثبت لهم حرصه على جلب هذا الربح وعلمه بأسبابه وطرقه سلموه عنان المعاملات في هذه الشركة ، وكان شخصه الواحد قائما مقام جمعهم في اصدار الاوامر للعاملين وانفاذ العقود مع المتعاملين ، ولذلك يقال ان الشركة الفلانية عملت كذا وتركت كذا أكثر من أن يقال عمل مديرها . وأما الجواب من جهة السبب الذي ذكرناه قبلا وهو تفاوت أفراد الجماعة في الرغائب والمدارك ففيه شيء من الصعوبة ، وذلك أن الافراد قد يكون التفاوت بينهم بالدرجة التي يعبر عنها بالتشتت ، وهي التي ترهق معها الروح العمومية في الاغلب ، فالحق أن عزو السياسة وادارتها الى جماعة من الجماعات في مثل هذه الحالة غير صحيح ، ولذلك نقول ان من أراد يكون لجماعة ما سياسة فالنقطة الاولى لخطه الذي يريد مده هي تنمية الروح العمومية في تلك الجماعة ، فمتى دبت هذه الروح فيها ولو دبيباً خفيفا ألفيتها تلتمس الزعماء وتتلمسهم ، والزعماء هم نبات الاسباب والسنن الكونية وبين وجودهم ووجود الروح العمومية علاقة دقيقة جدا ، ولذلك يقول فريق من المفكرين : هي تظهرهم ، ويقول فريق آخر : بل هم يظهرونها . ولا تتصدى الآن لهذا البحث لانه متشعب ، وانما القسم المطلوب لنا منه هنا هو أن الجماعات لا تكون جماعات على وجه التمام ولا تكون لها

سياسة مخصوصة الا اذا كان لها زعماء ، والزعماء هم الذين يديرون سياستها ، وادارتهم هي ادارتها •

أما قيام الزعماء في الجماعات فعلى أنواع كثيرة : منها الانتخابات المعروفة ، ومنها الاستعدادات الشخصية ، ومنها قرب المهنة والعمل الذي يأخذ به بعض الاشخاص من الامور العمومية كالصحافة في وقتنا هذا •

الاستعدادات الشخصية هي المساعد الاعظم على صيرورة الشخص زعيما وعلى نجاحه في الزعامة ، ولكم قد أرانا التاريخ ـ ويرينا الحاضر أيضا ـ كثيرا من الاشخاص الذين طاروا الى الزعامات على كثرة ما قص الدهر من اجنحتهم ، وعلى كثرة ما أقصاهم منبتهم عن مثل ذلك الطيران، قد تكون هذه الاستعدادات سببا للانتخابات ، وقد تأتي الانتخابات من غير طرقها ، فالمنتخَبون الذين فقدوا أجنحة من تلك الاستعدادات تكون سقطاتهم كثيرة ولا خير في زعامتهم غالبا ، والاستعداد للصحافة غير الاستعداد للزعامة ، ولكن الصحافي الماهر يستطيع أن ينصر الزعيم وأن يخذله ، ولذلك أوصي نفسي وسائر اخواني الصحافيين بشيء من الاخلاص مع المهارة لنضع نصرنا وخذلنا في مواضعهما مما هو أنفع للامة بعد أن نبذل الوسع بالاستطلاع والتفحص لا على حسب ما يبدر لاحدنا ، ولهذا أود لنفسي ولاخواني الاناة والروية وأكره العجلة والبادرة •

قد يذهل أحدنا عن مقدار ما ينفع الامة من رفع شخص في نظرها هو أهل للرفعة ، أو خفض شخص هو أهل للخفض ، وعن مقدار ما يضر الامة اذا انعكس لها الامر فرفع في نظرها من هو أهل للخفض ، وخُفض من هو للرفعة ، فليتق الصحافي منقلب الجماعة التي يريد خيرها ، فان

بين يراعته ومدارك الناس علاقة بينة ولا أقول هي دقيقة .

الاستعدادات الشخصية قد تكون بحيث يراها أكثر الناس ، وقد تسترها بعض الحوادث وبنات الحوادث فتصبح لا يراها الا قليـل ، فلهذا ولاسباب أخرى تكثر الاختلافات والاضطرابات في الانتخابات ويقع في كثير منها خطيئات بعضها شديدة الظهور ، ومن ثمـة كان الالتفات الى أمر الانتخابات نقطة عظيمة في خطوط تربيتنا السياسية ، فان معظم سياسة الجماعة يصبح في أيدي من تنتخبهم . قلت معظم سياسة الجماعة ولم أقل كلها لان زعماء الجماعة ليسوا هم المنتخبين وحدهم بل هم على أنواع كما فصلنا آنفا ، وما عن عبث فصلناه ، بل قد يكون المنتخَب غير زعيم اذا كان محروما من الاستعدادات الشخصية كثـيراً .

وبعد : فاذا قلنا اليوم ان في جماعة العرب مثلا روحا عمومية فمن شأن هذه الروح أن يكون لهذه الجماعة رغائب عمومية تقتضي سياسة خصوصية ، وذلك مثل جعل تعليم العلوم في المكاتب التالية في بلادهم بلغتهم ، فمديرو هذه السياسة حينئذ هم النواب المنتخبون ، والكتاب الصحفيون ، والفضلاء المفكرون ، وكبار الاسر المحترمون ، واذا قلنا ليس فيهم روح عمومية فما منتخبوهم بزعماء لهم وانما هم من جملة الصور التي تمثل « المشروطية » التي يقولون عنها ، وما كتابهم بزعماء لهم وانما هم من جملة الصور التي تمثل « المدنية » الحـاضرة التي يصفونها ، وما كبار أسرهم بزعماء لهم وانما هم من جملة الصور التي تمثل « العظمة » الساذجة التي ألفوها ، فهل تلك الروح موجودة أم لا ؟ وكيف يعلم ذلك يا ترى ؟

تربيتنا السياسية (*)

— ٨ —

الفكر العمومي في الامم ، الفكر العمومي لجماعة العرب
ــ المتكلمون باسم الجماعات ــ

كيف يعلم رأي الجماعات :

معرفة رأي الفرد في كل مسألة من المسائل سهلة ، اذ يمكن الاستفهام منه ، وأما معرفة رأي الجماعات في كل مسألة فانها متعسرة بل متعذرة ، لكثرة اختلاف الافراد التي تتألف منها الجماعة ، ولذلك نعد من الكذبة الجناة في كل أمة أولئك الذين يكثرون أن ينسبوا الى أممهم فكرا ورأيا في كل مسألة ، فيقولون مثلا الامة تريد هذا والامة لا تريد ذاك والشعب يود ذلك والشعب يكره ما هنالك وهلم جرا ... ولكن مع صعوبة الوقوف بحق على رأي الجماعات في أكثر المسائل نرى الوقوف على رأيها في بعضها ممكنا ، بل نراه واجباً على من تصدى بحق لإعلاء شأن احدى الجماعات .

وللوقوف على رأي الجماعة شروط وأصول ، منها أن يكون مريده عارفاً قبل ذلك بما تنقسم اليه تلك الجماعة من فرق وطوائف ، وما تميل اليه كل فرقة وطائفة ميلا روحياً ، وأن يكون عارفا بصنوف احتياج تلك الجماعة ودرجات حاجاتها ، ومطلعاً على ماضيها ودرجة علاقته بحاضرها ، وكثير الاختلاط بطبقاتها المختلفة سنين كثيرة ، وأن يكون

---

* جريدة (الحضارة) ٦٢/٢ (١٥ حزيران ١٩١١) .

طالبا لمعرفة رأي الجماعة من حيث هو ، غير ناظر الى كونه موافقا له أو مخالفا ، وأن يملك من الروية ما يعصمه من العجلة في الحكم باستقراء ضعيف ، فمن كان متصفا بهذه الصفات كان خليقا أن يعرف رأي الجماعة في بعض الامور ، كما أنه يكون جديرا أيضا أن يكوّن ويؤلف هو في الجماعة رأياً عاماً في أمر أو عدة أمور اذا ساعدته الظروف واستعداده الشخصي •

هذا الغرض ـ وهو العلم برأي الجماعة في بعض المسائل ـ من أعظم الاغراض للباحثين في وسائل الارتقاء للجماعات ، فانا قدمنا أن الامة التي ليس فيها روح عمومية هي أمة متأخرة في الحياة كثيرا ، وأن أول شيء مما يجب عمله على مريد نجاح جماعة هو ايجاد روح عمومية فيها أو انماؤها ، ومتى كان للجماعة روح عمومية كان لها فكر عمومي ، وحينئذ ينبغي أن يجتهد المتصدي لطبها في تعرف فكرها العمومي ، فان كان حسناً اجتهد في انمائه واشباعها منه ، وإن كان غير حسن التمس لنفسه بعد ذلك علاجاً وسياسة في موقفه معها ، والتمس لها ما يرجو من وسائل تغيير ذلك الفكر ، وكم قد تغير في الامم أفكار عمومية لها •

وههنا شبهة تعرض لبعض الناس فيقول : كيف يحكم الفرد على رأي جماعة بأنه غير حسن وتحدثه نفسه بتغييره مع أن الجماعة مؤلفة من أفراد كثيرين كل واحد له قلب كقلبه أو أسلم ، وعقل كعقله أو أحكم ؟

ومن التصادف الغريب أن هذه الشبهة تتمسك بها كل جماعة على من يخالفها من أفرادها ، في حين أنها تجوّز للفرد الواحد منها أن يخطّىء الجماعة المخالفة لها ، والصحيح أن كثرة المثقفين على رأي ليست دليل صحته كما قدمنا ، على أننا كلما أمعنا النظر في

الرأي العـام لجماعة نجده قد تكون بالتدريج من آراء قليلين ليس الخطـأ عنهم بأبعد منه عن فرد آخر قد يرى مالا يرون ، ولو لا أن الواقعات شاهدة لهذا لبقي في النفوس أثر لهذه الشبهة ، ولكـن الشواهد المسلمة كثيرة وحسبك منها أن كل جماعة تسلّم بأن إمامها وهاديها الاعظم لمّا جاء ودعا إلى نحلته كان هو المصيب وكان مخالفوه ومعارضوه هم المخطئين ، وإن كانوا ملايين ومئات الملايين ، بل حسبك أن كل جماعة تسلّم بجواز أن يخطّىء كل فرد من أفرادها من يخالفها من الجماعات الاخرى إجمالا وتفصيلا كمـا قلنا آنفـا .

هـذه المقدمات حقائق وقواعد ثابتة قصدنا بالتمهيد بها تنبيـه الأذهان الى تعرف الفكـر العمومي للعرب العثمانيين خاصة ، فهلمّ ننظر هل للعثمانيين كافـة فكر عمومي وما هو ، وهل للعرب العثمانيين فكـر عمومي ومـا هو ؟

تأملت كثيراً في العثمانيين الذين هم ترك، وعرب، وكرد ، وأرناؤوط وماليسور ، وماردیت ، وبلغار ، وصرب ، وروم ، وأرمن ، وسريان ، وكلدان ، وعبران ، مسلمون سنية ، وجعفريـة ، وباطنيـة ، نصارى أرثوذكس ، وكاثوليك ، وبروتستانت ، ويهود ، فرق أيضا ، ومحافظون وأحرار ، ماصون ، واشتراكية ، مهذبون ، وغير مهذبين ؛ تأملت طويلا في هذا المجموع الكثير الالوان فصعب علي فهمي القاصر أن أعرف الفكر العمومي له ، فتركت الآن البحث فيه آملا أن تفتح عليّ أبواب معرفته في وقت آخر ، ولكن ظهر لي الآن شيء واحد فقط وهو أنه اذا تعلمت هذه الجماعات أن يحترم بعضها بعضا يؤمل أن تتكون فيهـا روح عمومية بالتدريج ، فيتكون حينئذ فكر عمومي لها ، ويومئذ نتعرفه إن شاء الله تعالى . وعندي أن الجماعات الكبيرة في هذا المجموع هي التي عليها أن تعلم أخواتها احترامها واحترام بعضها بعضاً بما ترسمـه

لها في نفسها من المثال الحسن والقدوة الجميلة وبما تصلح بقوتها المعنوية والمادية من شأن الحكومة التي يحس الكل بوضع يدها إن ثقيلة فهم مستثقلون ، وإن خفيفة فهم مستأنسون .

وتأملت في العرب العثمانيين الذين هم شاميون ، وعراقيون ، وحجازيون ، ويمنيون ، ومصريون ، وإفريقيون ، مسلمون سنية ، وجعفرية ، وباطنية ، ووهابية ، ونصارى طوائف ، ويهود فرق ، ومحافظون ، وأحرار ، ماسون ، واشتراكية ، مهذبون ، وغير مهذبين ؛ نظرت طويلا في هذا المجموع الكثير الالوان أيضا فكدت أن أعافي نفسي من اقتحام الحكم بأن لهذا المجموع روحاً عمومية وفكرا عموميا، ولكن بوارق من الاستقرار الكافي لمعت في أفق الذهن فشجعتني على التحديث بما رأيت ، ولم أر الا خيراً ، رأيت كل هؤلاء العرب المختلفين دارا ودينا ومذهبا ومشربا متفقين في هذه الامور : (الاول) التنبه بعد الهجوع الطويل ، (الثاني) استحسان التعارف والتعاطف بعد التقاطع ، (الثالث) الحرص على تأييد اللسان ومقاومة كل فكرة تقضي باضاعته واقامة غيره في بلادهم مقامه بالتدريج ، (الرابع) الحرص على أن يكون حيزهم[1] من حيث المجموع محترما ، (الخامس) الحرص على أن يكون وجودهم من حيث العلوم والاعمال الصالحة للحياة بصورة تسر أولياءهم في هذه الدنيا وتكبت أعداءهم .

فالذين يتكلمون عن العرب سواء كانوا يتكلمون عنهم بصفة أنهم منهم يطلبون طلبا ، أو بصفة أنهم من غيرهم ولكن يخبرون عنهم اخبارا، يصيبون اذا قالوا ان هذه الامور التي ذكرناها قد اتفق العرب فيها ، وأما نسبة أمور أخرى اليهم بصيغة العموم فالاجدر بالعقلاء أن يرتابوا

---

(١) يستعمل الكاتب كلمة « الحيز » بمفهوم « الكيان » المألوف في لغة عصرنا .

بصحتها على الفور ثم يعرضوها على ميزان التدقيق والتجربة ، فان من الناس من لا يبالون بارسال الكلام على عواهنه تراهم يتكلمون باسم الجماعات أو يخبرون عن الجماعات بأمور كثيرة وما للجماعات من علم بها .

فالذين يسمعون أقوال بعض الخادعين أو المخدوعين في أوربا وغيرها بأن للعرب مقصد كذا وكذا يجدر بهم أن يتذكروا أن من خرق الرأي تصديق غارّ أو مغرور فيما يقوله عن جماعة كبيرة ليس بالسهل على كل أحد معرفة فكرها العام على ما هي عليه من تباعد الاجزاء .

والذين ينظرون الى تباعد الاجزاء في هذه الجماعة فيظنون أن من المحال تقاربها ولو في الامور التي سبقت العادة كثيرا أن يتفق في مثلها البعداء فضلا عن القرباء ، يجدر بهم أن يتذكروا أيضا أن الحاضر قابل للتغير وأن تعارف العرب وتفاهمهم فيما بينهم ليس بمحال بل هو ممكن لاصعب الوقوع ولا بعيده ، فليطلبه من يعتقد أن به نجاحا لهم ولهذه الدولة أيدها الله تعالى ، وليرتقبه على رغم أنفه من لا يريد لهم حياة صالحة للبقاء .

الى هنا أتينا في هذه النبذ بكثير مما نعتقد به فائدة من المغازي والقواعد والاصول ، وبقي بحث الاختلاف بين جماعتين صغيرتين من الجماعة الكبيرة ، وما هي وسائل الوفاق ، وكيف يصنع الفرد وهو بين ظهراني الجماعة اذا خالف رأيه رأيها ، وهي مباحث وموضوعات جليلة بل تكاد تكون بيت القصيد بين هذه النبذ ، فهي من أجل ذلك تطلب منا مزيد بيان وفرط عناية ، ولكنا لطول البحث الذي جاء فوق حسابنا ورسمنا سنضطر الى اجمالها في نبذة واحدة فقط تكون هي غاية « تربيتنا السياسية » .

تربيتنا السياسية (*)

— ٩ —

السياسة والحاجة اليها ، الاختلافات وعلاجها

يتأفف من السياسة كثير من محبي الانسانية لانهم يرون في الذين اتخذوها صناعة كثيرا من العيوب والنقائص المبعدة عن النسخة الجميلة للكمال الانساني على رأيهم ، وأنا ذهبت برهة من الزمان هذا المذهب في التأفف منها ثم بدت لي مظاهر منها وجدتها من جملة المقربات الى الكمال الانساني ، بل ألفيت بعد رؤية هذه المظاهر أن النوع الانساني لم يتيسر له قطع المراحل في التكمل الا على يد السياسة ، وأن المبتلين بعشق الاصلاح لا بد لهم من مددها ، فان ما يطلبونه للانسانية قلَّ أن يكون ملقىً على أبوابهم يريحونه لها وهم مستريحون .

نظرت نظرة في ماضي بني آدم وأحطت به من أطرافه وحدوده منذ كانوا قليلين في الارض ، عراة في الغيران (١) ، ورهن الآجام وحول الغدران ، يجهلون كل صناعة وتضيق مداركهم عن أبْدَهِ المعقولات ، الى أن أصبحوا بهذا العدد وعثروا في عهدنا هذا على أسرار الكهرباء وصنعوا منها العجائب ، فرأيت أن هذا الفرق العظيم لم يتم بمحض ادراكهم الخواص التي أودعها البارىء في الاشياء ، بل تم ذلك بمجموع فوائد اجتماعهم ، ورأيت أنهم مع عظيم فائدة الاجتماع ما زالوا يقاسون

---

* جريدة (الحضارة) ٦٣/٢ (٢٢ حزيران ١٩١١) .

(١) الغيران : جمع الغار .

في سبيله الاهوال من تعسر أسباب التآلف أحيانا ، وهجوم أسباب التنافر تارة ، فوجدت أن السياسة كانت من أعظم ما احتاج اليه هؤلاء البشر في أدوار أطوارهم وأطوار أدوارهم ، فاننا كما نرى للتآلف أسبابا وآثاراً طبيعية نرى للتنافر أسبابا وآثارا طبيعية أيضا ، فالانسان مضطر بين هذه وتلك الى مدافعة أسباب التنافر وآثاره بين المتآلفين والاخذ بأسباب التآلف بين المتنافرين ، وهذا هو أصل السياسة ٠

خذ مثلا من العائلة الصغيرة المكونة من والدين وأولاد متعددين الى الامم الكبيرة المؤلفة من جماعات متعددة تجد التآلف والتنافر مادّيْن أسبابهما ، ضاربين أطنابهما ، فاتحين أبوابهما ، وتجد أن الوالد الذي لم يرزق شمة من السياسة منفور لدى الاولاد ، والمشتغل الذي لم يؤت مصة منها لا يساعده الانداد ، والزعيم الذي حرم ذوقها كثير الاضداد ، وتجد ان الموفق الصالح للزعامة في كل صنف وطائفة هو من كان عليما بأبواب السياسة ، خبيرا بطرق تأليف القوة لينفع بها الاولياء ويصدم بها هجمات المخاصمين ٠

الحياة كلها تضاد : تقارب وتباعد ، تصالح وتعاند ، تراحم وتزاحم ، تحالم وتلاحم ، تواد وتحاد ، تشابه وتباين ، تصاغر وتعاظم ، تجاهل وتعالم ، تساو وتمايز ، توافق وتخالف ، تواضع وتصالف ، تناصح وخداع ، تعاضد وصراع ، تسالم وجهاد ، تشارك وحياد ، تمادح وسباب ، تعادل وغلاب ، تراض وشجار ، تصاف وفجار ، ووراء ذلك قناطر الحاجات المستمرة الملازمة في الاحوال المتضادة بين صحة وسقم ، وقلة وكثرة ، وذكر وذهول ، وقوة وضعف ، وسعة وضيق ، ورجاء وخوف ، وفوز وحرمان ٠

هذه بعض اوصاف الحياة أو أوصاف الوظائف التي على الانسان

تحملها ، وهي وظائف وشروط ثقيلة يخيل الينا أنه لولا السوائق الطبيعية لمحبة الحياة على أية حال كانت لما تردد المبتلون بها في إيثار النوم الابدي على اليقظة الموقتة الحاصلة منها . ولكن هذه اليقظة القليلة شديدة الحلاوة مهما شابتها الشوائب من التزاحم والتلاحم والتخالف والخداع والصراع والجهاد والسباب والغلاب والشجار والفجار والسقم والقلة والذهول والضعف والضيق والخوف والحرمان ، فهي من أجل هذه الحلاوة تحمل على ثقلها ، وتؤمل على قلتها وكثرة عوارضها ، ولكن أنىَّ الطاقة للحي المسكين بحملها اذا لم يقوَّ ظهره بالمقويات الصناعية مع المقويات الطبيعية . وينبوع تلك المقويات انما نلفيه عند السياسة فهي التي تعلم أسباب التعاون ووسائله اذا جهلت ، وهي التي تذكر بها اذا نسيت ، وهي التي تنير طرقها اذا عميت . هي التي تنعش الآمال ، وهي التي تطبب الضعف ، وتتعهد مغارس القوة ، وتمهد للافراد طرق اللذة والانتفاع بالروابط حتى يصبح الفقير المعدم المحروم مغرما بأمته وان كان حظه بينها الحرمان وحلول المصائب ، ولا يزال ارتباطه بأمته مسهلا عليه مصائبه ودافعا به الى تحمل أثقل التكاليف التي توجبها القوانين من أجل صون الامة واقامة شأنها بين العالم ، وكأنه في صبره وثباته مع اقتداره وحرمانه يتعزى بما لأمته باعتبار مجموعها من عزة الجانب واتساع القوة لجلب الخير وجبِّ الضير ، وكأنه لا يكون منقطع الرجاء من خير يناله أو ينال ذريته ببركات الجامعة التي هو معتصم بحبالها ، وكل ذلك من صنيع ما نسميه « السياسة » وهي مما يهدي الفاطر النوع الانساني اليه من الوسائل التي تأخذ بيده بين مخالب الاختلافات .

* * *

كيفما التفت الانسان يجد شيئا من آثار التخالف ، الوالد والاولاد

يتخالفون ، الإخوة يتغايرون ، أبناء العمومة يتضادون ، ذوو الأرحام يتقاطعون ، أبناء العشيرة الواحدة يتصاولون ، أولاد الحي الواحد يتزاحمون ، أهل البلد الواحد يتقسمون وأقسامه يتباعدون ، أولو الرابطة الواحدة يتناكرون ، فما هو العمل بين لجج هذه الاختلافات ؟

إني أرى للفرد إن خالف الجماعة أن يكون حسن الأدب في خلافه ، وأرى للجماعة إن خالفت جماعة أخرى أن ترتاد لنفسها الحكمة في مجاري الخلاف ، وتتحلى بالشجاعة في سلمها وخصومتها .

إن شيوع الاختلاف والتباين بهذا المقدار هو الذي يسهّل احتماله فانه يمرن النفوس ، وفي الأمثال السائرة أن المصيبة اذا عمّت هانت ، على أن الأولى أن لا نعدّ الاختلاف من أصله وطبيعته مصيبة ، بل المصيبة هي أن نجهل الطرق الجميلة للسلوك حين الاختلاف ـ كلٌ بحسبه ـ وأن نُحرَمَ من الحكمة التي قد تُخرج من الخلاف وفاقاً .

نعم ليس الخلاف في حد ذاته بمصيبة بل هو من جملة الامور الطبيعية التي منها خير وشر على حسب الاستعدادات والقابليات والظروف والمقادير والدرجات ، وإن كانت الاختلافات قد أضرت كثيرا فهي قد نفعت كثيرا أيضا ، لانه مادام للغباوة والغفلة والظلم والقسوة مثلاً وجودٌ فينبغي أن يكون للذكاء والتنبه والعدل والرحمة وجودٌ أيضا ، وبديهي أن الذكي والمتنبه والعادل والرحيم مخالفون للغبي والغافل والظالم والقاسي ، وما دام للطمع وجود فالضرورة قاضية بأن توجد قوة تقمعه وتكبحه ، والقامع الكابح مخالف للطامع الجامح ، وما دام للإفساد وجود فالحاجة ماسة الى

الاصلاح ، والمصلح مباين للمفسد ، وعلى هذه الامثلة يكون قياسك أيهـا القارىء العزيز •

***

مُنيَ العثمانيون كما مني غيرهم بشيء من الاختلافين العظيمين : الاختلاف الديني والاختلاف الجنسي ثم الاختلاف السياسي ، فلا ينبغي أن نعجب من ذلك أو نتأفف منه بل ينبغي أن نتذكر أنه طبيعي وأن جميع الامم والطوائف مثلـه ، وينبغي أن نتوسل الى عـلاج مانوجس ضرراً عظيما وخطرا كبيرا منـه •

مهما سلمت بعض الامم من الاختـلاف الجنسي والاختلاف الديني لا نجدها تسلم من الاختلاف السياسي ، وأحيانا يكون أعظم أثـرا بل ربمـا خلا الاختلاف الديني والاختلاف الجنسي من آثار كبيرة جديرة بالذكر كآثار الاختلاف السياسي •

كثرت اللهجة في هـذه السنين الاخيرة بـأمر الاختلاف الجنسي والديني ، وتوكأ كثير من النـاس على نغمـة التعصب فمتى سمعوا أدبا دينيا قالوا تعصب كأن الدين الذي هذب الأجداد وألف لهم جمعيات آخت بين شرقيهم وغربيهم ، وجنوبيهم وشماليهم ، قد أصبح لا يفي بوظيفة بعض الجمعيات التي تسعى الى مثل ما أتى به الروح الديني من ثمرات التهذيب والمواخاة ، ومتى سمعوا رباطـا جنسيا قالوا تعصب كأن البشر قـد بلغ في الارتقاء مقاما استغنى فيـه عن رابطة القومية التي مـع أخواتها نفعت هذا النوع الانساني ومـا برحت تنفعـه •

أجل كثرت اللهجة بالتأفف من الاختلاف الديني والجنسي وقـد نسي هؤلاء المتأففون أن وراء هذين اختلافا آخر قد يصول أكثر مما

صالا ، ولا يزول اذا هما زالا ، وهو الاختلاف السياسي •

الاختلاف الديني قديم ، ولكنا لم نر على عراقته في القدم أنه وقف الدهر كلّه حائلاً دون تعاون المختلفين فيما لهم فائدة فيه مشتركة كعمران المزارع ، وإقامة المتاجر والمصانع ، والتوسع في الاختراع وتكثير أنواع البضائع ، وهكذا وجدنا الاختلاف الجنسي أيضا لم يحل دون هذه الفوائد أيضا ، ووجدناهما لم يمنعا أن يتساكن المتخالفان في بلد واحدو بيت واحد، ولم يمنعا أن يرسخ المُلك في بلاد كثيرة ليس الملِك من أهل دينها ولا أهل جنسها ، واذا رأينا أحيانا أثراً فظيعا للاختلاف الديني أو الجنسي فإن أغبّ التتبع والإمعان نجده في الحقيقة أثرا للاختلاف السياسي ، ولذلك أودّ وأرى أن نلقي بالا ونظراً قبل كل شيء الى هذا الاختلاف فاذا تعلمنا الطب المطلوب لمعالجة قروحه أولاً وبالذات كانت لنا الفائدة المطلوبة لمداواة قروح الاختلاف الجنسي والديني من غير ما نقص •

خطر بالبال أن نقسم المتخالفين الى ذوي إخلاص وغير مخلصين ، ونبني الكلام على كل قسم بحسبه ، ثم ظهر لنا أن في تعيين علائم الاخلاص وعدمه صعوبةً قد تبطل فائدة هذا البيان وتجعلها نظرية بحتة ، مع أننا نرمي الى ماهو مطلوب من العمل وما هو ممكن أن نبلغ فيه المطلوب بقدر الامكان على التدريج ، ولذا عدلنا عن التقسيم ورجّحنا أن نذكر العلاج النافع في الاختلاف السياسي بصرف النظر عن كونه ناجما عن نية صالحة وإخلاص أو عن ضد ذلك •

الاختلاف السياسي هو الذي يقع بين زعماء الجماعات ، وهو يدور على الاشخاص كثيرا ، فالذين يريدون أن يعيبوا رجال الساسة أحيانا بأن اختلافاتهم شخصية لا يكونون بهذا الوصف أتوا بما

يعيبهم لأن بعض الاختلافات السياسية شخصية صرفة ، مثل أن فلانا صالح لكذا من الاعمـال مثلا في نظري أو هو غير صالح ، ومثل أني أنا أقدَرُ على إدارة هذا العمل منك أو أنت أقـدر مني ، ومثل أن اعطاءك قوة يضر المملكة فلا ينبغي ذلك أو ينفعها فيجب ذلك • فمن هذه الامثلة وأشباهها يتبين للمحقق أن تفريق العموميات من الشخصيات في الاختلافات السياسية قـد يتعسر أحيانا ، وأن تفنيـد النظر في الشخصيات على الاطلاق هو غلط محض لأن كل شيء من إصلاح وافساد انمـا يأتي على أيدي الاشخاص ولأعمالهم علاقة بسيرتهم وسريرتهم ، وهل معظم السياسة التي تبغيها الجماعة الا دفع الاشخاص الضارين بها عن مواقع الاقتدار واعانة النافعين لها على بلـوغ تلك المواقـع •

فاذا كانت الاختلافات طبيعية والاختلاف السياسي يدور كثيرا على الاشخاص كان العلاج الوحيد الذي ترجع اليه كل أنواع العلاجات هو أن نفهم قبل كل شيء أن تجمع الجماعات وتألف الاحزاب نعمة لا نقمة فهو يقلل الاختلاف بقـدر الامكان ، وهو يوقف كلا عند حده بشرط أن يكون للجماعة زعمـاء حكمـاء ، معروفو الحـال ، يعرفون آداب الاختلاف ومسالكه ومجاريه ولهم بصيرة نافذة ، بها يرون نتائجه • وبديهي أن الجماعة التي تعرف قيمة نفسها لا يكون زعيمها قائمـا فيهـا بالغلبة بل بعون وتأييد منها ، فلتنظر الجماعات من تعيّن وتؤيد الى بلوغ الزعامة فيها والنيابة عنها •

قـد يقول قائل : إن كانت الجماعات التي يبلغها صوتك هـذا ذات رأي صائب ، وفكـر جامع ثاقب ، فهي مستغنية عن هذه النتيجة التي أتيتها بها ، وإن كانت متفرقة متمزقة لا تملك رأيـا جامعا وفكرا

عاما ، فإنك تكون كمن اجتهد بإسماع من في آذانه وقر ، فياليت شعري ألا يعرف قائل هذا القول أن الجماعات التي يبلغها صوتي هذا إن كانت متفرقة فهذه النتيجة من أقوى ما يُذهب وقرها ويهيب بها الى الافاقة والنهوض الى لمّ الشمل ، وإن كانت متنبهة ذات رأي جامع وفكر عام فهذه النتيجة من أقوى ما ينشطها ويزيد نظرها الى قيمة نفسها والتفاتها الى الصفات التي ينبغي أن تكون فيمن تقدمه للزعامة والنيابة عنها . وهل ينتظر المعترض مني سوى التذكير أم يفكر بفوائد التذكير والمَلَوان (1) بها مؤمنان ؟

هذه هي تذكرتي فمن شاء ادّكر ، والايام التي ستشهد للحق آتية ، والسنن التي تعضد الجد جارية ، والله يهب الهداية ، ويقيم الأصلح بالعناية، ومناط رجائنا إتاحته الاسباب المناسبة فيكون لنا فهم "وعلم وحسن عمل وحسن ادكار ،فلا نختلف يومئذ الا متحابين،ولا نتفق الا متواصين بالحق متواصين بالصبر ، وعند التواصي بالحق والتواصي بالصبر تنتهي خطوط التربية السياسية ، فان أعظم ما نحتاج اليه في هذه التربية هو الصبر وحب الحق ، ولا سيما صبر بعضنا على بعض ، ولا سيما حبنا حقنا وحقّ الدولة وهناك ترى تباشير الفوز والنجاح ، والله مع الصابرين ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا .

❋ ❋ ❋

(1) الملوان : الليل والنهار ويريد ان الزمان اثبت صحة مايذهب اليه .

من هم العرب (*)

(تاريخ آداب اللغة العربية)

إخواننا الذين في الحجاز واليمن والعراق وسورية وإفريقية قد سمعوا ، وهم في أوطانهم المباركة ، ضجة سياسية حدثت هذه الآونة في استانبول وما حولها سلانيك ومناستر وأزمير ، وقرأوا في جرائد شتى ، عربية وغير عربية ، عن هذه القلاقل أخبارا علّقت عليها حواش وشروح ، فوصلتهم مرقعة مبقعة قد اجتمع فيها من الالوان بمقدار ما اختلط من الأهواء ، فنحن نقول لهم الآن إن هذه الشؤون ما زالت ولن تزول من هذه القاعدة بيد أن بعضها ينجلي عن جعجعة من غير طحن كما هو غالب الظن في الضجة التي حدثت هذه المرة ، وبعضها ينجلي عن عاصفة سافية تذهب معها والعياذ بالله العافية ، كما وقع في مرات مرّت ، وعلى كلتا الحالتين يجب عليكم اذا كنتم تحبون السلامة لهذه الدولة ولأنفسكم أن تعرفوا أنفسكم . هذا هو معظم ما في « الحضارة » من مذهب سياسي في الشؤون الداخلية ، أما مذهبنا في الشؤون الخارجية فلا نحب أن نكثر من جلْوه وانما ندخل شيئا منه أحيانا في أطواء المناسبات ، على أن الداخلية والخارجية عندنا شيء واحد في أكثر الاوقات باعتبار أن من صحّ داخله صح خارجه ولا تضيره الطوارىء البسيطة ، ومن فسد داخله فسد خارجه ولا تجيره الصبغ والتماويه كيف كان أمرها بل يزيد بعضها فساداً .

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٦٠ (١ حزيران ١٩١١) .

في هذه المقدمة الوجيزة جواب لصديق عزيز كتب ينكر علينا إقلالنا من الفصول (أو الفضول) في السياسة الخارجية وفيها تنبيه لقرائنا الأعزاء أن القوة لهذه الدولة انما هي في أن يكون العرب معروفين وغير منكورين ، وأن على العرب قبل كل أحد أن يعرفوا ويُعرِّفوا بها ، وأنهم إن جهلوا هم أنفسهم لم يكن غيرهم ملوماً .

من هم العرب ؟ هم اليوم قوم يجهلون أنفسهم حتى إنّ أعرف العارفين بهم من أنفسهم ينكر اليوم قابليتهم في موضع من كتاباته ويثبتها في موضع آخر ، وله شيء من العذر في نظري لأنه يراهم من جهات كثيرة فيجد في بعض الجهات ما ينسيه الذي رآه في الجهات الاخرى : يراهم من بعض الجهات وُرّاث ذلك الشعب الكبير الذي تسلسل مدنياته وعلومه منذ قرون كثيرة قبل الاسلام الى قرون كثيرة بعده ، فيقول في نفسه إن ما لناموس[1] الوراثة من التأثير يقضي علينا أن لا ننفي عن هذه الأخلاف شيئاً من تلك القابلية التي كانت للأسلاف ، ويراهم من بعض الجهات متقطعين متقاطعين ، متباعدين متباغضين ، غير مقبلين على إحياء آثار الاسلاف من المدنية والعلم كما ينبغي فيقول في نفسه إن ما للعوارض الاجتماعية من التأثير يقضي علينا أن نذهب الى أن هذه العوارض تغلبت على ناموس الوراثة كما شوهدت أمثال ذلك في كثير من شؤون الامم ، ولكن بين هاتين الجهتين المتضادتين جهات كثيرة هي حلقات الاتصال ، فلو أشرف الباحث من كل الجهات ووصل مشاهداته في جهة بمشاهداته في أختها القريبة ، لكان حكمه أقرب الى الحقيقة وأبعد عن المؤثرات من النسيان والحيرة. اذا قلنا إن العرب يجهلون أنفسهم فليس فيه التعييب على شخص بعينه

(١) يريد بناموس الوراثة قانونها وسنتها .

وانما هو اغراء وحَدْوٌ للهمم كي تزيل ذلك الصدأ الذي ركمه الزمان لأسباب كثيرة ، واذا لم نقل هذا القول فان الداء يبقى داءً ولا يزيدنا السكوت الا أنيناً وتوجعا .

إي والشرف ! لا يعرف العرب ماضيهم كما يجب ولا يعرفون حاضرهم كماينبغي،وليس ذلك الا من الاهمال وقلة التذكير والتذاكر،ولهذا أصبح معاشروهم لا يعرفونهم أيضا حق المعرفة ، فتركب المرض وأصبح أول الطب المطلوب لهم الآن هو أن يعترفوا هذا الاعتراف .

للعرب ماض عظيم ولا أعني به الماضي من بعد ظهور الاسلام فقط وانما أعني كل ماضيهم الذي عرفه الباحثون من الامم السالفة والحاضرة، ومنه ذلك الذي أشار لنا القرآن المجيد أنواع الاشارات الى حكاياته لتكون لنا عبرة وذكرى .

بديهي أن هذا الكتاب الحكيم لا يأتي بأحاديث الغابرين على اسلوب المؤرخين وانما يأتي بها على أسلوب الناصح المذكر ، ولكن طالب التاريخ يأخذ أيضا حصة وافية من مثل ذلك الاسلوب العالي الذي يحيط بالموضوع من أخص جهاته . لقد وصف لنا هذا الكتاب الصادق انقلابات قبائل وجماعات كانت معروفة الاسم والحال بالجملة عند عرب الحجاز ، وكونُ تلك القبائل والجماعات من العرب يظهر صريحا في بعض تلك الجماعات وقريبا من البداهة في الجماعات الاخرى ، اذ ليس في القرآن المجيد أخبار الجماعات النائية عن العرب المجهولة عندهم، وما جاء من أخبار بعض الجماعات المعروفة عندهم قد صرح باسمها كالروم مثلا .

أخبار تلك الانقلابات التي قصها علينا القرآن المجيد يؤخذ منها أن تلك الجماعات التي حدثت فيها كانوا على جانب عظيم من الحضارة

والزينة والرفاه ، ومن ذلك أن جماعة منهم كان لهم مدينة « لم يخلق مثلها في البلاد » وقد أظهر الاكتشاف والحفر والتنقيب في مساكن العرب القدماء ما يدهش من نحت الصخور واتخاذ البيوت منها وحدها على ما فيها من النقوش والزخرف والهندسة ، وكذلك أخبر ذلك الكتاب المجيد عما كان لهم من الجنان وعما كانوا متمتعين به من صحة الجسوم واعتدال الخلق وأنهم عمروا الارض وتمكنوا فيها كثيرا من العزة والسيادة وطيب العيش ، وكل ذلك قد عرفه الباحثون المتأخرون في يومنا هذا على نحو ما عظّم القرآن المجيد من شأنه .

أما تلك الانقلابات فلها أسباب يطول بنا تفصيلها هنا ويخرج بنا عن الصدد فنحن نكتفي بأن نأخذ منها النتيجة وهي أن تلك المدنيات كان يوجد فيها نقص وعيوب على ما كان لاصحابها من جودة القرائح وعلو الهمم وسعة العلم بالعمران ، فكانت سنة الله سبحانه تقضي بانطفاء لوامع تلك المدنيات لتخلفها مدنيات أصحُّ وأصلح وأكثر مناسبة واستعدادا للبقاء .

نعم كانت تنطفىء لوامع تلك المدنيات ولكن كانت تخلفها أخَر في ذلك الشعب نفسه فيوماً كانت طائفة منه تنشيء حضارة في سبأ اليمن ، ويوماً كانت طائفة أخرى تقيم عمرانا في العراق ، ويوما كانت طائفة أخرى توجد مدنية في شواطيء سورية ثم في شواطيء إفريقية ، ويوما كانت طائفة منه تنبت عرفانا في أيلَة وما حولها . ما زالوا كذلك حتى بزغ منهم النور الاعظم الذي ملأ الخافقين ، وأضاءت به المشارق والمغارب ، هنا تجد العرب قد اختفوا في الحقيقة وظهر شيء آخر مكانهم ، نعم هنا ظهرت بواسطتهم جامعة إنسانية عظمى تضم بين جوانح محافلها طوائف كثيرة من كل أبناء آدم وبنات حواء ، فان كان هذا

منتهى ما يسعى محبو الانسانية لرؤيته من الاخاء الانساني ومن أجله يؤلفون الجمعيات فلا تبلغ أعضاؤها الا عددا قليلا جدا بالنسبة الى مجموع بني آدم فليُفرحهم هذا الاخاء الذي جعل نحو خُمس العالم على اختلاف أجناسهم جمعية واحدة قائمة على أسس العدل والمرحمة ؛ الرب عندها واحد ، والامام الاكبر عندها واحد ، والمقصد الاعظم عندها واحد وهو أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا وبعضنا بعضا عبيداً .

هذه روح ربانية قد أمدّ الله بها النوع البشري فنفعتهم كثيرا حسب اعتراف كل العقلاء، وقد كانت جزيرة العرب مشرق نورها بإذن الله تعالى ، ولا يزال العرب على ما صدمهم من العوارض الاجتماعية آخذين بحظ عظيم الفائدة من الاستضاءة بهذا النور ، ولكن قد تخفى على كثيرين بركات هذا الحظ لكثرة الغيوم الاجتماعية والسياسية الحائقة بأجوائنا .

حدث بعد ظهور هذه الروح العظمى كثير من الانقلابات الماضية التي أشرنا اليها ، ولكن الذي نزّل الذكر « القرآن المجيد » قد وعد بحفظه ، والذكر هو حافظ اللغة وجامع شتات المتكلمين والكاتبين بها الى يومنا هـذا ، فللعرب اليوم جامعة عظيمة من لغة يشرفها الدين والاجتماع ، ويتكلم بها خمسون الى ستين مليونا من البشر تتصل دورهم وبلادهم ببعضها ، لا يفصل بينها من المياه الا ترعة السويس ، ويتدارس لغتهم أيضا مئتان وثمانون مليونا الى ثلاثمئة مليون من البشر الذين يتكلمون بلغات أخرى .

فالعرب اليوم هم أهل هذه اللغـة التي عُرفت حياتها وعُرف ارتقاؤها منذ عُرف التاريخ ، وهم أهل هذه الاوطان الجميلة المتوسطة في الارض المتاخمة للأقيانوس ولبحر الهند وللبحر المتوسط ، وهم أهل هذه العقول الذكية التي توارثوها أكثر من سبعة آلاف سنة عن

أسلاف عرفوا بإقامة الحضارات وإحياء العمران وانبات العرفان • واذا شئت أن تزداد معرفة بهم فاقرأ الكتب الشارحة لهذا الشأن •

***

صدر الجزء الاول في هذه الايام [١] من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي افندي زيدان مشتملا على تاريخ آدابها في عصر الجاهلية وعصر الراشدين والعصر الاموي أي من أقدم أزمنة التاريخ الى سنة ١٣٢ هجرية • أما الكتاب كله ففي ثلاثة أجزاء قال مؤلفه : « يشتمل على تاريخ اللغة العربية وعلومها وما حوته من العلوم والآداب على اختلاف مواضيعها وتراجم العلماء والادباء والشعراء وسائر أرباب القرائح ووصف مؤلفاتهم وأماكن وجودها أو طبعها من أقدم أزمنة التاريخ الى الآن » •

تصفحنا هذا الجزء الاول فوجدناه كسائر مؤلفات هذا المؤلف المجتهد حسن الترتيب،متقنا ، جامعا لكثير من الشوارد ، سهل الاسلوب حلوه ، جم الفائدة ، لذيذ المغزى • وقد تعودت اللغة العربية وقراؤها من هذا الكاتب إهداءه التحف السنية ولكنا قد وجدنا هذه أسناهن وأوفاهن ، ولو رحنا نشكر المؤلف على هذه العناية باللغة لخشينا أن يشتم منه أن علاقتنا بها أقوى ، كلا بل هو ابن هذه الام مثلنا ، وخادم أمه يجزيه الله ويشكر العالم كله حسن أدبه ، أما نحن فنشكره من حيث أنه أخ مفيد في حياتنا الاجتماعية ، وعضو نافع في عائلتنا العربية •

على أننا نغتنم هذه فرصة لأن نهدي اليه كلمة من العتاب على بعض

---

(١) نشرت هذه المقالة في ١ حزيران ١٩١١ .

نظريات في حق العرب ساقها في هلال السنة الماضية وقد عنَّ لنا اذ قرأناها أن نؤلف كتابا في تفنيدها ، ثم ثنانا عنه ثانيان : حبُّ الابتعاد عما قد يؤول الى الشغب ، والثقة بأن فكر المؤلف في هذه المسألة ربما يتبدل مع الزمان كما وقع لكثير من المؤلفين في كثير من النظريات .

قال المؤلف في صحيفة ١٣ من هذا الجزء الذي نحن بصدده : « وقد رجحنا في كتابنا « العرب قبل الاسلام » صحيفة ٢٩ ج ١ أن دولة حمورابي عربية وأنها أقدم دول العرب فاذا صحّ استدلالنا هناك كان أقدم الآثار العلمية الباقية كاملة عربيَّ الفكر وان كان آشوريَّ اللغة » .

وقال في صحيفة ٢٣ « لم يتصد أحد للبحث في آداب اللغة العربية قبل زمن التاريخ لقلة المواد المساعدة على ذلك ولاعتقادهم أن العرب حتى في الجاهلية الثانية قبل الاسلام كانوا غارقين في الفوضى والجهالة لاعمل لهم الا الغزو والنهب والحرب في بادية الحجاز والشام وفي نجد وغيرها من بلاد العرب ، على أننا اذا نظرنا الى لغتهم كما كانت في عصر الجاهلية نستدل على أن هذه الامة كانت من أعرق الامم في المدنية لانها من أرقى لغات العالم في أساليبها ومعانيها وتراكيبها ، واللغة مرآة عقول أصحابها ومستودع آدابهم ، فمتكلمو اللغة الفصحى كما جاءتنا في القرآن والشعر الجاهلي والامثال لا يمكن أن يكون أصحابها دخلوا المدنية أو العلم من قرن أو قرنين فقط ، إذ لا يتأتى للغة من لغات المتوحشين أن تبلغ مبلغ لغات المتمدنين الا بتوالي الأدهار ، فكيف باللغة العربية الدالة على سمو مدارك أصحابها وسعة تصورهم ودقة نظرهم كما سنبينه في أماكنه . على أن الاكتشافات الأثرية أيدت هذا الرأي بما أظهرته من بقايا تمدن اليمن

قبل الاسلام ببضعة عشر قرنا ولم يظهر من تلك الاطلال الا الطفيف لأن ما عثروا عليه من الاحافير لا يذكر في جانب ما بقي مدفوناً في الرمال ، فضلا عما ظهر من فضل العرب وإعراقهم في المدنية والعلم مما قرأوه من آثار بابل وآشور فاذا صح أن دولة « حمورابي » التي تولت بابل وسائر العراق في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد عربية" كما بينا ذلك في كتابنا « العرب قبل الاسلام » صفحة ٤٩ ج ١ كان العرب من أسبق الامم الى المدنية والعلم فانهم أقدم من وصلتنا شرائعهم وقوانينهم . هذه شريعة حمورابي التي عثروا عليها في بلاد السوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود الصلب سنها حمورابي في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد أي قبل شريعة موسى بثمانية أو تسعة قرون وهي مؤلفة من ٢٨١ مادة تبحث في طبقات الامة وحقوق المرأة وواجباتها والزواج والتبني والإرث وغيره »

وقال في صحيفة ٢٤ « فاذا صح أن هذه الدولة عربية كان العرب أسبق أمم الارض الى سن الشرائع وتنشيط العلم ، وأنهم بلغوا في نظام الاجتماع ما لم يبلغ اليه معاصروهم ، وأدركوا من الرقي الاجتماعي ما لا يزال بعض الامم المتمدنة في هذا العصر بعيدين عنه »

وقد بحث المؤلف عن درجة ارتقاء جاهليتهم في العقول والاخلاق (صحيفة ٢٩) وعن درجة ارتقائهم في السياسة والعمران (صحيفة ٣٠) وعن درجة ارتقائهم في التجارة والاقتصاد وعن تعقلهم وآرائهم (صحيفة ٣٠ أيضا) وعن ارتقاء نسائهم (صحيفة ٣٣) وختم كل فصل من هذه الفصول بنتيجة قطعية قضى بها لهذه الامة بأنها من الامم الراقية والسابقة في الرقي في كل هذه الشؤون ، ثم ذكر من علومهم في جاهليتهم ما يؤيد هذه النتائج ويجعلها ناصعة يراها كل أحد بدون تعب .

واذا انتهى القارىء معنا الى هذه النقطة فاني أرجوه أن يعلم هو ثم يقول لكل من لم يكن عربيا أنا فيما نورده من مثل هذا لا ننوي التبجح به على غيرنا ، أستغفر الله ، وأقسم للقارىء بشرفي أن هذا بعيد عن مشربنا بل نحن نعرف للامم الاخرى مزاياها ونحترم الجماعـات كلها ونجلها ، وغرضنا من كل هذا أن لا ننسى فضل الله علينا ، فان من نسوا الله ينسيهم أنفسهم ، ومن نسوا أنفسهم ضاعوا في العالمـين وصاروا في الذل والبوار مثلا وعبرة للآخرين ، ذلك ما نعوذ منه بالله ونعيد فيه الذكرى ، والذكرى تنفع ولو بعد حين •



الأحاديث الحاضرة (*)

السفر السلطاني

ترى أيها القارىء العزيز في قسم الاخبار من هذا العدد تفاصيل مراسم السفر السلطاني الى سلانيك وبعض بلاد الارناؤوط ، أما في هذه المقالة فتسمع بحثاً في الدواعي الى هذا السفر والنتائج المنتظرة منه اذ معلوم أن أعمال الناس على اختلاف طبقاتهم تعد غير خالية من المقاصد وذلك لأجل أن تصان عن العبث ، والناس مولعون باستكشاف المقاصد ولا سيما مقاصد الاعاظم منهم ، وولعهم أشد بأخبار الملوك ، جليّها وخفيّها ، وجليلها ودقيقها ، وهم يستنبطون المقاصد في كل حركة يتحركونها ، وأنا لا أستقبح هذه العادة وإن كانت استنباطاتهم تلك قائمة على فنون من الظنون ، بعيدة عن مواقع الواقع غالبا ، لان في اهمال البحث عن أعمال الذين يحتلون أكبر المراكز في الهيئة الاجتماعية البشرية مضرتين : إحداهما لمن يهمل البحث عنه من أولئك الاعاظم فان في ذلك الاهمال شيئاً من الاستخفاف ، والمضرة الاخرى للجماعة التي بينها وبين حركات ذلك العظيم علاقة وارتباط .

نحن ، معشر المشارقة البعيدين عن أوربا ، قد نظن أن الملوك فيها لم يبق لهم تأثير ، ونظن أيضا أن وقوع هذه الحال هو من الامور الحسنة النافعة للامم ، ولكن البحث والتأمل يريانا على ما يظهر لي

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٦١ (٨ حزيران ١٩١١) .

أنَّ كِلا الظنين خطأ ، فاننا لا نزال نرى في ألمانية مثلا أن للملك تأثيرا، وما فتئنا نشاهد أن قوة النفوذ الشخصي لملك تلك البلاد الكثيرة العَدَد والعُدَد لم يضرها بل نراه زادها ولم ينقصها ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن النمسة تتضرر بملكها ، ولا أن يقول ان ملكها لا تأثير له ، والروسية معدودة من أوربا أمم المدنية فهل ثمة قائل يقول ان ملكها بدون تأثير ، وهل من يدعي أن الروسية متأخرة بسبب ما لملوكها من التأثير يَجِدُ لتأييد قوله أدلة كافية لا تنقصها علوم الاجتماع والسياسة ؟

عرف قراء التاريخ من أخبار الامم الماضية ما فيه أمثلة لكل أنواع الارتقاء والانحطاط ، وقد عرفوا أن لكفاءة الملوك أو عدمها دخلا كبيرا في منافع أممهم وحضارها، وليعرفوا الآن انه لا يزال لهذه الكفاءة أو عدمها في أيامنا الحاضرة ذلك التأثير الذي عرفوه في الايام الغابرة، وليعرفوا أيضا أن الهيئة الاجتماعية البشرية تهتم اليوم بأخبار الملوك وتستنبط من حركاتهم ما تستنبط على نحو ما كان الناس من قبل من غير ما نقص ، والتغير الذي حدث في شكل الحكومات في أوربا ومقلديها لم يغير هذه العادة المرتبطة بالاسباب التي أشرنا اليها .

الملوك في الحكومات المقيدة بالقوانين الاساسية غير مؤاخذين وانما المؤاخذة أمام الامة نُظّارهم ، ولكن قد تتضرر الامم من النظار ضررا لا تلافي له ولا تغني فيه المؤاخذة ، ولذلك ما برح الفرق كبيرا في نظر الامم بين مَلِك يستطيع نصب الذي هو صالح للوزارة وملك يفقد هذه الاستطاعة ، ولذلك أيضا يجب في حكم العقل والتجربة أن يكون بيد الملوك شيء من تلك الاستطاعة ، ويجب أن لا يكون الحذر من النظار الذين يؤاخذون ولا تعوِّض مؤاخذتهم شيئا من الخسارة أقل

من الحذر من الملوك الضعفاء ولا أكثر من الحذر من الملوك المستبدين ، لانه كم من ناظر في الحكومات المقيدة يأتي بمنكرات قد يتحاشاها أكثر الملوك استبدادا ، وكم من ناظر يخون الوطن عمدا ، ولكن الملوك يندر منهم جدا تعمد الخيانة للوطن لمنافاتها مصلحتهم ، وانما يكون ما وقع من مضارهم في الوطن ناشئا عن خطأهم في الاجتهاد أو افراطهم أو تفريطهم في بعض الشؤون •

يسافر الملوك في أوربا كثيرا ، رسميا وغير رسمي ، فان كان السفر غير رسمي لا يكثر فيه البحث لانه شخصي وهو يكون لترويح النفس غالبا ، ولكن متى كان السفر رسميا رأيت أعمدة الجرائد تمتلىء شروحا وتفاصيل للمقاصد الجلية ، وحواشي من التكهنات عن المرامي الخفية ، ولهذا كله ينبغي أن لا يعد من البدع أو من الفضول تطلاب النـــاس والجرائد الحكمة التي في السفر السلطاني •

أين نجد السر والدواعي في هذا السفر ؟ القاعدة أن يكون البحث في مثل ذلك مع رئيس النظار ، وقد سألنا بعضهم فأبدوا لنا حكما كثيرة لهذا السفر المبارك ، منها اظهار الفرق بين الملك في الحكومة المطلقة السابقة والملك في الحكومة المقيدة الحاضرة ، ذلك كان شديد الاحتجاب عن أهل الوطن ، شديد الضن بالاقتراب منهم ، ناسيا أو متناسيا أن أبناء الوطن أعضاء عائلة واحدة ، هو رئيسهم الذي ينبغي أن يسر هو برؤيتهم ويسروا هم برؤيته ، وملك الحكومة النيابية الحاضرة هو على شرطها يأنس بأبناء الوطن ويسمح بأن يأنسوا برؤية محياه الكريم ، يرون فيه بوارق العطف والحنان ويرى فيهم شوارق المحبة والاخلاص ، فتقوى العرى ، ويزداد الشوق الى بلوغ الذ ّرى •

ومن الحكم التي ذكروها جبر قلوب من كسرت قلوبهم في الحوادث الماضية من الارناؤوط ، وقد قلنا لمن حادثناه منهم أن كل ما ذكرتموه

صحيح ، ولكن بالله كيف تكون قلوب القوم اذا طلع عليهم وجه حقي باشا ذلك الذي رأوا من وزارته ما رأوا ؟

هنا صمت مخاطبنا ووجم ، ولكن الحال نطقت والسريرة أجابت ، وكم سكوت أدلُّ من البيان .

الوزارة والمجلس

عرف القراء الخلاف الذي قام بين الوزارة والنواب بشأن تمديد اجتماع المجلس ومساعدة الحزب الكثير العدد لها ، وعرفوا أيضا أن الوزارة جعلت سبب الاختتام السفرَ السلطاني ، وقد بينا لهم الحقيقة في هذا الامر وهو أن المجلس كان يستطيع أن يشتغل بأمور لا تقتضي وجود الصدر مدة غيابه وحينئذ لا يكون السفر السلطاني ولا سفر حقي باشا مانعا من بقاء المجلس مجتمعا ريثما يتم أعماله التي منها القوانين واللوائح التي عرضت عليه يوم الاختتام ، ولفلفت فيه لفلفة بأعجوبة من أعاجيب الاستعجال ، ولكن حقي باشا الذي غاظه من المجلس اقامته الحساب دائما لم يجد ذريعة للتخلص منه أحسن وأروج من هذه الذريعة وقد فاته ان الوزارة التي تهرب من المجلس هربا ، وترجو الثقة منه رجاء، فلا تنال منها الا شيئا ضعيفا جدا ، اذ لم يبلغ الواثقون نصف أعضائه ، ليست بالتي ترضى عنها الامة ، وهل يظن أن هذه الحالة يرضى بها أحد مثله من أصحاب المقامات الكبيرة ؟

لقد بينا رأينا في هذه الوزارة قبيل افتتاح المجلس وذكرنا ما خلاصته أنه لا بد من سقوطها ، فالآن ربما قال قائل ما بال حدس « الحضارة » لم يصب في هذه المسألة ، أما اذا تأمل القارىء العزيز فيما طرأ في هذه الستة الاشهر على هذه الوزارة من التغير ووقوع التبدل في أعضائها وفي درجة ثقة حزبها الكثير بها ، وما وقع من التغير في الحزب نفسه من أجلها ، يعلم حينئذ أن حدس « الحضارة » كان صحيحا ، وأنه

لا عبرة ببقاء رئيس الوزارة الذي رضي بالثقة الضعيفة ولم يبال كما كان ينبغي بلوائح التبرم والتأفف . فلقد تبدل في هذه الوزارة منذ قولنا ذلك ناظر النافعة وناظر البحرية وناظر الاوقاف وناظر الداخلية وناظر المالية وناظر المعارف ، وتصدى ناظر الاوقاف الثاني للاستقالة كما تصدى لها ناظر الخارجية وناظر المعادن وشيخ الاسلام والصدر نفسه ، فهل يقال بعد ذلك أن حدسنا في هذه المسألة لم يكن صحيحا ، على أن هناك أمرا وراء ذلك هو أقوى الاسباب في بقاء حقي باشا وهو أن الحزب الكثير يزعم أن في الرجال قحطا ولذا رأيناه فكر كثيرا في سحب الثقة من حقي باشا ولكن لم يجد من يخلفه فحينئذ تكون الوزارة الحقية مذكرة لنا بالحالة عند الضرورة .

النــواب والأعيــان

في آخر ساعة من ساعات اجتماع المجلس وقع اختلاف بين النواب والاعيان في مواد من مواد الميزانية تتعلق بما ينبغي أن يقطع في المئة من رواتب المتقاعدين العسكريين ، واضطر الفريقان أن يبيتا الليل كله ليل الاحد حتى انتشر الضياء بعد طلوع الفجر ثم تفرقا من غير أن يتيسر اتفاقهما ولم يبت شيء في الامر ، فكيف تكون حركة الحكومة الآن أتتبع قول الاعيان مع أن القانون الاساسي يجعل الكلمة الاخيرة في المسائل المالية وقانون الميزانية للمبعوثان ، أم تمضي على رأي النواب وتعلن للملأ أن مناقشة الاعيان كانت عبثا ، أم تقف في هذا الباب بغير حراك ، بل هل تعد قانون الميزانية قانونا قد أتمته القوة التقنينية الا المواد التي جرى فيها الخلاف أم تعده غير تام لان القانون لا يقبل التفريق ولم يحصل الاتفاق عليه كله ؟

الوزارة والمشــاكل

لا عجب فيما صنعته الوزارة من عدم المبالاة أمام هذه المشكلة

العظيمة التي وقعت في آخر ساعة من ساعات رؤية الحساب فان كثرة المشاكل وقد وسعت صدرها وجرأتها على عدم المبالاة بالآتي وإن كانت العلائم تنذر أن بعض الآتي لا يطاق ، ولكن لو كان مكانها غيرها لاعطى الحساب حقه ولم تزده كثرة المشاكل الا شدة احتياط وشدة حرص على تقليلها والاستعانة بمن تحسن الاستعانة بهم على دفعها •

لعمرك كلما نظرنا الى تلك المشاكل المتراكمة ورجعنا الى ما نعرفه من طبائع هذه الوزارة يضيق صدرنا ولولا ان نعود الى رجاء ما قد تتيحه العناية من الاسباب لجهرنا باليأس ولكنا مع كل ما نراه نبعد اليأس عن مشربنا ونأمل للبلاد برءا وعافية مما هي فيه •

هذه هي المشاكل التي تقف امامها الآن هذه الوزارة : (١) حوادث الحدود وما جرته من تصدي الروسية للانذار الضمني (٢) زيادة العجز في الميزانية زيادة فاحشة جدا كما سيطلع عليه القارىء في عدد آخر (٣) الفوضى في بعض جهات الروم إيلي ومن آيات ذلك وجود جريدة سونكو وقورشون وسلاح بهذه الصورة (٤) بقاء كل شيء على حاله في الداخل من نقص الوسائل ورجوع الموظفين الى عاداتهم المعلومة وارتفاع صدى الشكوى في كل جانب في الاناضول الذي أزعجته قلة الامن وانتشار الامراض وتزايد الفقر ، وفي الروم أيلي الذي أزعجته حركات العصابات • أما الاشكال الذي ذكرناه آنفا بشأن اختلاف النواب والاعيان واختتام المجلس من غير أن يحصل فصل في المسألة فهو أيضا إشكال كبير في نظر العقلاء لو كان حذر الوزارة من مخالفة القانون الاساسي على ما ينبغي •

هذه هي الاحاديث التي تدور بها الالسنة والاقلام كثيرا في الايام الاخيرة والله أعلم بالمآل •

رجال اليوم

رجال اليوم (*)

كيفما أدرنا النظر نرى أنّا في بدء عهد يصح أن نسميه جديداً ، لا من حيث أنا خرجنا من الحكم الفردي ودخلنا في الحكم النيابي فقط، بل من جهات كثيرة ستظهر في هذا المقال وإن كانت هذه الجهات الكثيرة فروعا لتلك الجهة .

لا يدخل المرء في هذه العاصمة مكانا الا ويجد فيه حديثا عن السياسة ورجالها ، وليس هذا بعجيب فان أهلها يشاهدون الاحوال والاهوال عن كثب كل يوم ، وأشد الناس ارتيادا لوجوه الخلاص أقربهم من مشاهدة الخطر ، وكيف لا تقلق الناس هنا الحوادث وهي متجلية كل يوم بشكل جديد أمام أعينهم .

لما كان المجلس ابن سنته الاولى كان أمامه مشكلتان خارجيتان : احداهما الحاق البوسنه والهرسك الى أوستريا ، والثانية اسقاط الحق العثماني من ولاية الروم‌ايلي الشرقي وبقية السيادة في البلغارية ، وقد زعم أناس في المجلس ذلك اليوم أن الواجب هو الاسراع في حل تينك المشكلتين على نحو ما ترغب تانك الدولتان ، وذلك لكي تتفرغ بعد ذلك لمسائلنا الداخلية ونبذل كل عنايتنا ودرايتنا في اصلاح ولاياتنا واستنباط ثروتنا الطبيعية من ينابيعها واصلاح شؤون جيشنا ، وراج ذلك الزعم بسرعة اذ كان ثمة وسائل لترويجه فلم تغمض عيون وتفتح

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٦٤ (٢٩ حزيران ١٩١١) .

عيون حتى رأينا آخر أمل في تلك البلاد التي كان لنا فيها حقوق قد أصبح مقطوعا ، وضرب بين صراخ البوشناق ومسلمي البلغار وبين آذان سياستنا بسور منيع • وتلقينا الضرورة بالرضاء وراح بعضنا يعزي بعضا بأن هذا من التصاريف الربانية بهذا الكون وأن السلم على هذا الوجه عسى أن يكون خيرا للبلاد وعسى أن يكون بذلك تفرغ لاصلاح الباقي من الملك ، والباقي شيء كثير ولله الحمد ، وأمثال ذلك من المعزيات والمسليات ، ولم يكن يخطر ببال كثيرين على ما كنا نرى أن الحوادث ستتلو الحوادث ، وأنّا لا نبلغ ما نطلبه من راحة القلب وتفرغ الفكر ، أما الذين كانوا متذكرين جيدا أن الامم تسعد وتشقى بالرجال فقد كانوا يطيلون التأمل في حقائق رجال العهد الجديد الذين ينتظر على يدهم الاصلاح الموعود ، وأكثر هؤلاء المتأملين لم يرجع اليهم نظرهم في مجموع الاحوال والرجال بفراسة مبشرة •

ماذا رأينا يوم تلك الحيرة الاولى في بدء هذا العهد ؟ رأينا دولة قائمة ماثلة فيها كل موظفيها القدماء من أكبر كبير فيهم الى أصغر صغير، من رجال عسكريتهم الى رجال قضائهم ، الى ذوي ادارتهم وسياستهم، الى أولى ماليتهم ، الى أهل الضبط والربط فيهم ، ورأينا أن تنظيف العاصمة والولايات من كل هؤلاء الموظفين ليس من الاصلاح في شيء بل هو في الحقيقة هدم لبناء الدولة الماثل على كل حال أمام النظر ، على أنه ليس يصح في وقت من الاوقات أن يقال ان كل اولئك الموظفين عن بكرة أبيهم لا يصلحون ، ورأينا مع هذا طائفة من الرجال جديدة تريد أن تزاحم وتحتل المراكز العليا ولا بد لها من وسائل وأبواب لذلك ، وأنها ستتوسل الى ذلك بأبده الوسائل وهي اسقاط بعض القدماء بدعوى أنهم كانوا كيت وكيت • ورأينا أن ذلك سيلهينا ويشغل بعضنا ببعض ، فتتنبه

حينئذ العيون التي لم تكن قد نامت وانما استراحت قليلا باغفاءة لطيفة ريثما تتكون فيما بيننا أسباب التجاذب والتدافع من جديد ، ورأينا كأن قد تكونت فيما بيننا هذه الاسباب ، وتنبهت لنا تلك العيون ، وتفتحت علينا أبواب تلك الحوادث المنتظرة : حوادث الطمع الاوربي الذي ليس له آخر ما دام لنا وجود ، ورأينا كأن قد نال أولئك المزاحمون ما كانوا يأملون وهم ليس لهم من عدة يعتدون بها من الحنكة والتدرب ، ولا ملكة من الروية وبعد النظر ، فلم يلبثوا أن ظهرت خطيئاتهم من بعد أن جعلت آثارها في القلوب نكتا سوداء وصبغت وجوه الذين يستحيون حمراء •

وهذه المرائي التي تبدلت لنا في نظرات عميقة لم تكن لتحزننا ، لان من ينتظر من الانقلابات أن لا يحدث فيها مثل ذلك لا يكون على شيء من العلم بسير البشرية ، ولكن كنا بين هذه المناظر نخشى شيئا واحدا وهو أن يطول العهد في المخاطر من غير أن يظهر في الامة رجال فيهم خواص لشفاء الامراض الاجتماعية والسياسية ، وتجديد القوة المادية والمعنوية •

قام مثل أولئك الرجال في كل أمة وان لم تكن شاعرة بهم ، وعرف قراء التاريخ من هذه العجائب البشرية عددا وافرا ، وسيعرف الآتون كثيرين منهم كما عرف الماضون ، أما مقلدو المدنية اليوم فكثير منهم يظنون أن لا مطلع لامثال أولئك الرجال الا من بين جدران المدارس الرسمية ، وهو ظن بعيد عن الصواب جدا ، يشهد لذلك المأثور من أخبار نوابغ أوربا وأميركا ، فضلا عن قدماء نوابغ الشرق الذين ما برحت المدنية الحاضرة تجعل نفرا منهم في مصاف المعبودات •

لا تعدم طبيعة الامم من حيث مجموعها وجود أمثال أولئك الرجال،

وانما قد تعدم وسائل ظهورهم اما لقوة حجب الغيـــوم الاجتماعيـــة والسياسية التي قد يستمر تكاثفها في الامة قرونا ، واما لضعف السوائق التي من شأنها اخراج أولئك الرجال بادىء بدء من ايثار الخمول الشخصي الى ايثار السطوع بمواهب الحق •

أكثر الناس اليوم يقولون : « ليس في الامة رجال » • نسمع هذا القول في المبعوثان اذ نراهم يأتمرون في تغيير الوزارة ، ونسمعه في نظارة الداخلية اذ نجدهم يحارون في تعيين الولاة ، ويطرق آذاننـــا في نظارة الخارجية اذ نشوفهم يترددون في تبديل السفراء ، ونصادفه في الاندية الصحافية اذ نجدهم يقبلون أحيانا عذر المعتذرين بقلة الرجال ، ونلقاه في السمر الخصوصي أين زرنا وكيف درنا • والحق أن التطوح خلف هذا القول على اطلاقه ليس بصواب ، فان الامة لم تعدم رجالا يصلحون لادارة الامور بل هؤلاء في الامة موجودون وعمـــا قريب سيكثرون ، ولكن الرجال الذين تعوزهم الامة هم الذين يستطيعون أن يغيروا باذن الله شيئا من تربيتها ويجعلوا محبتها للمجد والقوة والتكاتف أضعافا مضاعفة ويقفوا بها أمام الطـــامع المتربص وقفـــة الاسود التي لا يقتحم عرينها ولا يداس حماها •

ليس هذا بالخيال فانا أمة لا ينقصنا العدد وهو الركن الاعظم ، فمتى عرفنا قيمة أعضاء العائلة وجعلنا قلوبهم عامرة دائما ، ومتى كثر في الامة الصالحون للاخذ بأسباب الحياة على نسبة العصر كان النجاح مأمولا ، وهذا هو الذي يأتي بحول الله وتيسيره على يد أولئك الرجال اذا أتم الله أسباب ظهورهم •

أما ما يشكوه الناس اليوم من قلة الصالحين لادارة الامور فـــلا يخلو من التنطع وطلب الكمال الذي لا ينال ، كما أنه لايخلو تعيين غير

الصالحين من أهواء وجهالات متسلسلة ليس زوالها بالامر البعيد .

وها نحن أولاء نبين للقارىء من هم رجال اليوم ليتبين له صحة الامرين اللذين ذكرناهما ، وهما : وجود رجال الآن يصح أن يديروا الدولة أحسن مما تدار اليوم، والثاني فقد الرجال الذين تحتاج اليهم الدولة لنفخ روح القوة وتقليل المشكلات الداخلية ثم الخارجية .

* * *

رجال اليوم ستة أصناف ١ ـ المبعوثان ٢ ـ الاعيان ٣ ـ النظار ٤ ـ الولاة ٥ ـ كبار موظفي النظارات ٦ ـ العلماء المفكرون المشتغلون بالامور العمومية .

المبعـوثان (*)

خاض الناس والجرائد في المبعوثين ، وتكلم بعضهم في حقهم بالادب ، وآخرون بما ينافي الآداب ، وقالوا ان المجلس يعوزه المحنكون، وليس فيه من متخرجي المكاتب عدد كاف ، وليس أعضاؤه على نمط واحد ، وتأفف بعض الناس من وجود المعممين فيه لان العمامة على رأيهم عنوان التعصب ، وهؤلاء يحسبون أن كل الطرابيش من غير عمامة ليس تحتها محبة زائدة للدين أو للمآرب باسم الدين ، وأن هذه المحبة الزائدة انحصرت بالطرابيش التي فوقها قليل من الشاش الابيض !، وآخرون يحسبون أن العمائم لا يكون تحتها أدمغة تفهم الدنيا كما تفهم الدين وأن فهم الدنيا منحصر بالادمغة التي تحت طرابيش بغير عمائم !

لأجل هذه الامور التي نظر فيها بعض الناس نظرا بسيطا جدا وقلد بعضهم فيه تقليدا ، نصف اليوم المجلس وصفا وافيا ، ونذكر الاجزاء التي يتألف منها باعتبار الجنسيات وباعتبار المعارف والاختصاص ، ومنه سيتبدى للمطالع البعيد النظر أن ليس في المجلس نقص من جهة المعارف، وأنه لا يرجى أن يكون المجلس أجمع لذوي المعارف في المرات الآتية منه في هذه المرة .

ما هي المعارف التي تحتاج اليها مباحث المجلس ؟ يبحث في المجلس عن كل شيء تقريبا كالكيمياء لها دخل أحيانا ، والهندسة لها علاقة

تارة ، والزراعة لها مساس ، والطب يدخل آونة ، والفقه يحتاج اليه كثيرا ، والقوانين الموضوعة سابقا دخلها كبير ، وقوانين أوربا لها ذكر ، والتاريخ له مناسبات ، والادبيات تعرض أحيانا ، واللغة العربية يحتاج فيه اليها ، واللغات الاجنبية لا يستغنى فيه عنها ، والمنطق تشتد الحاجة اليه ، والفلسفة لا يقوم مجمع مثل هذا المجمع بدونها ، فهل يظن أصحاب النظر البسيط أن كل عضو من أعضاء المجلس يجب أن يكون دماغه ملتقى لكل هذه المعارف ؟ وهل يظنون أن مجالس الامم الاخرى هي بتلك المثابة التي يتخيلونها ؟ لعمرك ان من يذهبون هذه المذاهب من الظنون لا يعرفون ما هي مجالس الامم ولا الصفات التي ينبغي أن يكون المنتخب لها متحليا بها ، ولا يدرون أن المجالس التي تضم بين جنباتها المئات من المنتخبين يتكون من مجموعهم بطبيعة التعدد والتنوع كل ما يحتاج اليه المجلس من المعارف ، ولا يذكرون أن الامة مؤلفة من زارع وصانع وتاجر وفقير ومتمول وموظف في الحكومة ومن متدينين بأديان ومذاهب شتى ، وأن المنتخب هو وكيل الكل ، وأنه لا ينبغي أن تكون الغلبة في المجلس للذين ينتخبهم صنف واحد من أصناف الامة ، فانا لو فرضنا أن أكثر من في المجلس قد تغلب في انتخابهم الموظفون في الحكومة لما كان للفلاح حينئذ وكلاء هم أحرص على التفكر في شؤونه ، وكذا لو فرضنا أن أكثر من في المجلس قد تغلب في انتخابهم الزراع لما كان فيه وكلاء للموظف مثلا وهلم جرا ، فالمجلس الذي يرجى منه العدل والاعتدال هو الجامع لنواب مختلفي الصفة والاختصاص والميل ، أما لو اجتمعوا كلهم أو أكثرهم من الفلاسفة مثلا أو من المحامين أو من الاطباء أو من الزراع أو من الصناع أو من الموظفين فانه تكون المعارف المحتاج اليها فيه ناقصة أولا ثم يكون الاعتدال فيه غير مضمون .

وربما سأل سائل الآن كيف ينبغي أن يكون نظر أهل بلد مثلا حين انتخاب المبعوث ؟ ومن يضمن لنا أن يتألف من مجموعهم المطلوب من المعارف والصفات والاصناف ؟ فجوابه أن أهل بلد من البلاد حين يريدون أن ينتخبوا نائبا عنهم ينبغي أن يراعوا فيه خمس صفات عامة واجبة في كل مبعوث ثم يراعوا فيه مزية أو أكثر من المزايا الخاصة الزائدة التي ينتفع بها المجلس • أما الصفات العامة الخمس فهي ١ ــ الاستقامة في الاخلاق ، و ٢ ــ قوة التعقل والفهم ، و ٣ ــ الاطلاع على أحــوال العالم بالجملة ، و ٤ ــ الطلاقة في الافادة ، و ٥ ــ الشجاعة في نصر ما يراه نافعا ورد ما يراه ضارا • وأما المزايا الخاصة الزائدة فمثل أن يكون عالما أو متضلعا بأحد العلوم التي قد تعرض الحاجة في مسألة من المسائل اليها ، وأحوج ما يحتاج اليه في المجلس الاطلاع على حقيقة الفقه والتضلع من روح التقنين لا كثرة حفظ المواد ، على أن هذا الحفظ في حد ذاته مزية يحتاج اليها • أما الذي يضمن لنا أن يتألف من مجموع المنتخبين ما يحتاج اليه المجلس من المزايا فلا يمكن أن يدخل تحت قاعدة، ولكن الاحزاب من بعد ذلك ستنظر في هذا الامر ، ولا ينكر أن حسن التصادف يساعد في ذلك كما وقع في تألف مجلسنا هذه المرة •

يتألف مجلسنا اليوم من مئتين وثمانية وسبعين عضوا منهم حقوقيون (٣٠) ، وفقهاء (٣٠) ، وأطباء (٧) ، ورجال ادارة (١٠) وعسكريون (٧) ، ومعلمون (١٠) ، وأصحاب أراض واسعة (٣٠) ، وتجار (٥)، ومهندسون (١) ، ومتفننون (٣٠) •

قصدنا بالحقوقيين من تخرجوا في مكتب الحقوق أو برعوا في تلك العلوم من غير أن يتخرجوا في ذلك المكتب مثل زهراب أفندي ، وعنينا

برجال الادارة من تخرجوا في المكتب الملكي وجرينا في هذا على المعروف المألوف ، وأردنا بالمتفننين من تضلعوا من علوم وفنون شتى وبرعوا في الفقه والفلسفة والتاريخ والحقوق والسياسة وازداد وقوفهم على أحوال العالم ، ونريد بالفقهاء من يعدون بارعين في هذا العلم لا كل معمم في المجلس فان بينهم أفرادا غير فقهاء ، كما أنه يوجد في أصحاب الطرابيش وحدها فقهاء مبرزون مثل سيد بك ، وكما أنه يوجد بين المعممين متفننون مبرزون مثل نجم الدين بك ناظر العدلية . وجملة المعممين في المجلس (٦٤) منهم من ولاية قونية (٦) ، ومن ولاية بروسة (٦) ، ومن ولاية قسطموني (٦) ، ومن ولاية سيواس (٤) ، ومن اليمن (٦) ، ومن ولاية ازمير (٣) ، ومن ولاية حلب (٣) ، ومن ولاية طرابزون (٣)، ومن أرضروم (٣) ، ومن ولاية قوصوة (٢) ، ومن ولاية أطنة (٣) ، ومن ولاية بيروت (٢) ، ومن ولاية أنقرة (٢) ، ومن الحجاز (٤) ، ومن ولاية معمورة العزيز (٢) ، ومن ولاية بغداد (٢) ، ومن ولاية وان (٢) ، ومن ولاية أدرنة (١) ، ومن أشقودرة (١) ، ومن ولاية استانبول (١) ، ومن الموصل (١) ، ومن ولاية سورية (١) ، ومن ولاية يانية وولاية سلانيك وولاية مناستر وولاية جزائر البحر الابيض وولاية ديار بكر وولاية طرابلس الغرب وبنغازي والقدس والبصرة وبتليس (٠) .

أما بحسب الجنسيات فيتألف المجلس من أتراك (١٥٥) (من هؤلاء ١١٣ من ولاية الاناضول و ٢٧ من الروم أيلي و ١٥ من الولايات العربية) وعرب (٥٠) ، وروم (٢٥) ، وأرناؤوط (٢٠) ، وأرمن (١٠) ، وأكراد (٧) ، وبلغار (٥) ، ويهود (٤) ، وصرب (٢) . ويتألف

بحسب الدين من مسلمين (٢٣١) ، ومسيحيين (٤٣) ، ويهود (٤) .

ويظهر لي أن هذه النسبة بين العدد بحسب الاجناس لا ينتظر أن تتغير كثيرا الا اذا دخل أهل جزيرة العرب أفواجا في دفاتر الدولة ، فحينئذ يرجى أن يزيد نواب العرب زيادة تذكر ، وكذا النسبة التي بين العدد بحسب الاديان لا ينتظر أن تتغير كثيرا فيما يلوح لي اذ نسمعهم يقولون ان البلاد التي فيها كثير من أبناء وطننا المسيحيين قد أخذت بنصيبها على نسبتهم ، مثال ذلك ولاية « وان » خرج منها خمسة مبعوثين منهم اثنان مسيحيان (أرمنيان) وولاية جزائر البحر الابيض مبعوثوها خمسة أيضا كلهم مسيحيون (روم) مع وجود قليل من المسلمين ، وولاية مناستر لها اثنا عشر مبعوثا منهم خمسة مسيحيون ، وولاية يانية أخرجت ستة مبعوثين منهم أثنان مسيحيان ، ومن استانبول خرج عشرة مبعوثين منهم أربعة مسيحيون (روميان وأرمنيان) ، أما باقي الولايات فالاكثرية العظمى فيها من أبناء وطنهم المسلمين ، ولذلك كان فيها منهم قليل : واحد واثنان في بعض الولايات ، ولم يخرج منهم أحد في بعض الولايات الاخرى مثل انقرة وقسطموني وبتليس ودياربكر ومعمورة العزيز وبغداد والبصرة واليمن وطرابلس الغرب وسورية . وأما اليهود فخرج منهم واحد من بغداد ، وواحد من إزمير ، وواحد من استانبول ، وواحد من سلانيك فقط .

هذا هو مجلس المبعوثان الذي تتمثل فيه الامة على اختلاف أجناسها ومذاهبها وأصنافها . فيهم من هو قريب من أصحاب الصناعة والمصانع ، وفيهم العلماء الكبار والمتوسطون ، ومنهم الاحرار المتطرفون والاحرار المعتدلون والمحافظون على القديم ، وفيهم قليل جدا من

الشيوخ المتقدمين في السن ، وأكثرهم كهول وقليل منهم شبان يغلب عليهم الفتاء .

هؤلاء المبعوثون أو النواب صنف تعده الامة من رجالها ، ومهما تغير بعضهم لا يتغيرون كلهم ، ولا تتغير هذه النسب والاعتبـارات ، فعسى أن يكون قد ظهر لك بعد هذه التفاصيل أن المجلس مؤلف كغيره من مجالس الامم ، ولكن هل مشكلات الامم كمشكلاتنا ؟



الأعيان (*)

نحن مقلدون للامم تقليداً في تقسيم جماعة شورانا الرسمية الى قسمين : المبعوثان والاعيان ، وليس هذا التقسيم في الحقيقة بأمر لازم للشورى بدليل استغناء بعض الامم عن هيئة الاعيان كما هو الامر عند اليونان مثلا ، ولكن قد يكون وجود هذه الهيئة أضمن لسلامة القوانين والمقررات من الخطأ ، وقد يكون أسدّ لمنافذ الاستبداد وأقطع لذرائع الغرور اذ بديهي أنه كما يحاذر استبداد الفرد وغروره يخاف من استبداد الجماعات وغرورها أيضا ، بل استبداد الجماعات وغرورها أحق أن يخشى لانه أقوى وأطول مدى ، فهذا وغيره من الاسباب الاخرى يجعل في نظرنا وجها وجيها لما قلدنا فيه الامم من جعل جماعة الشورى قسمين . وعند تعديل القانون الاساسي مال جمهور النواب الى ابقاء الاعيان ، بيد أنهم ارتأوا أن يكون ثلثاهم بانتخاب الامة وأن تكون مدتهم محدودة وخالفهم في ذلك الاعيان ، ولا تزال هذه المسألة تحت البحث والمناقشة فيما بين الجماعتين .

تتألف هيئة الاعيان اليوم من نحو خمسين منهم عرب (٦) ، وأرناؤوط (٣) ، وجركس (٢) ، وكرد (١) ، وروم (٥) ، وأرمن (٤) ، وبلغار (١) ، وأولاح (١) ، ويهود (١) ، والباقون أتراك ، ويوجد بين المجموع من المشيرين والفرقاء (١١) ، ومن الوزراء (٧) ،

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٦٥ (٦ تموز ١٩١١) .

ومن المعممين (٨) ، والباقون من أصحاب الرتب الملكية العالية بعد الوزارة .

أكثر هؤلاء الرجـال هم من رجال العهد السابق ، وقـد كانوا في ذلك الدور يمشون على هواه ، واليوم يمشون على هوى هـذا الدور ، فهم ممن يصطبغون على هوى القوة الغالبة ، كدأب أكثر الناس، بيد أن بضاعة هؤلاء من التجارب وافرة ، وحظهم من العلم بالسياسة عظيم ، فلذلك تمس الحاجة الى الاستفادة من بضاعتهم في عهد الدستور كما مست اليها حاجة العهد الحميدي ، وهم لا يبخلون بهذه البضاعة على من احترمها وأدى قيمتها ، فسعيد باشا الذي كان الكاتب الخاص عند عبد الحميد ثم تولى له الصدارة ست مرات فيما أتذكر صار اليوم من كبار ممثلي الحكومة النيابية وذلك برياسته للاعيان ، ومختار باشا الذي كانت حكومة عبد الحميد تعطيه ذلك الراتب العظيم هو اليوم نائب الرئيس في الاعيان ، وفريد باشا الذي كان الصدر الاعظم في العهد الاخير من الحكومة الحميدية رأيناه ناظر داخلية في هذا العهد الجديد ، وحسين حلمي باشا الذي كان مقبولا كثيرا في ذلك العهد عند عبد الحميد وبعض رجاله رأيناه في العهد الجديد صدراً أعظم ، وبعبارة مختصرة يمكنك أن تقول ان الاعيان اليوم ـ والنادر لا حكم له ـ هم من الذين قد أعلى الدور الماضي شأنهم بالرتب والوظائف بل أكثرهم ممن نصبهم صاحب ذلك الدور السابق في هذا المنصب الجديد، ومن هنا ومثله تعلم أن الامم مهما أرادت أن تتخلص من كل ماضيها بسهولة وسرعة لا يتسنى لها ذلك ، على أنه لا ينبغي أن تريد ذلك اذ ليس كل الماضي بالنسبة الى الامم مضرا بها .

نحن نكره العهد الحميدي ولكن لو أردنا الآن أن نطرح كل الرجال

الذين كانوا يستخدمون في ذلك العهد لحصل عندنا فراغ كبير في الرجال ، فان الاعيان الآن على علات ماضيهم هم قسم عظيم من رجال اليوم من حيث تشكيل الدولة وتمشية الامور ، ولست أدرى بمن نأتي مكانهم لو رفضوا بأنهم من الماضي ، وكيف نرفض هؤلاء الشيوخ بعد أن رأينا من تسكع الشبان المتبجحين ما رأيناه ، كلا بل يجب أن نعتبر ونفهم بما ألقي علينا من الدروس الجديدة أن الحاجة الى هـذه الذوات في هذا العهد هي كحاجة ذلك العهد اليها ، ولقد سئمنا حتى كدنا تتهوع مما أسمعنا أياه مكررا بعض فتيان « الصحافة الجديدة » ومأجوري اليهود من التبجح بالايدي الشابة والافكار الشابة ، والادارة الشابة ، والسياسة الشابة !! ... وليت شعري ماذا يقولون بعدمـا بدا للناس أجمعين عجز تلك الايدي الشابة ، أو لم يتبين لهم أن صبغة الدهر (الشيب) ليست بالبضاعة الكاسدة عندما يجد الامر وتطلب المعلومات الواسعة ، والروية الوافرة ، والتجارب الكثيرة ، والشهرة الكافية ، كما أن اعتدال القد ، وتورد الخد ، وسواد الفَود ، ليست بأدلة في حد ذاتها على استقامة الاخلاق ، وسعة المعـارف ، وفضل الاستعداد لاستلام أزمة دولة كثيرة المشاكل في الداخل والخارج .

أنا لا أريد بهذا انتصارا للاعيان الموجودين ، ولكني أريد به وصف ما نحن عليه اليوم بالجملة ، وبيان أن شيوخ أمس ليسوا اليوم أقل مزايا من الذين ظهروا باسم « الشبان » ، على أن أقبح ما يستقبحه الذوق السليم هو التبجح بالشباب والتحامل بمثل هذا على الشيخوخة في حين أن احترام الشيوخ أمر تقضي به الحكمة والآداب الاجتماعية فضلا عن الدينية ، وفي حين أن الخطـوة التي بين الشباب والشيخوخـة قصيرة .

ظنّ من لا يعرفون أن الشبان الذين ظهروا أو أظهروا على هذا المسرح الجديد أغزر علما من أولئك الشيوخ ، ونسوا أن أولئك قد درسوا من اللغات والمعارف كما درس هؤلاء أو أكثر ، ثم غذتهم التجارب، وظنوا أنهم أحسن أخلاقا من أولئك وأمضى همة وأصبر على تحمل أثقال المشاكل ولكن الزمان كذب لهم كل هذه الظنون .

قد يتخيل مستمع هذا القول أن قائله رجل قد حنت السنون من ظهره ، وأن الذي جعله ينتصر للشيخوخة هو بلوغه اياها ، فأنا أطمئن هذا الظانّ بأن صاحب هذا القول ليس كما قد تخيل وانما هو يريد أن يضرب على أيدي الغرور .

ينبغي أن نعترف بأن الاعيان من رجال اليوم كما أنهم من رجال أمس ، وينبغي أن لا نفضل عليهم الذين ملأت أقوالهم الدنيا بمدح أنفسهم ثم أتت أحوالهم بما يكذب تلك المدائح .

أنا لا أقول إن هذه الطبقة التي منها الاعيان فيها رجال ممن تعوزهم الامة لجسام أمورها والنهوض بها من حال الى حال ، أو رجال يصح أن يكونوا أسوة في المكارم والمعالي وقدوة في الاعمال العظيمة ، وانما أريد أن أنوه بأن وجودهم خير من عدمهم مع وجود هذه الفوضى الحاضرة ، ولو كان هناك همم أعلى من المعهودة فيهم لاصبحنا مستطيعين أن نفاخر بها ، أما الآن فنرضى من الغنيمة بالقدر الذي ذكرناه من أن الامة قد تستفيد من تجاربهم وأن الذين طفوا على ألواح السياسة الشابة ليسوا خيرا منهم اللهم الا اللذين حنوا لهم الرقاب .

***


النُّظَّار



النُّظَّار (*)

— ١ —

تختلف القوانين الاساسية التي عند الامم الشوروية فيختلف بسبب ذلك في نظر كل أمة موقع النظار ، وقد كان قانوننا الاساسي قبل التعديل منتسخا عن القانون الاساسي في المانية ، وهناك يكاد يكون كل شيء بيد الملك وحده كما في الحكومات المطلقة ، لان القانون الاساسي لديهم لم يوسع في صلاحية النواب كثيرا ، فلما عد لنا القانون الاساسي وكنا لا نزال على مقربة من عهد عبد الحميد الذي تغالى كثيرا في الحكم المطلق وأعطش الامة كثيرا للاشتراك في الحكم ، مالت الكثرة في المجلس الى توسيع صلاحية النواب ونفوذهم وزيادة تقييده القوة الاجرائيــة ، فوضعت في هذا القانون القيود التي من شأنها اسقاط الوزارة لاول مرة اذا اختلفت هي والمجلس وأصرت على الخلاف ، وفي الوزارة الثانية اذا أصرت على ما أصرت عليه الاولى يجوز للملك بعد موافقة الاعيان أن يفض المجلس على أن تجري الانتخابات في ثلاثة أشهر وينعقد من جديد ، كما أنه يجوز له حينئذ أن يسقط الوزارة مرة ثانية أو أكثر ما دامت مخالفة للمجلس ، ومن هنا يعلم أن قانوننا الاساسي الجديد قد مكن حق الشعب تمكينا عظيما بحيث أصبح نوابه أقوى قلبا ومتنا في مناقشة الوزارة والمهيمنة عليها ، وأصبح النظار جديرين أن يحسبوا

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٦٦ (١٣ تموز ١٩١١) .

حساب الامة اذا رأوا أنها قد أرسلت نوابا يحسنون استعمال هـذا الحق • ولو بقينا على القانون الاساسي القديم لما كنا قد بعدنا كثيرا عن روح الحكم المطلق ، اذ بغضبة واحدة من الملوك أو بوسوسة واحدة من وزرائهم أو أحد من رجال بلاطهم يستطاع تفريق أعضاء المجلس في كل دورة اجتماعية ولو بأن يخترع لذلك سبب بسيط ، على أن مثل هذا الحق يبقى مهددا بالزوال اذا غفلت عنه الامة ولم تجعل أكبر همها التأكيد على نوابها بالمحافظة عليه ، فان خدع الكثرة وجرها الى جانب محو هذا الحق ليس بالامر المحال ، كيف وقد رأينا له شيئا بل أشياء من الامثال ، ولست أدري اذا لم يكن حق المراقبة للامة قويا كما ينبغي فأي شيء تملكه من حقوقها ، اذ التقنين انما يأتي في الدرجة الثانيـة بالنسبة الى هذا لان الوزارة اذا كانت لا تسقط بالاصرار على مخالفة المجلس أول مرة تستطيع أن تردّ كل ما يريد المجلس من قانون اذا جاء على خلاف ذوقها ، وحينئذ يصعب التفريق بين روح الحكومة المطلقة وروح تلك الحكومة النيابية التي لا يملك النواب فيها أسباب القـوة عند مخالفة القوة الاجرائية • فسهولة الخلاص من وزارة لم ترق في نظر الامة لِـمَا علمه نوابها من أحوالها انما هي ناشئة عن مثل هذا الحق ، وصعوبة التلاعب بمجلس الامة وتهديده بالتعطيل ناشئة عن مثل هذا الحق أيضا ، أما استهواؤه بوسائط الاطماع والخدع فأقل خطرا بالنسبة لمجموع الامة لانها تستطيع أن تسقط من نوابها المستعدين للانخداع ، ولكن حيلتها قليلة في النواب اذا كان الخَلَف فيهم يتبع السَّلف في الشكوى من نقص الصلاحية •

الحكومة والامة :

قد يقول قائل : لماذا كل هذا الاحتراز من الحكومة مع آنها من

الامة وللامة ؟ وجوابنا له هو أن كون الحكومة من الامة وللامةصحيح، وأما الاحتراز منها مع صحة هذا فهو كاحتراز المشتري والبائع أحدهما من الآخر في كل شيء مع أنهما في الوطن الواحد أخوان مشتركان في أكثر المنافع والمضار المحلية ومتحدان قلبا وقالبا في ذود المضار والذود عن المنافع • فكما أن الرابطة بين البائع والمشتري موجودة بحيث يحتاج كل منهما الى الآخر ويجد كماله وسؤله لديه هكذا تكون الرابطة التي بين الحكومة والامة ، وكما أنّا نجد الرابطة التي بين البائع والمشتري غير مانعة أن يطمع البائع بالمشتري ويأخذ منه فضلا في الثمن بقدر ما استطاع ولا مانعة أن يطمع المشتري بالبائع ويأخذ منه بالوكس ، هكذا نجد الرابطة التي بين الحكومة والامة غير مانعة أن تطمع الحكومة بالامة فتأخذ منها زائدا ولا مانعة أن تطمع الامة بالحكومة فتعطيها ناقصا ، وكما أنا نرى البائع العاقل البعيد النظر يهتم بمصلحة المشتري ولا يريد أن يمتصه دفعة واحدة ولو وجد الى ذلك سبيلا ، والبائع الغبي البليد الذي لا يجاوز نظره أنفه لا يفكر البتة بمصلحة المشتري ويبذل جهده في أن يبتزّ كل ما عند ذلك المسكين في صفقة واحدة ، هكذا نرى الحكومات العاقلة والحكومات الغافلة مع أممها ، وكما أنا نلفي المشتري العاقل الجيد الرأي يرى أن ربح البائع الذي سؤله عنده أدعى الى اهتمامه بايجاد ذلك السؤل وتحسينه فينشرح صدره الى ارباحه ، والمشتري الاحمق الضيق العَطَن يرى أن في ربح البائع غبنه فينقبض لذلك صدره ويجتهد جهده في أن يحرمه من الربح أو يصيبه منه خسر ، هكذا نلفي الامم العاقلة والامم الغافلة مع حكوماتها • وبالجملة فان من تأمل في أحوال هؤلاء البشر الذين كتب على كل فرد منهم النقص والاحتياج في حد ذاته وجعل سؤل كل واحد منهم وتكمّله عند

الآخرين يجد أنه متى كان أحدهم قصير النظر أصبـح لا يرى نقصه واحتياجه ولا يهتم بحال الآخرين الذين لديهم سؤله وتكمله ، بل يهمه أن يلتهم غيره ـ لو أمكنه ـ التهاما غير ملتفت الى أنه ربما كانت مصلحته في بقاء غيره ، ذلك ولافرق في هذا بين أن يكون قصير النظر صانعا أو زارعا أو تاجرا أو رجل حكومة •

ولعله لا يكون من التطرف والمبالغة الذهاب الى أن قصر النظر هو الغالب في العالم ، ومن أجل هذا كثر الغش والخداع ، وما يخدعون الا أنفسهم لو كانوا يشعرون ؛ ومن أجل هذا أيضا كثر الاحتراز وبات أكيس الناس في نظر الناس أكثرهم علما بفخاخ الخداع وأسلمهم من الوقوع فيها ، ومن أجل هذا أصبح لكل فرد أعداء بعداء ، عداوتهم معروفة ظاهرة ، وهم أعداء وطنه ودولته ، وأعداء قرباء غير جلية عداوتهم في الغالب وهم الذين يرى الكياسة كل الكياسة في الاحتراز من غدرهم كلما مسته الحاجة الى معاملتهم ، أو هم الذين يجوّز لنفسه أن ترتكب غدرهم •

وهكذا أصبح بين رجال الحكومات التي هي احدى حاجات الامم وبين الامم ما يوجب الاحتراز لان رجال الحكومات لم يخلقوا خلقة غير خلقة رجال الصناعات والزراعات والتجارات أي أنهم لم يخلقوا جميعهم سالمين من قصر النظر ولو فرضناهم يخلقون سالمين من هذا المرض لكان ما في الامم منه كافيا أن يوجد تفاوتا وتباينـا وهذا كاف أن يوجـد الاحتراس ويوجبه ، فقصر النظر على كل حال هو الذي جعل الفرق بين الامة والحكومة وان كانت مصلحة كل منهما مصلحة الآخر •

لقد مست الى تأسيس الحكومات حاجة جميع من قبلنا ، وكل قبيل

قد أقام حكومته على مقياس حاجته ومعيار فهمه ودرجة تجربته ، واليها تمس اليوم حاجة جميع أهل عصرنا ، وكل يقيم حكومته على نحو ذلك من التجارب والفهم والحاجة • والقول بأن الحكومات قامت وتقوم بالغلبة صحيح من جهة النظر الى الظاهر فقط ، وأما اذا نظرنا الى ان المغلوبين ضعفاء لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم حيف بعض الاقوياء الذين من طبيعتهم الحيف نجد أن لهؤلاء المغلوبين حاجة الى أولئك الغالبين متى أخذوا على أنفسهم دفع القوى الحائف عنهم ، فاذا نظرنا أن اولئك الغالبين محتاجون أيضا الى أولئك المغلوبين كما هو المرئي المشاهد في كل الفتوح التي وقعت نرى أن هذا الاحتياج يحمل على جعل السلطة مشوبةً بشيء من العدل والرحمة والحكمة ، وهذه أسس الحكومات كلها وانما تختلف أشكال مبانيها من بعد ذلك ، ولذلك نجد الاصح أن يقال إن الحكومات قامت وتقوم بالاحتياج لا بالغلبة غالبا ، وقد يكون مع الغلبة شيء من معايير الادراك ونباريس التجارب • ونحن لا ننكر تأثير الغلبة وانما ننكر أن ينسب كل شيء اليها وحدها على كثرة ما هناك من الاسباب التي ينفع التفقه فيها • نحن نسلم بأن البلوغ بالحكومات الى الطريقة النيابية تعدّ غلبة للشعوب على من كانوا يعدون الحكومة شيئا لهم ليس للشعوب فيه نصيب وأن هذه الغلبة أتت من تمادي قصر النظر في رجال الحكومات المطلقة ، ولكننا لا نسلم بأن هذه الغلبة هي التي رتبت القوانين الاساسية على ما هي عليه عند كل أمة ، كلا بل هناك عقول وتجارب مع موافقة الحكومة في النهاية موافقة صريحة ، فلهذا لا ينبغي للشعوب اذا نالت بارادتها وعزمها الاشتراك بالحكم على الطريقة النيابية أن تستخفّ بالحكومة حاسبة أنها لا شيء ، ولا ينبغي لها أن تذهب الى تصغير شأن ممثليها وشأن قوتهم في حين

أن عملهم لحفظ النظام هو فوق كل عمل من الاعمال النافعة ، على أن القوة في مثل هذه الابواب الدقيقة ليست بكثرة العدد،ولا السلاح ، هو هذا الذي يعرفه الناس ، كلا بل القوة ههنا صناعة بها يسخر الكثير لقليل ، والسلاح هو قضاء سنن الاجتماع بوجوب رجوع الجمهور كله الى أشخاص قليلين ينظرون في مجموع الاحوال ، فليست هذه الحاجة العظمى بالامر الذي يمكن أن تكون نتيجته مساواة رئيس كل الضباط مثلا ببائع الفجل مع امكان استغناء الآكلين كلهم عن الفجل وعدم استغناء أحد ما عن الضباط ورئيسهم ، فممثلو الحكومة هم الذين تنظر اليهم الامة كلها وتنتظر منهم ردء الضير والضيم عنها ، وهم الذين تسلم اليهم الامة ثمن ذلك غاليا ، فكيف يصغر شأنهم ، وكيف يتركون من غير حساب ، وكيف لا يكون من أعظم مطالب الامة العناية بانتخابهم والاشراف على حركاتهم ، وكيف لا يكون رأس الحكمة الاحتراس من قصر نظرهم ؟

من صاحب الحكومة :

طرق سمعنا كثيرا بعد الانقلاب لفظ « الحاكمية الملية » ويفسرونه بأن الامة أصبحت هي الحاكمة ، ولكن من أمعن النظر يجد أن القوانين لا تنفذ حتى تتوج باسم الملك وتمضى بارادته ، بل يجد أن لوزرائه حقا بأن ينفذوا نظاما موقتا دعت اليه الضرورة حال عدم انعقاد المجلس، وحينئذ لا يتردد الباحث المتأمل في الحكم بأن صاحب الحكومة في الدولة النيابية هو الملك كما أنه هو صاحبها في الدولة المطلقة ، وانما الفرق هو في أن الامة في الدولة النيابية لها ارادة ظاهرة مع ارادة الملك ولا تظهر لها في الحكومة المطلقة ارادة بل تكون ارادتها خافية مستورة وقد تصل فيها الى الحرمان من الارادة البتة ، ولو ذهبنا الى تسليم أن

الامة هي الحاكمة وحدها لوجدنا باعتبار النتيجة أن صاحب الحكومة هو الملك أيضا وذلك أن الامة لا يتصور أن تقوم كلها بهذا العمل فهي تحتاج الى رجل تضع في يده هذه الامانة وتعقد معه العقد الاعظم المعبر عنه بالبيعة والمبايعة ، فمتى عاهدها المبايع على اقامة أحكام الحق فيما بينها وعاهدته على التسليم والاذعان والطاعة فيما يمضيه من الاحكام أصبح هو ولي الامر الاعظم ، وصاحب الحكومة الاكبر ، والسلطان الافخم • وعقد المبايعة مع واحد كما نجده حاجة من حاجات التمدن والاجتماع ، نجده عندنا معشر جماعة المسلمين واجبا شرعيا محروصا عليه ، ولو لا أن القانون الاساسي طمأن مسلمي هذه المملكة بأن هذه الحكومة اسلامية لوجدناهم مضطرين أن يلتمسوا لهم سبيلا آخر • أما قبول قاعدة الارث فله محسنات كثيرة من أظهرها دفع ما يتوقع من المنافسات والمزاحمات وغيرها من أسباب التفاشل وتمزق الكلمة ، ومعلوم أن هذه القاعدة لم يستغن معها عن قاعدة المبايعة التي بها تظهر وتتجلى ارادة الامة ، فصاحب حكومتنا اليوم هو مولانا « محمد رشاد خان » الوارث لاريكة أجداده العظام ، والمبايع بيعة شرعية نظامية عقدها معه رجال الامة من أعيانها ونوابها وكبار وزرائها وعلمائها وأركان عسكريتها أعلى الله أعلام جلالته ، وضاعف أسباب تأييده وقدرته ، ولكن ليس هو الذي نحترز ونوصي بالاحتراز منه ، لانه ــ حفظه الله ــ أحرص من كل حريص على كل حقوق الشعب التي يقتضيها روح الحكم المقيد ، ولانه أيضا ليس هو الذي يباشر الامور وانما يباشرها وكلاؤه وليس هو المسؤول بل هم المسؤولــون ، على أنّا لا نقصــد الاحتراز من الموجودين اليوم في حد ذاتهم فقط وانما هو من كل من يعهد اليهم صاحب الحكومة بالوكالة كائنا من كان وفي أي زمان كان ، اذ لا ينبغي

للامة أن تأمن مع الزمان مجيء وزارة ترجو اذا أضعفت من مقام ارادة الشعب أن يكون لها شأن أعظم ، أو مجيء صاحب حكومة لا يلتفت كثيرا الى الواجب من التفاهم مع الامة مع نوابها •

بعد هذا التمهيد الواجب في هذا المبحث نلتفت الى النظّار في العهد الجديد •



النُظّار (*)

— ٢ —

الفروق التي أحس بها الفلاحون بين الدور الماضي والدور الجديد تكاد لا تذكر لان طريقة الاعشار لا تزال على حالها جامعةلانواع الاعتساف ، وشؤون الضبط والربط لم تتغير ، وتغلب الافندية لم يتحول ، ولم يجد شيء في مجاري الانهار وهندستها ، ولاحدث شيء في الاراضي ومساحتها وتقسيمها ، أما أهل البلاد الكبيرة فربما أحسوا بكثير من الفروق : فان اصلاح الجندرمة أمام أعينهم ، ورفع شأن العسكرية هو تجاه أبصارهم ، والحركة التجارية فيها شيء من الفرق يدركه المدققون ، أما الفرق في الحركة الفكرية فواضح يدركه الناس كلهم ، ودخول الشعب في دورة جديدة للصحافة هو في حد ذاته نعمة يقدرها قدرها من يعرفون مقدار تأثير الصحافة اذا فسح لها في ميدان الارتقاء . ولكن فوق كل هذه الفروق فرق عظيم أصبح الذين يشعرون به كثيرين ، ونود أن يعلمه العارف لغير العارف لتنمو في البلاد محبة الدستور عن علم بفوائده ، فيكون تمسك الناس به وحرصهم عليه أشدّ وأسدّ . ذلك الفرق الذي نوهنا به هو أن الامة أصبح لها شيء من الامر في تولي النظار ، فان نوابها اذا لم يعجبهم النظار أو اذا وقع بينهم وبين النظار خلاف لا يضعون حينئذ في النظار ثقتهم ، واذا كان أكثرهم متفقين في الرأي على عدم وضع الثقة بهم تسقط تلك الوزارة ، ومعنى

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٦٧ (٢٠ تموز ١٩١١) .

هذا أنه لايصير ناظرا الا من رضيت به الامة ، ولما كان النواب هم لسان الامة كان رضاؤهم رضاءها ، ولكن لجواز أن يكون النواب مخطئين في فهم فكر الامة في المسألة التي يقع فيها الخلاف جاز بعد سقوط الوزارة الاولى اذا ظل الخلاف بين النواب والوزارة الثانية أن يفرق الملك المجلس على أن يعاد الانتخاب ، وتفسير هذا أن الملك يريد أن يعرف فكر الامة لانها اذا أعادت أولئك الجازمين برأي في تلك المسألة تكون كأنها قالت هكذا أريد وحينئذ يحترم الملك ارادتها التي لا يبقى ريب في وضوحها •

واذا كان النظار لا يثبتون الا برضاء الامة كان من أول واجبات نائب الامة البحث عن ظواهر رئيس النظار وخوافيه لينظر أهو صالح لذلك المقام الاعظم أم غير صالح له ، وكذلك عليه أن يبحث عن أحوال كل ناظر وعن درجة صلاحه لذلك الامر الذي تولاه ، فانه اذا صلح النظار رُجي أن يصلح من دونهم ، واذا لم يصلحوا فلا رجاء في الاصلاح، وحينئذ يكون أعظم ما ينبغي أن يحاسب عليه النائب من النواب هو مقدار سعيه في مساعدة الذين هم أصلح لتولي النظارات ومعارضة غير الصالحين • فمتى عُرف من أحوال النائب استعداده وقوة جنانه وبذله الجهد في اقامة هذا الواجب كان جديرا أن يصل الى نتائج حسنة اذا وجد على شاكلته كثيرون من رفقائه ، ومن الخطأ الفاحش أن لا يطلب من النائب الا رفع الصوت في الشؤون العائدة الى بلده ودائرة انتخابه، لان النظار اذا كانوا غير صالحين كانت عقبى الدولة كلها غير حسنة ، ومتى كانوا صالحين كانت الفوائد لبلده مرجوة مع الفوائد لسائر بلاد الدولة ، ومعلوم أن أهل البلاد كلهم يهمهم صلاح العموم كما يهمهم صلاح الخصوص لانه لا صلاح للخصوص اذا فسد أمر العموم •

النظار يحتلون أكبر مقام في هـذه الامة بعد مقـام « صاحب الحكومة » • هم يهيئون لوائح القوانين ويرسلون بها الى مجلس الامة، هم الذين تجري بينهم وبين النواب المناقشة والتذاكر في القوانين وسائر أحوال المملكة ، هم الذين عليهم انتخاب الاكفاء لتمشية شؤون الولايات من ادارية وقضائية وحسابية وعسكرية ، هم الذين يباشرون ـ بالفعل ـ ادارة السياسة العمومية للملكة في الداخل وأمام الخارج ، هم الذين يمثلون عظمة صاحب الجلالة ـ صاحب الحكومة ـ فلذلك يجب أن يكون رئيس النظار علىجانب عظيم من المعارف السياسية والادارية ، وجامعا الى ذلك شرف الصيت وجودة الاخلاق وحسن السمت والوقار • ويجب أن يكون كل ناظر على نحو ذلك أيضا مع زيادة العلم بموضوع نظارته وأحوال رجالها الذين في المركز والذين في الولايات أيضا •

ومتى تيسر للامة نظار على هذه الشروط كان أنفع شيء لها الاحتفاظ بهم ، فان كثرة تغيير النظار تحرم الامة من طول التجربة في حين أن طول التجربة أعظم رأس مال لمن يتولون أزمة الشؤون •

مبدأ تاريخ النظار في عهدنا الجديد هو مبدأ اجتماع مجلس الامة لسنته الاولى ، وقد كان يرأس الوزارة يومئذ كامل باشا ومعه رجال محنكون ، وعلى أثر اجتماع المجلس كتبت احدى صحف العاصمة أنه يجب على الصدر أن يأتي الى المجلس ويبين له خطة الوزارة فيالسياسة الداخلية والخارجية حتى اذا رأى النواب ذلك موافقا أقروه وآتوه من الثقة ما يصح أن يعتمدعليه، وان رأوهغير موافق فعلوا ما بدا لهم••• ولم يكن يومئذ مصرحا في ذلك القانون أن هذا الطلب من صلاحية المجلس ولكن كامل باشا أظهر موافقة لانه رآه من مقتضى روح الحكم النيابي ، فجاء وأقام مستشاره على منبر المجلس يتلو بيانا لخطته ، وما

أكمله حتى دوت القاعة بتصفيق القبول والاستحسان العام ، وخرج ذلك الشيخ الجليل بين ذلك الصدى العظيم مزودا باحترام الجميع ولكن سرعان ما ثنت القلوب عنه قوة كان لها تأثير السحر في تلك الايام ، وقد أعانها هو على نفسه بما بدر منه من نقص التدبير ، ولم يبق أحد غير سامع وعارف كيف سقط كامل باشا ذلك السقوط الهائل بعد نحو شهر من ذلك القبول العام الشامل • وقد كان جمهور الذين سمعوا حكاية ذلك الاسقاط يوجهون الى كامل باشا سهام التزييف لان تلك الحكاية رتبت على وجه يساعد على التنفير منه اذ قد عُزي فيها اليه انه كان ينوي اعادة الاستبداد وأنه لاجل ذلك احتال فأراد اخراج رضا باشا ناظر البحرية وعارف حكمت باشا ناظر الحربية من هيئة الوزارة ، وادخال ناظم باشا مكان الاول وحسني باشا مكان الثاني ، وأنه لاجل ذلك أراد ابعاد طوابير « الآوجية » عن الآستانة بحيلة ، مع أن هذه الطوابير هي حامية الدستور (!) ولكن أكثر الناس اليوم أصبحوا يعرفون أن تلك الحكاية قد رتبت على هذا الوجه ترتيبا وأن من خرق الرأي تسمية طوابير مخصوصة حامية الدستور دون سائر الطوابير لا سيما بعد أن ظهر أن أفراد الاوجية « حماة الدستور » (!) منهم ظهرت حادثة ٣١ مارت بادىء بدء • وأصبح الناس يعرفون أيضا أن الامة كانت في حاجة الى مثل كامل باشا في تلك الايام التي كان فيها شيء من الفوضى ولكن هل كانت تلك الفئة التي يوقف نفوذها كامل باشا تصبر وترضى عن وزارة تعرف قيمة نفسها ؟

وقد نُصّب بعد كامل باشا حسين حلمي باشا ، وبعد نحو شهرين وقعت واقعة ٣١ مارت ، وكان هو أحد الذين نقم منهم الثائرون ، فنصب أثناء تلك الحادثة التي كانت مذهلة توفيق باشا ، ولبث فيها قريبا من

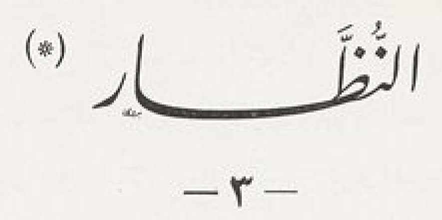
شهر حتى جاء الزاحف محمود شوكت باشا ونجح في ارهاب الثائرين وتأديبهم وخلع عبد الحميد ، وبعد أيام من جلوس مولانا محمد رشاد خان استقال توفيق باشا فأقيل وأعيد حسين حلمي باشا وظل فيها هذه المرة نحو تسعة أشهر ثم استقال ونصب مكانه ابراهيم حقي باشا وقد مرّ عليه الى الآن سنة وخمسة أشهر •

في وزارة كامل باشا كان النظار كلهم من المجربين الذين يعرفون الامور والرجال الصالحين للاعمال ، وقد كان يقال ان بعضهم قد قيل فيه ما قيل في الدور الماضي ، ولكن مقتضى ذلك الدور نحو ومقتضى هذا الدور نحو آخر ، وأنه لا بد لنا من الاستفادة من وقارهم وتجاربهم في أثناء هذه الفوضى التي تلت الانقلاب ، وكان النـاس مستبشرين كثيرا وآملين أن تتحسن الاحوال الداخليـة وأن تحَلّ القضيتـان السياسيتان اللتان كانتا يومئذ حلا حسنا مناسبا ، وهما قضية البوسنة والهرسك ، وقضية حقوقنا في البلغارية ، بيد أنه ما عتم الناس أن رأوا وزارة كامل باشا متدحرجة وهي أول حوادثنا في الدور الجديد ، بـل العقلاء يجعلون رابطة بين سلسلة الحوادث التي جرت بعد ذلك وبين هذه الحادثة التي يسمونها الحلقة الاولى •

القارىء قد رأى مما ذكرناه به الآن أن وزارات تتدحرج وتقـوم غيرها مقامها ، وطبيعي أنه بهذه المناسبة يخطر بباله الآن عدة مسائل مثل : لماذا تبدلت الوزارات بهذا المقدار في هذه المدة القليلة ، وعـلى أية طريقة نصبت هذه الوزارات في كل مرة ، وكيف كان حظ الوزارة الاخيرة من اللبث والبقاء أكثر من السوابق ، وهل يعرف الآن المرشحون للوزارة أم لا ، ومن هم المرشحون ان كانوا معروفين ؟

وبتأمل قليل يتبين للمطالع أن هذا المبحث وايضاح هذه الخفايا هو

بحث في أعظم مسائلنا الحاضرة ، وأنه لا ينزل مكانة عن الخوض في مشكلة الارناؤوط ومعضلة اليمن لان مثل هذه المشكلات والمعضلات تجيء على يد الوزارات التي هي ليست بصالحة ، وتذهب وتزول وتتلاشى ويقوم مقامها اليسر والخير والفلاح على يد الوزارات الصالحة ، فأما كثرة تبدل الوزارات في هذه المدة القليلة فهو أثر ونتيجة لتنازع عاملين قويين : الاول ارادة الذين يفكرون من رجال اليوم قبل كل شيء بصلاح المملكة ونجاحها ، والثاني ارادة الذين يفكرون من رجال اليوم قبل كل شيء بمنفعتهم والتغلب على كل أحد وجعل زمام المملكة في أيديهم من غير أن يعترض عليهم أحد بشيء وان أخطأوا . وطلبي الآن من صاحبي القارىء هو أن يتمثل في ذهنه جيدا أن هذين الفريقين من رجال اليوم موجودان الآن حول مجرى سياسة هذه المملكة ، وأن بينهما تنازعا من آثاره معظم ما يراه من خير قد شيب بشر يعكر المشارب حتى تعافها النفوس ، ومن شر يرفرف حوله الخير بأجنحته ويسد بها عليه المسالك بقدر الامكان .



النُّظَّار (*)

— ٣ —

نعم يوجد اليوم هذان الفريقان المتباينان : مريدو التغلب على كل أحد قبل كل شيء بحيث لا يجوّزون أن يعترض أحد عليهم ، ومريدو سلامة الوطن واعتلائه قبل كل شيء • ويوجد بين هذين الفريقين تنازع قد يستصغر شأنه من لم يقف على جلياته ودقائقه ، ولكن المطلعين على تلك الظواهر والخوافي يعلمون أنه تنازع ذوبال ، بينه وبين حظ الوطن ارتباط عظيم ، فانه ان نجح أولئك الذين سفهت أنانيتهم الشخصية وفسقت عن سبيل الاعتدال فما من حظ للوطن حينئذ الا أن تلتقمه أفواه المصائب وهي تكاد ترى منذ هذه اللحظة ، وان نجح من رقّت على عيال الله في هذا الوطن أفئدتهم وكان أكبر همهم السير للمصلحة العامة — أنّى دارت المصلحة — غير جامدين في التحزب والشخصية على أمور قد تكون أسباب الدمار وطرق البوار فعسى حينئذ أن يكون حظ الوطن من السلامة والاعتلاء عظيما •

وليس هذا التنازع الآن في دوره الابتدائي [1] بل قد تجاوز ذلك

---

* جريدة (الحضارة) ٦٨/٢ (٢٧ تموز ١٩١١) .

(١) من لطيف التصادف ان احد اصدقائنا الافاضل ارسل الينا هذا الاسبوع برسالة بحث فيها بحثا فلسفيا اجتماعيا عن اختلاف المناحي وظهور التباين والتنازع ، وهي تلي مقالتنا هذه في هذا العدد وليست هي في موضوعنا عينه ولكنها قريبة منه ومساعدة له .

الدور واكتسب من الشدة أشكالا وبلغ في التشكل أدواراً ، وقام أناس من كل فريق يصمون الآخرين بالافساد في الوطن ، والافساد في الوطن أكبر الجنايات ، وقل أن تقع هذه الجناية عن علم وعمد من أحد أبناء الوطن الذين لهم علاقة كبيرة به الا أن يكون السائق اليها عظيما جدا في نظر من يُقضى عليه اجتراح تلك السيئة ، أو أن يكون منشأها الجهل والخطأ أو ضعف الرابطة والعلاقة بالوطن ، ولذلك نرى الوصم بهذه السيئة العظمى كافيا للدلالة على مبلغ ما وصل اليه التنازع بين ذينكم الفريقين سواء وقع ذلك الوصم جهراً كما يفعله بعض متهورة الفريقين وغلاتهم أحيانا أم وقع سراً ، وكل سر جاوز الاثنين شاع .

هال خلقا كثيرين من الامة بلوغ التنازع بين فريقين من رجالها المعدودين هذا الحد ، وانقسم الناس بسببه ثلاثة أقسام كبار : قسم نَقِم على الفريقين ، وعاف المشربين ، واعتزل السياستين ، وهو يائس في الحالين ، وغير راض عن انتصار احدى الفئتين ؛ وقسمان قد تراءى لكل واحد منهما أن ينتصر لاحد الفريقين المتنازعين ومن هؤلاء الانصار تتألف اليوم الاحزاب السياسية التي ولدت الليالي بعضها ولا تزال حبلى بأخرى ، أما تمييز هذه الاقسام الثلاثة بالعدد فمشكل وصعب علينا وعلى غيرنا ، ولكن ظننا يرمي الى أن المعتزلة أي القسم الاول قسم اليأس هم الاكثرون ، فان المعروف من طبائع الناس أن حب الراحة يتسرب في عروق الاكثرين منهم وتزين لهم طرقها وتهوي أفئدتهم اليها من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، ومن ذلك أنهم لا يشتهون أن تتعب أفكارهم وتقلق سرائرهم في الواقعات والنوازل العمومية ، فيتركونها لطبيعتها وللمشتغلين بها ، فان كان جوها مُصحِيا ولاحت فيه تباشير فجر ربيعي فرحوا واطمأنوا ، وإن تكاثفت غيوم المشكلات

لم يجدوا الى الراحة سبيلا غير الاستسلام الى اليأس والتشاؤم من رأي كل ذي رأي وأمل كل آمل وعمل كل عامل ، ولا يزالون كذلك حتى تنقلب تلك الغيوم ريحاً رخاء ، أو نكباء زعزعا ، أو غيثاً طيباً صيبا ، أو سيلا جارفا ، وهم تحت كل ذلك جامدون من قبل ومن بعد ، ولهذا يجد المستبدون المستعبدون مجالا واسعا ، ولهذا أيضا يغلط من يظنون أن الدستور وحده يدفع كل صنوف الاستبداد وان لم يوجد للحق والحرية المشروعة أنصار يقولون ويعملون ، يجادلون وينازعون ، كلا بل لا غنى للشعوب في وقت من الاوقات عن أشخاص يقفون أمام منافذ الاستبداد وما القوانين الاساسية الا مساعدة لهم .

أما القسمان الآخران اللذان قلنـا إن الاحزاب السياسية تتألف منهما فان عدد رجالها لا يزال بالنسبة الى مجموع الامة قليلا ، وليس بصحيح ما يذكر عن حزب الاتحاد من أن أعضاءه يبلغون ملايين كما قاله بعض رؤسائهم ، فان أكثر أهل الاناضول أصبحوا مخالفين لهم ، وهكذا أهل الولايات العربية وأهل الولايات الارناؤوطية ، وفي أدرنه وسلانيك دبت روح المخالفة لهم بصورة شديدة ، وهذا ان تجاهلوه اليوم سيعترفون به غدا اذ لا يبقى للتجاهل مجال ، ولذلك أسفنا لفضيحة ذلك الرئيس الذي ظن أن تجاهله لا يدركه أحد فأعلن أن عددهم يبلغ الملايين ، وكنا والله نتمنى أن يكون هذا القول صحيحا لان وجود ملايين من العثمانيين في حزب سياسي يدل على سياسة خليقة بالثناء ، ولكن أنى هذا والامة كلها حديثة عهـد بالتربية السياسية ولم تخـرج من الاستعباد الا منذ ثلاث سنين فقط ؟ نعم إن نحو نصف المأمورين اليوم هم مع اخواننا الاتحاديين كما كانوا في عهد عبد الحميد مع عبد الحميد، ولكن نصف المأمورين لا يبلغون الملايين ولا مئات الالوف ولا عشرات

الالوف ، وضباطنا البواسل قواهم الله ليسوا اليوم مع حزب من الاحزاب لان ناظرهم المحترم نهاهم مرارا في خطبه وفي بلاغاته العمومية عن التفرق شيعا مع الاحزاب ، فان فيه الهلاك المحقق والعياذ بالله تعالى . ونحن ما نظن بهؤلاء الضباط المنورين الا خيرا فلا تتصور أنهم يخالفون أوامر النظارة العليا مع معرفتهم أن الطاعة في العسكرية هي الركن الاعظم ، ومع ادراكهم الخطر على الدولة والوطن من تفرقهم شيعا مع الاحزاب . والقول بأن الضباط اليوم مع حزب الاتحاد والترقي مثلا هو وصم لجيشنا لا نغتفره لمرتكبه كائنا من كان ، على أننا انما نعتد في هذا المقام بأنصار الاحزاب الذين هم من الامة أي من عقلائها المفكرين من أولي العلم وذوي التجارات والصناعات والزراعات ، فهؤلاء هم الذين نقول ان عددهم في كل حزب ليس بكثير كثرة تذكر في يومنا هذا . ولا ننكر أن الذين مع اخواننا الاتحاديين اليوم لا يزالون أكثر ولكن المفاضلة في العدد في بحثنا هذا ليست بين الاتحاديين وغيرهم وانما هي بين أنصار الشخصيين وأنصار الشعبيين كما أن النزاع انما هو بين هذين الفريقين ، ولذلك ترى أن فرقة الاتحاد والترقي التي في مجلس الامة قد خرج منها في السنة الماضية من ألفوا حزب الاهالي ، ثم حدث فيما بينها هذه السنة ما حدث ، ومال قسم كبير منهم الى تقرير المواد العشر المعلومة التي نقلناها في وقتها ومنها أنه لا ينصب ناظر من النواب فعلى مَ هذه المادة يا ترى ؟ ومن أجل من وضعت ؟

هنا أريد أن أقول كلمة عن نفسي هي واجبة في هذا المحل فأرجو أن يسامحني بها القراء : أنا امرؤ مخلص ، إن خالفت فعن نية حسنة وأنصف مخالفي ، وان حالفت فعن نية حسنة ولا أداهن حليفي ، ولا أطلب شاهدا على هذا أكثر من أن يتذكر القارىء أنني قلت في هذه

« الحضارة » بمناسبات متعددة إن اخواننا الاتحاديين ، ولا سيما الذين في المجلس منهم ، يوجد بينهم من هم أمثلة الفضائل ، وفيهم من هم على جانب عظيم من حسن النية وعلو الهمة ، فأما مخالفتنا اياهم فهي من تخالف الافكار ، ويجوز أن نكون نحن مخطئين كما يجوز أن يكون الخطأ منهم ، والفاضل هو الذي يرجع عن خطأه اذا ظهر له ، ولذلك ما زلت أرجو أن يرجع كثير من اخواننا الاتحاديين عما أعتقد أنهم مخطئون فيه ، مثل تحسين الظن ببعض الوزارات وبعض الاشخاص الذين صاروا نظارا ، وها قد حقق الله مع الزمان هذا الرجاء وأسمعنا من هؤلاء الاخوان أصواتاً كأصواتنا بل هي أعظم ، وأرانا نتائج كبعض ما كنا نأمله أو هي أكبر ، فهؤلاء الاخوان لا يزالون اتحاديين ولكن كان صوت جهادهم لاجل المصلحة العامة كصوت جهاد غير الاتحاديين، وبهذا أصبح فضل غير الاتحاديين الذين سبقوا بذلك الصوت غير منكور الا لدى مرضى الابصار أو مرضى البصائر والسرائر .

وبهذا أيضا تبين أنه لا بد من الوقوف أمام منافذ الاستبداد ومظان الاعوجاج ، وأنه اذا لم يقم بذلك بعض الاحزاب السياسية لسبب من الاسباب في زمن من الازمان مست الحاجة الى غيره ، فانه اذا ثبت أنه يوجد في الامة من يريدون التغلب على كل أحد من غير أن يعترض عليهم أحد وكان لا يوجد الا حزب واحد موافق كان هناك اما الاتفاق التام على عصمة اولئك المتغلبين عن الخطأ والرضاء العام باستبدادهم ، واما موت أوجب سكوت الاكثرين أمام تغلب الاقلين ، والوجه الاول بعيد الحصول ولا سيما في أمة حديثة عهد بالانقلاب ، والثاني ليس حصوله بمستبعد في حد ذاته في الامم بل لا ينفي عنها علائم الموت الا شهادة عيانية بقيام حزب معترض مجادل فيها يقف أمام الكثرة والقلة ولا تثنيه

الالقاب التي يخلعها عليه الحزب الآخر وأنصاره ، وهو موقف صعب ولذلك لا يقدم عليه الا قليل ولا يكون نجاحهم الا بالتدريج . ونجاح الاحزاب يفسر بوجهين : الاول رجوع أحد الحزبين الى رأي الآخر في المسألة التي تخالفا فيها ، والثاني كثرة المقبلين على الحزب ، ومن أجل هذا كان العيب العام في الاحزاب كلها اصرار حزب منها على خطئه أحيانا لكيلا يقال ان خصمه فاز ، وبسبب هذا العيب العظيم تقلق الافكار أحيانا ولكن القلق لا يخلص ولا يفيد بل الانفع هو أن لا يهمل مفكرو الامة مسألة الاحزاب فان لها علاقة عظيمة بمسألة الوزارات ، وعلاقة الامة كلها بالوزارات ظاهرة لا تحتاج الى زيادة شرح وبيان .

دع حزب اليأس في مسليات نفوسهم سادرين ، وخذ بك الى أحزاب تشيم لديها بارقة أمل وتشم عندها رائحة عمل ، ثم لا تك من المتنطعين الذين يقطعون السبل بقولهم ماذا عَمِلَ وماذا عملوا وماذا يعملون ، فان الطموح الى الاحسن هو اللائق بالحي ، والاحسن لا يأتي اذا بطل الانتقاد ، والانتقاد لا يتيسر اذا صادف من يقدر على الاستبداد ، فالوقوف أمام منافذ الاستبداد أعظم الاعمال ، وتأييد الذين يقفون هذا الموقف أكرم الخلال ، وليكن ارتقاء الاحزاب وتكافؤها مفرحا لك، فانه أضمن لخير العموم وأرجى أن تدخل الوزارات في طرق مثلى ، وأن تتألف من رجال هم في خلال الخير أمثل وأعلى ، وأن تكون آجالهاأطول وأبقى ، ويومئذ يكون التنازع أقلّ وأهدى ، أما قبل ذلك فتسمع كثيرا من الاضطرابات والتنازع وانقسام الحزب الواحد وكثرة تبدل الوزارات ، وربما سمعتَ عن أمور أخرى حديثا عجبا .

والآن سنريك على أية طريقة نصبت هذه الوزارات في كل مرة .



النُّظَّار (*)

— ٤ —

ـ كيف نصبت الوزارات الاخيرة في كل مرة ـ

ـ آباء المملكـة ـ

مما أصبح بعيدا عن الريب أنه قد صار الشرط الاول في الوزارة بعد كامل باشا أن يكون رئيسها ثم كافة أعضائها خاضعين مطيعين للاشخاص الذين لسان حالهم يقول : نحن آباء المملكـة ، ويظهر أن حسين حلمي باشا كان راضيا بهذا الشرط باديء ذي بدء حين أراد أن يذوق طعم الصدارة لاول مرة ، ولكنا نظنه بل نعلم أنه أصبح اليـوم يعافها مع هذا الشرط لانه ذاق ثقله ووجد حلاوة الصدارة لا تعادله، وهو ولا شك من الرجال الذين يعرفون قيمة أنفسهم وحيز وظيفتهم فلذلك نراه معذورا حين أقدم على هذا الامر باديء بدء اذ لم يكن يتصور مقدار ثقل ذلك الشرط كما نراه اليوم خليقا بالثناء لِمَا وقفنا عليه من تعالي همته عن الدخول في مثل هذه المآزق السرية لاجل قليل من الفخفخة الهجرية .

لم تكن « الحضارة » قد صدرت في عهد الوزارة الحلمية ، أمـا صاحبها فقد كان في المجلس غير مطمئن هو واخوانـه « المعتدلون » لحركات تلك الوزارة ، وفي مسألة لينج التي كان حسين حلمي باشا

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٦٩ (١ آغستوس ١٩١١) .

حامل لوائها وقائد كتائبها زلزلت الحملات العظيمة من قبل اخواننا مركزه ، ولكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن حسين حلمي باشا يستحق الثناء في الجملة ولا سيما اذا قيس بمن عرفت حقائقهم أخيرا ، ولا نكتم أننا أصبحنا الآن قانعين به مع اعتقادنا أنه لنظارة الداخلية مثلا أصلح منه للصدارة .

لم يكتف الزاعمون أنهم آباء المملكة بذلك الشرط بل رأوا أنه لا بد لهم من ادخال أعضاء في هيئة الوزارة من أركان تلك الفصيلة التي خرج ويخرج منها أولئك الآباء ، فلم تهدأ الاحوال بعد حادثة ٣١ مارت حتى أدخلوا الشاب جاويد بك مبعوث سلانيك ناظر مالية ، وتوسلوا الى ذلك بوسيلة لطيفة وهي تعيين رفعت بك الذي كان ناظر مالية اذ ذاك رئيسا لديوان المحاسبات وهي وظيفة مرغوبة لا ينعزل صاحبها ، ثم سلطوا جرائدهم على فريد باشا الذي كان ناظر الداخلية لاجل أن يتنحى فتنحى ، وأدخلوا الشاب طلعت بك مبعوث أدرنه ناظر داخلية ، وسلطوا تلك الجرائد بعد ذلك بقليل على نورادونكيان أفندي ناظر النافعة فلم يسعه الا التنحي بعد أن حاول قليلا وأتوا مكانه بالشاب حلاجيان أفندي مبعوث استانبول لانه عاهدهم ، وبعد ذلك استقال حسين حلمي باشا وجاء مكانه حقي باشا فدخل الشريف حيدر بك في الوزارة الحقية ناظراً للاوقاف مكان المرحوم خليل حمدي حمادة باشا ، وأمر الله أفندي ناظراً للمعارف مكان نائل بك ، ثم استقال الشريف بعد ذلك وأتوا مكانه بخيري بك مبعوث نيكده ، وأمر الله أفندي لم يرق الآباء ــ على ما يظهر ــ فاستقال وأتوا مكانه بالشاب اسماعيل بابان بك ، فلما استوى على كراسي النظارات الشبان جاويد بك وطلعت بك

واسماعيل بابان بك وحلاجيان أفندي تمت الاماني حينئذ للذين يريدون ابداع أزمة المملكة لدى الايدي الشابة ! ولكن يظهر أن ذلك الشاعر صادق بقوله « لكل أمر اذا ما تم نقصان » فانه ما إن تم بلوغ الوزارة في تشكلها التدريجي هذا الحد الذي يصح معه أن تسمى وزارة الشبان حتى بدأ فيها التساقط ، فاستقال الشريف حيدر بك ثم حلاجيان أفندي ثم أمر الله أفندي ثم جاويد بك ثم طلعت بك ثم اسماعيل بابان بك .

وقد رأينا جرائدهم تندب هذا التساقط مع أن الذين خلفوهم انما هم من أبناء العم وليسوا بغرباء عن الفصيلة ، ولكن كأن تلك الجرائد لا تعتبر أهلا لتمثيل الفصيلة في النظارات الا هؤلاء الشبان المخصوصين.

طنطنت الجرائد كثيرا أيام تعيين أولئك الشبان ، والجرائد في هذا الامر فريقان : فريق على بينة من الاغراض والاماني والرغائب ، وفريق في ظلمة من التقليد . فأما جرائد الاغراض فانها هي التي ثبتت في تلك الطنطنة طويلا ثم هي التي ندبت حظ الدولة والوطن بعد مغادرة تلك الايدي الشابة للنظارات ، وأما الجرائد التي كانت في ظلمات التقليد — ولها قليل من العذر — فكأن الله قدأرسل اليها بمصابيح رأت بها الحقائق فلم تكتف بترك الطنطنة بل رأيناها بعد قليل في صف الجرائد التي تحمل الحملات الهائلة ، وقد كان لمجموع هذه الجرائد الهاجمة أثر عظيم في ارتجاف تلك الايدي الشابة ثم انتفاضها وخروج النظارات منها ، ولست أدري كيف نسي الذين استعملوا في اسقاط فريد باشا ونورادونيكان افندي تلك السهام المعهودة أنهم محتاجون الى مجنات تقيهم من مثلها أم كأنهم ظنوا أن اعتقاد الناس بهم القدسية في العلم والنية والعمل تكفيهم وأن اعتقاد الناس بهم على هذا الوجه سريع

الحصول متى أراد الآباء ، وقد نسوا أن نفوذ الآباء له حدود معلومة وأن من الناس من قد يناقشون الحساب .

هذه المسألة مهمة جدا أي زعم أناس أنهم آباء المملكة ، ومعنى هذا أنهم على رأيهم أحق بادارة أمور المملكة وأجدر بالمحافظة عليها لانهم عند أنفسهم أكابر الامة عقولا وعلوما وهمما وأعمالا ، وان لم يكونوا أكابرها تجارب وسيرا وأحوالا وأعمالا ، هؤلاء اغتنموا فرصة الانقلاب الذي بقي تاريخه مجهولا الى الآن عند كثير من الناس ، ووجدوا الوسيلة ـ لبلوغ تلك المنزلة السامية ـ استثمار اسم « الاتحاد والترقي » الذي كان شعار الضباط المتعاهدين على القيام لاعلان القانون الاساسي ، وقد نسي هؤلاء أن القانون الاساسي من بعد أن يعلن يجعل عمر تلك الثمرات الشخصية قصيرا لانه يقضي بالتدريج على المدبرات بالسر ، ويمزق الحجب التي توضع أحيانا لآمال مخصوصة ، وتظل الميادين واسعة للمناقشة فلا يبقى من السهل أن يصدق الناس بتميز أربعة او خمسة مثلا في المملكة بحيث يديرونها وهم ليسوا بنظار مسئولين .

كانت صحف أوربا قد كتبت ، وكذا بعض صحفنا ، أن الحكومة تحركها أحيانا أصابع خفية . ولما رأت الجمعية أن أوربا عائبة هذا الصنيع ومشنعة عليه اضطرت أن تعلن مرارا ان اسناد ذلك الى الجمعية غير صحيح ، وأنها لا تتعرض لشيء من أعمال الحكومة لا في نصب وعزل ولا في ادارة وسياسة ، وأنها قد تركت مثل هذه الامور لفرقتها التي في المجلس .

كثير من الناس لم يصدقوا هذه الاعلانات أما نحن فيهون علينا أن نصدق أن أركان الجمعية ليسوا جاعلين أكبر همهم الاشتغال بكل

عمل من أعمال الحكومة ولكن الاعمال التي يقولون ان لها علاقة بحياة الجمعية ونموها فمن الصعب جدا أن يصدق العاقل ان الجمعية لا تتعرض لها ، أما تحديد تلك الاعمال فصعب أيضا ولكن مما يعرف بالبداهة أن من جملة تلك الاعمال انتخاب رجال لرياسة النظار وللنظارات المهمة كالداخلية والمالية والحربية والبحرية ، فاذا استطاع الذين اسعفهم الحظ بتسمية أنفسهم أركان الجمعية وتصديق الناس اياهم بذلك أن يتصدوا ويتعرضوا لانتخاب رجال لما ذكرناه من المناصب العالية فنحن لا نصدق الاعلان بأنهم لا يتصدون ذلك التصدي ، ولكن هل يستطيعون ذلك دائما وهل يستطيعون أن يجعلوا الفرقة التي في المجلس على رأيهم في كل مرة ؟ هذا لا أستطيع البت فيه ولكني أعرف أن تقلب الوزارات بعد كامل باشا لم يك خاليا من تصديهم وتعرضهم ، كما أنه قد وقعت أشياء في هذه الاثناء غير مطابقة لذوقهم ولا أقول كانوا مرغمين فيها وانما أقول ان الزمان لا يساعد أحداً في كل شيء .

فهكذا نصبت الوزارات في كل مرة ولم ينظر كثيرا فيها للاهلية والكفاءة كما يقال . وهناك أمر آخر يتعلق بهذا البحث وهو النظر حين تأليف الوزارات الى تعدد العناصر وقد حسبوا حساب الروم منذالانقلاب فلم تخل هيئة وزارة من واحد منهم ، وهكذا حسبوا حساب الارمن ولما أرادوا أن يعينوا غير أرمني لنظارة النافعة كما كانت العادة جعلوا ادارة البوسطة والتلغراف نظارة وعينوا لها ناظراً أرمنيا لم تسبق أدنى مناسبة بينه وبين هذا العمل ، أما العرب والارناؤوط والكرد مثلا فيقولون انهم داخلون في عنصر المسلمين ولا يريدون أن يسلموا بكون كل جماعة من هؤلاء عنصرا على حدة من حيث الرابطة القومية ، ولم

ينظروا الى أنهم فرقوا بين الروم والارمن من هذه الجهة فلم يجعلوهما عنصرا واحدا مسيحيا ، وهذه عندنا من جملة المسائل العظيمة التي ينبغي أن يؤجل البحث فيها الى حين آخر من الزمن •

هذا وبقي من البحث تفصيل القول في الوزارة الحاضرة وسبب بقاء حقي باشا أكثر من غيره ، وتفصيل القول في المرشحين للوزارة والنظارات ونورد هذا في العدد الآتي ان شاء الله تعالى •



النُّظَّار (*)

— ٥ —

الوزارة الحقية

لماذا مكثت أكثر من غيرها ؟

من المرشحون للنظارات ورياسة النظار ؟

اذا أخذنا كل واحد على حدته ممن تتألف الوزارة منهم نجدهم كلهم جديرين بالاحترام ، اذ ما منهم وا حد الا وهو من ذوي الفهم والاطلاع، ولا نستطيع أن نقول في واحد منهم انه خـال من العلم ، ولكن متى نظرنا الى مجموع هذه الهيئة تجد رأينا يختلف شيئا فشيئا على نسبة ما نراه من الآثار وحينئذ يخرج وصفها بوصف جميل عندنا وفي نظرنا عن دائرة الاحترام ويدخل في دائرة الملق ، ولكنا مع هذا قد نعذر الذين يظهر لنا بالقرائن أنهم يمدحون هذه الوزارة عن حسن نية وخطأ نظر .

رئيس هذه الوزارة رجل متضلع كثيرا من علوم السياسة الرسمية، وهو جم العلم بقوانين الدولة وعاداتها ومراسمها ، وقد مارس عدة من السنين وظيفة عظيمة وهي وظيفة « مشاور حقوق في الباب العالي » وكان عبد الحميد يرمقه بعين العناية اذ كان مترجما في المابين ، ويقال انه كان ينتظر حينا من الدهر يجعله فيه صدرا أعظم ؛ وشيخ الاسلام في هذه الوزارة رجل عصري كما يقولون وهو من الاعيان ، وناظر الحربية هو ذلك الباسل الشهير الشهم الهمام ، وناظر البحرية رجـل

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٧٠ (٨ آغستوس ١٩١١) .

عسكري مشهور أيضا ، وناظر الداخلية مبعوث دارس محصل ووطني أصيل في بلده لم يرتب أحد في حميته الوطنية الى الآن ، وناظر الخارجية مبعوث مخرج في هذا المسلك من أول نشأته وقد كان في أواخر أيام عبد الحميد سفير أتينة ثم سفير لوندرة ، وناظر التجارة والنافعة مخرّج في هذا المسلك أيضا منذ نشأته ، وناظر الزراعة من الاعيان ممارس للاعمال والوظائف أيضا ، وناظر المعارف من الاعيان أيضا أمضى عمره في الدرس والتدريس وادارة المدارس ، وناظر المالية من الاعيان كذلك خبير بأمور مالية الدولة وقد كان أستاذ درس المالية في المكتب الملكي عدة سنين ، وكثيرون مثل جاويد بك يوجدون بين تلاميذه العديدين ، وناظر العدلية مبعوث مخرّج في هذا المسلك منذ نشأته أيضا وهو ذكي يملأ مركزه ، وناظر الاوقاف مبعوث دارس محصل وموظف ليس بحديث العهد .

هؤلاء نظارنا اليوم ومن أوصافهم هذه يتبين أن خصومهم السياسيين لا يستطيعون أن يتهكموا على هذه الهيئة اليوم بمقدار ما كانوا يتهكمون قبل سبعة أشهر وستة أشهر مثلا ، اذ كان فيها أعضاء لا يملكون مثل هذه الصفات ، ولكن هل علم النظار وقدمهم في التوظف هما حاجة الامة فقط ولا ينظر معهما الى السيرة نظرا عميقا ؟ لو كانت هاتان الخلتان هما حاجة الامة في نظارها لكانت الامة مالكة اليوم هيئة حسنة وحينئذ لماذا هذه الشكوى التي لم يبق مجال للمكابرة وانكار أنها عامة . لو كان هذان الوصفان هما كل الشروط المطلوبة في النظار لأحصينا لهم أكثر من مائة يصلحون للنظارات وحينئذ ما هو سبب التعلل بقلة الرجال في حين أن لدينا جيشا من قدماء الموظفين بينهم كثيرون ممن يعدون من أهل العلم والفهم ؟ كلا ليس العلم وقدم التوظف هما كل الشروط

المطلوبة في الذين يتولون النظارات بل هناك شروط عظمى يذكر العلم معها ولكن لا يدانيها قدم التوظف ولا يلتفت اليه وهي القابلية الفطرية والشجاعة والاخلاص وعلو الهمة وحسن الصيت ، فقد يكون امرؤ مثلا علامة الدنيا من حيث الاطلاع على قوانين العالم وعادات الامم ووقائع الشعوب وطبائع الاقوام ولكن قابليته الفطرية ناقصة فتراه مع كل ذلك العلم ليس بحكيم ولا بعيد النظر أو يكون مع كل ذلك العلم غير شجاع قوي الادارة فهو حينئذ يتبع بعلومه ارادة الاقوى دائما ، أو يكون غير مخلص فيكون بعلمه ذلك أحد الماكرين الـذين تخشى شرورهم ، أو تكون همته دنيئة فيضطر الناس الى الازراء به وتناسي أنه يحمل في صدره جواهر ثمينة ، أو تكون سمعته رديئة فلا يعادل الانتفاع بعمله التضرر بسوء سمعته . وبالجملة نجد في طبائع الجماهير الاستغناء عن الرجل العالم اذا لم يكن مع علمه شيء يزينه من الاخلاق المرغوبة المطلوبة القريبة من المعروف عند الجمهور البعيدة عن المنكر عنده ، ولعل القراء يعرفون ما يؤثر عن الامام عمر بن الخطاب رضي‌الله عنه اذ بلغه أن أبا موسى استخدم حاسبا يهوديا لم تكن مزيته الا معرفة الحساب فكتب اليه أن يعزله فأجابه بما معناه « لا يقوم مقامه أحد » ، فوقع له في الجواب « مات اليهودي والسلام » أي افرض أنه مات وانظر حينئذ ما يمكنك أن تصنعه فاصنعه الآن . وبديهي أن عمر عليه الرضوان كان حريصا على مصلحة بيت المال ولكنه لم يجد من مصلحته أن لا ينظر في المستخدمين الا الى علمهم فقط بل رأى أن هناك أمورا يجب أن تكون مع العلم ولم تكن تلك الامور موجودة عند ذلك اليهودي .

ونحن في هذا المقام انما نقرر أمورا عامة غير ناظرين ولا قاصدين الى أن تلك الشروط التي ذكرناها موجودة أم غير موجودة في نظارنا

وفقهم الله تعالى ، فان هذا أي بيان أنها موجودة أم غير موجودة لا تتصدى له في هذا المحل وانما نبين هنا أن هذه الوزارة بالاجمال قد رأت سبل الاستعانة بالقوة في ادارة الداخلية أكثر مما رأت سبل الاستعانة بالحكمة ، وها هي ذي قد وجدت ووجد العالم كله في الشرق والغرب من جملة آثار اللياذ بالقوة دون الحكمة هذه النتائج في بلاد الارناؤوط على ما هو معلوم بل هذه النتائج ليست الا مقدمات عند بعيدي النظر .

على أن القوة اذا كانت هي المفزع ، والفزع اليها هو المنزع ، لا يبقى من احتياج الى اشتراط العلم والخبرة والحنكة وكأنه لاجل هذا المعنى اختير قبل هذا اليوم أناس لا حنكة لديهم ولا بعد نظر ، ومعلوم أن هذه الوزارة صادفت من منتخبي الامة ونوابها ومن أصحاب الاقلام هجوما عظيما قد أزعج أفكار القوة التي تستند عليها أي الاكثرية الخفيفة التي في المجلس وبسببه تحدثت الصحف الى الناس كثيرا بسقوطها وصارت الاعضاء فيها تتساقط كما هو معلوم ثم رأى الناس من حقي باشا ثباتاً مستغربا فان كل العارفين بأخبار أوربا يقولون ان رؤساء النظار ثمة يأنفون من اللبث في مراكزهم متى كانت الاكثرية التي يستندون عليها في مجلس الامة خفيفة . ولو كان الذين لا ترضيهم ولا تروقهم هذه الوزارة عبارة عن حزب واحد لصح أن يتساهل الباحث المنقب مع مسيئي الظن بذلك الحزب ، ولكن ما العمل وليس الا حزب واحد يصبر عليها من حيث جملته (أما أفراده فكثير منهم متأففون منها) وبقية الاحزاب تضج بالشكوى وتقص الحقائق المؤلمة . ولكي تطمئن قلوب الذين قد يظنون أن هؤلاء المعترضين على الوزارة هم من غير الترك نقول لهم ان في مقدمة الاحزاب المعترضة حزب الاهالي وهو

كله من الترك الا واحداً أو اثنين ، ولا يخفى أن من الترك أيضا رئيس الحزب الحر المعتدل اسماعيل حقي باشا مبعوث أماسية (سيواس) ، وكذلك ربما ظن بعض مسيئي الظن بالاحزاب أن المعترضين لم يكن اعتراضهم الا لنيل المناصب والمساند ، ونقول لهؤلاء ان المناصب والمساند الى هذه الساعة انما تلتمس بمماشاة آباء المملكة لا بمعارضة أفكارهم ومقاومة رجالهم ومحاسيبهم .

وربما سأل سائل : لماذا لم يرح آباء المملكة أفكارهم باقامة محسوب قد يرضى عنه الناس مقام محسوب آخر ضج الناس منه مثلا فان هذا أنفع لتكثير السواد من الاتباع ، والجواب أنهم يتعللون بقلة الرجـال الصالحين للعمل ، ونحن لا ننكر البته قلة الرجال الصالحين ولكن هم في نظرنا أكثر على كل حال مما يحسبون ، بيد أنهم ربما كانوا صادقين بذلك التعلل من حيث أنه لا بد عندهم من ذلك الشرط الثقيل الذي أشرنا اليه في النبذة الماضية مع الشروط الاخرى المطلوبة عند كل أحد بل قد تكون الشروط المطلوبة عند كل أحد منافية لذلك الشرط .

وبما تقدم كله أصبح سهلا عليك أيها القارىء العزيز أن تعرف سر بقاء حقي باشا في هذه الوزارة أكثر من غيره مع تناثر رفاقه واحدا بعد آخر ، أما المرشحون بعد هذه الوزارة لرياسة النظار والنظارات فهم اليوم من الاعيان غالبا ، أما ترشيح النواب ففيه الآن الخلاف المعهود القائم بين الفريقين من الاتحاديين الذين في المجلس : فريق يريدون أن يكون النظار أو أكثرهم من النواب كما هو الحال في فرنسة مثلا وفريق يريدون أن تصرف آمال النواب عن تولي النظارات ، وعندنا أن هذا الرأي الثاني هو الاولى مع تجويز أن يصير أحد النواب ناظرا أحيانا

فان في هذا توسيعا ، وفي الرأي المانع نصب النظار من النواب أو المانع نصبهم من غير النواب يوجد شيء من التضييق .

هذا ونحن أيضا نرى أن الرجال قليلون ولكننا نقصد بهذا الرجال الذين هم أهل للنهوض بالامة وقد فصلنا ذلك في النبذة الاولى من مقالنا « رجال اليوم » ، وأما الرجال الذين يخلفون حقي باشا ويرجى أن يحسنوا بالنسبة فليسوا بقليلين متى برئت العيون ، وبهذا القدر من الكلام على النظار نكتفي وسنصف الولاة في العدد الآتي ان شاء الله تعالى .



الولاة (*)

قبل كل شيء أعرّف قارئنا العزيز أن الولاة الذين قبل ١٠ تموز ٣٢٤ (٢٣ يوليو ١٩١١) لم يبق منهم اليوم الا ناظم باشا الذي هو الآن والي أزمير وكان تولى ولاية سورية برهة طويلة ، وأما سائر الولاة الآخرين فهم كلهم جدد قد ارتقى بعضهم من المسلك العدلي مثل غالب بك والي سورية ومصطفى نديم بك والي اشقودرة وابراهيم بك والي سلانيك، وبعضهم من المسلك العسكري مثل جمال بك الذي عين لولاية أطنة ثم ولاية بغداد اليوم وحسن رضا بك الذي عين الآن للبصرة ، ومثل ابراهيم باشا الذي كان في طرابلس الغرب وبدري باشا الذي كان في اشقودرة وناظم باشا الذي كان في بغداد وتحسين باشا ومحمد علي بك في اليمن، واسماعيل حقي بك في بتليس ثم أطنة ، وبعضهم ارتقوا من المسلك الاداري مثل محمد علي عيني بك والي معمورة العزيز وجلال بك الذي كان في البصرة والآن في ديار بكر وعلي منيف بك الـذي كان وكيل متصرف في برزرين فصار مبعوثا عن أطنة فواليا لانقرة فوالياً لمناستر ، ومثل صبحي بك الذي كان متصرفا في القدس فصار والياً في يانية ، وبكر سامي بك الذي كان متصرفا في أماسيـة فصار الآن واليا في طرابلس الغرب . وارتقى بعضهم من الصحافة مثل سليمان نظيف بك

---

* جريدة (الحضارة) ٧١/٢ (١٧ آغستوس ١٩١١) .

وبعضهم من شورى الدولة مثل نور الدين بك والي بيروت • والخلاصة إن الولايات كلها أصبحت اليوم في يد أناس لم يكونوا ولاة في العهد السابق وانما كان بعضهم قائم مقام اداريا ، وبعضهم باشا أو قائم مقام أو بيكباشي عسكريا ، وبعضهم كان متصرفا ، وبعضهم كان مكتوبياً ، وبعضهم كان في شورى الدولة ، وبعضهم كان موظفا في المحاكم ، وبعضهم كان مأمورا في الكمارك مثل الحاج عادل بك ومثل أمين بك الذي عين واليا للحجاز والآن لأرضروم ، وبعضهم كان معلما ومدير مكتب مثل جلال بك الذي عين والياً لأرضروم والآن لأدرنة ، وبعضهم لم يكن شيئا مذكورا بين الموظفين مثل حسين كاظم بك •

قد يكون الغرض من هذا التجديد تجربة أناس غير الاولين على رجاء أن يظهر في الامة رجال هم أصلح لادارة الشؤون وترقية البلاد ، وقد يكون بعض هذا التجديد لإرضاء الاهواء ، وقد يكون ضروريا لان أكثر ولاة ذلك العهد كان الناس في الولايات يضجون منهم ، وكيف كان السبب نحن لا نرى لنا انتقادا وتعييبا على هذا التجديد من حيث جملته ولكن بعض الذين انتخبوا لهذه الوظيفة المهمة من عسكريين وغيرهم لم يبيضوا وجوه الذين انتخبوهم ، أستغفر الله بل بعضهم سوّد الوجوه وبيّض اللمم • وبسهولة تعرف من هؤلاء اذا تقصيت تاريخ الحوادث الخطيرة التي حدثت هاتين السنتين في أوربا وآسيا العثمانيتين ونجم عنها القتال وترميل النساء وتيتيم الاطفال وتلف النسمات والاموال ، أما نحن فنبعد الآن عن مشؤوم ذكرهم •

وظيفة الوالي مهمة جداً ، والشروط المطلوبة في صاحب هذه الوظيفة المهمة ليست بسهلة ، ولكن لم يكن الاشكال في قلة الرجال الذين هم

على حسب الشرط وانما المشكل صيرورة الذين جرى على يدهم هذا التجديد عرضة لتلاعب المادحين والقادحين بالمرشحين من غير أن تكون لهم ملكة كافية لمعرفة الرجال مع تلك الشهادات المتعارضة التي لا مبعث لاكثرها سوى الاهواء ، وهذا هو الذي رأينا آثاره من الولاة الجدد ونخشى أن نرى ما هو أعظم .

لم يكن أكثر الولاة القدماء من ذوي الاستقامة أما الولاة الجدد فلما تتم تجاربهم بعد ، وأكثرهم لم ينسب اليهم ارتشاء ولكن نسب لأكثرهم سوء ادارة ومشي مع أهـواء الاحزاب ، وعزي لبعضهم فساد أخلاق وعدم رجولة ، ولبعضهم حمق وغباوة مفرطة ،ولكن مع كل هذا قد يعتذر الذين تولوا نظارة الداخلية بأن هذا هو الموجود في الامـة وليس من الضروري أن يجرّب الناظر كل يوم انساناً بل ذلك يضرُ من وجوه كثيرة اقتصادية وادارية وسياسية ، ويستطيع أولئك النظار أن يقولوا نحن رقينا نحو عشرة ولاة من المسلك الاداري ونحو عشرة من المسلك العسكري ونحو عشرة من مسالك مختلفة كالمسلك العـدلي والمسلك الصحافي وغيرهما ، وقد يقول ناظر اليوم مثلا نحن لا نزال آخذين بالتجارب ولكن بالتروي والاحتياط ولا نزال نرقي ولاة آخرين من جديد ، ومنذ عهد قريب عيّن خليل بك لولاية اشقودرة مصطفى نديم بك بينما كان مستشار نظارة العدلية ، وعين حسن رضا بك لولاية البصرة وهو أميرالاي عسكري ، وقد سألناه عن حكمة هذا التعيين فرأيناه قد تبع فيه آراء بعض الذين مدحوه وقالوا هو عربي (بغدادي) يعرف لسان أهل تلك الجهات ولم يلتفت الى كلام الذين ضادّت أقوالهم أقوال المادحين كل المضادة ، ونحن لا نعرف هذا الرجل العربي فلانقول الآن فيه شيئا وانما نعرف نديم بك التركي ونرجو من حسن حنكتـه

ورويته واستقامته ما يسر ويحمل على شكر الذين أدخلوه في عداد أهل هذه الوظيفة .

وبالجملة فان الباحث يستطيع أن يقول ليس بين الولاة الجدد والٍ نابغة يرفع من شأن ولايته ويقلل من أسباب المهاجرات التي تنذر البلاد بسوء المصير ، ولكنا نحن ما نجد من الصواب التهور والقلق بأن الولاة القدماء خير من الجدد وليت شعري بماذا كان أولئك خيراً من هؤلاء؟ كيف والامة واحدة والفابريكة واحدة ؟ نعم كل ذلك واحد ورجال اليوم هم قد كانوا رجال أمس أيضا ، ألم تر ذلك في الاعيان وفي هيئة الوزارة الحاضرة ، ولعلك تقول نعم إن الامر كذلك ولكن قد تغير مديرو الفابريكة ، وعندنا لهذا جواب بسيط وهو أن التغير قد وقع قليلا في الاشباح وأما في الارواح فالتغير يكاد لا يذكر ولا يحسُّ به ، ومن جملة آيات ذلك أنك مثلا لا تكاد ترى بين الثلاثين الولاة واحدا من العرب كما كان الامر في ذلك العهد اللهم الا ذلك المسيحي السوري والي جزائر البحر الابيض ، ويقال ان طلعت بك كان ينوي تعيين عدد وافر بين الولاة من أبناء العرب ثم فاجأته أسباب الاستقالة وكأنه لما أراد الشروع فيما نوى رضي أن يعين علاء الدين بك الدروبي وكيل والٍ على نية أن يعينه أصيلا بعد ذلك وهم الى الآن لم يجعلوه أصيلا ، أما خليل بك فعيَّن قبل أيام والياً من أبناء العرب للبصرة .

ولعدم التغير في الارواح أسباب كثيرة أهمها شكل الادارة وتشكيل الولايات بل وتشكيل النظارات كل ذلك لا يزال على حاله الاولى تقريبا، ومن هذه الاسباب اندماج كل الذين كانوا مؤيدين ومشايعين للحكومة الحميدية بين الجماعة الذين يقولون « مخلّصو الامة » فليت شعري

اذا كانت الامة في يد هؤلاء من قبل وفي يدهم اليوم فمن المخلّص ومن المخلّص ومم التخليص ؟

قال بعض الفضلاء : دعوا التخليص وليكن لدينا حياء من ضمائرنا فان الامة ما خلصت من الديون بل زادت اليوم كثيرا ، ولا خلصت من التداخل الاجنبي اذ هذه أقرب الحوادث أمامنا (حوادث الماليسور) ، ولا خلصت من الارتشاء والشواهد على هذا في البلاد تنتظر من يريد أن يسائلها ، ولا خلصت من الاهمال وحسبكم من الشواهد القريبة حريق جرغان ثم حريق الباب العالي ثم الحريق الهائل الاعظم الذي التهم ربع الاستانة ـ تقريبا ـ ، ولا خلصت من المهاجرات ، ولا خلصت من الرجال الذين كانت روحهم مترببة على ذوق عبد الحميد ، ولا يتعب ملتمس الشواهد على ذلك فان حسبه أن يعرف أنه لم ينبذ الا نحو عشرين من كل ذلك القطيع الذي كان يخدم أفكاره على أنحاء شتى ، وحسبه أيضا أن يعرف تراجم بعض النظار وبعض الاعيان وبعض ولاة اليوم مع أنهم جدد . واذا كانت المملكة لم تخلص من مثل هـذه الاشياء فمم خلصت حتى يقال تخليص ومخلصون ؟ إني أنادي بهذه الكلمة وهي أن للجيش فضلا كبيرا في ارغام عبد الحميد على تنفيذ القانون الاساسي ، ولكن من بعد الجيش مَن هم أولئك الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس « مخلّصين » ؟ إن كانوا قليلين جدا فمن هم ؟ وان كانوا كثيرين فلماذا لا يصيرون نظارا وولاة ويخلّصوا المملكة من تزايد أثقال الديون ومن الارتشاء ومن الاهمال المخوف العواقب ؟ وان دامت هذه الحالة فأحق الناس بالخجل واطالة الصمت هم الذين يسمون « مخلّصين » .

ونحن نقول يظهر أن هذه الحالة ستبقى الى أن تتغير الحالة الروحية

ولست أدري متى تتغير ، وانما أرى أن الرضاء برجال اليوم ضروري ولكن من الواجب أن يرافقه انتقاد وتنقيب عن النقائص ، وكيف لا نحتاج الى الرضاء بولاة اليوم ونحن نعرف أن الرجال على الشرط قليلون ، وكيف لا ندعوا الى الانتقاد وهم اذا تركوا وشأنهم يخرج منهم كل طاغية لا يطاق ، وكيف لا نوصي بالصبر وما يهلكنا الا اليأس وما ينعشنا الا الرجاء ؟ والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما في نفوسهم . وما تغيير النفوس بالامر المحال أو المتعسر بل هو سهل اذا يسّر الله أسبابه ، وتيسير الله مأمول .

المفكرون المتتبعون (*)

المفكرون المتتبعون في الامة العثمانية ليسوا بقليل وانما القليل آثارهم لقلة تعاونهم ، ولهذا الامر أسباب كثيرة تهم معرفتها وتفاصيلها نعدُّ منها الآن نحو تسعة : ١ ـ تفرقهم بحسب الجماعات ، ٢ ـ تخالف مصادر علومهم ، ٣ ـ تمايز قابلياتهم ، ٤ ـ تغاير اراداتهم ، ٥ ـ تفاوت أعمارهم ، ٦ ـ تباعد ديارهم ، ٧ ـ تباين مناهجهم ، ٨ ـ تدابر أحزابهم ، ٩ ـ تفارق قلوبهم وقلة توادهم . ويضاف الى كل ذلك حداثة عهدهم بالتربية السياسية .

قد يظن ظان أن بين هذه المعدودات تداخلا وأن بعضها ينشأ عن بعض ، فان تفرقهم بحسب الجماعات مثلا يستدعي أكثر ما ذكر بعده من الاسباب : كتخالف مصادر العلوم وتمايز القابليات وتغاير الارادات وتنافر القلوب وتنافي الآراء وتدابر المسالك ، أما نحن فسنوضح عدم التداخل وحينئذ يكون صحيحا جعلنا كلَّ واحد سببا مستقلا ، ومن بعد الايضاحات التي نذكرها لا نجد منافيا أن يكون بعضها قد ينشأ عن بعض .

إن هذا البحث من أعظم المباحث فائدة في نظرنا ، فان هذا العنصر الثمين ـ أي عنصر التفكير والتتبع ـ هو الذي عليه مدار سلوك الامة كلها في مسالك الحياة الاجتماعية والسياسية ، وهو الذي يكون على

---

* جريدة (الحضارة) ٧٢/٢ (٢٤ آغستوس ١٩١١) .

يده تغير الشعب وتنقله في بروج السعادة أو الشقاء ، وتقلبه في أمواج السلامة أو العفاء ، ولذلك عُنينا في هذه المقالة بتفصيل أحوال المفكرين وما بينهم من المباينات المؤخرة قليلا لنتائج أعمالهم ، والعناية والتوفيق من الله تعالى •

(١) تفرقهم بحسب الجماعات :

إن تفرق المفكرين المتتبعين بحسب الجماعات تابع لتعدد الجماعات ، ومعنى هذا التفرق أن كل مفكرين متتبعين في جماعة يُحسبون رأس مال لتلك الجماعة على حدتها كما أنهم يعدون من جملة رأس المال العمومي للامة العثمانية كلها ، ومعلوم أن فئة من الناس تشمئز من كون العثمانيين منقسمين الى جماعات وتود لو تكون هذه الجماعات كلها جماعة واحدة، وقد يطمع بعضهم بأن يصير هذا الحلم والطيف حقيقة ماثلة ويغريهم الطمع الاشعبي بأن يتذرعوا الى تحقيق ذلك الخيال ببعض الذرائع ، ولقد أثبتنا مرارا بمناسبات كثيرة أن هذا طمع في غير مطمع ، وأن التذرع اليه يضر أكثر مما يفيد ، وان لم يكن من ضرره الا الانفاق عبثا من الثروة الطبيعية للعاملين وهي الوقت والفكر لكان ذلك كافيا للارعواء فكيف وثمة من مضاره ما يملأ شرحه وبيانه أوراقا كثيرة ؟ ومن أبدهها ايغار صدور الجماعات التي قد يقترح عليها التنازل عن شيء من أنانيتها الجنسية لاجل أنانية جنسية أخرى ، وعندي أننا لو فرضنا ـ مجاراة ـ أن تعدد الجماعات في العثمانية يحسب من أدوائها لما كان لنا أن نطمع ونضيع الوقت بازالة التعدد في معالجة ذلك الداء ، بل علينا أن تتمرن مع هذا التعدد في سبيل الحياة الاجتماعية وأن تتسلى عن الآلام التي قد تنتج من ذلك الذي سموه مرضاً بما يمكن من وسائل التواد والتعاون،

ولكل مرض مسليات اذا تعذر استئصاله ، وكم من أمراض تمكن معها الحياة بدون أن تستأصل . على أن الجدير بنا هو أن لا نعدّ ذلك مرضاً الا حين نقطع الامل من تقدم العقل في هذه الامة ومن بلوغنا فيه درجات نفقه لديها أن اتقان العدل واعداد القوة هو الضامن لبقاء الحكومات وان تعددت أديان أهل بلادها وأجناسهم ، وعدم اتقان العدل واعداد القوة هو المضيع للحكومات والقاضي على بقائها وان كان أهل بلادها من جنس واحد وعلى دين واحد ، وأمثلة ذلك كثيرة في عهدنا فضلا عما سلف ، وحينئذ ينبغي أن تتوجه وجوهنا تلقاء المفكرين المتتبعين بصرف النظر عن أجناسهم وأن لا يكون خوفنا من تعدد أجناسهم قاطعا رجاءنا من معالجة بعضهم بعضا ودفع بعضهم بعضا عن مظان الهلكة وسوق بعضهم بعضا الى مظان السلامة والطمأنينة .

نعم ينبغي أن لا تتفكر كيف نخلص من بقاء الجماعات مصرة على حفظ روابطها الخاصة وان نوجه الفكر الى رؤية كل الجماعات مفيدة اذا صلحت التربية ، وكلها ضارة اذا فسدت ، وحينئذ لا يبقى في نفوسنا شيء من اعتبار أن المفكرين المتتبعين في كل جماعة هم من رأس مال تلك الجماعة على حدتها وداخلين في رأس المال العمومي للعثمانية كلها ، ولكن مع هذا لا ننكر أن تفرق المفكرين بحسب الجماعات مع حداثة العهد بالتربية السياسية قاض بأن تبطيء ولو قليلا آثار التفكير والتتبع ، ونحن نرى أنّ تلقّي هذا بالصبر والروية وانتظار الامد المقدر لمثل ذلك النتاج خير" وأسلم عاجلا وآجلا من تلقيه بالتأفف وازعاج النفوس وايغار الصدور ، وخير" أيضا من جعل مفكري بعض الجماعات خارجين عن عداد رجال اليوم في العثمانية كما يذهب اليه بعض المتهوسين الذين يحصرون كلّ الامل في رجال جماعة من الجماعات ولو علموا ما يأتي به

الاستغناء عن مفكري الجماعات الاخرى من الخطر لأكلوا أصابعهم ندما ان كانوا مخلصين ، ولكن أكثرهم لا يعلمون وأكثرهم لا يعقلون وقليلا ما يتذكرون •

(٢) تخالف مصادر علومهم :

قبل أن يتفاهم المفكرون المتتبعون جيدا تبقى أعمالهم الفردية أو الحزبية بتراء بالنسبة الى العثمانية مدة طويلة ، وتظل آثارهم النافعة بالنسبة الى ما ينتظر منهم ضئيلة قليلة ، وقد سردنا بين أسباب ذلك تخالف مصادر علومهم وتعدُّد مصادر العلوم موجود عندنا أكثر مما هو عند الامم الاخرى ، فان منا من أساتذتهم الانكليز ، ومنا من يأتمُّون بالالمان ، ومنا من يستضيئون بنور الفرنسيين ، ومنا من يرون للاسلاف نظراً بعيداً فلا يهملون كل ما أتى عنهم ، ومنا من يهملون تراث الاسلاف كله ، ومنا من يلتمسون الحكمة أني وجدوها ، وطبيعي أن بين هذه المآخذ شيئا من التباين ، وبسبب ذلك أصبحنا نجد الذين يُعدُّون في هذه الامة مفكرين لا يرى بعضهم بعضا شيئا مذكورا ، وهي علة لا يستهان بها ولكنا نأمل أن تزول بعد تدافع هو طبيعي في مثل هذه الاحوال ، على أن المفكرين في الحقيقة ليسوا هم الذين درسوا وتلقوا العلم تقليدا بل هذا العنوان يجب أن لا يحلّى به الا الذين لهم عقول سليمة مستعدة أن تزن الامور وتنظر فيها جيدا ، ولذلك لدينا من الرجاء لتفاهم المفكرين المتتبعين قدرٌ كبير وان اختلفت مصادر علومهم ، فان مصادر العلوم لا تؤثر فيهم متى استقلوا وانما قد تعوقهم قليلا عن بلوغهم ذلك الاستقلال الذي نعنيه •

(٣) تمايز قابلياتهم :

القابلية أمر عظيم ينساه الناس كثيرا فيكثر خطأهم في الاشخاص لانهم ينظرون اليهم من جهات أخرى كلها لا شيء اذا لم تكن القابلية ، فمن يظهرون في الامم مظهر العقلاء المفكرين والفضلاء المحصلين وهم ضعفاء من حيث القابلية لا يفيدون الامم بشيء ذي بال ، والقابلية هي الاستعداد المخصوص في المدارك للاستفادة من رؤية كل شيء وسماع كل أمر ، هذه هي التي يعظم بها الفرق بين اثنين درسا في مدرسة واحدة نحوا واحدا من الدرس . وبتعاظم التمايز بين المفكرين من حيث القابليات تتعاظم الصعوبة على النوابغ منهم في ايجاد النافع لكثرة ما يلقون من المعارضين ممن هم بحسب الظاهر على شاكلتهم فضلا عن السواد والغوغاء ، وليس لهذه العلة علاج .

(٤) تغاير اراداتهم :

تتغاير الارادات لاسباب كثيرة قد يكون منها التفرق بحسب الجماعات وتمايز القابليات وتنافي الاراء مثلا ، وقد يكون ذلك غير ناشيء عن شيء من ذلك ، فانه كما تتغاير ارادات المتفرقين بحسب الجماعات والمتباينين بحسب القابليات والمتخالفين في الافكار مثلا ، نجد المتحدين جماعة ، المتشاكلين قابلية ، المتفقين أفكارا تتغاير مقاصدهم أيضا ، فذاك مثلا يقصد خدمة العموم قصدا خالصا من كل شائبة ولا يبالي في سبيل ذلك بتعب نفسه ، وآخر يقصد خدمة العموم ضمن خدمته لنفسه بحيث اذا رأى راحة نفسه معرضة في هذا السبيل للخطر آثر راحة نفسه ومع تسليمنا ومعرفتنا بالعلاقة الشديدة التي بين الرأي والارادة لا يستطيع أحد من المدققين أن ينكر علينا أن للارادات استقلالا

قد يقع التفارق به بين رأي المرء وارادته ، وهذه العلة أيضا لا علاج لها لانه مهما كثر بحث الكتاب في تربية الارادات وأمر تصحيحها وتقويتها فان تلك المباحث تؤثر وتفيد قليلا ولكنها لا تستأصل العلة من كل من قرأها وطالعها •

(٥) تفاوت أعمارهم :

تفاوت الاعمار قد يكون سببا لتغاير الافكار والارادات والقابليات، وقد يكون بين المتفاوتين أعمارا شيء من التشاكل ارادات وقابليات وآراءا ، ولذلك جلعناه برأسه سببا مستقلا ، واعتبرنا جهة أخرى في سببيته هذه وهي أن تفاوت الاعمار موجب لشيء من التباعد الحسي والمعنوي بين ذوي الطبقات في السن ، وهذا مع حداثة العهد بالتربية السياسية قد يجعل حواجز دون استفادة بعض ذوي الطبقات من بعض، ولعل القراء لا ينسون اولئك الفتيان الذين ملأوا الكون تغنيا بنغمات الشبيبة والشبان والايدي الشابة والعقول الشابة ، ولعلهم يتذكرون اننا فصلنا في هذا الموضوع وأوضحنا أن لا ميزة ظاهرة لهذه الشبيبة على تلك الشيخوخة لا من جهة العلم ولا من جهة الاخلاق • والآن نقول اننا لا نرى الشيوخ ولا الشبان يتنازلون عن دعوى الميزة بسهولة فالشيوخ لا يفتأون يقولون نحن المحنكون ، والشبان لا يبرحون ينادون نحن الاقوياء ، والقوة في الرأي والارادة تتبع قوة الدماغ وهو في الشبان أقوى منه في الشيوخ • وغرضنا ههنا أن نبين كيف يكون تفاوت الاعمار موجبا لمثل هذا وإن لم يكن هناك تفرق بحسب الجماعات ، ولا تخالف في مصادر العلوم ، ولا تمايز في القابليات •

(٦) تباعد ديارهم :

وتباعد الديار سبب ظاهر لقلة تعاون المفكرين وتفاهمهم ، ولا يحتاج العارف بجغرافية العثمانية الى شرح هذه العلة ، أما من لا يعرفها جيدا فنذكر له أن بين كثير من البلاد والبلاد الاخرى مسافة شهر مثلا ، ووسائل النقل الحديثة لما تتوفر الى الآن في هذه المملكة ، وذرائع التعارف قليلة والحوامل ضعيفة ، وفوق كل ذلك اختلاف اللغات بين هؤلاء المتباعدين .

(٧) تباين مناهجهم :

كل ما تقدم من الوجوه كاف لان تكون مناهج المفكرين منا متباينة ومع ذلك تجد مطلعا آخر لهذا التباين وهو ما يقتضيه قوام الحياة وطبيعتها من تحصيل المرافق وشيء من الزينة ، ولكن هذه العلة من أخف العلل .

(٨) تدابر أحزابهم السياسية :

التفرق بحسب الجماعات ان لم يكن طبيعيا فهو يشبه الطبيعي في العراقة ، وأما التفرق بحسب الاحزاب السياسية فالصنع فيه ظاهر والتكوين بديهي ، وقد يذهب بعضهم الى أن تعدد الاحزاب علة أما نحن فنراه علاجا في أمة طال هبوب العوادي عليها حتى جعلها حَرَضاً (١) بكثرة الاهواء وشيوع الظلمة وخفاء الصالح ، ولكنا مع هذا نسلم بأن وقوع تدابر بين الاحزاب يعوق قليلا عمل المفكرين ، بيد أنه إن عاق قليلا عملهم فهو يقرب مسافات التعارف بينهم وينعش أملهم كثيرا .

---

(١) حَرَضاً : مريضة فاسدة .

(٩) تفارق قلوبهم وقلة توادهم :

عدا ما تقدم كله قد نجد بين هؤلاء المفكرين شيئا من تفارق القلوب وقلة التواد ، وينبغي أن لا نستغرب هذا ، فان الغريزة البشرية كامنة ولا تزلزلها الا تربية عظيمة الاثر ، وما كل المفكرين بصارفين أفكارهم الى المشارب التي تغسل السرائر من كل غل وحقد وحسد بل من المفكرين من يكون من الدهاة ولا يزيده دهاؤه الا حرصا على خدع الانداد لاسقاطهم ، ولقد صدق ذلك الشاعر المجرب بقوله :

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه
وما كل مؤت نصحه بلبيب

ـ الخلاصة ـ :

والخلاصة أن التباين لا بد منه ، وأن تخيل إزالته هو من الطمع في غير مطمع ، وأنه ينبغي أن تتمرن في سبيل الحياة الاجتماعية والسياسية مع وجوده ، وأن الامة قد تجد من الافكار الآن كثيرا وانما يعوزها تمرن وتصحيح ارادات وتقوية عزائم ، ولا تستغني عن صبر وانتظار وحسن وقوف مع الحاضر الموجود ، وحسن طلب للآتي الموعود، ومن الله التوفيق .

خواطر السياحة



خواطر السياحة (*)

— ١ —

سأسيح سياحةً قصيرة منذ اليوم كما هي العادة في كل عام ، والنية أن أزور بلادا كثيرة في سورية ، وعزمت هذه المرة على تقييد خواطري في هذه السياحة ووصف مشاهداتي ونقل ما أثق به من مسموعاتي وأنشر ذلك ان شاء الله تعالى في « الحضارة » متواليا ، وأرجو أن يلذّ ذلك قراءنا الاعزاء وأن يكون جامعا لمعان وأخبار شتى ، فيتنقلون فيه من خبر الى نكتة أدبية ، الى نبذة اجتماعية ، الى بارقة ، الى سانحة ، الى واردة ، الى لائحة ، الى ذكر أديب ، الى وصف لبيب ، الى نبأ عن معاهد العلم ، الى شيء من مشاهد الاحوال ؛ وكنا نود أن نترك الخوض في السياسة أثناء سياحتنا ولكنها هي لا تتركنا اذ أمامنا الاحزاب وأخبارها ، ومن حولنا أحوال المملكة والمستخبرون عن كريد وقصتها وما فعل الله والنظار والدول بها ، والسائلون عن الماليسور وما شأن الجبل الاسود في إغرائهم ، وهل انتهت مسألتهم كما يقال في الرسميات أم لها عواقب وأذناب ستجرها ، وهناك المستفهمون عن القروض ووجوه الحاجة اليها وعن عاقبة أمر الدولة اذا استمرت على التعويل عليها ، والطالبون حسابا عما عمل المجلس للامة هذه السنة ، والمذاكرون في موقفنا أمام الدول وموقف فاس وموقف ايران وما هي عواقب هذه

---

* جريدة (الحضارة ١٤٣) ٢ /٧٣ (١ ايلول ١٩١١) .

السياسات ونهاياتها ، فنحن لكل هذا نضطر أن ندخل في السياسة وأحاديثها وننقل هذا أيضا ضمن ما ننقله من المرئيات ، وبالجملة فان « خواطر السياحة » هذه ستكون كرياض جامعة صنوف الازاهر وأنواع الرياحين . والآن أقدم بين يدي هذه الخواطر :

ـ كلمة في السياحة ـ

لا نريد الآن أن نمدح السياحة ونعدد فوائدها فانها تكاد تكون بديهية ، وانما نقصد أن ننوه بشيء واحد من منافعها وهو أنها هي التي أرشدتنا قبل كل شيء ولا تزال ترشدنا الى طريق الانتفاع بكل ما في الارض ، وقد ربط الله تعالى استنباط ما فيها من المنافع بشيء من سعي الانسان وتفكره وتعبه حتى كان هذا النوع في هذه الارض صورة عجيبة منفردة متميزة في شؤونها تميزاً عظيما منطويا فيها ما يسمى القدرة والارادة والاختيار والعلم والاحاطة والحكمة . وبالجملة فاننا قد أردنا بهذا الفصل أن ننعش نفسنا وأنفس القراءبذكر من تطمئن بذكرهالقلوب، وتتهذب النفوس ، وتنشرح الصدور ، وتتطهر السرائر ، وتتقوى العزائم ذلك الذي خلق الانسان في أحسن تقويم ، وجعله محلا لاعظم تكريم ، وجعل له ما في الارض جميعا .

سبحان الله ما أكثر علائق هذا الانسان فهو أنّى التفت وحيث دار وسار يجد ما حوله جديرا بالتأمل ، خليقا بالتفحص ، فان كل ما يقع عليه الحس له علاقة ببني هذا النوع من جهة من الجهات ولا يخلو أكثر هذه الاشياء من أن يكون الواحد منها ملائما مأنوسا به ، أو منافيامهروبا منه ، وهذه الاشياء في نظر الناس درجات منها ما علاقتهم به شديدة كالذي تعودوا أن يكون من حاجاتهم ورغائبهم ، وكالذي صار تفحّصه

والتساؤل عنه من جملة شؤونهم مثل عمران البلاد وحضاراتها ، ومبلغ انتشار العلوم ومشي الاعمال فيها ، ودرجات أصناف الصناعات بين أهليها ، ومقادير العلم والعلماء في نواحيها ، ومثل أحوال الناس مع الحكومة وكم مقدار شكرهم أو شكواهم منها ، وهذه العلاقات تجعل الناس تائقين لان تنقل لهم فيها الاخبار ، وتجاب الديار ، وتدوّن الاسفار ، وهذا من جملة البدائع التي في الانسان فان هذا العالم كبير واسع ، وهو مملوء من فيض الفطرة بآثار وأسرار ، والاطلاع على شيء منها هو الذي يميز هذا المخلوق ويجعل له به فوائد عظيمة أقلها لذة المعرفة التي انبساط النفس لها فوق كل انبساط . ومن حِكَم الفاطر جل وعلا أن بني هذا النوع متعاونون بطبيعتهم في حاجاتهم ورغائبهم فينيلها بعضهم بعضا بسوق رباني قد يظهر ويتجلّى ، وقد يدق خفاؤه ، فبذلك السائق الرباني رأينا لهذا الحيوان الناطق ضرورات لم نجدها لغيره من الحيوانات ، وبه وجدنا أفراده قد تقسموا فيما بينهم الاعمال التي تسدُّ تلك الحاجات وتنفي الضرورات ، وكان ذلك عن غير سابق مشورة فيما بينهم عقدوها ، أو شروط أمضوها وقبلوها ، وما كنا اذا صرفنا النظر عن ذلك السائق الرباني لنفهم كيف صار الحداد حداداً ، والخباز خبازا مثلا ، في حين أن هناك أناسا كثيرين قد أنفوا أن يجعلوا بدنهم الناعم أسيرا في مثل هذه المهن ولم يرضوا من الاعمال الا اللطيف النظيف الملائم للنعومة والرفاه ، وقد وجدوا مع ذلك ما لم يجده ذانك الممتهنان بمجالسة النار ومعالجة الحديد والعجين بعض الليل وكل النهار ، وبذلك السائق وجدنا بني هذا النوع يتعاونون في العلوم ونقل التجارب وأخبار الواقعات والمشاهدات مما يُبنى على الاخبار به أبواب عظيمة في العلم . على أننا لسنا بمستطيعين أن نعلل كل شيء من ذلك بالاحتياج فاننا نعلم

كثيرا من المؤلفين قد بلغوا في الزهد بالزخارف مبلغا قد أغناهم عن أن يكون ما أهدوه الينا من التآليف المفيدة انما حملهم على اهدائه الاحتياج، كيف وكثير منهم قد أوصوا بأن لا تنشر مؤلفاتهم الا بعد مماتهم وانقطاع كل احتياج عنهم ، كلا بل ثمة في الحوامل على التعليم (كالحوامل على التعلم) أسرار من الشوق الفطري والسوق الرباني هي وراء ما يتبادر الى الاذهان من حامل الاحتياج • وذلك أن المبدع سبحانه قد فطر الانسان على أن يصير عليما ، وأن تكون ينابيع علومه موجودة في كل ما يقع عليه حسه وانما ينبسط في آجال وآماد ولكل أجل كتاب • ومتى أمعنا النظر نجد أن للسياحات الدخل الاكبر في صيرورة الانسان عليما فانه يتسنّى له فيها من المرئيات والمسموعات أكثر مما يتسنى له في الاقامة ، ومتى تذكرنا هذا وجب أن تكون للامة عناية خاصة بها وأن لا تتركها للمصادفات كما كان الامر من قبل •

خواطر السياحة (*)

— ٢ —

ـ نحن والاجانب ـ

لست أدري كيف خطرت هذه المسألة ببالي ساعة السفر من الآستانة، ولكن ربما كان لمرورها على فكري علاقة بكتاب جاءني قبل اسبوعين من صديق عزيز مفكر يعيب فيه مبالغة بعض جرائدنا بالتحامل على الاجانب واسناد كل الشر الحائق بهذه المملكة اليهم . وقد أخرّت نشر ذلك الكتاب لانني سأواجه صاحبه ان شاء الله تعالى عما قريب وأبين له سبب تأخيره وربما وافقنا هو على كتابة غيره في الموضوع نفسه موسعا الصدر مع الذين يعتقد أنهم مخطئون ، ومن لا يخطىء ؟

وموضوع « الاجانب » وموقفنا أمامهم لا يحتاج في حد ذاته الى تذكير وتفكير ، فاننا كيف التفتنا نجد أثرا من آثارهم ، ففي البيوت والشوارع والاسواق والفنادق والملاهي ودور الحكومة ودور العلم نجد شيئا منهم أو حديثا عنهم ، وبالجملة فانهم نصب الاعين دائما في الظعن والمقام .

مررت اليوم على الجسر فمال طرفي نحو رأسه فاذا هناك حركة عظيمة وآلات وأدوات وطائفة من الاجانب آخذة بصنع جسر جديد

---

* جريدة (الحضارة) ٧٤/٢ (٧ أيلول ١٩١١) .

يقوم مقام هذا الجسر الذي قال فيه أمير الشعر في مصر « أمرٌ على السراط ولا عليه » ، ولما جزت الجسر وبلغت الرصيف تذكرت أن هذا من عمل الاجانب أيضا ، وصعدت الباخرة وهي من عملهم ، وألقيت بصري من الباخرة الى الرصيف فرأيت من عملهم سيارات تجيء وتؤوب، تحمل الطائفة من الناس وتجري بهم من غير أن يجرّها جارٌ من الحيوان، ورأيت مباني تتسامق من تلك البنوك فقلت هـذا من عملهم أيضا ، وشاهدت أغيلمةً تطوف متأبطة أوراقا تبيعها من هذا وذاك فاذا هي صور شتى مطبوعة طبق الاصل بمـا يسمى الفوطغراف ، وآخرين يدورون على دور اللهو يلذون السامعين بالفونغراف ، فقلت هذا من صنيعهم كذلك ، ثم راح فكري يتنقل في مرائي ما عمل لنا الاجانب من تقريب السحيق القصيٍّ ، وتذليل الصعب العصيّ ، واختراع العجيب السنيّ ، وابداع المستلَذّ الهني ، وما راعني الا التفاتة أثناء هـذه الخواطر الى آثار ما عملنا ، نحن معشر « العثمانيين » ، فلم يكن أمامي شيء من ذلك مرئي ، ولا شيء مسموع ، اللهم الا أن تكون آثار الجهل والعجز من أطلال الحرائق ، وأكوام الطرائق ، فقلت سبحان الله ! ما هذه الفروق التي بيننا وبين أولئك الناس على ما نحن عليه من مشاكلتهم صورا ومشابهتهم في ضرورات الحياة ؟ وسبحت سبحة طويلة في أسباب تدهورنا بعد سمو ، وأسباب سموهم بعد تدهور ، بيد أنني لم أرجع من هذه السبحة بما كنت أرجو من لقيا أسباب حسية كافية لتعليـل هذه الظاهرة العظيمة ، فرجعت ثانيا عنان الامل من أبواب التعاليـل المعهودة واذا اشارة من ترجمان شؤون الازل ترن في حافظتي هكذا : « كلٌ يجري الى أجل » فتراءى لي أن تعاقب الموت والحياة ، أو الحياة والموت في الامم هو كتعاقبهما في الافراد .

سر الحياة والموت في الافراد والامم غامض ، ولا يقل عنه سرّ صيرورة أبناء ذلك الرجل آدم (عليه السلام) أقارب وأجانب ، ولقد يفكر بعض الناس بتصحيح رابطة الاخاء الانساني العام ولكن متى وكيف هو ؟ ان ذلك بعيد ، والمائلون اليه والساعون له درجات وطبقات، ويوجد بين هؤلاء الناس صنف من المشعوذين يقتاتون على أكتاف من يدخلون في تلمذتهم في هذا ، كما يوجد فريق ساذج بعيد عن معرفة فنون الطبائع البشرية ، على اننا نحن مع هذا ممن يستحبون بناء التربية على محبة الناس بعضهم بعضا بقدر الامكان وان كان بعضهم أجنبيا عن بعض •

بين البشر كثير من صوَر التفاصل والتواصل ، ففي تفاصلهم تصبح كل نفس منهم أجنبية عن الاخرى ، وفي تواصلهم تغدو الملايين منهم كنفس واحدة ، ومن يمعن النظر لا يجد للبشر حقا بالالم ولا بالفخر لتفاصل وتواصل ليست أعنتهما في الحقيقة تحت أيديهم •

الاجانب درجات معلومة ، والفرنج والسلاف والانكليز والجرمان والاغريق والطليان هم الذين نعنيهم في أكثر ما نطلق هذه الكلمة ، فان أعظم الحسابات في السياسة والاقتصاد والمصادقة والمناجزة انما هي بيننا وبين هؤلاء •

يقول قائلون : ان التوادّ بيننا وبينهم مستبعد الحصول ، وفريق آخرون يرون أنه ليس بمستبعد ، أما أنا فأريح فكري وفكر القارىء من هذه العويصة الناجمة من عدم استفتاء الواقع ، وأكتفي بأن آخذ من الواقع هذا النص : وهو أنه منذ وجدت العلائق « الاوربية ـ العثمانية » لم تقم بين العثمانيين والاجانب مودة حقيقية ، وانما كانت تحدث معاونات

من الاجانب أحيانا لهذه الدولة ولكن بأثمان سياسية باهظة جدا . بيد أن هناك مسألة جديرة بالامعان وهي أن هذه الدولة كان قد أتى عليها فيما سلف من الضعف ما بلغ بها شفا العدم ثم كان انتعاشها على يد الاجانب ، وكذلك قد أتى على الامة من الجهل ما بلغ بها أخسَّ الانحطاط ولم يكن انتشالها الا على يد الاجانب أيضا ، فكيف نعدُّهم بعد ذلك أعداءً ؟

والجواب أن الحالة التي بيننا وبين الاجانب لا تسمى في الحقيقة عداوةً ولا يصح أن تسمى صداقة ، وانما هي من نوع ما يسمى « تنازع البقاء » ، وما نعني بالبقاء هنا وجود حكومة لنا وانما نعني بقاء مايميز الحكومة التي لنا من وجود اختيار وارادة لها أمامهم ، وهذا هو الذي ينازعوننا عليه ، فكيف نقف معه سكوتا ومن يكلفنا ؟ نعم للاجانب فضل عظيم في حياتنا العلمية وكل شيء فهو يتبع العلم ، ولكن اذا كان ثمن التفضل التجريد من كل ارادة واختيار أفلا يكون الموت خيرا من الحياة معه ؟

* * *

التنازع الذي أشرنا اليه ظاهر لا ينكر ، والاستخذاء أمام المنازع يُكره ولا يُشكر ، فلذلك تطفح بعض جرائدنا أحيانا بذم الاجانب حين يتراءى لها من قبلهم شيء من آثار ذلك التنازع ، أما نحن فنرى من المعيب المجازفة باسناد كل شيء مما نحن فيه من التفرق والفتن والفساد الى الاجانب ، كما نرى من الخطأ تبرئتهم من كل دسيسة البتة ، ولكن الاشتغال بلوم أنفسنا على الغفلة عن دسائسهم أو على فسح المجال لها خيرٌ من الاشتغال بلومهم من بعيد على أمور غير مستنكرة من البشر

غالباً ، على أنه قد يكون المقام خطابيا أو جدليا وبديهي أنه يغتفر والحالة هذه لاجل تحريك عزة النفوس أن يوجه العتاب بشيء من الشدة لمن قد يتجاوز الحدود ويدوس الحقوق منهم جهارا ، بيد أننا لا ننسى مع ذلك أن الاولى هو الجدال بالتي هي أحسن ، وأن القول الهُجر ليس من دأب أرباب الجد وأن الكلمة الطيبة حتى في مقام المبارزة خير من الكلمة السمجة •

والذي علينا هو أن نفتكر ونسعى في رد الطوارىء من آثار تنازع البقاء بما يمكننا من الوسائل الجدية ، لا أن نتلهّى بالشتم واللوم اذ ليس في هذا من فلاح •

هذا هو مشربنا بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه لسان الامة والواحد منا في الجدال السياسي • ومتتبع كلامنا في هذا الباب يجده على نحو واحد ، أما من حيث نظر الواحد منا الى أخلاقهم وعاداتهم ونظرياتهم فله أن يذكر فيها ما يظهر له على حسب نظره من مدح وذم ، وقبول ورد ، ومن يأبون الا أن يعدوا ذلك طعنا في الاجانب لانهم أجانب فقد حق لنا أن نقول انهم يعجلون في الحكم أو يحكمون بغير حلم ، بل عندنا أن الذي يقف أمام أخلاق الاجانب وعاداتهم ونظرياتهم بعقل ليس فيه قوة للتفريق بين ما يقبل وما يرد منها « فما قربه قربٌ ولا بُعده بُعد » •

خواطر السياحة (*)

— ٣ —

في الباخرة

الرفيق قبل الطريق :

جاء في الامثال قولهم « الرفيق قبل الطريق » وهو قول حق قد قاله الناس بعد تجارب كثيرة في تلك الايام التي كان أكثر السفر فيها على الدواب في الفيافي والاودية والجبال ، وعندنا ان هذه الجملة الحكيمة لا تزال جديرة بالترداد والذكر مع ما حدث من الوسائل الجديدة في السفر بحرا وبرا ، فان البواخر وحوافل السكك الحديدية لا تنفي بطبيعة اتقانها الملل عن المسافر الخالي من الرفيق مهما نفت عنه أسباب العناء ، بيد أن هذه الوسائل الجديدة قد يسرت الرفاق أيضا كما يسرت السفر وخففت وعثاءه وذلك أن البواخر والحوافل لكثرة ما تحمل من الناس لا تخلو في الغالب من أناس بينهم وبين المسافر شيء من المشاكلة، فيحصل بينه وبينهم الانس والالفة وتتم المرافقة ولا سيما اذا أتاه حسن الطالع بأناس ممن في منظرهم ومخبرهم ما يسر فؤاده ويشرح صدره .

سافرت قبل هذه المرة نحو عشرين سفرة في البواخر وأسعدني الحظ في كل مرة بمرافقة أناس كنت مسرورا بهم ومستفيدا علوما في بعض

---

* جريدة (الحضارة) ٧٦/٢ (٢١ أيلول ١٩١١) .

المسائل منهم ، ولكن كل ذلك صغير في جانب سروري واستفادتي هذه المرة بالرفقة الصالحة التي سعدت بها •

الرفاق الكرام :

كان رفاقي هذه المرة من أكرم من أسعدني الحظ بلقائهم ومعرفتهم من اخوتي العرب ، منهم واحد هو صديق لي قديم لا تزيد الايام مودته الا جدة ، ذلك هو الودود الوفي خالد أفندي الحكيم ضابط عسكري ممن أنجبتهم بلدتنا ، واثنان قد أهداني حسن الطالع التعرف بهما وموادتهما ونحن في الآستانة منذ شهر وهما الكريمان الماجد الشيخ قاسم آل ابراهيم والسيد عبد الله البسام •

الشيخ قاسم :

لقد عرف قراء « الحضارة » من هذا الماجد النبيل وذلك مما كتبناه في أعداد سبقت يوم قدم العاصمة هو ورفيقه العزيز السيد عبد الله البسام ، وعرفوا أيضا هذا البسامي الفاضل ، أما الآن فنزيد من التعريف بهذين الصاحبين الجليلين • فأما الشيخ قاسم فهو كهل في الخامسة والاربعين ذو طلعة عربية قد عجل عليه الشيب حتى ظل يظنه الرائي فوق سنه لانه أحاط بجميع شعر رأسه ولحيته بيد أنه لا يزيده الا هيبة وسناء، ولد ونشأ النشأة الاولى في الكويت وكان والده في بومبي يزاول تجارة اللؤلؤ فلما توفي والده وهو محمد آل ابراهيم رحل الى الهند ليخلفه في محلهم التجاري ، وآل ابراهيم عائلة شهيرة مخلصة للدولة العلية لهم تجارة واسعة في اللؤلؤ الذي يستخرج معظمه وأحسنه من الخليج الفارسي ويروج في بومبي ومنها يصدر الى أوربا ، ومحلهم التجاري

في بومبي قديم له شهرة عظيمة كان يرأسه الشيخ محمد الذي توفي قبل أربع عشرة سنة ، وهم من كبار اخوتنا العرب المقيمين في الهند ولهم مبرات شهيرة ، وآخر مبرات هذا البيت ما جاد به الشيخ قاسم على مشروع « جماعة الدعوة والارشاد » الذي يقوم به صديقنا الاستاذ الهمام السيد محمد رشيد رضا صاحب « المنار » •

السيد عبد الله البسام :

وأما السيد عبد الله البسام فهو ابن حمد المحمد البسام ، وآل البسام عائلات متعددة يجمعها جد واحد أصلهم كلهم من نجد من بلدة عنيزة في اقليم القصيم ، وهم يشتغلون بتجارات واسعة ، ولهم عدة بيوت تجارية منها البيوت التي أسسها والد رفيقنا الكريم مع أخيه عبد العزيز البسام في البصرة وبومبي وكلكتة •

ولد عبد الله صاحبنا في بلدهم بنجد ، ونشأ هناك حتى بلغ الحادية عشرة من عمره ، ثم ذهب الى الهند فدخل هناك مدرسة (اعدادية) اسمها « سان زيبور » فتعلم فيها العلوم واللغات الانكليزية والفارسية والهندية ويعرف أيضا قليلا من الفرنسية ، ولم ينس نصيبه من اللغة الكريمة لغة آبائه وأجداده بل كان ولوعا بها ومسوقا الى تحصيل آدابها بسائق من وجدانه حتى أصبح جديرا أن يعد من أدبائها أيضا • وهو الآن في الثلاثين من العمر في بومبي حيث المركز الاعظم لتجارتهم •

* * *

تذكرت ، لما سبرت غور السيد عبد الله من حيث الذكاء والمعارف والعمل الذي هو فيه ، مسألة مهمة وهي جهل اخواننا الاتراك بجغرافية بلادنا معشر العرب وبدرجة همم رجالنا ، وجهلنا نحن أيضا بأنفسنا

وعدم معرفة السوري منا مثلا ما في العراق ، والعراقي ما في سورية ، والحجازي ما في طرابلس الغرب ، والمصري ما في اليمن وهلم جرا •

أسمع حسن حركة مباركة ان شاء الله تعالى وهي حركة الحض على طلاب العلم وحركة التحفز لتحصيله ، والآن أرى أن أول ما ينبغي أن نهتم به من المعارف هي معرفة بعضنا ببعض ، هي معرفة جغرافية البلاد العربية جيدا ، هي معرفة قابليتنا ومعرفة كيف ينتشر رجالنا الاذكياء الاقوياء الهمم في الهند والسند والصين وافريقيا وأمريكا وأوربا ، وكيف يبرهنون أنَّى توجهوا وحيث راحوا على نشاط باهر وذكاء فائق وهمم عالية وأخلاق لائقة • لعل بعض الناس يزعمون أن هذه المعارف ليست بشيء وأن جغرافية البلاد العربية وأحوال العرب غير مجهولة فأنا لا أحب أن أجادل أمثال هؤلاء وانما أوجه كلامي الى الذين هم أكثر اطلاعا على الحقائق وأقرب الى الجد وأشوق الى ارتياد الانفع فلهؤلاء أقول اننا اذا نظرنا الى الافراد من العرب فقد تسرنا منهم النجابة وتباشير الذكاء والهمة والبراهين والشواهد على هذا كثيرة ، ولكن اذا نظرنا الى العرب من حيث أنهم جماعة واحدة بحسب اللغة والجنس أو جماعات متعددة بحسب الاقليم أو بحسب المناهج والمذاهب لانجد في الغالب ما يسر من الاهتمام بالتعارف والتعاطف كما ينبغي وليس هذا الا أثرا من آثار تناسي أنفسهم وجهل بعضهم أحوال الآخرين واكتفائهم بالحياة الفردية مع أن الحياة الفردية ليست بشيء كما يدرك ذلك بأدنى تأمل •

إخواننا الاتراك — أعاننا الله واياهم — لا يعرفون من جغرافية البلاد العربية الا حدودا اجمالية لقطعة كبيرة تسمى عندهم « عربستان » وقد اجتمعنا بكثير من المحصلين منهم فوجدنا كل من لقيناه يظن أن هذه

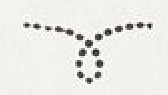
القطعة كلها نمط واحد في الهواء وشكل المعيشة ودرجة التحصيل ولا يستثنى من ذلك المجموع الكبير الا الافراد الذين قذفت بهم المأموريات الى بلاد من سورية أو العراق ، ولكن هؤلاء لم يهدوا حتى الآن اخوانهم الآخرين الى أن « عربستان » الذي يظنونه قطعة واحدة على وتيرة واحدة هو يجمع أكثر من عشرة أقاليم كبيرة فيها ما يفوق الحصر من الوديان والوهاد والآكام والآجام والتلاع والجبال والانهار والعيون والجداول والخلجان والمدن الكبيرة والعواصم الشهيرة والقصبات الصغيرة والقرى العامرة والمزارع النضرة . هم لا يعرفون الى الآن أن « عربستان » الذي يقولون هو مجمع الملايين من الامم العربية والمستعربة من ذراري العرب والقبط والسريان والكلدان والعبران وغيرها من الامم المحلية وجالية الامم الاخرى من هنود وفرس وروم وأرمن وجركس وكرد .

هم يظنون أن كل هذه الملايين تعيش تحت الخيام ولا قوت لها سوى لحوم الابل وألبانها ولا لباس لهم الا النسيج من أوبارها .

قد يظن ظان أن هذا مبالغة ويكفي لردعه عن هذا الظن اذا كان يحب الحقيقة تذكيره بأن المبالغة ليست في شيء من أسلوبنا البتة ، ويكفي من الادلة الكثيرة دليل واحد على مقدار جهلهم بمن هم العرب ذلك أن كلمة « العرب » ترادف في لغتهم الدارجة « الاسود » وليس هذا من أصل لغتهم وانما هو مما طرأ على الدارجة عندهم من ظنهم أن كل أهل « عربستان » سود .

هذا مبلغ علم اخواننا أما علمنا بعضنا ببعض فهو قليل أيضا وان كان أرفع وأوفر من علم اخواننا ، وذلك أن كل أهل اقليم يجهلون كما

قلنا ما في الاقاليم الاخرى . هذه « نجد » مثلا قد يظنها أكثر السوريين وهي أقرب البلاد اليهم أنها خلو من كل معرفة وعمل عظيم أما الواقفون ــ وهم قليلون ــ فيعرفون أن تلك البوادي أو تلك البلاد فيها من علوم الدين مالا يقل عما في الازهر الشريف وفيها من علوم الدنيا وأعمالها العظيمة ما تدلك آثارها عليه . ومن آثارها هــذه البيوت التجاريــة العظيمة التي يؤسسها القوم في أعظم البلاد الشرقية عراقة بالتجــارة واتصالا بأوربا ، وهل كنت تتصور أيها القارىء العزيز نجديا عــلى نصيب وافر من علم الانكليزية وعلوم التجارة كما حدثناك وسنزيدك من حديثنا في الباخرة .



خواطر السياحة (*)

— ٤ —

في الباخرة

أرسلت من أمام أزمير الرسالة الثالثة من هذه الخواطر ، والآن أكتب هذه في الباخرة أمام بيروت ، وقد كتبت في تلك الرسالة الثالثة خواطر في الرفاق ولكنا لم تتم حديثنا عنهم .

كان معنا غير من ذكرت هناك نور الدين بك مبعوث « سوَرِك » (لواء في ولاية ديار بكر) وهو من الناس الذين اشتغلوا للحريـة ودخلوا في الجمعية القديمة « الاتحاد والترقي الاولى » وقد حبس في هذا السبيل مرتين ثم نفي وبعد سنتين ونصف في المنفى فرَّ في زورق من سينوب الى أوربا ورجع بعد سبعة أشهر لأسباب عائلية .

تذاكرت أنا ونور الدين بك في أشياء كثيرة منها المسائل المهمة التي ستكون أول شغل المجلس وهي مسألة اسماعيل كمال بك ومسألة قتل زكي بك ومقدار علاقته بالجمعية عامة وبدرويش بك مبعوث سيزور خاصة لأن أخاه أحد المتهمين بالقتل ومسألة الوزارة ومسألة الماليسور والامتيازات التي أعطتهموها الوزارة .

نور الدين بك اتحادي ولكني رأيتـه يتلهف أسفاً على الاحوال

---

* جريدة (الحضارة) ٧٧/٢ (٢٨ أيلول ١٩١١) .

الحاضرة التي ظللنا الساعات الطوال نردد بيننا ذكراها المؤلمة ، وقد وجدت رأيه أن كامل باشا هو الرجل الذي ينبغي أن نستفيد ونربح الوقت باسناد الصدارة اليه ، ووجدته يود ذلك من صميم قلبه خلافا للفريق المتغلب بالوهم من فرقة الاتحاديين وان لم يمكن الاتيان بكامل باشا فرشيد عاكف باشا عنده هو اللائق بالدرجة الثانية في عهدنا هذا .

وكان معنا شريف بك مدير المكتب الطبي في دمشق وهو أخو الدكتور السياسي الشهير ابراهيم بك تمو ألفيته متوقد الذكاء يلتهب غيرة وحمية على ملته ووطنه وكان لنا معه حديث طويل في مسألة خروج العسكر من صحن التحزبات السياسية فهو كان يقول انهم لم يخرجوا ونحن كنا نؤكد له أن تسعين في المئة قد تنحوا عن التحزب المعهود ولا يرجعون الى هذه المضائق الا اذا بقي العشرة الآخرون في المئة مصرين على ذلك التحزب المعهود للاتحاديين فان نظارة الحربية التي أعلنت مرارا نهي هؤلاء وزجرهم وانذارهم تبقى في مركز حرج أمام الأمة ومجلس الامة وأمام أولئك الضباط الذين هم تسعون في المئة تقريبا كما تواتر الينا ذلك من مصادر متعددة .

والبواخر كما يعهد أكثر قرائنا الاعزاء تكون جامعة أشتاتا من الناس من شرقيين وغربيين ويستفيد الواحد من معاشرة هؤلاء الناس أنواعا من الاستفادات العلمية : فهذا يحدث عن جغرافية بلاده ، وذلك ينبيء عن دقائق صناعته ، وآخر يخبر عن تجارته وتجاربه ، ورابع يقص شيئا مما علق بذهنه من نكت تاريخية أو أدبية أو فكاهات ولطائف سمرية ، وهكذا .

ومن هذا القبيل كان معنا اثنان من وجهاء كركوك وقد سمعنا منهما

ثناءً على مبعوثيهما الفاضلين صالح باشا ومحمد علي بك ، وثناءً على مبعوثي الموصل أيضا علي فاضل أفندي وداود اليوسفاني أفندي ، وثناءً على جملة الموظفين عندهم في الادارة والقضاء الشرعي والنظامي، وأطنبا في امتداح متصرف ذلك اللواء وهو عون الله بك الكاظمي ، وكان معنا أسعد باشا اللواء (أصله من لبنان) وهو الآن معيّن قائدا للفرع الثاني عشر في الموصل ، وسمعنا منه ما ذكرنا رأينا فيه آنفاً من أن العسكر لم يبقوا على حالهم الاولى من التحزب المعهود • ومن المصادفات اللطيفة أن فليب أفندي مطر (أجزاجي في بيروت) كان معنا في هذه الباخرة كما كان رفيقنا في العام الماضي أيضا ولأننا أنسنا به كثيرا في المرة الماضية كان أنسنا به هذه المرة أكثر ، ذلك لما يتمثل فيه من الآداب والاخلاق اللطيفة ، وهذا نعني به التذكير بأن كل شيء يحدّث به ، فليختر العاقل له في العالمين حديثا حسنا •

* * *

قمنا من الآستانة مع الغروب يوم الخميس ٧ رمضان (المصادف ١ أيلول غربي ١٩١١) وبعد أن جرت بنا قليلا أقبل الظلام من الشرق واحتجب النور في الغرب ، فحلّ لنا أن نأخذ من الطعام الذي كنا ممسكين عنه ارتشاداً بوحي أراد الفاطر به تمريننا على الصبر الذي هو أعظم عُدَد الحياة الصالحة ، وكنا ونحن على المائدة نتزود من مناظر الاستانة التي كانت بين العتمة والنور كالحسناء في خمار أسود وهو ذلك المنظر البديع الذي سلب من المسكين أبي العتاهية عليه الرحمة لبه فأنشد أبياته المشهورة التي أولها :

« قل للمليحة في الخمار الاسود ماذا فعلتِ بناسك متهجد »

وعند فلق الصبح من يوم الجمعة كنا نجوز الدردنيل ، وعند الساعة الرابعة بعد الظهر صرنا أمام أزمير فوقفنا نحو ثلاث ساعات ولم يخرج أحد من الباخرة وكان الظنون أن لا يدخل اليها من أزمير أحد ولكن رأيناها قبلت عددا قليلا هم الاجانب • وعند الغروب قامت بنا من أزمير وبعيد الزوال من يوم السبت كانت واقفة بنا أمام رودس ، وفي الرابعة بعد الظهر قامت بنا فجرت بقية ذلك النهار وليلة الاحد ويومه ونصف ليلة الاثنين حتى وصلت بنا بيروت فألقت مراسيها واستقر بنا النوى فيها ، واليوم (الاثنين) نحن نقضي الاربع وعشرين ساعة المقررة للكورنتينا وقد أنزلوا في زوارق الباخرة ركاب الدرجة الثالثة وأخذوهم الى الكورنتينا وبعد أن طهروهم على اصطلاحهم أرجعوهم الى الباخرة•

* * *

النسيم مدة هذا السفر رخاء ، والبحر رهو والجو صحو ، وسير الباخرة نحو اثني عشر ميلا ونصف ، وقد قضينا هذه الايام كلها منذ يوم الجمعة غير صائمين لاننا على سفر والوحي الذي دعانا الى هذه الفريضة في هذا الشهر القمري من كل سنة قد أرشدنا أيضا الى تأجيل الصيام اذا كنا مرضى أو على سفر •

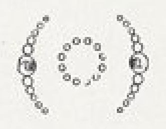
كان يخطر ببالي منذ سنين أن حكمة الصوم بحد ذاته ظاهرة جلية وهي ما أشرنا اليه آنفا من التمرين على الصبر ، ولكن حكمة تحديدذلك الجوع المخصوص بشهر مخصوص غير ظاهرة ثم ظهر لي أن حكمة هذا التحديد هي تمرين الامة كلها على روابط واحدة في الامور التعبدية كتمرينهم على مثل هذه الروابط في كثير من الاشياء ومنها أن يكون اللسان الرسمي الديني واحدا وذلك بواسطة أن كتابهم المقدس واحد وهو انما نزل بلغة واحدة •

لعلك أيها القارىء العزيز تقول ما الذي بعث الآن هذا المبحث الديني بين هذه الخواطر ؟ فلا تعجب يا عزيزي انما جره الجوار فان أمامنـا الآن من أحبار المسيحية ورهبانها ما ذكرنا بالمباحث الدينية ، وهؤلاء الصنف من الناس أعني الاحبار والرهبان لم أجد باخرة من البواخر التي ركبتها حتى الآن خالية منهم على كثرة ما ركبت البواخر ، فهم غادون رائحون دائما حاملون صلبانهم في أعناقهم كما نحمل في قلوبنا حبَّ روح الله وكلمته سيدنا المسيح عليه السلام وحبَّ جميع اخوانه من الهداة الكرام ، و لاسيما هادينا الاعظم سيدنامحمد عليهالصلاة والسلام، ولم أجد بأسا أيها العزيز من أن أقيد لك هنا هذه الخاطرة وهي أن عناية كل أمة بدينها لم تضر على نحو ما يذهب اليه ظنون بعض الافكار المستعجلة بالحكم وانما قد يخشى من جمود الافكار على تناسي كل مـا لم يبرهن عليـه العلم الحسي واهماله مع أن البشر لم يؤتوا من العلم الا قليلا .

* * *

نحن الآن أمام بيروت سلام عليها ، يزيدنا قربنا منها مع احتجازنا دونها شوقا اليها ، هذه هي المدينة التي تبسم لمحبيها السوريين فيجعلون هذا الثغر الباسم قبلتهم في تجاراتهم ومحط رحالهم في كثير من مرافقهم. وقد أصبحت مركزاً سياسياً كبيراً لهم ففيها طائفة مباركة من ذوي الهمم منهم ومن أمراء الكتابة ومجودي القول والخطابة ، ونحن في موقفنا هذا أشبه بأهل بلدة صغيرة واذا صح التشبيه فنحن في مصغر بابل لأن سكان هذه البلدة الصغيرة أو هذه الباخرة الكبيرة فرنسي وانكليزي والماني ورومي وروسي وتركي وعربي وفارسي وهندي ، بيد أن هؤلاء السكان المترحلين غدا عن هذا المحيط قد شكوا كثيرا من قعودهم بدون

عمل وهذا من جملة ما يقوي في فكري أن الفراغ لا لذة فيه الا لمرضى الاذواق وأن البشر مهما استغنوا عن العمل من جهة احتياجهم الى ما يقوتهم ويكسوهم فهم في احتياج اليه من جهة ما يقتضيه الفكر من الايجاد والتوليد ومن حيث ما تقتضيه سائر الاعضاء من الارتياح للحركة، فالمأمول من توفيق الفاطر تعالى أن يكون ما نسير اليه من العمل صالحا لنا وللناس ، وأن لا يجعلنا من أهل الفراغ ما دامت فينا روح تحب الاحسن وتميل الى تحصيله لبني نوعها .



خواطر السياحة (*)

— ٥ —

ثلاثة أيام في بيروت :

مكثت بنا الباخرة أمام بيروت المدة المضروبة للحجر الصحي كما ذكرته في الرسالة الرابعة . ولما كانت صبيحة يوم الثلاثاء خرجنا مع بزوغ الشمس الى البر فألفينا المدينة لا تزال هادئة هدوء النوم ، ومن عرف العادات في رمضان لا يعزب عنه أن الحركة التي تكون في البكور كل أيام السنة تبطل أيام رمضان .

بعد قليل من وصولي شرفني الاصدقاء بزيارتهم وأخذنا بأطراف الاحاديث وكان أهم المباحث في الأحزاب . وقد وجدت في الصحب أناساً ذوي رجاء وشوق الى الاعمال التي قد تثمر الاصلاح من التعاضد والتساعد ، وآخرين قد غلب عليهم ما يشبه اليأس لعدم صلاح أكثر رجال الاحزاب في نظرهم .

تكلم كل واحد منا بما بدا له وكان مما قلت أنني قد أعذر الذين يطيف بهم اليأس أو شبهه لكثرة ما يدعو الى ذلك ولكني ما أظن أن المفكرين في هذه البلاد تصبح نواصيهم أجمعين في قبضة اليأس وتنقطع

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٧٩ (١٢ تشرين أول ١٩١١) .

بينهم وبين الرجاء كل الحبال دفعة واحدة • ولست أدري لماذا اليأس في حين أنه لا فرق بينه وبين الرجاء سوى أن أخا الرجاء يمشي مع ما تقتضيه الحياة من طلب الاصلح ورد غير الملائم بقدر الامكان ، وأخا اليأس يقف كالجامد الخامد • وليت شعري أي ضرر حقيقي للراجي من حركته وأي نفع حقيقي لليائس في سكونه ، أما نفع أخي الأمل من تحركه فأقله إحساسه بأنه مذكور مع الأحياء •

كلنا فيما أظن موافق على القول بوجود نفع عام وضرر عام يكون للافراد نصيب منهما وعليهم أن يساعدوا (كل بقدره) في استحصال الاول ودفع الثاني ، ولكن الناس قد عودهم الاستعباد أن يلتمسوا النفع ودفع الضر من الحكومة ، وأنساهم مالهم وما عليهم من الحقوق والواجبات في هذه الابواب فلذلك كان الرجاء يساورهم لأقل بادرة تظهر من إقدام الحاكم وحسن ادارته ، واليأس يأخذ بخناقهم لأقل هابة تغشاهم من سوء ادارة الحاكم ، وقد نسوا أنفسهم أمام أولئك المستعبدين فتراهم إن أعطوا خيرا منهم ــ وما أقله ــ ركعوا شاكرين ، وإن مسهم السوء منهم ــ وما أكثره ــ ركعوا صابرين •

تغير الشكل اليوم ولكن الطباع لا تتغير بسرعة مع تغير الاشكال ، فما يشاهد من شبه اليأس ان هو الا أثر من آثار تلك العادة التي تعودها الناس من نسيان أنفسهم •

يشكو الناس كما كانوا يشكون أمس ، ولكن ماذا تنفع الشكوى اذا لم تكن معها روح مقاومة ؟ تالله لو ظلت الامم طول دهرها حليفة الشكوى مع عدم روح المقاومة لما زال عن رأسها المتغلبون الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ويكرهون أن يناقشوا بما يعملون • على

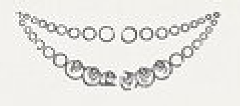
أن الامة قد أصبح لها صوت في تكوين الحكومة فشكواها بعد ذلك انما هي من نفسها ، ومن كانت شكواه من نفسه فقلّ أن يجد راثياً راحماً . هذا ملخص ما دار في هذا المجلس وقد رأيت الصحب مقتنعين بضرورة مساعدة الذين يقاومون المتغلبين ، بيد أن بعضهم يقولون ان في بعض أعضاء الحزب الحر المعتدل شيئا يقال ، فقلت لهم لا يصعب علي أن أقول معكم بأن ثمة ما يقال في بعض رجال هذا الحزب ولكن كنت أحب أن تنظروا الى مستقبل الاحزاب من حيث هي ، أكثر من النظر الى حاضرها ، فان حاضرها شيء بسيط هو الذي استطاع أن يعمله هؤلاء النواب الذين تعرفونهم ، وعملهم هذا سينتهي لأنه عبارة عن تأسيس ويبقى العمل لسائر مفكري الشعب فانهم هم الذين سيختارون الاحسن للنيابة عن الامة وهم الذين ستكون الاحزاب منهم ولهم وبهم وفيهم ، ويكون النواب تبعا لهم غالبا ، ويومئذ لا ينظر الى الحزب من حيث أن فلاناً وفلاناً من النواب أعضاؤه سواء كانوا عالين أومنحطين وانما ينظر اليه من حيث أنه مظهر كبير من مظاهر الامة فيرعى شأنه ، وتوعى كلمته ، ويصعب حينئذ أمامه نجاح الذين يريدون التغلب . على أن الذي أدعوكم اليه في الحقيقة ليس هو مساعدة هذا الحزب بعينه وفي حد ذاته وانما أدعوكم الى وظيفتكم كما تدعوننا الى وظيفتنا ، أنتم من رجال الامة وتعرفون أن الامة هي المسئولة عن نفسها بعد الآن فحسبي أن أقول لكم انظروا ماذا قدمتم وماذا تريدون أن تقدموا لمقاومة روح التغلب الذي قد يزهق روح الدستور ، واذكروا أن رجال ذلك الحزب قد شكوا من بعضهم وانفصل عنه أعاظمهم كصادق بك لما آنسوا روح التغلب .

قال قائل من هؤلاء الصحب الكرام لعله لم يكمل استعداد البلاد

لتعدد الاحزاب فيها ولعل ذلك يحدث شنآنا بين القوم فالأولى التروي .
قلت أما تعدد الاحزاب في البلاد فهو موجود من قبل ولكن النسيان قد يغيبه عن فكرنا أحيانا لضيق دائرته مع أن نتائجه ونتائج التحزب الواسع واحدة من حيث الشنآن الذي له حد . وأما التروي فأنا أشد الناس اعتصاما به ان شاء الله تعالى ولذلك تجدني عازما على أن لا أدعو بنفسي لتأليف فرع لهذا الحزب في بلد من البلاد التي سأزورها بل أترك ذلك لطبيعة البلاد ورغبتها ، وانما قصدي من هذه المحاورة مقاومة الروح التي تشبه روح اليأس وأخذ الموافقة على وجوب مقاومة التغلب ووجوب التعاضد على ذلك ومن بعد هذا أكون مطمئنا وواثقا من أن معارفكم وعلومكم ستظهر لكم أن التعاضد من غير نظام يبقى أبتر وأنه لا بد لتكامل التعاضد من تأليف حزب نظامي . وهممكم ستأخذ بكم الى أكثر مما أنتظر وتنتظرون لأننا لا نعرف حدود هذا الاستعداد .

هذا أهم أحاديثنا السياسية في بيروت . وقد رأيت كثيرين يحبون أن يكون فيها فرع للحزب الحر المعتدل ، ولم أستغرب ذلك فان فعائل المتغلبين في الحزب الآخر ، وآثار تلك الفعائل في المملكة كلها حتى في سورية نفسها ، وطبيعة البلاد التي تكون نيابية ، كل ذلك يقضي بتعدد الأحزب ، وقد أرتنا التجربة أن الاحزاب مهما تعددت ترجع الى هذه الاصول الاربعة ١ ــ العنصرية ٢ ــ المحافظة المتطرفة ٣ ــ الحرية المتطرفة ٤ ــ الحرية المعتدلة . لكل أناس مشربهم أما أنا فأظن أن الاصول الثلاثة الاول غير صالحة هذه الايام لهذه البلاد التي تعددت فيها العناصر والمذاهب والمشارب تعددا هائلا وأظن أن أحسن هذه الاصول وأثبتها هو ذلك الاصل الاخير أعني « الحرية المعتدلة »

فان رفضه بعضهم اليوم اغتراراً بالظاهر من قوة غيره ، أو امتعاضا من بعض أهله ، فان المستقبل له حين ينظر العقلاء اليه من حيث أنه أصل قويم ملائم لكل العناصر والمذاهب ، وحين يعلم الناس أن تلك القوة التي تنسب الى غيره انما هي قوة تكتنفها حجب الاوهام ولا بد من أن تمزق الاوهام تلك الحجب •



خواطر السياحة (*)

— ٦ —

ثلاثة أيام في بيروت :

مر مجنون ببلد من البلدان ، فلما جاوزه سئل : كيف رأيت هذا البلد ؟ فقال : انه لحسن" جداً وأهله طيبون ، قيل له : كيف عرفت ذلك؟ فقال : عرفت ذلك من عدم ايذائهم لي ، ثم بعد سكوت قليـل قال : استغفر الله ان هذا البلد قبيح وأهله غير طيبين ، فقيل له : لمَ ذلك ؟ فقال : لأني رأيت واحداً منهم قد ضحك لما رآني وشعرت أنه يستهزىء بي . هذه الحكاية يحكونها عن أحد المجانين ، وحكاياتهم كثيرة يوردونها للتفكهة غالبا ، وعندي أن الذين يمرون ببلد من البلدان مرة خفيفة ثم يروحون يصفون أخلاق أهلها وطباعهم ويحكمون عليها هم ليسوا أسلم وأصح عقلا من مثل ذلك المجنون ، ولكن أكثر جِنة منهم في نظري من يعتدون بأقوال هؤلاء المجانين الظاهرين مظهر العقلاء ، وليسوا بقليل هؤلاء الذين لا يميزون بين الأقوال ويخلطون الصالح منها مع غـير الصالح ، فترى الواحد يحدث عن أخلاق أهل بلد وطباعهم وهو لم يخبر منهم الا شخصا أو شخصين فيمدح أو يذم كما يوحي اليه التصادف أو الجنون ، وترى كثيرين يأخذون كلامه كحقيقة راهنة .

---

* جريدة (الحضارة) ٢/٨٠ (١٩ تشرين الاول ١٩١١) .

من هذا القبيل ذلك المجنون الذي أسعده الحظ أن تجهل احدى جرائد الأستانة جنونه وترسله الى سورية ليكتب اليها عن أحوالها وأخلاق أهليها مع جهله بلسان هذه البلاد ، وكان من سوء حظ قراء تلك الجريدة أنها نشرت لهم كل ما أوحاه الجنون الى ذلك المراسل عن بيروت ودمشق ولبنان ، وقد تراءى لنا أن المصدقين لتلك الرسائل كثيرون ، ولعل الولد السلانيكي المعهود انما حدثته نفسه أن يسيح في سورية لينظر أصحيح ما قيل في تلك الرسائل ، وعندي أن هذا الصنيع هو من العقل والحكمة وليته جاء ونظر وعلم ما تجنيه مثل ذلك الجنون من بذر بذور البغضاء بين أهل البلاد ، فان من جملة ما قاله ذلك المجنون أن « العثمانية » في سورية عامة وفي بيروت خاصة ضعيفة •

يعرف قراؤنا الاعزاء أن قلمنا برىء من الشتم ــ بقدر الامكان ــ فأرجو أن لا يحسبوا وصفنا لذلك المراسل من قبيل الشتم ، كلا ثم كلا، بل لم نقصد به الا تعريف أمر واقع منهم ، وقد جرت عادة الناس أن لا يسموا مجنونا الا من كان يمزق ثيابه مثلا مع أن الجنون فنون ، وكم فن من فنونه أدى الى خراب بلاد ومحو أمم ، لأن المصابين به استطاعوا أن يتغلبوا ، وسماهم الناس دهاةً ورجالاً عظاما ، ولم يخطر في بال الاكثرين أنهم أحق أن يسموا مجانين وأن يعاملوا معاملتهم •

إن خفاء جنون ذلك المراسل جعله ينشر جنونه على الملأ ولكن تحت اسم (الوطنية) و (الحمية العثمانية) ، وقد راق هذا كثيرين في الاستانة وغيرها ، وأصبحوا يرتابون بمحبة السوريين للعثمانية ، والعاقل تكفيه الاشارة لمقدار المضرة التي في عواقب ترويج مثل ذلك الجنون •

وهنا مسألة مهمة جداً جداً ، وهي كيف ندفع عن البلاد أمثال

هذا الجنون ، وللعقلاء جوابان في هذه المسألة : الاول أن بعض فنون الجنون تدعى هي أو أسبابها توهمات وقد تدفع بتوهمات مثلها وهذا محسوس كثيرا حتى دار على الالسنة أن الوهم يدفع بالوهم ، ومن شواهد ذلك عند أهل هذا القول حكاية يحكونها عن مجنون دخل الحمام فأزعج كل الذين فيه وفروا منه ثم ارتأى بعض العقلاء أن يخرجه بحيلة فزعم أنه مجنون ودخل يصيح صياحا شديدا ويضرب على الجدران بعصا عظيمة ويشخص ببصره الى السقف كأنه لا يرى المجنون السابق فلم يكن من ذلك الا أنه خرج منسلا انسلالا ، ولما رأى القوم الذين كان أزعجهم لجأ اليهم وقال لهم أجيروني من المجنون فأشاروا عليه بالفرار وهكذا خلصوا منه ، وعند أهل هذا الرأي يجوز أن يصنع مع أولئك المجانين الذين يقولون أو يصدقون أن أهل سورية ضعفاء في العثمانية على نحو آخر مما صنع في حكاية الحمام ، ولعل هؤلاء يغتفرون للجرائد التي دأبها أن تقول ان هذه الحكومة كلما دخلت فيها جماعة تبعت أختها بالظلم والعسف والجهل والقسوة وتخريب البلاد واطماع الاجنبي حتى ان ذلك أصبح خلقا موروثا لأولئك الاكثرين الذين بيدهم الازمة وحتى أصبحنا ننظر وتتفكر في أمر مستقبلنا ، وبديهي أن النظر في المستقبل لا يخلو من تأثير •

والجواب الثاني ان هذا الجنون فردي أو آحادي ولا يخشى أن يعم ويشمل ، فصبر قليل عليه مع المعرفة به والسعي في ابعاد المصابين به عن مواطن القوة هو العلاج ، ونحن نختار هذا الرأي ولكننا لا نغفل عن صعوبة هذا الطريق ولا نستهين بالرأي الاول وان كنا لا نختاره ، على أن الجنون اذا صح أنه فردي يقتل صاحبه ، لو صبر الناس عليه

قليلا اشتغل بالرد على ذلك المجنون كثير من أفاضلنا ، أما نحن فكان رأينا أن الاشتغال بالرد عليه هو تشريف له واكتفينا ببيان أنه مجنون في نبذة كتبناها تحت عنوان « مجانين خارج المستشفى » .

***

قلت إن عجلة السائح في وصف أهل البلد الذي يمر به فن من فنون الجنون ولا سيما اذا كانت العجلة في ذم أهل ذلك البلد ، وبهذه المناسبة تذكرنا ذلك الجنون الذي نشره ذلك المراسل ، وأجدر في نظرنا من الرد عليه تذكير جرائدنا العزيزة بوجوب اليقظة والانتباه لما يكتبه اليها مراسلوها في مثل تلك الشؤون .

أصعب شيء في وصف البلاد هو وصف أخلاق أهلها وطباعهم ،ومن عجب أنك ترى كثيرين يرون أسهل شيء عليهم هو هذا الوصف ، فتجدهم لا يحلون في بلد يوما أو يومين مهما كانوا بعيدين عنه حتى يقوموا للكتابة عنه فاذا أكرمهم واحد منهم قالوا كلهم كرماء ، واذا غاظهم واحد قالوا كلهم لؤماء ، وما أشبه هذا من الاوصاف التي يجعلونها عامة من أجل شخص أو اشخاص قليلين ، ولذا تجد تناقضاً وتعارضاً عظيمين اذا تتبعت كثيرا من مثل تلك الكتابات ، وهذا لا يخفى ينشأ من ضعف الملكة في الاستدلال « أو ما يسمى المنطق » ولذا أرى أن من أعظم الاسس لتوفر الحكمة في شعب من الشعوب عناية عقلائه ببث قواعد الاستدلال الصحيح مهما أمكن حتى لو أمكن تعميم ذلك في كل الطبقات لكان نعمة كبيرة للأمة . وهذا لا يتيسر مع بقاء علم المنطق على نشوفته الحاضرة .

أجدني مضطرا الى الكتابة عن بيروت فهل يصح لي ذلك وهل أنا

عارف بها ؟ لا أزعم أنني عارف بيروت كواحد من أهلها ولكني أستطيع أن أدعي أنني ملم بها الماماً مناسباً ومساعدا على الكتابة عنها ، فكثرة مروري بها واقامتي الايام كل مرة ، وقربها من بلدنا ولا سيما بعد أن امتدت بينهما السكة الحديدية ، وكثرة الاصدقاء والمعارف لي فيها من طبقات مختلفة ، كل ذلك مساعد لان أكون ملما بهذا البلد العظيم . على أنك ستراني مع كل هذا أكتب ما عرفته ووقفت عليه لا ما سمعته فان في المسموعات دخائل كثيرة قلّ من يتنبه لها ، وموعدنا في هـــذا الصدد الرسالة الآتية ان شاء الله تعالى .

(حمص ٢٩ أيلول ١٩١١)

اليوم وبعد اليوم

اليوم وبعد اليوم (*)

— ١ —

وا أسفاه لقــد وقع ما كان يحاذره العقلاء ، لقد بدت الطلائع من نتائج ســوء الادارة وقبح السياسة ، لقد انكشف الحجاب وظهــر ما تحت فقاقيع الغرور ، وطلعت الشمس فبدا ما وراء ذلك الثلج الذي أذابته ، لقد بدىء بمــد الأيدي الى هذه المملكة ، لقد اقتطعت ايطاليا لنفسها « طرابلس الغرب » وبات اخواننا أهلوها يسامون فيها عذاب الروح وبتنا نخاف من مثلها على مثلها .

تختلف مشارب الكتاب ، ومعلوم أن لنا مشرباً خاصاً كما لكل كاتب ، فنحن نزعم أن مشربنا كتابة الحقائق مع الاعتدال وعدم المبالغة ، ونزعم أن متتبع كلامنا يجد ذلك فيه ، ومن مشربنا أننا نقلّ في لوم غيرنا من الكاتبين على مشاربهم ، ومع أن للضرورات أحكاما تتغير بتغير المصالح نجدنا اليوم غير مضطرين الى تغيير اعتدالنا ، وإنما نرى حاجة خفية الى محادثة الكتاب ومذاكرتهم وانتقاد شيء من أساليبهم في المسائل الحاضرة ، وما دعانا الى هذا وحملنا عليــه الا تذكرنا العلاقة التي بين الحوادث المتسلسلة ، وأنّ شكل اليوم هو وليد شكل أمس ، وأن لليوم غدا ، وأن حادثة اليوم ليست بحادثة طرابلس الغرب

---

* جريدة (الحضارة) ٨٠/٢ (١٩ تشرين الاول ١٩١١) .

وحدها ، فمن كان متذكراً كتذكرنا هذا فإن روحه ستجد في هـذا الروح أنسا ، ومن كان ناسيا فانا نرجو أن يلفي ههنا تذكرة •

يعلم قراؤنا ، رعاهم الله تعالى ، أننا كنا لا نرى الوزارة الماضية أهلا للقيام بالعبء الذي زعمت أنها تحمله ولقد كـان الناس الذين يطالعون كلامنا ثلاث فرق : ففريق كانوا يرونه معتدلا وهؤلاء هم كل من لقيناهم ونقل لنا عنهم من الترك الذين يعرفون العربيـة ويقرأون جريدتنا من اتحاديين وغير اتحاديين ومن العرب الذين في سوريـة وغيرها ، وفريق كانوا يرونه كثير الاعتدال بل أقرب الى التقصير منه الى الاعتدال وهؤلاء هم أكثر العرب الذين من العاصمة حتى لقـد كلمونا في ذلك ولامونا عليه مرارا كثيرة ، وفريق كانوا يرونـه شديد التحامل ومبالغا فيه كثيرا مبالغة ناشئة عن حسد وحقد أو نية سيئة أو ما أشبه ذلك وهؤلاء فئة في مصر تزعم أنها زعيمة روح المقاومة للانكليز وإن هي الا زعيمة روح الإيهام والتضليل ، وقد جعلت من سنن إيهامها وتضليلها أن تمجد وتقدس كل من ساعدته الفرص أن يتغلب في الأستانة ويكون من ذوي النفوذ والحل والربط فيها سواء كان أهلا أم غير أهل وسواء كانت الدولة تشتار من أعماله عسلاً أم كانت تجني منها حنظلاً ، وتعودت هذه الفئة أن ترمي بكل الصفات المقبوحة كل من ينقد عملاً من أعمال أولئك الرجال ، فهي من هـذا القبيل قد تجعل كلامنا في زمرة الكلام الممقوت وان كان مقبولا عند المنقودين أنفسهم •

كنت أشتهي وأتمنى أن لا أتعرض لهذه الفئة ، ولكن اعتقادي بأن أكثر مصائبنا الحاضرة هي نتيجة التدجيل في السياسة والصحافة هو

الذي أوجب أن أقول هذه الكلمات المرة ، فإن استباحوا أن يشتموني لقاء هذه الكلمات فانني بما أرجوه فيها من حسن ثواب الحق وحسن تأثيرها في يقظة إخواني المصريين وغيرهم سأستعذب ذلك الشتم إن هم ثابوا الى الرشد وعلموا مَنْ نحن في هذه الدولة وما هي القلوب التي نحملها وينبع منها كلامنا وما هي عواقب الإيهام وما يرجى من الاعتصام بالحقائق والسعي على نواميسها وما حقائق أولئك الذين مجدوهم وما نتائج سياستهم ـ اذا علموا كل ذلك ومشوا على سنة جديـدة في حقائق رجال الأستانة وتحري حسناتهم وسيئاتهم بدون تعصب وتشيع من بعيد عن جهل واغترار فإنا يومئذ من المستغفرين •

يقول بعض الكتاب ليس هذا اليوم بيوم حساب ولو كان الخطب عبارة عن حادثة طرابلس الغرب وحدها لقلنا معهم نعم • أما والخطب في نظرنا أعم وأطم فهذا القول عندنا مردود ، ذلك لمـا شاهدناه بعد عودتنا هذه المرة الى الأستانة من قلـة الاعتبار وعـدم الادكـار ، وهذا أعظم الخطوب عندنا وأجدرها بالكشف عن جذورها عسى أن نفوز بشيء من التنقية قبل التلف الكلـي • وألم تروا كيف دخـل ـ بغيرما استحياء ـ في الوزارة الجديدة أناس من أعضاء الوزارة القديمـة ؟

قدّم محمود ناجي بك وصادق بك مبعوثا طرابلس الغربـ وكلاهما من صميم الاتحاديين ـ تقريراً يطلبان فيه محاكمة الوزارة السابقة في الديوان العالي ، وذكرا فيه أموراً كثيرة من سيئات تلك الوزارة ، وخلاصة ما ذكراه هكذا :

(١) كانت القوة البرية في الزمن السابق تتراوح دائما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألفا ، وعدا هذا كان عسكر أهلي نحو أربعين ألفا

من « القول اوغلي » يعلـّمون التعليم العسكري ليكونوا مدداً للعسكر النظامي حين الحاجة ، فصرف النظر عن كـل هذا وسيق الى اليمن مقدار عظيم من العسكر الموجود هناك ولم يعد الذين سيقوا ولا أرسل نظيرهم مكانهم • وكـان ألايان من الخيالة دائمـاً في الزمن السابق فنزلتا الى ألاي واحد •

(٢) منذ إعلان القانون الأساسي أظهر الأهالي هناك الرغبة التامة والشوق الكامل للدخول في التجنيد كسائر أهل الولايات ، وألـح في ميزانية عام ٣٢٦ مبلغ للذين رتبوا لسحب القرعة ، فبالرغم من كل
في ميزانية عام ٣٢٦ مبلغ للذين رتبوا لسحب القرعة فبالرغم من كـل
هذا لم يبدأ بذلك إلا قبل أربعة أشهر ، وليته جرى على حسب المطلوب بل لم يؤخذ من ستة عشر ألفـا أسنانهم قاضية بالتجنيد إلا ثلاثـة آلاف واربعمائة ، وعرض الباقون أنفسهم أن يؤخذوا بصفة متطوعين فردوا ولم يلتفت الى تشكيل طوابير الرديف •

(٣) كان في الدور السابق يوجد أكثر من أربعين ألف بندقية من عمل مارتين وشنايدر لتسليح المعلمين تعليما عسكريا من الاهالي حين الاقتضاء ، فهذه البندقيات قد جاءت بها الحكومة الى الأستانة بحجة أنها تريد تحويلها الى شكل جديد • وكانوا في الدور السابق لا يألون جهدا بارسال مدافع وما يتبعها وبالرغم من الاعتراضات السياسية التي كان ذلك الدور هدفا لها كانوا يرسلونها سرا وفي الفرص ، أما في هذا الدور فبالرغم من أن ارسالها أصبح لا يصادف مثل تلك الاعتراضات وبالرغم من أن مجلس الامة لم يظهر منه أقل تقصير بالمفاداة والانفاق من سعة على الاحتياجات الحربية قد رأينا الحكومة تركت الولاية هذه

مهملة منسية من هذه الاستعدادات ولم تر من حاجة لتصليح الاستحكامات التي هناك .

(٤) إن أفكار ايطاليا بشأن هذه الولاية معلومة حتى عند الأولاد فضلا عن الحكومة ، فمن مقتضى الحكمة أن يكون فيها مدد من الأهلين للعسكر ، ومن مقتضاها أن يكون الضباط الذين سيقودون العسكر الأهلي حين الحاجة عارفين بلسان أهل البلاد الذين ينتظر أن يساعدوا العسكر النظامي عند وقوع مثل هذه الحادثة ، أما الحكومة فرفعت من هناك كل الضباط الطرابلسيين المتخرجين من المكتب الحربي وكل الضباط الآخرين الذين لهم مدة طويلة هناك وأصبحوا عارفين بلسان البلاد ومواقعها وطبيعتها ، ثم لم ترسل مكانهم الا عددا قليلا جداً ولم تراع في إرسالهم أمر معرفتهم بلسان أهل البلاد ، فهؤلاء أصبحوا هذه الايام في عذاب أليم لعدم تمكنهم من قيادة العسكر الاهلي كما ينبغي .

(٥) فضلا عما تقدم من ترك هذه البلاد بدون استعدادات حربية فقد تركت أيضا بدون إمداد من القوت في حين أن القحط قد توالى عليها منذ أربع سنين ، ومبعوثونا رفعوا صوتهم مراراً في مجلس الأمة ، وقد خصص أخيرا عشرة آلاف ليرة لتصرف في هذا السبيل ، فلما ذهبنا (محمود ناجي بك وصادق بك) هذه السنة الى هناك ووجدنا نحو مئتي ألف قد هاجروا الى تونس وغيرها من البلاد المجاورة ونحو أربعة آلاف من الاطفال والنسوة والعجزة يتجولون في الأسواق يستنجدون القادرين للاقتيات وسد الرمق ونحو خمسمائة قضوا نحبهم من الجوع في الأربعة أشهر الأخيرة فقط كتبنا في أول تموز الى الصدارة تلغرافا ورسالة نستعجل

بهما هـذا المبلـغ فلم نسمع جوابا • وكذلك كنا ألححنـا بارسال الستمائة ألف كيلة شعير التي تقرر ارسالها للبذارة والأكل ، وبعـد وصولنا لطرابلس كتبنا أيضا في طلبها فإلى حين اعلان الحرب لم ترسل، وهكـذا بقيت هذه الولاية المسكينة بدون مدد من السلاح والعسكر والقوت حتى دخلها العدو وهي جائعة ذليلة •

(٦) إن الحكمـة تقضي بأن يعين لمثل هذه الولايات التي يطمح العدو إليها الرجال المحنكون بشرط أن يكونوا مع اقتدارهم الذاتي عارفين بلغـة البلاد أيضا ، بل تقضي الحكمة في بعض الجهات أن يكون الموظفون من أشرافها وذوي النفوذ فيها ، فوزارة حقي باشا أهملت هذا الأمـر بتاتا وعينت طائفة من المحاسيب فظلت الولايـة اليوم محرومة أيضاً من تدابير الموظفين بالوظائف الادارية •

(٧) إن هذه الولاية لم يمر عليها في الدور السابق يوم واحد خلت فيه من وال وقائد ، أما قبل الحرب فإن حكومة ايطاليا راجعت وزارة حقي باشا فعزلت إبراهيم باشا الذي كان والياً وقائداً معا ولم تأمره أن يظل في مركزه حتى يأتي مكانه والٍ وقائد بل أتت به الى الأستانة وصارت تتردد بإرسال رجلين يخلفانه في الوظيفتين ، وفوضت القيام بالولاية الى دفتردار جديد يجهل لسان البلاد وطبائعها وفنون الادارة ، والقيام بالقيادة إلى ميرالاي • وقد نشأ من ذلك أن الأهالي صاروا يقولون ويوسوس إليهم الموسوسون أن الحكومة مرادها الاستغنـاء عن هذه البلاد فوقعوا في اليأس وانكسرت عزائمهم • وكأن كل ذلك لم يكف فأضيف إليه رفع قوامانداان القلعـة وحيد بك وعدم ارسال واحـد مكانـه •

(٨) من المعلوم أن إيطاليا لم تكتم أفكـارها بخصوص طرابلس الغرب وبنغازي بل هي تصرح بها دائما وتذكرها للدول وللعثمانيين أيضا ، وفي السنين الأخيرة زاد تشبثها ، ولم تأل جهداً في تحين الوقت المناسب ، فكان من الواجب أن يكون حقي باشا مطلعا على كل ذلك إذ كان سفيراً في عاصمتهم ورأى الآثار والعلائم من كثب ، فما باله قد رأيناه لم يبال بما عرفه رأي العين ولا بما أنذر سفيرنا في رومية والوالي والقائد ابراهيم باشا ، بل من أغرب الأمور أن ايطاليا لما وجدت الوقت المناسب في هذه الأيام وذلك بمناسبة مسألة فاس ولما أحضرت أسطولها أيضا وبدأت بالمذاكرات مع الدول كان حقي باشا هنا بصفة متفرج ، كـان مسامحاً لسفرائنا الذين في أوربا أن يتركوا مراكزهم ويذهبوا الى هنـا وهناك •

(٩) بصرف النظر عن كل ما تقدم كـان ينبغي على الأقـل أن ترسل الحكومة بلاغات وتعليمات الى العسكر القليل الذي في طرابلس ليتمكن من المقاومةولو قليلا ، فهذا أيضا يلتفتإليه ولم يرسل منالنقود مقدار ما يتوقف الدفاع عليـه •

والخلاصة أن طرابلس الغرب وبنغازي تركت على هذا الوجـه الذي بيناه بدون وال ، بغير قائد ، بلا عسكر ، بلا سلاح ، بلا ضباط ، بلا قوت ، بلا مدد من المال •

هذا ما ذكره ذانك النائبان من وجوه تقصير الوزارة السابقـة بالاستعداد للطوارىء المنتظرة في تلك الولاية ، ومعلوم أن التبعة في هذا التقصير ليست على حقي باشا وحده بل عليه وعلى الأعضاء الذين معه ، وها نحن أولاء نرى الامور ألقيت الى أيدي أناس منهم ومن أشبانهم •

على رسلكم أيها الناس احزنوا ما شئتم أن تحزنوا ، وقولوا في إيطاليا ما أردتم أن تقولوا ، وتحمسوا ما أحببتم أن تتحمسوا ، واجمعوا من الاعانات مارمتم أن تجمعوا ، ولكن لا تنسوا مع كل ذلك ما أنتم مسوقون إليه اذا ظل رجالكم على هذا النحو ، وظللتم أنتم غير عاملين لغدكم .

ضجت الجرائد ضجة واحدة لما عملته إيطاليا في هذه الحادثة ، وحق لها أن تضج ونحن معها ، ولكن مثل هذا الضجيج لا يحل هذه العقد الحاضرة ، وشتم الكتاب والشعراء ايطاليا ولكن مثل هذا الشتم لا يكشف هذا الضر الماثل ، وتبادرت البلاد كلها لجمع الاعانات ، ونعماً صنعت ولله درها ، ولكن كل ما سيجمع لا يغني عن الاسعاف الأجنبي بالقروض ، والنافع مع كل هذا في نظرنا أفكار تبحث عن الشيء المشجع لإيطاليا و غيرها على الاستهانة بحقوقنا ، وقلوب تعي الحقائق وتجر أصحابها الى الجري على نواميس البقاء بمقدار ما ترشد إليه علوم الاجتماع .

ما أسبق الناس كلما حدثت حادثة من هذا القبيل الى تحريك سلاسل الدين ، وما أكثر نسيان الناس للتجارب . ينسى الناس سيئات أنفسهم وخطيئات حكوماتهم ويعمدون الى ادعاء أن عدوهم لم يتهجم عليهم إلا لأنهم مخالفوه في الدين ، وينسى الناس أن مخالفيهم في الدين كم وكم أعانوهم اعانات أنقذوا بها حياتهم ، وكم حارب بعضهم بعضاً واعتدى بعضهم على بعض ، وينسى الناس أن وطننا مؤلف من أقوام دياناتهم متخالفة وأنه ليس من الحكمة ولا من اللياقة الفزع الى النعرة الدينية مع معرفتنا باختلاف النعرات كلما عصفت على الوطن عاصفة أوربية .

أحب أن تتذكر اذا نسينا فان النسيان أهلكنا وأوردنا مـوارد الخذلان .

البولونيون أوربيون ومسيحيون وقد كانوا ذوي ملك جامع وهم ليسوا بقليلين وقد ذهب ملكهم والذين أذهبوه وتقسموه هم أوربيون مسيحيون مثلهم فلماذا نقول إن الاوربيين المسيحيين لا يعتدون علينا إلا لأننـا مسلمون ؟

بين فرنسة وإنكلترة استعرت الحرب مئة سنة ، وبـين إنكلترة وروسية عداوة مشهورة لم تنطفىء جمرتها إلا من عهـد قريب برشة من سياسة الملك أدوار بعد أن ساعدت انكلترة المسيحية اليابان الوثنية علـى الروس المسيحية ، وفي حربنا القريمية مع الروس كان الانكليز والفرنسيس أعواننا على بني دينهم ، وفي حربنا الأخيرة مع الروس لم يردَّ عنـا كيدهم الذي حاق بالعاصمة نفسها إلا الأوروبيون المسيحيون، ولما اعتدى علينا اليونان المسيحيون لم يكن لهم ناصر علينا حين الحرب من أوربا المسيحية .

يشكو العالم أوربا كلها وهي لم تأت ببدع في غزو البلاد فكل الامم غازيـة ، في حين قوتها وطبائع البشر لا تتغير بسهولة ، وهل البلاد التي في أيدينا اليوم في أوربا وآسيا وافريقيا إلا نتيجة الغزو ؟

تسيطر الانكليز اليوم على الهند مثلاً ، وفيه أكثر من ربع مليار من العالم يقال إن بينهم نحو ثمانين مليونا من المسلمين ، فلست أدري كيف نزعم أن انكلترة تخاف من مسلمي الهند اذا أرادت أن تغضب العثمانيين في حين أنها لا تخاف من السيطرة عليهم وتسميتها نفسهـا حاكمتهم المطلقة ؟ ولو كانت النعرة الدينية كافية لكان أولئك الكثيرون

من الملايين أحق من هؤلاء القليلين برفع الاثقال ودفع الاغلال ، على أن من المعلوم أن انكلترة المسيحية لما امتلكت الهند لم يكن فيه دولة اسلامية ذات شأن يذكر . وتسيطر روسيا على ملايين كثيرة من المسلمين ولكن من يعرف كيف كانت تلك الأمارات الصغيرة التي هنالك ، وأنها هي التي كان الروسيون يجدون عونا من بعضها على بعض بل كان بعض أولئك الأمراء يدعون الروس للتغلب على الآخرين ، من يعرف ذلك لا يعجب مما وقع .

وتسيطر فرنسة على ملايين من المسلمين وقد غابت عنا في ثنايا الروايات تفاصيل العوامل والدواعي لتهجم فرنسة على الجزائر ، أما تهجمها الى تونس فغير مجهول التفاصيل ، وقد كان مرافقاً لدخول إنكلترة مصر ، وما دخلتها هذه إلا لأن الأستانة أبت أن تطفيء بنفسها تلك الفتنة المعروفة التي قامت فيها ، فمن السبب ياترى ؟

في المغرب الأقصى دولة إسلامية قد ابتعدت بنفسها عن حكومة الأستانة في كل شيء ، لاساعدتها بشيء ولا رأت منها مساعدة ، وقد تهجمت عليها فرنسة أخيراً فقال القائلون لأنها إسلامية في حين أن فرنسة قد أصبحت حكومة بغير دين ، وإنما هي التي ساعدت فرنسة على نفسها بما ظهر فيها من الفساد في البحر وبما حادت عن سنن القوة . اللهم هل هذا كاف في تذكير الناسين أن هجوم الغرب على الشرق ليس هو هجوم دين على دين وانما هو هجوم قوة على ضعف ، وعلم على جهل وغنى على فقر فانظروا وتساءلوا لماذا أنتم ضعفاء ؟ هل ذلك من قلتكم ؟ كلا ! فانكم مازلتم تفاخرون بالكثرة . هل ذلك من فقركم ؟ فلماذا وأرضكم أكثر من أرضهم وأكرم وأبر ، ومدنيتكم أسبق من مدنيتهم وأنقى وأقر ؟ هل ذلك من تربيتكم وأخلاقكم ؟ فلماذا وكتابكم ذلك الكتاب

الأقدس المبين ، وحبلكم ذلك الحبل الوثيق المتين ؟ انظروا وتأملوا ، تفكروا وتذكروا، ألتفوا للنظر فيحاضركموآتيكم الجماعات، واعقدواله المؤتمرات ، ولا تهملوا النظر فيما وصلت إليـه أحوال الأستانـة ، ولا تنسون أنفسكم ، فإن هذا ، هذا هذا ، هو البلاء المبين . اذكروا أن لكم نفوساً كنفوس الأمم يجب أن تحيـا كحياة الأمم ، أو أن لا تأسى على ما يصيبها اذا رضيت بالهون ، وستذكرون ما أقـول وسأزيدكم منـه والله المستعان ، هو يعين من لا يقنطون .



اليوم وبعد اليوم (*)

— ٢ —

طرابلس الغرب وبنغازي ودرنه والحمس وتلك السواحل أواه ماذا دهاها ، أواه أي خطب وأي بلاء أتاها ، كيف سولت للعداة نفوسهم ، كيف حملت نية الشر صدورهم ، وعلى مَ تنطوي اليوم عقـولهم ، أينتظرون أن يظلهم فيها جو رائق ، أم يظنون أن يقلهم منها اقليم هادىء كـلا ليمتلئنَّ جوها سحبا من نفثات الصدور ، ولتمطرن تلك السحب عليهم شرورا جدّ شرور ، ولو بعد أعوام وعصور ، فان الحساب بين الأمم طويل الذيول ، والأيام بين الأنام تدول ، ومن يجمد مع الساعة الحاضرة جهول ، ومن ينسى تحول الأحوال ذَهول ، ومن ييأس من مصرع الباغي غافل ، ومن يقنط من الانتشال الممكن غير عاقل ، كلا لا يأس من الجمع بعـد الفرقة ، والعبرة بعد العثرة ، والفكرة بعـد السكرة ، والحرارة بعد الفتور ، والاشتغـال بعـد الخمود ، كلا ليذهلنَّ إيطاليا في الآتي أمور من أمثال ما أذهل غيرها في الماضي ، من أمم كانت منكورة ، وهمم لم تكن معروفة ، وليبقينّ ذكر هذه البلاد الحزينة محفوظاً في القلـوب ، ومتنقلا في النسمات ، ودائراً على الألسنة ، في القصور والاكواخ ، وفي الحواضر وبين الآجام ، حتى اذا منَّ الله سبحانه بمجيء اليوم المأمول عرف العالمون يومئذ

---

* جريدة (الحضارة) ٨١/٢ (٢٦ تشرين الاول ١٩١١) .

أن ليس كـل خطب من هذا القبيل عضالا وإلا لفنيت كل يوم أمـة ، وفرقت كل حين جماعة ، وذلك مما لم يعهد في نواميس الكون وسننه تعالى فيـه .

* * *

ربما يجيء ذلك اليوم المأمول ولكن قبل مجيئه سنقاسي ونقاسي ، وسنلاقي ونلاقي ، لا أقـول إن كل ذلك من غيرنا كمـا يقول كثيرون، وإنما أقول إن كل ذلك أو معظمه من غفلتنا واشتغال فريق منا بالتغرير والتضليل من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، واستعداد الآخرين للانخداع والاغترار من حيث يعلمون أو لا يعلمون ، ولا أرى أن ليس هذا بيوم حساب بل أرى أن هذا أحسن الأيام لـه .

نحن اليوم أمـام لظى مستعرة كثيرة الجمرات كبيرتها ، وأصغر جمراتها هذه الحرب التي أقامت وأقعدت العالم الاسلامي فيما نظن ونسمع أكثر مما أقامت وأقعدت الأستانة . نعم إن أصغر الجمرات التي نحن أمامها هي هذه الهيجاء ولكن أكثر الناس لا يوجهون نظرهم إلا اليها في الغالب ، وأنـا لا أستغرب هذا فقد علمت من ذهولات البشر ما هو أغرب منه بكثير .

سأبين كيف كانت هذه الوغى أصغر الجمرات ، وإنما أود قبل ذلك أن يتذكر القارىء هذه القضية البسيطة جداً وهي أن بين « أمس واليوم وغـد » ارتباطا عظميـاً في حيـاة الامم ، وأن الأمم التي لا يهمها شأن « غـد » هي لا تتقن حساب « اليوم » ، والأمم التي لا تتقن حساب « اليوم » تتعب كثيرا في حياة « غـد » اذا لم يسرع إليها الحين الأجسام الآدميـة التي يطلق اسم الحياة عليها بينها من

التفاوت مالا تحيط المجلدات بشرح تفاصيله وصوره ، ومن جملة هؤلاء الأحياء الآدميين أشخاص يخلقون مُسخاً كسحانا ، مكرسحين ممسوحة ألاياهم ، مطوية سوقهم ، ملوية أقدامهم ، يدبون على الأرض زحفاً على أيديهم وألاياهم العظمية ، هم إذا تحركوا أشبه شيء بالمكاسح والمكانس ، وإذا سكنوا فهم أشبه شيء بالسلاحف حين ترفع رؤوسها ، وما أظن إلا أن كل قارىء قد رأى مسخاً أو أكثر من هؤلاء الغريبي الخلقة ، فيتمثل الآن أمام ذهنه شكلهم الذي فصلناه تفصيلا ، من التصادف الغريب أن هؤلاء المُسخ كثيرون في الأستانة ، وقد رأيت منهم اثنين في أقل من ساعة قبل يومين فتبدت أمام ذهني لما رأيتهما معان كثيرة هي التي حملتني أن آتي بذكرهم هنا على سبيل التمثيل ، فإنه لا شيء يوضح المعاني بمقدار الأمثلة المحسوسة فاقرأ واعتبر .

إن هؤلاء المُسخ على ما بهم من عذاب الكَساحة لا تجد في الحرص على الحياة فرقاً بينهم وبين أطيب الناس أجساما وأحسنهم أحوالا وأعظمهم آمالا ، وأقل ما يدلك على ذلك بالبداهة أنك ترى الواحد منهم يتكبدعذاب الزحف في الجوادّ والشوارع لتحصيل ما به قوام حياته على زعمه ، فهو كالنمل تحت الأقدام بل النملة قد تتقي هذه المضائق التي يزج هؤلاء أنفسهم فيها ، وهي إنما تسعى الى التقاط رزقها وقوتها من فيض الجود الرباني الذي لا ساحل له ، وتسلك إليه بما أوتيته من القوة الكافية وبما هديت له من الطريق المقبول بالنسبة اليها نعني طريق الحياة الطبيعية ، أما هؤلاء فيسعون بغير ما قوة كافية ، ويسلكون إليه من غير ما طريق شرعي ، ويضمون الى كل ما هم فيه من النقائص الظاهرة نقصاً تلم نكتته السوداء بجوهر

النفس حتى يصدأ ، وذلك أنهم يزحفون في الشوارع والجوادّ بين أقدام الرجال وأيـدي الدواب لطلب قليل مما يطهر الناس نفوسهم من الشح بإخراجه من جيوبهم ورميه في أيدي الذين يطيب لـهم جمـع الكناسة .

هذا شكل من أشكال الحياة والله سبحانه قادر أن يصور ما هو أعظم شَوَهاً من هذا ، ولكن عقلنـا عاجز الآن عن تصور الذي هو أشوه خلقاً وأرزل خلقاً ، لأن الحياة التي تكون بهذه الصورة قد كرم الله عنها سائر أنواع الحيوان ، لأن كل نوع غير الانسان لا يعيش له أفراد إذا كان عجزها بهـذا المقدار بالنسبة الى أصل خلقة بني نوعها ، وأنت ترى أن ذلك المبتلي بهذه الحياة من النوع الأدمي لا يصبر حتى يعيشـه أولياؤه المكلفون شرعاً بإعاشته أو الحكومة التي يجب عليها أن تعول مثلـه بـل تجده يسوقه ذلك الحرص المستهجن المسترذل شرعاً وعقلا الى عرض حاله وشكله لأعين القادرين فيزحف بينهم ويمد يـده تلقاءهم وما أغناه عن هذه الكناسة لو كان ممن يعقلون .

نعم إنه يعجز العقل عن تصور ما هو أشوه ولكن ذلك في الافراد فقط ، وأما تصور مثال الأشوه من هذا في الأمم فما أظنه صعباً فإن الأمة من الأمم قد يكون لها يد واحدة شديدة القصر ورجل واحدة يابسة ، وعنق شديدة النحافة ، ورأس مفرطة في الضخامة ، وعينان طامستان ، ووجـه شديد الاسوداد ، وظهر عظيم الاحديداب ، وصدر كثير النتوء ، وأذنان كبيرتان ، وصوت يزقي كصوت فراخ البوم ، فإذا كـان لها مع كل ذلك لسان يكـاد يبلغ من طوله الأرض ، ويضيق بعرضـه الشدقان المفتوحان على مسافة تناسب ضخامة الرأس ، وإذا كانت مع هذا تستطيب هذه الحياة بين القادرين الذين هافت قاماتهم ،

وتوردت وجناتهم ، وكحلت لواحظهم ، وعيلت سواعدهم ، وزهرت وجوههم ، وبهرت طلعاتهم ، واذا كانت مع هذا إنما تطلب الحياة برفع أقدامهم عن عنقها الضئيلة ووضع فتات موائدهم بين فكيها ، وإذا كنت مع هذا تتفاوى أحيانا بيدها القصيرة وتارة بلسانها الطويل فيزداد الهزء بها والضحك منها ، تكون في كل ذلك أشوه من أولئك المسخ الذين وصفناهم وأعجب شأنا .

* * *

نعوذ بالله ونلجأ إليه ونسأله العافية ، قد تبلى الأمم بأمراض تقطع بها أطرافها ، ثم تصاب بشلل فتصل الى مثل هذه الحالة أو قريب منها ، وهي غير شاغرة بما وصلت إليه ، إذ قد يحول الشلل بينها وبين السمع والبصر والحس بالآلام ولا يحول بينها وبين لسانها الطويل ويدها القصيرة فتبطش بهذه وتمس بذلك ما يزيد في ضعفها ، وفنون الشلل كثيرة وعجيبة .

نعوذ بالله ونلجأ اليه ونسأله العافية ، تحاربنا إيطاليا اليوم من خارج ، وتحاربنا الأمراض الاجتماعية من داخل ، فأما إيطاليا فقد وكلنا الأمر في الغائلة التي أتتنا بها الى الله سبحانه ، والى صنف من أولئك القادرين الذين عودونا أن يدفع بعضهم عنا كيد بعض ، وذلك لانه ليس لنا في البحر أسطول اذا ما لذّ في قرَن يستطيع مصاولة البزل القناعيس ، بل أسطولنا ابن لبون إذا ما سمع قاصفة من الرعد لم يجد من حلية إلا اللجوء الى جوار أمه (الأستانة) ، وليس لنا في البر من سبيل نرسل منه الجيوش لتجول الجولات الواجبة ، فمن أجل هذا عمت وطمت في طرابلس الغرب الخطوب وباتت الدواهي هناك بغير رقيب .

ومصيبتنا بالأمراض الاجتماعية على نحو من ذلك ، لأنها قد احتلت منـا الجوانح ، وحيل بيننا وبـين الواقيات منها حتى الآن . أمراض لو ذهبنا نعدّها لضاقت بها الصحيفة كما يضيق بها الصدر ، وماذا يعدُ أحدنا منها ؟ فإن الطرف كيفما التفت في هذا المجتمع يجد مرضاً أو عرضاً منها ، وسواء جال الطرف من الاعلى إلى الأنزل أو من الأنزل الى الأعلى يجد تلك المستحوذات في كل درجة درجة . اذهب إلى الفيافي والجبال مثلاً تجد فيها سكاناً هم بحسب العمران أنزل درجات أهل مجتمعنا ، تجـد هؤلاء الناس كثيري العدد يبلغ مجموعهم في الشام والعراق وديار بكـر وبلاد الأكراد والألبان بضعة ملايين لادأب لهم إلا التقطع فبعضهم يمزق بعضا ، وفريق منهم يبيد الآخرين ، وقد وقفوا في تلك الديار التي يتقلبون فيها سداً منيعاً دون العمران، حتى أصبحت لا مزدرع فيها ولا عرى متينة من عرى الاجتماع النافع ، ومن يمعن النظر اليوم يجد أن جل المعمور من بلاد الدولة هو القدر القليل القريب من سواحل البحور التي لها ثغور عليها ، فإذا خرجت من بيروت مثلاً ومشيت على قدمك يومين إلى الشرق تجـد عمرانا أما في اليوم الثالث فانك تفقد العمران في آخره إن لم تفقده في أوله ، وهكذا إذا خرجت من أكثر ثغور الشام ، ومعلوم من التاريخ أن هذه الفلوات الخالية التي بين الشام والعراق كانت آهلة بالعامرين ، مملوءة قصباتٍ وبلداناً ، ثم اذا ارتقيت من هذه الفلوات إلى القرى والمحارث فإن وجـع قلبك يزداد بما تراه من أحوال أولئك الفلاحين المساكين الذين لا عيش لأكثرهم من بعد كل ذلك العنـاء المتواصل إلا أشظف العيش، ولا لباس إلا أخشن اللباس ، ولا كلام يخاطبهم به سادتهم الجبـاة والمرابون بل السوقة إلا أقسى الكلام ، ولا تسل عن بيوتهم ومآويهم

فإنهـا أشبه شيء بالغيران بـل كثير منهم إنمـا يأوون الى الغيران نفسها ، فاذا ارتقيت الى القصبات والمدن الجامعة فستجد حينئذ شيئا من آثار العمران ولكنه مستعار ومستعان فيه ولا استقلال لأهـل القصبات في شيء منه ، بل تكـاد تجـد للأجانب يداً في كل صغيرة وكبيرة من مقومات هذا العمران • تذهب إلى حوانيت البزازين فتجد كـل ما فيها من عند الأجانب ، وتروح إلى الصيدليات فترى ما فيها من لدنهم ، وتغـدو الى الصباغين فتلفي جلّ موادهم من البلاد التي يحكمون عليها ، وتأتي الحداد فتعلم أن الحديد الذي عليـه مـدار وسائل العمران كلهـا من لدنهم أيضا ، وتجيء الى الحاكـة فتلقى أن الخيوط التي ينسجونها من صنعهم كذلك ، وتقف عند الخياطين فتجـد جميع أدواتهم من عملهم أيضا ، ولا أطيل عليك أيها القارىء فأنت تعرف ذلك مثلي لأنه من المحسوسات التي لا تنسى إذ هي ترى كل دقيقة ، ولكن قد ننسى أن ما عندنا من قليل العلوم والمعارف هم سببه أيضا ، فهذا أذكّر به من كان ناسيا ، وحسبه أن يتذكر أن الورق الذي هو محفظة العلوم والمعارف والواسطة العظمى لنقلها وتداولها هم يصنعونه لنا في هذا الزمان ، وناهيك بما جاءت به المطابع التي هم اخترعوها وهم يصنعونها أيضا من المساعدة على نشر العلوم والمعارف • واذا صعدت من هذه القصبات والمدن الصغيرة الى الحواضر والقواعد الكبيرة ألفيت العمران والثروة أوسع بشيء قليل ولكن هنـاك يضيق أملك إذ ترى عيوب الادارة والحكومة نابعة من أولئك الرؤوس الذين تظنهم شرفـاء ما كنت بعيداً عنهم حتى اذا ما اقتربت منهم قتلك نتن سيرتهم وعفونة غباوتهم ، تشكو إليهم فقد الأمن وخراب البلاد وشيوع اليأس في الناس وهو أعظم الادواء فتجدهم يشكون اليك العجز وأن

الذين فوقهم لا يلبون لهم طلبا ولا ينفذون لهم في سبيل العمران أرباً وتجدهم أكثر يأسا من سائر الناس ، واعجبي فكيف يرضون أن يكونوا ولاة مثلا وهم في الاغلال والاصفاد ؟ وليت شعري هل ذلك مؤذن أن يملأوا صناديقهم مما نهى الشرع والناموس عنه ؟ من ههنا ينبع الفساد المعهود في البلاد فانه لا هيبة لهؤلاء الرؤوس زاجرة ، ولا أخلاق للعامة رادعة ، ولا معارف الى الاعمال المريحة دافعة • فلولا شيء من لطف الله سبحانه لكانت الفوضى أطم ، والخطوب الداخلية أعم ، ولكن الله رؤوف بالعباد •

واذا بلغت العاصمة ودار السلطنة العظمى وجدت بلدا عظيما مترامي الاطراف ، ممتدا على الهضاب وفي البطاح ، مشرفا على البحر ، مطوقا بالرياض ، جميلا بهياً سنياً ، ولكنك اذا جست خلاله ، وعرفت حاله وآله ، فانك تسرع الى الاستعاذة بالله من الاهوال الظاهرة فيه والباطنة والعامة والخاصة ، ولا حول ولا قوة الا بالله • وأي شيء أصف لك من بلد أكثر بيوته ملفقة من الخشب وقد احترق نحو ثمنه قبل ثلاث سنين ، فلم يك داعيا الى انتباه أهله والحكومة التي فيه لتدارك آلات الاطفاء كما يجب وينبغي ، ثم احترق نحو ثمن آخر في الصيف الماضي أي قبل ثلاثة أشهر فلم يدعُ ذلك الى الانتباه أيضا ، اذ قد رأينا قبل يومين كيف التهم حريق جديد مائة بيت والاعين تنظر من غير أن يكون لوسائل الاطفاء باع في هذه الغائلة الجديدة ، وليس بالمستبعد أن تذهب الاستانة على هذا النحو ولا تتفكر حكومتها بما يجب وينبغي من وسائل الاطفاء ، ولا يبعد أن يكون أهل الادوار السالفة المحرومة من المخترعات الحديثة أقدر على دفع النار في كل مرة من أهل هذا الدور لانه لم يحدث التاريخ عن حريق كبير جدا الا مرة واحدة في المئات الماضية من الاعوام،

أما في هذا العهد فربع الاستانة أو أكثر قد أكلته النار في مرتين في أقل من ثلاثة أعوام ، واذا صح هذا الظن وهو صحيح فان حكومة هـذا البلد تكون مترقية ولكن الى وراء وبهذا الترقي المشاهد ربما تصبح الاستانة سوحا ورياضا طبيعية !

ومـا أحدثك عن بلـد أهله أوشاب من الناس لا عـرق بينهم مبين ، ولا سبب بينهم متين ، ومن أجل ذلك كانت الطامة تتبع الطامة من رجال الحكومة السابقة ، ولا تقوم أمام ذلك جماعة معترضة ، وان قامت جماعة واحدة خذلتها عشر جماعات ، وجاءت هذه الحكومـة التي يسمونها جديدة فدرجت درج أسلافها ودرج الناس معها درج أسلافهم ، فهي تسرف حيث تشاء وكيف تشاء ، وتقتر حيث تشاء وكيف تشاء ، وتوظف من غير الاكفاء من تشاء الى ما تشاء ، والافكار أمام ذلك واجمة ، واذا جمجمت بعض الاقلام بشيء من الاعتراض لقيت ما تكره •

ماذا أحدثك عن بلد يتمكن فيه مثل حقي باشا من المكث في الصدارة عامين ، ويظل المتعاقلون يعترضون على الذين ينكرون الاحوال وينذرون بالاهوال ، وما زال أولئك المتعاقلون يقولون لا شيء من الاهـوال بموجود حتى دوت مدافع الطليان في طرابلس الغرب فيومئذ صدقوا بأن حقي باشا ليس رجل الصدارة ولكن بعد ايش ؟ وليت شعري هل أحدث ذلك اعتبارا وأورث اختيارا ، كلا ثم كلا فلقد رأينا الغفلـة لا تزال ثابتة الاوتاد ، كثيرة الاولياء والاصحاب ، وقد يدهشني من بعد رؤية الغفلة التي في الاستانة أن لا أجد الناس خارج هذا البلد محاسبين ومنقبين ومتسائلين عن الذين استلموا الامور بعد حقي هل سياستهم تؤدي الى أمثل وأنفع من تلك ، أم ينتظر منها ما هو أعجب ؟

وبالله ماذا تنفع المبادرة الى تلك الضجة في الاطراف من قبل أن تعرف حقيقة الرأس ؟ وبالله ماذا تنفع الاعانات اذا سلمت غدا الى رجال من أمثال حقي باشا ؟ ومن يؤمنكم أن يكونوا أمثاله وعلى شاكلته ؟ ..

أنا لا أود أن تتقاعد الهمم عن جمع الاعانات أستغفر الله تعالى ، وانما أود أن تكون مع الهمم بجمع الاعانات همم بطلب الحساب ومعرفة طرقه ومساعدة رجاله ، والا فان المليون أو المليونين أو العشرة لا تعطي توفيقا للحكومة التي تأخذ تسعة ملايين ليرة لعسكريتها كل سنة ثم لا يكون لها في مثل طرابلس الغرب الا ما عرف مقداره من العسكر ، والمليون أو المليونين أو العشرة قد تجدي في مثل هذا الوقت ولكن من لنا بعد بمطاردة الجيوش المستحوذة في البلاد من الفقر والجهل وتفكك الروابط ، وما دامت هذه الجيوش المعنوية مستحوذة فان البلاد كلها مهددة لا طرابلس الغرب وحدها ، فمن كان محبا أن يعيننا فليكن معينا بعقول نفقه بها كيف نسير بين الامم فقد أصبحت حياتنا بينها عجيبة وسأزيدكم في هذا بيانا .



اليوم وبعد اليوم (*)

— ٣ —

(الذين يمرضهم التمويه تشفيهم الحقائق)

اليوم ما نحن بيائسين ، وما نحن لايطاليا بمستكينين ، ولسنا عن حقنا بقاعدين ، ولسنا في التعاون بوانين ، بل الحمـاس في كل قطر يدوي ، والرجال من كل فج تتهيأ ، والاموال في كل بلد تجمع ، والارواح في كل جهة قد ارتأت اذا لم تخلص هذه الحياة من العار أن تؤثر الموت في حومة الوغى ، وسيقف جمهور منا أمام الطاغين الباغين حتى نوردهم موارد الخذلان ، ونسقيهم مرارة عقبى البغي ، أو نكون في سبيل الحق فدى ، ولن يذهب شهداء الحق سدى •

هذا الذي نقوله صحيح وليس هو من قبيل تمويهات المموهين التي سنأتي عليها فنزهق روحها ان شاء الله تعالى • ولكن :

لا ينبغي أن تغرنا هذه المظاهر الجميلة ولا ينبغي أن نحسبها وحدها من العافية الكافية لاجتياز هذه العقبات ، واطفاء هذه الجمرات الحائقات، فان هذه المظاهر يوشك أن تكون شيئا من بقايا حب الشرف الـذي لا يزال كامنا مع حياتنا في صحتها ومرضها ، وماذا يصنع المحب المدنف اذا خانته الاسباب والوسائل ؟

---

* جريدة (الحضارة) ٨٢/٢ (٣ تشرين الثاني ١٩١١) .

اسمعوا بامعان واعلموا أنّا انما ندعو الى الرجاء لا الى اليأس ، ولكنا ندعو مع الرجاء الى أشياء أخرى لا يكفي الرجاء وحده بدونها وهي : التذكر وحسن التفكر ، والاحتراز من المغرورين ، والنظر في الوسائل ، والالتفات الى المقدمات ، والاعتبار بالامثال ، ووزن الامور وحساب معاييرها ، ووضع كل شيء في محله ، وتهيئة النفوس لانكار ما جاء في غير موضعه .

انظروا وأمعنوا ، ها قد وقعت واقعة من الواقعات لم يراع فيها ما يسمى حقوق الدول ، ولم يصح فيها ما يلغط به بعضهم من شيـوع روح السلام ، فاعتبروا بهذا وتذكروا بعده ان كنتم نسيتم أن الجدال لا يزول ، وأن غريزة الطموح لا تحول ، وأنه لا سلامة الا بالقوة ، وأن من لا قوة له لا حق له ، ومن لا سلاح لهم فما لهم من سلام .

اذا تذكرتم هذا فلا تنسوا أن للقوة آفات وأدواء ، وأنها أمر نسبي ، وأن المرء قد يكون قويا في حد ذاته بالنسبة الى شخص مثله أو شخصين أو ثلاثة ولا يكون قويا بالنسبة الى أربعة فأكثر ، وقد يكون غير قوي في حد ذاته بالنسبة الى شخص واحد مثله ، ثم انظروا بعد هذا ما هي قوتنا في حد ذاتها ، وما هي آفاتها ، وما هي بالنسبة الى من هم أمامنا ، ومن نحن ومن هم الذين أمامنا .

هذه مباحث جديرة بالتفصيل ولا سيما في هذا العهد الذي كثر فيه التمويه وأصبحت البقية الباقية من القوة على خطر من كثرة تلاعب المضللين ، فمن أجل ذلك سنبين في هذا المقال من نحن وما هي قوتنا وآفاتها ونسبتها ليعلم الباحثون منا كيف السُرَى وأين المبيت ، فان من لا يعرف ذلك ينقطع في الطريق ولا يجد راثياً .

من نحن في هذا المقام :

كانت هذه البلاد قبل « خط كلخانة » تعتبر كأنها للترك وحـدهم

أو للمسلمين وحدهم ، أما بعد ذلك الخط فقد أطلق لفظ « العثماني » على المسلم والنصراني واليهودي والتركي والعربي وسائر الاجناس ، وبعد الانقلاب الاخير واعلان القانون الاساسي والعمل به قضت الحال أن يزيد هذا المعنى قوة ويصبح الوطن واحدا للجميع على السواء لا تمايز في ذلك بين الاجناس وذوي الاديان . وهكذا قضت الحال ، ولكن هل صار الامر كذلك ؟ قد يدعي بعض الناس أن الامر صار كذلك ، وكثيرون يدعون أن الحكومة لا تزال تركية وهي اسلامية أيضا لان الترك مسلمون ، ويستشهدون لذلك بأن الجرائد التركية في كل مرة تحرك سلاسل الدين وتقلدها بعض الجرائد العربية ولا سيما في مصر ، حتى صرنا نسمع نغمة واحدة تومىء الى أن غير المسلمين كأنهم غرباء عن هذه الشدائد الحائقة بالوطن . ونحن لا نسلم أن هذا لسان حال المسلمين العثمانيين ، فانا لو سلمناه لسجّل علينا عدم الثبات في أمر الاخاء الوطني، ولذلك رأينا حاجة الى التفسير وازالة سوء التفاهم مع اعتراضنا على كل أسلوب جارح فنقول : من الضروري أن يتذكر أبناء وطننا العثماني من سائر الملل أن لهم شركاء فيه وهم المسلمون المتعلقون بالخلافة المسجلة في القانون الاساسي ، فالوطن العثماني هو وطن سياسي للعثمانيين مسلميهم وغير مسلميهم ، وهو وطن ديني للمسلمين عثمانييهم وغير عثمانييهم ، فكلمة « نحن » في هذا المقام اذا قالها المسلم كان مقصوده التعبير بها عن المسلمين والعثمانيين عثمانيا كان هو أم غير عثماني ، واذا قالها العثماني كان مقصوده التعبير بها عن المسلمين والعثمانيين مسلما كان هو أم غير مسلم ، وبهذا يندفع سوء التفاهم وتقوى علاقة غير المسلمين بهذا الوطن العثماني ،

ولا ينبغي ان ننسى البتة ان الجيش العثماني أصبح مؤلفا من المسلمين وغير المسلمين ، كما أن هيئة التقنين في هذا الوطن مركبة أيضا منهمومن غيرهم ، وهيئة النظار هكذا أيضا .

وبما تقدم من هذا الشرح والتفسير يصح أن يفهم القارىء بغاية السهولة أن ليس غيرنا في هذا المقام كل من كان غير مسلم بل كل من كان غير عثماني ، ومثله كل من كان متباعدا من المسلمين عن الارتباط معنا حقّ الارتباط فان أولئك ينبغي أن لا نموه بذكرهم في عدادنا .

ما هي قوتنا في حـد ذاتها :

ان قوتنا في حد ذاتها ليست بالكبيرة التي تـُخاف ، ولا بالصغـيرة التي تـُعاف ، وذلك أن القوة انما تكون بالكثرة ومساعـدة المحيط الجغرافي ووجود الروابط القوية الجامعة ، وكل هذا متوسط لدينا . وذلك أن المسلمين الذين يؤمل أن يكونوا عونا بالفعل لدولة الخلافة لا يبلغون في الحقيقة أكثر من خمسين مليونا ، وأما سائر المسلمـين المتعلقين بالخلافة فانما يعدون مع العثمانيين بالاحساسات فقط ، وقد يقال ان هذه الاحساسات تنفع فيما اذا صارت الحرب دينية ولكن هل تصير حروب دينية ؟ وهل نستفيد منها كما يخطر ببال بعض المتهورين ، وهل يجد جميع المسلمين سبيلا للاشتراك في هذه الحرب ؟ كلا فانهم ليس لهم من أساطيل ، وليس لاكثرهم من مدافع ، وليس لجمهورهم من بواخر تقل ساذجة .

نعم ان بلاد المسلمين متصل بعضها ببعض ولكن مع هذا الاتصال الشديد يوجد بينها فواصل طبيعية أيضا ، هي هذه المفاوز الكبيرة التي لا يقطع الراحل واحدة منها حتى يجد نفسه في اقليم آخر ، فبينا هو

عند أهل العرق الاسود مثلا اذا هو عند أهل العرق الابيض ، وبينما هو عند البيض اذا هو عند أهل العرق الاصفر ، في حين أنه لم يقطع بين هذه الاقاليم بحورا ولم يقض بينها أعواما أو شهورا ، ولا يستهين بهذه الفواصل أحد ممن يعرفون ولو قليلا من سير الحروب وأخبار الماضين والحاضرين ، أما المستهينون بها فهم المتهورون الذين يجهلونها ثم يجهلون الصعوبات في قطع أمثالها • على أننا اذا فرضنا عدم هذه الفواصل أو عدم الصعوبة فيها فينبغي أن لا ننسى قلة الاسلحة الجديدة عند أهل هذا المحيط الممتد • وهذا كله مع صرف النظر عن قلة عديد كل أهل هذا المحيط الكبير بالنسبة الى عديد المحيط المفروض أنه يحارب حربا دينية ، وبهذه الاشارات تعلم أيها القارىء أن محيطنا الجغرافي بالنسبة الى عددنا وعُددنا لا يعد مساعدا مساعدة عظيمة ، ومن أقرب الشواهد وأبسطها حادثة « طرابلس الغرب » : فقد رأى العالم كله حالتنا الحاضرة فيها وحسبك منها أننا لم نجد سبيلا لسوق ما ينبغي سوقه من المدد ، وبديهي أن المقدار الموجود هناك من الجنود قليل بالنسبة الى الجيوش التي تتمكن ايطاليا من سوقها ، فليس الاعتماد اليوم الا على حماسة العرب المقيمين في ذلك الاقليم ، ونرجو أن تظهر هذه الحادثة أن السر الذي سار به العرب الاولون لا يزال ساريا ، والمشرب الذي جروا عليه ما برح جاريا ، وما ذلك بعزيز على بارىء الاسباب ، ومحول الاحوال ، ومقلب القلوب والابصار ، هو قادر أن يحمس الهمم من حيث لا نعلم فتحيي الهمم الروابط المنسية ، وتقيم الاواصر المحنية ، ويصبح من في طرابلس وبنغازي كثيرين باخوانهم ، قويين بأوليائهم •

آفات قوتنا :

قلنا ان قوتنا في حد ذاتها ليست بالكبيرة التي تخاف ، والا لما كنا عرضة للطامعين من كل صوب وليست بالصغيرة التي تعاف ، والا لتقطعت كل حبال آمالنا ، ونقول الآن ان لقوتنا الموجودة ـ كيف كان شكلها ومقدارها ـ آفات ، وأعظمها سوء الاستعمال وتوسيد الامور الى غير أهلها ، وأكثر المصائب الحائقة انما هي من هذا الباب لا من قلة القوة . وما ظنك بقوة لا يفتأ أهلها بسبب توسيد الامور الى غير ذويها مضطرين الى استعمال بأسهم وقوتهم فيما بينهم طول الدهر .

كنا على عهد عبد الحميد نرى عيوب الحكومة ونعرفها واحدا واحدا، وكنا اذا تقصينا آثارها نجدها كلها نابعة من الاستانة ، وكانت تتراءى لنا نابعة من يلديز وحدها، لان رب ذلك القصر كان قد استأثر لنفسه بالوضع والرفع في كل شيء ، فكنا بالجملة نحصر جميع السيئات في ذلك الرجل المستبد ، وكنا نظن أنه اذا زال زالت معه ، فها هو ذا قد زال ولم تزل تلك السيئات من توسيد الامور الى غير أهلها حتى صرنا نظن أن هذا المرض أصبح في هذا الوطن المسكين مزمنا .

أصبح النظار بعد الانقلاب هم المسئولين ، وقد علم الناس من هو حقي باشا الذي كان رئيس النظار عامين ، وعلموا ما حدث في عهده من فتنة بلاد الارناؤوط مرتين وبلاد اليمن وعسير والحجاز وكرك وحوران، وما كان من تعدد الحرائق الهائلات ، وما كان من اغبرار انكلترة وفرنسة منا وما نشأ عن ذلك من حادثة القرض التي خسرنا بها ماديا وأدبيا وسياسيا . وعلموا أمر طرابلس الغرب وما صارت اليه المملكة في هذين العامين من زيادة التأخر في الاقتصاد والادارة والآداب والاخلاق والروابط .

ليس غرضنا ههنا أن نتكلم شيئا في هذا الرجل لان قراءنا يعهدون منا الابتعاد عن التكلم في الاشخاص ، وانما غرضنا أن نفهم قراءنا الاعزاء أن حقي باشا الذي عرفوا أخيرا حقيقته لا يزال له أمثال كثيرون في هذه المدينة مرشحون لاستلام قوتنا ، فانظروا بعد ذلك كم آفة تتهدد هذه القوة .

يسرنا ما نراه اليوم من تبادر الناس الى جمع الاعانات ، ونحن نستزيدهم منها ، ولكن كلما سمعنا في هذا الباب روايةً عن حماسة بلد من البلاد تقول في نفسنا أواه الى أي الايدي ستسلم هذه الاموال؟ وماذا تجدي اذا سلمت الى الايدي التي نعرفها ؟ بالله تناشدوا وتساءلوا اليوم قبل أن لا ينفع التناشد والتساؤل غدا ، وبالله لا تنسوا آفات قوتنا فان من نسي داءه وأهمله قتله .

نسبة قوتنا :

ولا ينبغي أن ننسى أو نتناسى أن قوتنا التي وصفناها على علاتها لا تكافيء جميع قوى الغرب اذا بات الغرب متحدا في مضادتنا كما يريد تصويره أكثر المشتغلين بالصحافة السياسية ، وان كان كثير منهم لا يفطنون بالدين الا حين يؤزّ البلاد شيء من الشدائد ، ويهزها شيء من العواصف .

على أنّا لسنا ممن يعدون اتحاد الغرب في مضادتنا من المستحيلات وانما نعد ادعاء وجوده الآن وسيلةً من وسائل التهويل ، وآلةً من آلات التمويه ، ونعد ذلك ضارا غير نافع لانه اما أن يحدث يأسا يزيد في تلبك المدارك ، ولا نستفيد اذا حقت حاقة ذلك الاتحاد ووقعت واقعته

مما تتصوره ونلهج به مما هو أشبه بخدع النفس أو التمويه على العامة لما فصلناه من الحساب باباً باباً ، والبيان مقاماً مقاماً ، والله نسأل أن لا يحرمنا سداد الرأي الذي ينفعنا اليوم وبعد اليوم فان :

الرأي قبـل شجاعـة الشجعان

هو أول وهي المحـل الثـاني



«الحــرب مع ايطاليــا وحدهــا»

* *

«لا تجعلوا الخصم الواحــد خصوما»

* *

«أمعنوا النظر في الحــاضر والآتي»

* *

«ألفوا الجماعات واعقدوا المؤتمرات»

* *

«الرأي،الرأي،هوقبل شجاعة الشجعان»



اليوم وبعد اليوم (*)

— ٤ —

(الذين يمرضهم التمويه تشفيهم الحقائق)

في حومة الوغى لنا اليوم أبطال من العرب يبذلون الجهد في الذود عن الوطن العزيز ، ويكذبون بهذه الهمم ما كان يظنه بعضهم من تلاشي نشاط هذا العنصر الكريم ، ولم يؤخر الطليان عن بلوغ غايتهم حتى الآن الا تلك الهمم ، ولن ينالوا ان شاء تعالى في تلك البلاد أرباً ما دام لها من أهليها واخوانهم الآخرين أسود تقمع العدى وثباتهم ، ويرضي الحق والعالم اقدامهم وثباتهم .

أولئك الاسود هم الذين بيضوا وجوهنا ووسعوا ثغرة رجائنا ،

---

* جريدة (الحضارة) ٨٣/٢ (١٠ تشرين الثاني ١٩١١) .

ولوأردنا أن نشكرهم لما كفتنا الاعوام بترديد مناقب شجاعتهم وصبرهم في هذا الدفاع الشريف الذي على مثله تتوقف حياة الوطن ، ولكن هل هذه الهمم وحدها تكفي لحل مسألة طرابلس الغرب الحاضرة ؟ لستُ أدري تصورات جميع العقلاء والمفكرين وانما أعرف أن جمهورا كبيرا منهم هنا لا يرون هذه الكارثة مندفعةً بهذه الهمم وحدها ، فان كل ما نفرضه لنفسنا من عزة النفس وحب الشرف يفرض الخصم مثله أو أكثر لنفسه ، ويأبى العقل السليم أن يتصور أن دولة تعدّ من الدول العظمى تقدم على حرب دولة مثلها بنية أن تعدل عن الحرب البتة متى دحرت في موقع واحد .

الحرب انما هو من أجل طرابلس الغرب ولكن ليس هو بين ايطاليا وأهل طرابلس الغرب بل هو بين ايطاليا والدولة العثمانية ،وليس موقع الحرب في الحقيقة طرابلس وحدها بل موقعه كل بلاد الدولتين ، ومعلوم أن للدولة العثمانية سواحل كثيرة وقليلا من الجزر في الارخبيل وأسطولها معلوم الحال ، فايطاليا ان كانت قد سكتت حتى الآن عن استعمال قوتها البحرية في غير طرابلس فذلك لأن بعض الدول نهتها عن ذلك وهي أصغت الى هذا النهي لانها كانت تظن أنها تصل الى مطلوبها في طرابلس الغرب من دون أن تحتاج الى التضييق على جهات أخرى من العثمانية ، فأما اذا رأت نفسها محتاجة الى شيء من التضييق على جهات أخرى فما نظن أن تلك الدولة التي نهتها تصل في نهيها الى تأييد القول بالفعل ، على أننا لم نعلم حتى الآن ما هو الذي سيسلّم طرابلس وجميع تلك السواحل من شر القنابل التي تحملها سفن أولئك المعتدين ، ولم نعلم كم هو مقدار صبر دولتنا اذا أغضت الدول الطرف عن العدوّ ومكنته من الجزر والسواحل لا سمح الله تعالى .

ويظهر للقارىء بالبداهة أن سلامة سواحلنا اليوم من شر أساطيل العدو انما هي منوطة بما تعطيه الدول في هذا الشأن من الامر والنهي، ومن هذا ينبغي أن يفهم كل عثماني ثم كل مسلم أن الحرب اليوم مع إيطاليا وحدها ، وأنه لولا ذلك لكان الخطب أعظم مما تتصوره ويتصوره المتصورون ، وأننا إنما تمكنّا من هذه المقاومة بسماح من بعض من تجمع القرابة الدينية بينهم وبين خصومنا ، وأننا لولا مخترعاتهم وشيء من مساعداتهم لـمّا أخذنا خبراً واحداً عما يجري هناك لا في الانتصار ولا في التبار والعياذ بالله تعالى .

هذا كله نقوله ونعيد القول فيه بقصد التذكير لكي لايجرنا الطيش الى جعل العدو الواحد أعداء متعددين ، فإن من البديهي أن ليس هذا في شيء من مصلحتنا ، ومن خرَق الرأي أن نجمد على تصور أن المنافع الاقتصادية المضمونة للقوم في حال السلم تفوتهم إذا أرادوا أن يجربوا التضييق علينا ، ومن أعظم الخرَق نسياننا أن أسلحتنا والأموال التي تحتاج إليها دولتنا في السلم فضلا عن أيام الحرب إنما هي من عند أولئك الذين يصورهم بعض كتابنا خصوماً كأنما لا فرق بينهم وبين ايطاليا المعتدية ، وكأنما لم تكتب جرائدهم شيئاً في استهجان ما تصنعه إيطاليا في هذه الحرب ، وكأننا لا نرجو منهم شيئاً من المساعدات السياسية في دفع هذا الخطب ، وكأننا لا نبالي بتلك الوحدة التي يفرضونها واقعة نعني وحدتهم في المعاداة لنا والهجوم علينا وارادة محونا .

نحن لا نرتاب في حسن نيات إخواننا الكتاب الذين التزموا أسلوب التحميس وحده واستباحوا فيه أن يجعلوا غير المجرم إلينا من أوربا مع المجرم ، ولكننا نرى طريقتهم هذه بعيدة عن الصواب وعن العمل

الجد للأمة ، فإن من المعلوم أن دول أوربا قد أصبحت قوية قوة محسوسة مدهشة ، ونحن معاشر المسلمين ولا أقول العثمانيين فقط قد أصبحنا كما يعلمه كل واحد منا ، فالحماسة والشجاعة مطلوبتان لنا على كل حال ولكن الأسد اذا تكاثرت عليه الأقران أو اذا كان مريضاً وعدا عليه غيره تكون حاجته الى فتق الحيلة أكثر من حاجته الى قوة نفسه ، لأن قوة نفسه أمام قوة المتكاثرين أو في حين مرضه لا تغنيه مهما تحمس وتشجع ، وغاية ما تصنعه هذه القوة أن استعمالها يدفع عنه وصمة الرضاء بالذل ويضع عليه حيلة الرضاء بالموت في سبيل شرف النفس إلا أن يكون هناك إمكان لاستعمال الرأي والحيلة مكان المخاطرة ، فإن الإقدام على الموت حينئذ لا يعدّ من باب الموت للشرف بل من باب الموت خرَقاً وانتحاراً ، اذ بديهي أن الشرف إنما يتجلى في المحافظة على الحياة والبقاء أكثر من تجليه في الهرب به الى الموت • وليت شعري كيف يصح أن نسمي أوربا جميعها مجرمةً إلينا في حين أن دولها كلها هي التي اتفقت على وجوب بقاء هذه الدولة العثمانية ، ولو أنها اتفقت على عكس ذلك لكان هذا البقاء مشكوكاً فيه ، فهل هذا هو إجرام أوربا ؟ ومعلوم أن القوة اليوم إنما هي بالأسلحة الحديثة والآلات لا بكثرة الرجال فقط ، وقد قلنا آنفا إن الاسلحة الحديثة التي لم نخترعها نحن ولا نصنعها نحن إنما نأخذها ونشتريها من أوروبا ، فهل تسليحها إيانا هو إجرامها إلينا ؟ كلا ليست الاسلحة الحديثة وحدها هي التي نشتري من أوربا بل كل شيء من لوازم جيشنا حتى ألبسة العسكر من قلانس رؤوسهم الى أحذية أقدامهم ، وحتى الخيل وكل ما يلزمها من أزمّة وأعنّة وسروج ، فإن كانت قد أصبحت حاجتنا إليهم في كل هذه الاشياء حقيقة فهل

إجرامهم أنهم لا يمنعون عنا أسباب قوتنا ؟ وإن كانت غير حقيقية فعلى من الذنب في توسيع الاحتياج إلى أوربا حتى في اللوازم البسيطة جداً ، هل هذا الذنب على أوربا أيضا ؟ ومن أعظم وسائط الحرب اليوم سرعة نقل الجيوش ، وهذا إنما يتيسر بالسكك الحديدية ، وأوربا هي التي صنعت لنا السكك التي في بلادنا ، فهل هذا هو إجرامها إلينا ؟ ونحن نعرف من التاريخ أن بلادنا العثمانية قبل سنة قد وصلت الى أسفل دركات الانحطاط والخراب من ذلك العمران الزاهر الذي خلقه الأسلاف رضوان الله تعالى عليهم ، ولعل سائر البلاد الاسلامية حلَّ فيها شيء من هذا التسفل في ذلك التاريخ الذي ذكرناه ، أما اليوم ففيها بالنسبة الى تلك الحال شيء من العمران ، وأكثر الناس يعرفون أن هذا إنما جاء على يد أوربا ، فهل هذا هو إجرامها إلينا ؟ ومن مظاهر رقي الأمة انتشار المعارف التي تسمى حديثة في اصطلاح العصريين ولا سيما المعارف والفنون الحربية ، ومن ذلك انتشار الافكار بواسطة المدارس والصحافة وتقدم الصحافة والطباعة ، وكل ذلك مقتبس من أوربا ، فهل هذا هو إجرامها الينا ؟ ومما اشتهرت به أوربا التعصُّب ، ولعل هذا هو الذي تلومهم عليه في حين أنه أصبح معروفاً أن هذا من مقومات الأمم ، وقد قام الذين يعرفون هذا من مفكري الأمة يدعون الناس إليه وما نحن بلائمين أحدا عليه اذا سلك فيه المحجة الواضحة وأقام الحجة المقبولة ، ولكن أكثر الداعين إليه قد حفظوا شيئا ونسوا اشياء ، حفظوا أن التعصب من مقومات الأمم ونسوا أننا كنا قد نسينا هذا ثم تعلمناه حديثاً من أوربا ، ودليل نسيانهم أنهم يحسّنون صدور هذا التعصب منا ويقبحونه من أوربا ، وما أكثر نسيان بني آدم وحواء ، ونسوا أن التعصب يكون حسنا ويكون قبيحاً

باعتبار ما يرافقه من الحكمة والرأي وسلامة النية ، أو الحمق والخرق والحقد على البعيد لانه بعيد فقط ، فالدعوة الى التعصب من غير تفريق وتقييد إنما هي دعوة الى الانتحار لأن الهمجية واستيلاء الاجنبي قد أصبحا في هذا العهد متلازمين .

لوموا أوربا ولكن بعقل وحجج صحيحة ، فإنكم لا تجدون لائما لكم على هذا ، وأما اذا لمنا أوربا لوم الحاسد الحاقد الذي لا ينظر الى مواضع الكلم وما تتركه من الآثار فإن هذا اللوم يكون خالياً من النفع وقد يكون غير خال من الضرر .

تعصبوا للحق بالحق فإنكم لا تجدون حجة عليكم ، ولكن لاتظنوا أن التعصب هو ما اشتهر وعرفه الجمور ، كلا بل التعصب هو تقوية الروابط ، وهذا لا يكون بالتسلي بالكلام بل يحتاج هذا الى علم قائم برأسه ، ويحتاج إلى أعلام كبار مخلصين يديرونه ويعرفون كيف يجعلون المسلم غير العثماني أخا عاملاً لوطنه الديني ، وكيف يصير العثمانيان المسلم وغير المسلم أخوين متعاونين حق التعاون في وطنهما السياسي ؟ .

ومن أجل هذا وما تقدم كله أعيد تذكيري بأن الرأي قبل شجاعة الشجعان ، وأن الداء — على ما يظهر لنا — إنما هو من أنفسنا وليس من أوربا وحدها ، بل لو تركنا أولئك ونفسنا لكان فتك بعضنا ببعض غير نازل درجة عن فتك أقسى الأعداء ، ولكان عمراننا أشوه عمران . ولا نذهب في إيضاح هذا الى الماضي البعيد الذي يعرفه كل من شم التاريخ وشام الاخبار بل نكتفي بتذكير المخلصين بوقائع اليمن وآخرها واقعة جيزان ، وبوقائع الكرك التي ذبح فيها مئات من العربان بعد التسليم والاستئمان ، ونكتفي بتذكيرهم

بمـا وصلنا إليـه بسوء التدبير وتوسيد الأمور الى غير أهلها من الغرق في بحر الديون وبحر الاحتياج الى أوربـا حتى في الدقيق الذي تصنع منه أخبازنا ، والخيوط التي تخاط بهـا أثوابنا ، والمسمار التي تلفق بـه بيوتنا .

ما أنا من القائلين إن العالم الأوربي خال من العيوب وإنـه بريء من إرادة الكيد لنا ، أستغفر الله إن كان يذهب إلى هذا فكري ، بل أنا من المعترضين على القائلين بهذا أشد الاعتراض والذاهبين الى أن المقلدين لكل ما في أوربا والمستحسنين لكل ما فيها ما لهم من علم صحيح ولا عقل سليم ، صرّحت بهذا كثيراً وكتبته كثيرا وسأزيد القول فيه إن شاء الله تعالى ، ولكن قولي من قبل ومن بعد هو أنـه يجب أن نعرف نفسنا جيداً وأن نعالج أمراضنا ونلقي للنجاة سبيـلا من شرور أوربا وشرور أنفسنا ، وأنه يجب أن تتألف الجماعات للنظر في حاضرنا وآتينا ، وأن تعقد لأجل هذا المؤتمرات ، ورجـائي من إخواني الكتّاب رضي الله عنهم أن يمعنو النظر في هذا ، وسنعيـد فيـه إن شاء الله تعالى .

اليوم وبعد اليوم (*)

— ٥ —

(يقظة بعد نوم)

« الوطن العثماني وطن مقدس »

❋ ❋ ❋

« الوطن العثماني دار السلام »

❋ ❋ ❋

« الوطن العثماني دار الشعوب »

❋ ❋ ❋

« الوطن العثماني مهد هدىً في الماضي ، ومربع هدى للآتي »

❋ ❋ ❋

(الذين يمرضهم التمويه تشفيهم الحقائق)

أيها القراء الأعزاء :

سلام عليكم ورضوان الله تعالى . سنكتب لكم اليوم مقالاً جامعاً لم نكتب لكم من قبل مثله لان دواعي أمس غير دواعي اليوم ولكل مقام مقال .

مقدمة وجيزة

تفضلوا بإيداع هذه التذكرة الصغيرة في حافظتكم فإنها تنفع الآن في وعي هذا المقال جيداً ، وتنفع كلما تذكرها المتذكرون .

الذي يظهر لنا أن البارىء المصور سبحانه قد بنى هذه المظاهر

❋ جريدة (الحضارة) ٢/٨٤ (١٧ تشرين الثاني ١٩١١)

الوجودية على « التضاد » بالنسبة إلى حسّنا وعلمنا ، ولهذا نظن أن الشرور لا تزول من الدنيا كما أنه لا تزول منها الخيرات ، فهذه الدار التي تمر بها حياتنا كما يمر الطيف بنا هي دار خيرات وشرور دائماً ، ووظيفتنا فيها تمييز الخير من الشر ، واصطحاب الخير واجتناب الشر على حسب علمنا واجتهادنا ومقدار طاقتنا وقوتنا . ومن مقتضى « التضاد » أن تختلف علومنا واجتهاداتنا ومقادير طاقتنا وقوانا ، وأن تتنازع وتتجادل ، وأن تتقارب وتتباعد ، وأن يبقى ذلك دأبنا طول الدهر ، ولكن مبدع البشر من عنايته بهم ورحمته ورأفته وعطفه عليهم لم يهملهم من وسائل تخفيف الشرور بل أكرمهم ورحمهم وأمدهم بها ، فمن ذلك جعله أفكارهم قابلة للتحول وقبول النصح ، واصطفاؤه من البشر ناصحين أخياراً قد كمّلهم وجعلهم وسائط الخير ورسل الهدى وأيدهم بصنوف من التأييد منها انقياد جماهير العالم للثقة بأقوالهم واستماع كلمهم ورفع شأنها والجري على مقتضاها بحسب ما يبلغه اجتهادهم من فهمها ، فهؤلاء الرسل الكرام هدوا وأفادوا كثيراً ولا تزال آثار هدايتهم باقية يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها بحكم « التضاد » ، ومن أعظم تلك الآثار إيجاب التناصح وتعليم آداب التخالف وسنن التنازع وتحبيب الحق والتمرين على الصبر فيه ، واحتمال كل صعب حتى الموت في سبيله .

خلاصة هذه المقدمة الصغيرة أن التخالف لا يزول ولكن له آداب، والتنازع لا يبطل ولكن له سنن ، والحق تختلف فيه الأفكار ولكن التفاهم ممكن لأن الافكار قابلة للتحول وقبول النصح ، واذا تعذر التفاهم فكل حزب بصيرون في سبيل مايرونه الحق ، والحكيم هو الذي يبتعد عن تشديد اللوم في الامور التي كأنها طبيعية فلتحفظ هذه الخلاصة .

قد خلت من قبلنا أمم عمرت الارض وضربت في البر والبحر ، وطافت من الشرق الى الغرب وجرت كلها على سنن التنازع والتغالب ، فغلب بعضها بعضا وأقامت بعضها الممالك الكبيرة وأوجدت المدن العظيمة ، والمزارع الواسعة ، والمصانع المتنوعة ، ثم ما لبثت أن غلبتها أخرى وخلّفتها في مساكنها ، وأكلت موضعها ثمرات جهادها وتعبها ، فأين التبابعة وأين الأكاسرة ، وأين الخواقين والفغافرة وأين الفينيقيون والفلسطينيون والعمالقة ؟ أمم تنبت وأمم تبيد ، وأقوام تنقص وأقوام تزيد ، وربك يفعل ما يشاء ويحكم مايريد •

على مَ يتنازع البشر ؟ لعمرك ما سبب التنازع واحداً بل له أسباب متعددة ، ولكنها قد ترجع الى سبب واحد هو ما في فطرة البشر من حب التميز والاستئثار ، وكل الاسباب التي تنازع لأجلها البشر الأولون هي موجودة في يومنا هذا ومعها زيادة • فلأجل المراعي، وبسبب المزارع ، وفي سبيل المتاجر ، ولأجل أشخاص من الرجال ، وأشخاص من النساء ، ولاجل تأييد بعض الملل والنحل ، وتمشية بعض الفلسفات ، وقع التنازع من قبل ، ولأجل مثل هذه المذكورات يقع التنازع اليوم • وقد كان النزاع يقع فيما بين المتقاربين كما كان يقع بين المتباعدين وهكذا اليوم ، وكم ساعد فريق من المتقاربين أقواماً من البعداء عنهم على فريق من القرباء إليهم واليوم هكذا أيضا •

ملخص تاريخ البشر هو « حب التميز والاستئثار » وأعظم آثار هذه الغريزة الجهاد والتنازع على اختلاف أشكال الجهاد والتنازع ، إذ ليس كل هذه الاشكال طعناً وضرباً وفتكاً وقتلاً • والناصحون

الأخيـار خففوا شرور هذه المنازعات البشرية بما هذبـوا النفوس وربوها عليه من الأخذ بأسباب المودات والعطف على الضعفاء واجتناب أسباب البغي واطراح الغرور ، ولكنهم لم يخلصوا من المنازعات لانها طبيعية . وأعظم هؤلاء الناصحين هدياً وأبقاهم أثرا سيدنا محمد بن عبد الله الروح الطاهر العربي ، وسيدنا عيسى بن مريم الروح الطاهر العبراني ، ذانك هما اللذان كان ظهورهما آية من أعظم آيات المبدع المـادّ للأرواح ، والبارىء المصور بأسبابه السارية للأشباح ، ذانك هما اللذان كان مجيئهما للعالم جامعا للشعوب ، مهذبا للأقوام ، ذانك هما اللذان فتحـا للانسانية أبواب النمو ، وأيّدا لها أسباب الارتقاء والسمو ، عليهما صلوات الله وتحياته ما بقي الانسان ، ومـا تعاقب الزمـان .

نشـأ سيدنا عيسى في فلسطين ، ولم يكن للعبرانيين يومئذ ملوك منهم ، كانوا مستضعفين وفاقدي القوة وليس لهم إلا قضاة ورؤساء روحيـون من أنفسهم ، فلما جـاء الوقت لنشر حكمته التي جاء بها ، لم يرعه ما أمامه من عظمة الرؤساء الذين يقاومون كل جديد خشيـة أن ينافي تميزهم أو استئثارهم ، بل جهر بما جاء لأجله ، فأقام الرؤساء عليـه جهادا استعانوا فيه بالحاكم الروماني ، أما هو فكان من حكمته وجوب الصبر في سبيل الحق ، وأن الحق إنمـا ينتصر بصيرورة الجماهير من الناس إخوانا ، وأنهم إنما يصيرون إخوانا بانتشار كـل ما يدعو الى المودة والتراحم والتعاون والتسامح والتصافح ، على أنه كان يرى كل هذا أن السلام الذي أوصى بـه كثيراً لا تسري روحه من غير أن يصادف في طريقه سيفاً وحرباً ولذلك قال : « لا تظنوا

أني جئت لألقي سلاماً على الارض ما جئت لألقي سلاماً بل سيفا » (متّى اصحاح ١٠) وقال أيضا :

« جئت لألقي نارا على الارض ••• أتظنون انني جئت لأعطي سلاماً على الارض كلا أقول لكم بل أنقاما (لوقا اصحاح ١٢) • ومع كل ماكان ينشره من روح المسالمة وعدم المقاومة قد أوصى تلاميذه مرة بشراء السيوف وقال لهم : « حين أرسلتكم بلاكيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء ، فقالوا : لا ، فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا » (لوقا اصحاح ٢٢) • بل قد باشر هو بنفسه مجاهدة الذين انتهكوا حرمة الهيكل بالبيع والشراء فيه « فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل ، الغنم والبقر وكب دراهم الصيارف ، وقلب موائدهم ، وقال لباعة الحمام : ارفعوا هذه من ههنا » (يوحنا اصحاح ٢) • وأما فيه نهيه أحد تلاميذه عن استعمال السيف حين جاء الجموع ليمسكوه فذلك على ما نظن لان ثورة القليلين جدا على الكثيرين جدا فيها تهلكة ظاهرة محققة ، فكأن سيدنا المسيح عليه السلام إنما كان يقصد بما أوصى به من عدم مقابلة الشر بالشر أن يكون ذلك حيث يكون استعداد في المسيء للحياء اذا عفي عنه وأحسن إليه فينقلب أخا ومواليا بعد أن يكون عدواً ومناوئاً ، ولم يكن يقصد أن يسكت المرء عن الشر والباطل دائما ولذلك قال لرجل لطمه على خده (لماذا تضربني » (يوحنا اصحاح ١٨) ولم يعرض عليه الخد الثاني ليلطمه عليه •

قاوم المسيح أكثر الناس من قومه وما تبعه منهم إلا قليل ، وإنما هيأ الله لتصديقه شعوباً من غير قومه ، ولم يمض نصف قرن حتى

أخذ اسمه ينتشر في أوربا في مملكة الرومان الذين كانوا أعظم الامم في ذلك العصر ، ولكن انتشار اسمه والإيمان بأنه آية الله وكلمته وروحه لم يكن كافياً لانتشار تعاليمه الحقيقية على رأي فريق من المدققين ، فإنهم يقولون إن أوربا صارت بالتدريج مسيحية باعتبار أنها أجلّت اسم المسيح الجديد بالإجلال ، وأما صيرورتها مسيحية من جهة فَهم حقيقته وتعاليمه فهي محل بحث ونظر ، ولهم على هذا شواهد كثيرة من أظهرها الاختلافات الجوهرية التي قامت هناك أول الأمر في فهم حقيقة المسيح ، وعقدت لأجلها المجامع ، ثم الاختلافات التي قامت أخيراً بين البابوية والذين سموا أنفسهم مصلحين .

لكن مما لا خلاف فيه أن أوربا منذ انتشر فيها اسم المسيح انتشاراً عظيما خفّت فيها تلك الهمجية التي كانت عليها أيام كانت تؤلّه أصناماً كثيرة لا يُرضي بعضها على زعمهم إلا الفحش والفجور والقسوة والخلاعة ، وزادت فيها حرمة الانسان من حيث أنه إنسان ، ونمت فيها كثير من الاخلاق الطيبة وذلك بتأثير من كان يعظهم ويخطب فيهم من فضلاء الزهاد المنقطعين عن المزاحمات الدنيوية بيد أن ناشري المسيحية في أوربا لم يتعرضوا لتأسيس حكومة دنيوية لإقامة الحكم بين الناس وردع القوي الجائر على الضعيف الخائر واكتفوا بما كان ثمة من الحكومات ، وجعلوا جلّ سعيهم ومرمى جدهم وعملهم إدخال الايمان على نفوس الناس بحقيقة المسيح على النحو الذي فهموه، وقد لقوا من أجل هذه الغاية جهاداً بادىء بدء فصبروا عليه لقلتهم عملاً بالوصية المسيحية المشهورة أي عدم مقابلة الشر بالشر ، ولكن لما كثروا ودخلت الحكومات نفسها في ذلك الإيمان أصبح العمل بتلك الوصية غير مستطاع بالنسبة الى الجمهور لا بالنسبة الى الأفراد أي

أن الجمهور لم يستطع أن يحرّم القتال والحروب والانتقام مع أنـه تابع للمسيح الذي لم يرض أن يحب الانسان قريبه وحده بل قال « أحبـوا أعداءكم باركوا لاعنيكم » فتبين من كل ما تقـدم أن أوربا التي صارت مسيحية ظلت ذات سيف ، ولم تكتف بالكتاب المقدس ، وكـان ذلك قبل ظهـور الاسلام .

* * *

ظهر الاسلام على حين حلكة من ظلمات الظلم والفساد في العالم ، وكان ظهوره في الحجاز في محيط لم يكن مستضعفا ولا ناخاً تحت سيطرة أجنبي وانما كانت الكلمة فيه متفرقة ، والمرامي مبعثرة ، وكان بدء الاسلام التنديد بعبادة الاصنام التي كان عليها قوم ذلك الرسول الكريم سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فقاومه أولئك المولعون بمألوفهم ، ولكن لم تمض ثلاثة عشر عاما حتى كثر مشايعوه في مكـة نفسها وصار له مشايعون في غيرها ، فانتقل الى المدينة التي قد حدث له فيها أنصار ، وهناك تعاظم بنيان الاسلام ولم يمض عشر سنين بعد هذه الهجرة حتى أصبحت جزيرة العرب على كلمة واحدة « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » ، وحينئذ أصبحت هذه البلاد مستعـدة أن تخلص المظلومين وتغيث الملهوفين وتنشر أنوار العدل والانسانية والحق ، فقام خلفاء الرسول يرسلون من هذه البلاد وفود الاصلاح ، وقد فازوا بما توجهوا اليه .

لا أريد أن أكتب هنا مقالة دينية تشرح حقائق الـدين المسيحي وحقائق الدين الاسلامي ، كما أني لا أريد التصدي للمفاضلة بـين ما جاء به ذانك الأخَوان فان لهذا البحث مجالات ومجلات أخرى ،

وانما أريد أن أحوم حول ما نحن فيه الآن من الاحوال والاقـوال ، وأقدم بين يدي ذلك ملخص ما حدث فيما بين أهل هذين الدينين منذ ظهر التالي منهما .

دين الرسل كلهم واحد في الحقيقة ، وانما تختلف أشكال نشأة الاديان ، وفروع تعاليمها ، وسرعة نشرها ، ومنهاج إقامتها باختلاف الازمنة والامكنة والاشخاص ، ولذلك ترى الذين سلمت فهومهم من غوائل التقليد لا يفرقون بين أحد من رسل الحق .

يوجد فرق بين نشأة الدين المحمدي ونشأة الدين المسيحي ، كما يوجد فرق بين محيطيهما اللذين كانت فيهما نشأة كل واحد منهما . كلا الدينين قد ُوجدا أول ظهورهما ضعيفين كما هي العادة في سائر الاديان ، ولكن ضعف الدين المحمدي لم يطل وضعف الدين المسيحي طال ، ومن ههنا قال قوم إن الدين المحمدي قام بالسيف والدين المسيحي قام بالدعوة وحدها ، وغرضهم أن ينفوا عن المحمدية المزايا التي من شأنها أن تميل اليها القلوب ويحصروا هذه المزايا بذلك الدين . لقـد غلطوا كثيرا فان الذي دعا الى هذا الدين هو انسان واحد كما أن الذي دعا الى ذلك هو انسان واحد أيضا فلينظر العاقل كيف يكون سيف الواحد هو السبب في غلبته على المخالفين وهم لا يحصون ؟ كلا بل المزايا هي التي جذبت الى المحمدية قلوب كثيرين في برهة قليلة ومنهم الانصار أهل يثرب ، أما الحروب التي أقيمت بعد الهجرة فيما بين العرب فكلها انما كانت لدفع الشر الظاهر المبدوء به أو الكامن الذي لا يُؤمَن ولا تطمئن القلوب مع تركه .

نعم هكذا كانت الحروب التي أقيمت في قلب جزيرة العرب بعـد الهجرة ، وأما الحروب التي وقعت بعد ذلك في غير بلاد العرب عـلى

عهد الخلفاء فانها كانت لإقامة القسط بين الناس ، ولذلك كان يجوز في نظر أولئك الناهضين بها أن يبقى الناس على مللهم ونحلهم اذا رضوا بأن تكون الحكومة للاسلام • ومن الأدلة على أن المقصود باقامة تلك الحكومة اقامة القسط بين الناس شدة زهد الخلفاء بفضول الدنيا وزخارفها وشدة زجرهم لقواد جيوشهم وولاتهم وعمالهم عن كل مظلمة تقع منهم ولا سيما اذا وقعت على من دخل في ذمة الحكومة وعهدها من غير المسلمين •

فالشيء الذي ينكره المسلم كل الانكار هو أن يكون المسلمون قد استعملوا السيف للإكراه على قبول الاسلام ، والشيء الذي لا ينكره هو استعمال السيف لإقامة حكومة اسلامية •

إقامة الحكومة شيء ونشر دين بالسيف شيء آخر ، وقصارى ما يمكن أن يقال ان اقامة الحكومة الاسلامية سريعاً ساعد على سرعة انتشار الاسلام ، أما المسيحية فانها قبل أن تأخذ بيدها حكومة ذلك القيصر ظلت ثلاثة قرون تحت طي الخفاء هي وأهلها ، وكان جزاء كل من يظهرها الفتك المبين ، حتى بدا لقسطنطين أن يتخذ سياسة جديدة يضم بها اليه المسيحيين فأظهر المسيحية ولكن كان ذلك بثمن باهظ بالنسبة اليها ، وهو أنه أخرجها عن كونها دين المساكين الذين نهاهم المسيح أن يكنزوا ذهبا على الارض وأمرهم أن يحبوا أعداءهم ويباركوا لاعنيهم ، وها قد دخل فيها الملوك الذين يتخذون من الذهب كنوزا ويصنعون لأنفسهم منه تماثيل ، ولا مورد عندهم لأعدائهم وكل من خالف ذوقهم ولو مخالفة بسيطة الا السيف •

لا نستطيع تعيين ما هي المسيحية التي كانت قبل زمان هذا القيصر، وجلّ ما نعلمه أن أعظم من تصدى لنشرها في أوربا بادىء بدء هو

« بولس » الذي لم يكن قد رأى المسيح ولا سمع منه ، وكانت التعاليم سرية ورمزية . أما المسيحية بعد زمان هذا القيصر فالمعرفة بها قد أصبحت سهلة بالنسبة الينا لأن التاريخ الذي تناول شرحها في هذا الوقت هو أقرب متناولا ، وذلك أن قسطنطين ارتأى أن يعقد مجمعا لتعيين الاعتقاد بالمسيح ووضع نظام للكنيسة ، وعقد هذا المجمع في « نيقية » وكانت نتيجة هذا المجمع إعلان ألوهية المسيح وخالف في ذلك بعضهم ولكن لم يكن جزاء المخالف الا الموت ، وفي هذا المجمع أحرقت أناجيل كثيرة كانت تحكي سيرة المسيح ولم يقبل من الاناجيل الا أربعة. وبالجملة كانت في قرارات هذا المجمع قرة عين لقسطنطين ولذلك جعل أكبر همه ملاشاة الذين خالفوا ، ولم يكن يُروي غليله منهم الا ما يقطره السيف . وعلى سنته سار مَن بعده وعقدت مجامع كثيرة بعد ذلك على رجاء أن يرجع المخالفون ، مع أن المخالفين لم يكونوا مسيحيين ، ولم يكن الذي رفضوه الا ألوهية الانسان .

فلست أدري ما يقول الذين يعرفون كم أريق من الدماء في الانتصار لهذه المسيحية التي أوضحت على يد المجامع ، هل يقولون إن هذه التي وقع الخلاف من أجلها في المجامع وأصبح أهلها الملوك وأصحاب الذهب وأصبحت تعلّم وتتلى تحت المصابيح الذهبية هي عين تلك التي لم يكن أهلها المساكين متباغضين اذ كانت تعلّم وتتلى في الخلوات ؟ وان أدري ما يقول الذين يعرفون تاريخ أولئك المخالفين هل قللهم تحول الفكر أم قللهم السيف ؟ وإن أدري ما يقول الذين يعرفون انتصار النصرانية بأولئك الملوك ما الفرق عندهم يا ترى بين انتصار جاء متأخرا بحكومة كانت قائمة من قبل وبين انتصار جاء سريعا بحكومة أقامها أهل الدين بأنفسهم لأنفسهم ولغيرهم أفيظلون قائلين إن أحد الدينين قام بسيف

والآخر بغير سيف ؟ كلا لعمرك ، بل ليس الفرق في توسط السيف الا أن أحدهما أتيح له سيف غريب ولكن كان ثمنه على ما يعرف العارفون والباحثون باهظاً والآخر كان له سيف من أهله ولم يكلفه ثمناً .

* * *

سيعرف قولي هذا فريق وينكره آخرون ، ولكن ماذا يصنع المنكر أمام التاريخ المعروف ؟

إن الإسلام جاء والسيف مُصلَت قد سلّه الرومانيون المسيحيون على المصريين المسيحيين والسوريين المسيحيين ، وقد اتخذوهم بذلك السيف عبيداً وخولا ولم يتخذوهم إخوة ، وكم وضعوا ذلك السيف على أعناق المخالفين من المسيحيين فضلا عن غيرهم من اليهود وسائر الملل والنحل . فالاسلام إن كان قد رفع سيفاً حين ظهر وقوي فهو انما رفعه ليسقط ذلك السيف الجائر ويؤيد قاعدة « لا إكراه في الدين » ، تلك القاعدة العظيمة كانت تهددها طبيعة الحكومة الرومانية التي لم يقمها دين بل أقامها الشره البشري ، ولم يرفع الاسلام سيفا ليجعل المغلوب مسلماً أو عبداً للمسلمين بل ليوجد حكومةً من رضي بها وتوطن في بلادها كان « له ما للمسلمين وعليه ما عليهم » .

لا تذهب في الخيال بعيداً ولا تقل سلَّ الاسلام سيفاً ، لانه ماذا كان يصنع سيف أولئك العرب القليلين أمام العَدد والعُدد في دولتي القياصرة والأكاسرة في وقت واحد ؟ ولكن قل قد نشر الإسلام نوراً فيه حياة ورحمة للشعوب فكان أول من حيي بهذا النور أولئك العرب الذين كان التحاقد قد فرقهم ، والتفرق قد أعمى بصائرهم ، والعمى قد أضلهم ، والضلال قد أماتهم ودفن خواصهم ومزاياهم في تلك الفيافي

والرمال . وكانت حياة العرب هذه فائقة للمعتاد حتى إنهم أصبح لهم من قوة القلوب ما تضعضع أمامها كل شيء من ذلك العَدد وتلك العُددفي دولتي الرومان والفرس بسرعة قليلة النظير جداً .

هذا ما فعله أولئك المسلمون فمن أراد أن لا يرى من صنيعهم ذلك الا السيف فانّا لا نصرُ على تغيير فكره وانما نقول له : ماذا على سيف لم يُسَلُ الا ليؤيد حرية الاديان التي كانت مفقودةً من قبله ، ومن رأى ما كان يحمله أولئك القوم م ن الرحمة وإرادة وجه الحق بتأسيس تلك الحكومة لا إرادة العلو والفساد في الارض فانه لا يعجز عن أن يعرف أن ذلك هو الذي ساعدهم في فتح القلوب مع فتح البلاد في تلك المسافة القصيرة من الزمان .

* * *

لم يكن للمسيحيين في الشرق من دولة ، ولما تديّن حكامهم بدينهم ظلّ أولئك الحكام على غطرسة الغالب ولم يقولوا لإخوانهم في الدين « إنّ لكم مالنا وعليكم ما علينا » ، فصبروا حتى جاءت حكومة الاسلام فوجدوها خيراً لهم من حكومة الرومان ، فظلم أولئك الذين لم تقم حكومتهم على أساس دين هو السبب العظيم لاجتهاد المسلمين في إقامة حكومة على أساس دينهم ، وهذا هو السبب أيضا في عدم قيام عداوة واقتتال بين المسلمين ونصارى الشرق الا ما قد يحصل مثله أحياناً بين المتجاورين وإن كانوا من دين واحد أو قبيلة واحدة ، أما بين المسلمين والدول المتدينة بالنصرانية في أوربا فالعداوة استحكمت منذ ظهر الاسلام ، لأن تلك الدول من الرومان وممن خلفهم من الاقوام الآخرين قد أشربت قلوبها الغطرسة وحب التغلب على الامم ، وليس أمامهم في

الشرق القريب الا الاسلام وأهله ، فلو استطاعوا أن يمحوهم حتى الآن لما قصّروا في ذلك ، ولكنهم لم يستطيعوا لأسباب كثيرة منها أن الاسلام لا يوصي بالجمود أمام الباغين ولا سيما اذا كان البغي يضر بالدين بل يوصي بقول الكتاب المجيد « قاتلوا الذين يقاتلونكم » وبقوله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، ومن أجل هذا كانت الحروب والمقاومات والاستعدادات بين الاسلام وأوربا المسيحية متصلة ومستمرة منذ ظهر الاسلام الى يومنا هذا .

قلنا بين الاسلام وأوربا المسيحية ولم نقل بين المسلمين والمسيحيين على الاطلاق لأننا اذا استثنينا عمل بعض الذين خالفوا منا روح الاسلام وهو قليل نجد المسيحيين في بلاد الاسلام لم يروا من المسلمين الا ما يراه الاخ من أخيه من الحرص على صون روحه وماله وعرضه وسائر حقوقه.

* * *

نعم قد قامت القيامات والمقاومات بين الاسلام وأوربا المسيحية (أو نقول بين الشرق والغرب) ، وقد كانت الحرب فيما مضى سجالاً وكان كثير من الغَلَبات للمسلمين حتى إن الاسلام لما كان خارجا مع الاندلسيين من الجنوب الغربي لاوربا كان داخلا في ذلك الوقت بقوة مع العثمانيين من شرقيها ، وإن كان المسلمون قد خسروا يومئذ بضعة ملايين من مسلمي الاندلس فانهم قد ربحوا بضعة ملايين من الارناؤوط الذين دخلوا في الاسلام أفواجا قرب تلك الايام .

والجدير بالذكر هو أن الحرب كانت تقع بين دولة مسلمة مثلا وأخرى مسيحية لا بين كل الدول الاسلامية والدول المسيحية ، اذ لم تك دواعي الحرب دينية في الغالب بل أكثرها دنيوي ، ولم تتألب كل

الدول المسيحية عن بكرة أبيها الا مرةً واحدةً في تلك الحروب التي تسمى « الصليبية » ، وكان عدد أول جيش غشي الشرق من أولئك الصليبيين مليونا ، أما الدول الاسلامية اذ ذاك فلم تتقدم كلها لمقاومتهم بل قاومهم بعض المسلمين بقيادة الأتابكية من الموصل فدمشق ثم قيادة خلفائهم من الايوبية في دمشق ومصر ، وبعد مائتي سنة لم يبق لأولئك الصليبيين ظل في الشرق ولم يعودوا الى مثلها حتى يومنا هذا .



اليوم وبعد اليوم (*)

— ٦ —

(يقظة بعد نوم)

« الوطن العثماني وطن مقدس »

* *

« الوطن العثماني دار السلام »

* *

« الوطن العثماني دار الشعوب »

* *

« الوطن العثماني مهد هدى في الماضي ، ومربع هدى للآتي »

(الذين يمرضهم التمويه تشفيهم الحقائق)

تلك الحروب الصليبية كان المقصود منها بحسب الظاهر تخليص المسيحيين الذين في الشرق من ظلم المسلمين ، وينسبون أصل الحض على هذا الجهاد الصليبي الى راهب يسمى بطرساً . والحقيقة أن بطرساً هذا كان آلة ، والظاهر أن اوربا اذ ذاك لاح لها أن المسلمين في ضعف لتفرق كلمتهم ولاشتداد ضعف الخلافة في تلك الايام ، وتخيلت أن دولها اذا هجمت على الشرق الاسلامي هجمةً واحدة يتيسر لها أن تمتلك البلاد وتقتسمها وتصل الى مشتهياتها المادية تحت ستار حماية المسيحية في الشرق (!) .

لقد خاب ذلك الظن ، وباءت كل جيوش تلك الدول بالخيبة والفشل،

---

* جريدة (الحضارة) ٨٥/٢ (٢٣ تشرين الثاني ١٩١١) .

وتلف منها مئات الالوف ، ولم تستطع في تلك المدة الطويلة التي ظلت فيها مصابرةً في سبيل ذلك المرام أن تتجاوز السواحل الا برهةً قليلة ، فانهم لقوا ما لم يكونوا يحسبون وتبين لهم أن كثرتهم لم تغنهم شيئا وأن أولئك الذين ليسوا الا طائفة قليلة من مجموع المسلمين هم وحدهم كافون لطردهم والتنكيل بهم • وبالجملة قد رجع الصليبيون خائبين من هذه الغزوة الطويلة التي تلاحقت فيها الكتائب وتوالت البعوث وتوارد المدد •

وكما كانت « حماية المسيحيين في الشرق » هي الوسيلة التي اتخذها أولئك الصليبيون الأولون في حروبهم تلك ، أصبحت هي الوسيلة التي يتوسل بها أوربيو أزمنتنا الى تنفيذ بعض المآرب عندوقوع ما يشبه التعصب الذميم • وطبيعي أن خلائف الرومان ــ وناهيك بشره أسلافهم ــ لا يودون أن يعترفوا بأن قواعد الاسلام أبرُّ منهم بالمسيحيين الذين توطنوا البلاد ، وأعطفُ منهم عليهم ، وأولى منهم بحمايتهم والمحافظة عليهم • نعم لا يودون أن يعترفوا بذلك بل ينسبون الى تلك القواعد المباركة التعصب الذميم والظلم والقسوة ، ويتخذون الحجة على ذلك من أعمال بعض المسلمين • وليت شعري كيف يكون العمل الشاذ الصادر من بعض آحاد الناس مثلا أو من بعض اجتهادات من لهم رأي في بعض العصور حجةً على دين لم يوجد لعصر من العصور ولا لجيل من الاجيال بل ليكون مصاحباً للحِكَم والمصالح الاجتماعية كلما تجلّت وكيفما تجلت ، ومُطارِداً للمفاسد من أين جرت ، وأيان سارت وسرت ، وكيف تنسب تعدي بعض المسلمين على بعض المسيحيين الى الدين وننسى الذي يقع مثله ألف ألف مرة من تعدي المسلمين على المسلمين ؟

لعمرك نحن أكثر إنصافاً اذ لا ننسب ما نعرفه من أحوال هؤلاء الاروبيين الى دينهم كما ينسبون أحوال بعض أفراد أو طوائف منا الى دينا . نحن نعرف والحمد لله تعالى ما هي التعاليم الشريفة التي جاء بها سيدنا المسيح (عليه السلام) ونعرف ما عليه هؤلاء الأوربيون ولذلك نقول: إن أوربا لا تتهجم على الشرق بسائق تعاليم دينية بل بسائق مناهج رومانية ورثوها مع ما ورثوا من الرومان ، ومعلوم أن مقتضى تلك المناهج الرومانية التغلب على الامم لاستثمار تعبها وتسخيرها للاهواء ، وهل ينتظر غير هذا من حكومات لم يقم أصلها الاصيل على أساس من شأنه أن لا يحمل قوما على مبادأة آخرين بالشر لاغراض ومآرب شخصية . وربما قيل إن حكوماتنا التي قام أصلها الاصيل على دين يحرم الظلم أشد التحريم لم يسلم بعضها من أعمال بعيدة جدا عن روح الدين ، فنحن نسلم هذا ولا نستطيع انكاره ولكننا نستطيع أن ندعي معه أن أظلم حكوماتنا لا يُخشى منها على غير المسلم أكثر مما يُخشى على المسلم ، وأظلم تلك الحكومات عاشت معها المسيحية واليهودية ولم تحتاجا الى شيء من مثل هذه « الحماية » التي تريد التوسل بها الى المآرب حكومات يجهر بعضها اليوم أن لا دين لها .

فياليت شعري ألا يقوم في شرقنا المبارك من أبناء وطننا المسيحيين من يردّون دعوى هذه « الحماية » في وجوه الاوربيين ويقولون لهم : إن بقاءنا في هذا الوطن منذ ثلاثة عشر قرناً دليل على أن أسلافنا لم يكونوا محتاجين فيه الى من يحميهم ، ثم يا ليت شعري ألا يقوم في هذا الشرق المبارك من المسلمين من يزيحون ما نسجته عناكب الإهمال على هذه القاعدة التي يحق لنا أن نفاخر بها كلّ القواعد الأساسية التي

عند الامم نعني بها القاعدة التي تجعل لغير المسلمين ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » •

لأجل هذه القاعدة نقول إن الوطن العثماني مقدس لأنه باعتبار أن الحكومة قائمة فيه على مثل هذا الاساس نجده بقوانينه بعيدا عن رجس الأثرة والتعصب الذميم •

ولأجل هذه القاعدة نقول إن هذا الوطن دار الشعوب ، وهذا ثابت بالفعل أي أن أكثر شعوب العالم سواء من حيث الاجناس أم من حيث المذاهب قد اتخذت لها نصيبا في هذا الوطن ، ولدى التدقيق نجد أن هذا أثر من آثار قدسية الأسس التي أشرنا اليها وأنه لم يضرها في كل ذلك الحين من الدهر صدأ الإهمال والابتعاد أحياناً عن الروح الشريف •

وجدير بدار الشعوب أن تكون دار السلام ولسنا نعني بذلك أن تلقي الحكومة فيه السلاح وتنام مطمئنةً آمنة مكرَ الماكرين وغدرَ الغادرين ، وانما نعني أن العناية بصون السلام فيه تكون مضاعفةً والشعوب تتضافر على ذلك وتتساعد فيه ، ونعني أيضا أن من الضروري بث هذه الفكرة في نفوس بنيه •

أما الغوائل الخارجية التي تهدد سلام هذا الوطن فقد قلنا إنها آتية من أوربا ، ولكن هل أوربا متفقة على الإخلال بسلامه وسلامته ؟ وهل هي ناوية أن تعيد فيه سيرتها الاولى من الحروب الصليبية ؟

تختلف الأنظار والافكار كثيرا في الجواب عن هذا السؤال ، فمن الناس من يقول نعم إن أوربا مهما اختلفت فهي متفقة على الاخلال بسلام هذا الوطن وسلامته ، ومهما تقدمت في المدنية واقامة الوزن للحقوق الدولية فلا بد من أن تعيد هنا سيرتها الاولى • هذا قول الاكثرين بل قول الجماهير ، أما الذين يقولون به من بعض المفكرين

فليسوا سواء فيه بل منهم من يقوله معتقدا بصحته ومنهم من يقوله للإهابة بالهمم الخامدة ، والنهوض بالعزائم الهاجعة ، ومنهم من يقوله لمجاراة العامة استراحةً من لائمتهم • ومن الناس من يقول إن أوربا التي فشلت في تلك الحروب الصليبية قد استفادت منها دروساً جليلةً وكثيرة، ومن شأن تلك الدروس بالجملة أن تبطل أوربا التألب عن بكرة أبيها دفعةً واحدة على الشرق ، فان ذلك يؤلبه أيضا وربما لا تحصل مصلحتها حينئذ •

أما رأينا فهو أن نترك التظنن الآن ونستفتي الواقع وهو يفتينا : أن أوربا اتفقت في عمرها قليلا واختلفت كثيرا وحارب بعضها بعضا كثيرا وإن كان اسم المسيحية يجمعها ، كما أننا نحن اختلفنا كثيرا أيضا •

❊ ❊ ❊

قامت دول وأمارات اسلامية كثيرة من قبل ، وبقي اليوم ممن ورثها دولة الفرس ودولة مراكش وحكومة الافغان وبعض الامارات في الهند والبلاد العربية المستقلة وهذه الدولة العثمانية وهي عظماهن وكبراهن وصاحبة الخلافة فيهن • وقامت في أوربا ثم أمريكا دول وأمارات مسيحية كثيرة وبقي ممن ورثها هذه الدول والحكومات الحاضرة ، منها الصُغَر كاليونان والبلغار والصرب ، ومنها الكُبَر روسيا وألمانيـا والنمسة وانكلترة وفرنسة وايطاليا والولايات المتحدة ، ومنها المتوسطات كاسبانيا وجمهوريات أمريكا الجنوبية •

ضعفت سائر الدول والامارات الاسلامية لأسباب كثيرة أعظمها سبق الاوربيين بمعارف الصناعات والادارة والمالية والسياسات واختراعات الاسلحة ، وبقيت هذه الدولة العثمانية فيها شيء من القوة بالنسبة • والمستصعب اليوم هو وقوفها وحدها أمام أوربا كلها ولا سيما اذا زيّن لدولها أن تتفق يوما من الايام •

هذا ما تحوم حوله الافكار ، ويتساءل عنه أهل الامصار ، والهواجس أصبحت في ازدياد ، والقلوب اليوم في تناج وتناد .

الوطن عزيز ، وهو مقدس ، هو خزانة آثار السلف ، وقرارة بقايا المجد والشرف ، هو دار السلام لسائر العثمانيين ، وهو دار الاسلام لسائر المسلمين ، قلبه « مكة » المكرمة التي يفتخر مَلِكُ هذا الوطن بأنه خادمها ، ووجهه دار الخلافة إحدى عرائس الدنيا ، وأطرافه هذه الحدود الحاضرة ، أفلا يستحق على قدسيته وجماله وجلاله أن نوطن النفس على حسن مسالمة الذين يساعدوننا على صون سلامه وسلامته ، وحسن مقاومة من يكيدون لنا فيه كيداً سواء كان الكائدون أهل دولة واحدة أم أكثر .

لقد أكثر كتّابنا من التنديد بأوربا كلها غير ناظرين الى أن الخلاف فيما بين تلك الدول ليس أمراً مفروضا بل هو أمر قد وقع كثيرا من قبل وهو واقع اليوم وسيظل واقعا . ولَخشيةُ دول أوربا إحداهن من الاخرى ليست بأقلَّ من خشيتنا ومحاذرتنا منهن . وما تلك الهيجاء التي قامت بين ألمانيا وفرنسة ببعيدة ، ولا آثارها من النفوس ذاهبة ، كما أننا ما زلنا نسمع هؤلاء وأولئك من شعوب أوربا يتناذرون باستعار لظى الحرب .

نعم إن القوم في أوربا اختلفوا كثيرا ولا يزالون يختلفون ، وتفرق القوم في الشرق ولا يزالون يتفرقون ، ولذلك لا نرى من الحكمة اليأس من فوائد اختلاف أوربي يغلب على الظن أنه لا يزول ، ولا الطمع بفوائد اتفاق شرقي يرجح في الحسبان أنه لا يكون أولا يطول ، على أننا مع هذا لا نستحسن الاستناد وبناء كل الآمال على ذلك الخلاف الغربي ،

ولا سدٌ كل منافذ أفكارنا وخواطرنا دون نسيم هذا الوفاق الشرقي ، فانه يحتمل أن يبقى اختلاف أوربا موجودا من غير أن تكون لنا فائدة منه وليس من المحال أن تتفق أوربا ولو برهة قليلة ، كما أنه يحتمل أن نستفيد من تقارب الشرق بالقلوب وتعاطف شعوبه وإن لم تتفق هذه الشعوب تمام الاتفاق ، وليس من المحال أن يتفقوا ولو زمنا يسيرا فالأسس التي ينبغي البناء عليها عندنا هي : (١) أن لا نجعل بيدنا كلٌ شعوب أوربا خصوما لنا دفعة واحدة • و (٢) أن يشتغل كل شعب منا بتقوية نفسه ولا يتلهى أحد منا بتأميل غيره • و (٣) أن نبقى متذكرين خير أوربا وشرها ومتيقظين لهما ، ومتذكرين وجوب التعاطف الحقيقي فيما بيننا ، وعاملين له بالحكمة من غير أن نزعج الدنيا بكلام أكثره فارغ •

أجل لا نقول إن اتفاقهم الفعلي علينا محال ، وانما نقول إن للمناهج السياسية التي نسير عليها دخلا لا ينكر في تعويقه وإبعاده ان كنا محسنين وتعجيله وتقريبه إن كنا مسيئين ، كما أنه لا ينكر أن تعويقه خير وأنفع لنا من تعجيله •

ونعم لا نقول إن أوربا لا يأتينا منها شر وانما نقول قد أتانا ويأتينا مع شرها خير ، فعلينا أن نُعِدٌ أنفسنا بالعلم الصحيح والذوق السليم لتمييز خيرها من شرها ، وعلينا اذ ذكرنا أبواب شرها أن لا ننسى أبواب خيرها ، فان هذا أقرب الى ما يسمى الانصاف وأقرب الى ما يسمى السياسة الحسنة التي يرجى منها تعويق الاتفاق الفعلي علينا •

ونعم لا نقول إن تنادي شعوبنا الى التعاضد والتعاون غير حسن وانما نقول إن الشعوب التي فصل فيما بينها شيء من الفواصل لا ينبغي أن تألف اتكال بعضها على بعض في حين أنٌ لكل منها أدواءً خاصةٌ

و « كلها في الهوا سوا » فاذا لم يشتغل كل شعب بتقوية نفسه فان ما نراه من تأميل هذا بذاك وذاك بهذا مع بقاء ضعف هذا وذاك إن هو الا أمر ينفر ولا يبشر ، وبالله كيف ننسى أننا ما زلنا منذ مقتل عمر رضي الله تعالى عنه مختلفين ، وكيف نذهل عن أننا ما برحنا كل هذه العصور متقاتلين ، وكيف يعزب عنا أننا لم نتكاتف يوم اكتسح التتار تلك البلاد الاسلامية ومنها دار الخلافة ، ولم نتألب يوم تألب الصليبيون وغزوا بلادنا بألفِ ألف من صفوة مقاتليهم ٠

ونعم لا نقول ان اتفاقنا اليوم كلنا أجمعين محال وانما نقول ان هذا الاتفاق مع فقد المقادير الكافية من الاسلحة وتوابعها وسائر الاستعدادات الحربية والاقتصادية لا يأتي بالمطلوب ولا يدفع المحذور اذا وقع ، وعدم اتفاقنا كلنا أجمعين مع وجود قوة عظيمة في كل شعب منا لا ينافي المرغوب ، فان المرغوب هو دفع تألب أوربا ، وهي لا تتألب متى عرفت أن في كل شعب قوة ، ولو تألبت حينئذ لما نجحت أيضا ، وليتنا لا ننسى أن الذين دفعوا « الصليبين » ولم يكونوا كل المسلمين ولهذا أقول وسأعيد هذا القول كثيرا : هلموا تنادوا الى تقوية كل شعب وتعويد كل شعب الاتكال على الله تعالى وعلى نفسه مع إحياء روح التعاطف فيما بين الجميع ، هلموا تنادوا الى تقبيح ما تصنعه الحكومة أحيانا من استعمال قوتها في تقطيع أطرافها واضعاف نفسها بنفسها ، وهلموا تنادوا الى استهجان ما يصنعه المنافقون المغترون من تمداح كل قوة تتغلب في الاستانة وان جاء على يدها أنواع الخراب وموجبات الضعف ، وتعالوا تنادوا الى معرفة أن الحكومة العثمانية مهما استطاعت أن تصون بلادها فانها لا تستطيع أن تصون بلاد مراكش وايران وغيرها اذا حقّت عليها الحاقة ، كما أنها لم تستطع من قبل أن

ترد وتذود شيئا عن البلاد التي غنمتها الروس ولا عن البلاد التي تسيطر فيها اليوم فرنسة وانكلترة ، وتعالوا تنادوا الى معرفة أن طرابلس الغرب انما يحارب فيها اليوم في الحقيقة أولئك الاسود من أهل جيرتها وأنه لولا قوتهم تلك لكان الامر في هذه المسألة أكثر إشكالا وأدعى الى زيادة الاسف . فبأولئك العرب الكرام يجب أن يقتدي سائر العرب ويحسبوا حساب الغد ولا يقولوا وراءنا فلان وفلان ، فان لفلان وفلان هموما أخرى وليس لهم من خليل وفيّ الا أعضادهم وما قبضت عليه أكفهم ان كان تحت أكفهم بواتر ، ومن أراد تجريدهم من تلك البواتر بأية وسيلة وأي أسلوب كان فليعلموا أنه خائن لدولتهم ولوطنهم العام ولوطنهم الخاص ، ولا يلوموا الا أنفسهم ان سكتوا أمام تدابير الخائنين .

إنّ علينا للبيان ، وان على القراء أن لا يهملوا شهادة الحس والعيان ، وإن أردنا الا تذكرةً وتبصرة ، فمن شاء ادّكر ، ومن الله التوفيق ، وعنايته سبحانه مرجوة .

إي لعمر الحق ، إن عناية المبدع مرتب الوجودات ومصنف الاكوان لمرجوة حق الرجاء ، فمن عنايته تعالى أن أظهر سيدنا محمدا وسيدنا المسيح عليهما الصلاة والسلام في قلب هذا الشرق ، ومن عنايته تعالى أن أقام لهذا القلب سياجاً من الحكومات في هذا الشرق على أساس ذلك الدين المبين المحمدي الذي وضع للحكومات قواعد لا تسموها قاعدة في العالمين ، وهي التي حفظت الحكومة وستظل حافظتها ، وهي التي هدت العالم الى أحسن نواميس الاجتماع وستظل هاديته ، منها ما أوحاه الله بقوله « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، ومنها ما أوحاه بقوله «وقاتلوا

في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، ومنها ما أوحاه بقوله « لا إكراه في الدين » •

ـ الخلاصة ـ

والخلاصة أن هذه المزعجات كافية لتركنا الهجوع ، وإسراعنا الى النهوض • واذا نحن أفقنا فان ما عندنا من النور يكفينا ويكفي العالم للسير على المسالك الصالحة لاجتماع الشعوب • وأعمار الامم تتخللها العوارض ، ولكن الجذور المتينة لا تزعزعها العواصف ، والله سبحانه خفيّ الالطاف ، وتصاريف عنايته فوق إحاطة الافكار ، ومن رحمته إرسال الناصحين المصطفين الاخيار ، وتأييد هديهم على مدى الأعصار ، وهو متم نوره •



لو أفقنا (*)

المزعجات اذا أثمرت عِبرةً ويقظةً فهي نافعات ، ولكن اليقظة الثابتة لا تكفي فيها المزعجات وحدها بل لا بد معها من القابلية ، اذ كم من قوم مرت بهم المزعجات وما لبثوا بعدها أن عادوا رقوداً .

« اذا نحن أفقنا فان ما عندنا من النور يكفينا ويكفي العالم للسير على المسالك الصالحة لاجتماع الشعوب » .

هكذا قلنا في خلاصة مقالنا السابق والآن نبحث في هذه المسألة : أنحن أفقنا اليوم ؟ .

لعمرك ان الوقوف على الحقيقة في هذه المسألة من أصعب الاشياء ، وهناك ما هو أصعب وهو إقدام من قارب الحقيقة فيها على الجهر بها .

بيد أن الذين يتكلمون في هذه المسألة كلهم يدَّعون أنهم وقفوا على الحقيقة فيها ، ونحن لا نخطىء أحداً منهم ولا نجادل ولا نماري ، وانما نطلب أن يصنعوا أمام زعمنا كما نصنع أمام زعومهم .

إن اجتناب الباطل وهو ما يخالف معتقد المرء في مسألة من المسائل واجب لا يجوز على رأينا تركه البتة (وبعضهم يجوّز إظهار غير ما في الضمير اذا وجدت فيه مصلحة) ، أما الجهر بكل ما يعتقده المرء من

---

* جريدة (الحضارة) ٨٦/٢ (٣٠ تشرين لثاني ١٩١١) .

الحقائق فليس هو واجباً على رأينا ، بل الواجب هو الجهر بما يعتقد المرء أن الجهر به نافع ، وليس إعلان الحقيقة في كل مسألة في كل زمان وكل مكان نافعاً .

بعد تمهيد هذه القاعدة نقول ان الجهر بالحقيقة التي وقفنا عليها في هذه المسألة واجب لأننا اعتقدنا أنه نافع ، فالحقيقة في مسألتنا هـذه هي أننا في بداءة افاقة واننا لمّا نفق إفاقةً صحيحةً تامة (بكل معنى الكلمـة) .

لو أفقنا لكان أعظم همّ لبني عالمنا أن يقفوا على حقائق الأمور في الأستانة التي هي كعبة الآمال ، لو أفقنا لكان بحثنا عن الأسس التي ينبغي البناء عليها بعد اليوم أكثر من اشتغالنا بالتحميس وحده .

لو أفقنا لظهر أثر من اليقظة في شيء من مناهج حكومتنا وأعمالها في الداخل ، لو أفقنا لما كان بين نظّارنا حتى اليوم أولئك المتهمـون بتخلية طرابلس من القوة ، لو أفقنا لتساءلت آفاقنا كيف تجعل الحكومة الارناؤوط فريقين : فريقا بأيديهم السلاح وهم الماليسور ، وفريقا يمنعون من السلاح وهم مسلمو الارناؤوط . لو أفقنا لتناشدت أقطارنا الى متى يُترك أولئك الاخوان وحدهم أمام ذلك العذاب والى متى نسمـع أخبارا ولا نرى آثاراً ، ثم لو أفقنا لتذكرنا أن ليس الخطب في طرابلس وحدها ، وأن ليست المقاومة للعدى الماثلين أمام العين تغني عن المقاومة لأسباب الضعف .

من الضروري جدا أن نعين ماهية الإفاقة التي نعلق عليها ذلك الامل لانه ليس بمستبعد أن يفسرها كثيرون بهذه الضجة التي يرونهـا في الجرائد ، ونحن كما قلنا آنفا لا نحب أن نماري أحدا في رأيه ، لكننا

في رأيه ، لكننا نقول إن مثل تلك الضجات لا يعلّق عليها مثل ذلك الأمل ، إن تلك الضجات جديرة أن تسمى تجاوب قلوب وعواطف ، ومن شأنها أن لا تترك أثراً ثابتاً كما هو مجرّب ، أما الذي يترك الباقيات الصالحات من الآثار فهو تجاوب العقول والعزائم .

فالإفاقة التي نعلق عليها ذلك الأمل هي انتباهة عين الحكمة مع انتباهة عين العزيمة ، أما انطلاق لسان الحماسة وحده فليس دليل الإفاقة الثابتة على أننا نشكر تجاوب القلوب ، ولا ننكر البتة فوائد الخُطَب والشعر في مثل هذه الخطوب .

والإفاقة الثابتة التي نعلق عليها ذلك الأمل إنما تتحقق بغلبة المستمسكين بالعلم الصحيح على المستمسكين بعقول غيرهم ، وهذه تبقى غير متحققة ما دام تحت حسّنا جماهير آخذون على العمياء بكل أقوال فريق غير معصومين من الماضين منا ، وآخرون مثلهم آخذون على العمياء بكل أقوال فريق آخر منهم ، ثم جماهير آخذون على العمياء بكل أقوال فريق من الأوربيين ، وآخرون مثلهم آخذون على العمياء بكل أقوال فريق آخر منهم .

على أن بدأة الإفاقة موجودة كما أشرنا اليه ، وهذا يمنحنا أملاً على كل حال ويبعد عنا القنوط .

الرّوم أيلي (*)

عرف القراء مما ذكرته « الحضارة » قبل عددين أن محرر هــذه السطور سافر الى الــروم ايلــي لتحقيق الحوادث التي وقعت في « اشتيب » ، والأن نذكر لهم ما هي تلك الحوادث وما هي أحــوال الروم أيلــي .

أطلق العثمانيون هذه الكلمــة « روم أيلي » على جميع البلاد التي فتحوها في أوربا ، وبقيت هذه الكلمة عندهم عَلَماً على كل ما بقي لهم في هذه القارة من البلاد ، فالروم أيلي يوماً ما لم يكن عبارة عن ديــار الروم فقط كما هو معنى الكلمة بل كان عبارة عن ديــار الروم والبلغار والصرب والمجار ، فبعــد أن قطعت منه كل هذه الأجزاء العظمية التي تألفت منها عــدة دول بقي الروم أيلي عبارة عن ست ولايات أكثر أهلها مسلمون من ترك وأرناؤوط وباقي أهلها من هذه الأجناس : الروم ، البلغار ، الصرب الاولاح ، اليهود ، وهذه هي الولايات العثمانية التي في الروم أيلي : أدرنة ، سلانيك ، قوصوة ، مناستر ، يانية ، اشقودرة . فالبلغار يكثرون في بعض الجهات ويلقون في بعضها من ولايات أدرنــة وسلانيك وقوصوة ومناستر والروم كذلك ، وكثرة الروم في ولايتي أدرنة ويانية .

---

* جريدة (المدنية) ـ بعد ايقاف ـ جريدة (الحضارة) ـ العدد ٢/٩٠ (٢٨ كانون الاول ١٩١١) .

منذ فتح الروم أيلي ما زال مصدر قلاقل وينبوع غوائل ، إذ من داخله المزعجات من الظلم ومـن ورائه ما تمده أوربا من صنوف الإغواء والإطماع ، وضروب المحاماة والدفاع . على أنه لا يعين على المـرء أحد مثل نفسه ، فان ثورات الثائرين لم تحركها أوربا بمقـدار ما حركتها مظالم بعض الذين كان الأمر موكولاً إليهم في تلك الجهات ، وتلك الثورات أيضاً لم تدفع أوربا الى المحاماة بمقدار ما دفعتها تلك المظالم ، وبهذا اضطرت الدولة أن تنفض يدها بالتدريج من البلاد التي قامت فيها الآن حكومـة المجار والصرب ودولة الروم ودولة البلغار وحكومة الجبل الأسود . ولو أنها بما نفضت منه يـدها من هـذه البـلاد خلصت من الجراثيم التي أدت إلى هذا النفض لكان ذلـك الخسر منسياً مع الزمـان وكنا نجد تعزيةً من الباقي في هذه الديار لان الباقي لا يزال كثيراً ، ولكن ما الصنع وتلك الجراثيم ما برحت عالقةً بأحشاء هذه الجهات تمص منها دم البقاء ، كأنها قد آلت أن لا تفلتها ما دام فيها ذَمـاء .

اضطربت الروم أيلـي اضطرابا عظيماً قبل انقلاب ١٠ تمـوز سنة ٣٢٤ وتحدثت المحافل السياسية الأوربيـة في شؤون مكدونيا كثيراً ، ومعلوم أن مكدونيا عبارة عن نصف الروم أيلـي الحاضر ، وكـان للتحدث عـن مكدونيا نصيب من ملاقاة « روال » وتساقطت إلى الآذان كلمـات مخيفة بشأن الروم أيـلي هي التي عجلت قيـام الجيش وحدوث ذلـك الانقلاب المعهود ، فتصافح يومئـذ رؤساء الانقلاب ورؤساء العصابات البلغارية وغيرها على رجاء أن يكـون الدستور حاسماً بعد ذلك لكل مظلمة وضامناً لسائر الحقوق المذهبية والسياسية ، وظن السذج من الناس أن الوئام يدوم مع عـدم تغير

شيء من طباع المأمورين والجندرمة وعدم تغير شيء من أسباب الفساد ، ولكن لم تمر سنة واحدة حتى بدت بين الروم والبلغار تلك الفتن المعهودة في شأن الكنائس ، وقد فصلنا أخبارها من قبل ، وقد بذلت الحكومة جهدها في فصل تلك المسائل وقمع تلك الفتن ، ولم توفق الى ذلك حتى تصالح رؤساء الفريقين وعقلاؤهم ، بيد أن ذلك لم يضمن أيضا راحة الفكر في تلك الديار لأن الناس هم أولئك الناس ، والمأمورين هم أولئك المأمورين .

سكنت القلاقل هناك حيناً من الدهر واستراحت المسامع قليلا من تلك النغمات المزعجة ، ولم يرع الآذان أخيراً إلا نبأ أتى به البرق ثالث يوم من أيام عيد الأضحى عن « اشتيب » بأنه نسف فيها جامع بالديناميت ، وهاج المسلمون على البلغار فقتلوا منم مقتلة عظيمة .

هكذا رُوي الخبر وجعل الناس يتظننون فيه ألوانا من الظنون ، وبعد أيام اقترح « باولوف » أفندي (وهو مبعوث بلغاري من ولاية قوصوة) أن تذهب جماعة من المبعوثين من أحزاب مختلفة ليتبينوا حقيقة تلك الواقعة حتى تكون مناقشة الحكومة عن بينة إذا كان منها تقصير في الأمر . تذاكرت الاحزاب في هذا الاقتراح فارتأى حزب الاتحاد والترقي أن يستأمر الحكومة في هذا الشأن ، فلم تشر الحكومة عليهم أن يرسلوا أحداً ، أما حزب « الحرية والائتلاف » الذي في المجلس فإن الأغلبية فيه قررت عدم إرسال أحد ، ولم تر بأساً بذهاب من يريد الذهاب من أعضائه ، ولكن مجلس إدارة المركز العمومي لهذا الحزب ارتأى أن الأولى ذهاب اثنين من أعضائه لأن المقصود منه إيجاد الالفة والوئام ، ولا وسيلة لهذا القصد ترجح هذه الوسيلة لا سيما وقد وقع الطلب من ابن وطن من جماعة البلغار

يشير اقتراحه الى أن البلغار مغدورون في هذه المقتلة التي وقعت على أثر انفجــار قنبلة واضعها مجهول ، وارتأى مجلس الادارة ذهــاب الدكتور رضا توفيق ومحرر هذه السطور في هذه المهمــة ٠

قمنــا من الأستانة الساعة ١١ قبل الظهر يوم الاحد ثامن عشر ذي الحجة ١٣٢٩ (٢٧ تشرين الثاني ١٩١١) فوصلنا سلانيك الساعة ٨ ليل الثلاثاء ٠ وكان ميعاد وصول القطار الساعة الثانية بعد الظهر ، ولكن حصل عطل في الآلة فتأخر بنا هذه الساعات الست ، ولم نمكث يوم الثلاثاء في سلانيك بل واصلنا السير وقمنا منها صبيحة ذلك اليوم في قطــار آخر فوصلنا بعد الظهر بساعتين « كوبريلي » وهي بلــدة متوسطة ، مركز قائم مقام ، تابعة لولاية قوصوة ٠ وبقينا في هذه البلدة الى صبيحة اليوم التالي (الاربعاء) وركبنا منها عجلات إلى « اشتيب » محل الواقعة فبلغناها مع الأصيل أي الساعة الثالثة ونصف بعــد الظهر وكانت البلدية قد علمت بمقدمنا فأعدت لنا دائرتها وأنزلتنا فيها ضيوفاً ، وكنا تسعةً من المبعوثين ثم لحق بنا في اليوم التــالي ثلاثة من مبعوثي تلك الولاية ٠ وهؤلاء هم أفراد هذه الجماعة : محرر هذه السطور مبعوث حمص وحماة ، الدكتور رضا توفيق بك مبعوث أدرنة ، دالجف افندي مبعوث بلغاري من ولاية سلانيك ، أولاخوف أفندي مبعوث بلغاري من ولاية سلانيك أيضا ، باولوف أفندي مبعوث بلغاري من ولاية قوصوة ، صاوا افندي مبعوث صربي من ولايــة قوصوة ، قسطنطينيدي أفندي مبعوث رومي من ولاية الجزر ، واموافة أفندي مبعوث رومي من ولاية مناستر ، خونئوس أفندي مبعوث رومي من ولاية سلانيك ، نجيب دراغه بك مبعوث ألباني من ولاية

قوصوة ، سعيد أفندي مبعوث ألبـاني من ولايـة قوصوة أيضاً ، واهان أفندي مبعوث أرمني من ولاية وان •

« اشتيب » بلدة صغيرة الى الشمال الغربي من سلانيك والشمال الشرقي من أُسكوب ، قريبة من حدود البلغارية ، أكثر أهلها مسلمون أتراك ثم يأتي بعدهم البلغار وهم نحو ربع أهل البلدة ، وفيهـانحو مائتي بيت من اليهود ولا روم فيها •

ذهبنا الى المحل الذي ألقيت فيه القنبلة فوجدنا ثمة مسجداً فوقانياً له سلم من الخشب تحتـه مسطبة لقنطاريّ يزن المبيعات لأربابها • والحي هناك مجمع ناس ، ويقام يوم الاثنين من كل أسبوع في ذلك الحي من البلد سوق اسبوعي يأتيه القرويون من كل جانب ، كما أنـه يقام مثلـه أسواق أسبوعية في أيـام أخرى من الاسبوع في قصبات أخر ، وقد صادف وضع القنبلة يوم انعقاد السوق الاسبوعي أي يـوم الاثنين وكان ذلك ثالث أيام العيد ، فالحي كان ممتلئاً بالخلق ولذا كان من المظنون أن تتلف القنبلـة كثيرين ولكنها لم تتلف إلا القنطاري وأصابت قريباً من عشرين ، ولكن كانت جروحهم خفيفة ، ولم يبق أثـر للجروح الى يوم مجيئنا الا في ثلاثة صبيان واحد منهم جروحه عظيمة منذرة بالتلف •

على أثر انفجار القنبلة اعترى الناس ذهول كما هي العادة في مثل تلك الحالات ، ولم تمض دقائق قليلة حتى حلّ محل الذهول تهيج ، ولا تخلو أمثال هذه الوقائع من موقدين يضرمون في القلوب نـار الحماسة وحميـة الجاهلية • تحمس نفر من المسلمين وأرادوا الانتقام ولكن ممن ينتقمون والخائن الغادر مجهول ؟ هنا يقف المنصف ويرحم لحال الفريقين من أهالي اشتيب المسلمين والبلغار ، يرحم لحال المسلمين

لان هذه الحادثة ليست هي الأولى في بلدهم بل قد تقدّمها وضع قنبلة أخرى في دار الحكومة ، وتقدّمها مقتل ستة منهم دفعة واحدة على قارعة الطريق على مقربة من البلد مع التمثيل بهم ، ولم يكن ذلك لأخذ مال أو لأخذ ثار من أولئك الاشخاص أنفسهم بل لمحض النكاية والتنكيل وهكذا قتلت قبل هذه الحادثة أيضا امرأتان وطفلان على قارعة الطريق ، فمن ذا الذي يثبت لبه أمام هذه الأحقاد الظاهرة إلا من أيّده الله بروح من عنده ؟ ويرحم المنصف لحال البلغار الأبرياء الذين لا علم لديهم من أمر هذه القنابل ولا جريرة لهم تحمل أبناء وطنهم على أخذهم وتقتيلهم • من أجل هذا رأينا بعض المنصفين الذين اطلعوا على هذه الحقائق يذرفون الدموع رحمةً ورأفةً على مصاب الأشتيبيين الجانين منهم والمجني عليهم •

ولقد تبين لنا مما بذلنا الجهد فيه من التحقيق أن الذين جنوا على الأبرياء لم يكونوا جمّاً غفيراً من المسلمين بل هم نفر قليلون جداً لا يبلغون عشرين رجلاً ، وهذا قد علمناه من مجروحي البلغار أنفسهم ، بل قد علمنا من هؤلاء أيضا أن كثيراً من المسلمين تصدوا لصيانة كثير من البلغار • والفضل الأعظم في حسم هذه الفتنة إنما هو لضباطنا المنوّرين جزاهم الله خيراً ، أما الحكومة المحلية فقد أخذتها الدهشة وأصبحت لا تدري ما يجب أن تصنعه ، ولما شاع أمر مجيئنا سبقنا الوالي بيوم واحد وعمل ما يجب عمله ، والوالي في حد ذاته رجل طيب ولكنه جديد في الولاية ، وهذه الحادثة فاجأته مفاجأة • وقد حضرت هيئة من عدلية الولاية وكانت تحقيقاتها وتحقيقاتنا متشابهة متقاربة ومما يجدر ذكره أننا لم نكن نحسّ بأدنى ارتياب مما نقله لنا أولئك المجاريح من البلغار ، فان السذاجة الزائدة هي

الغالبة عليهم وعلى كل من رأيناه من القرويين هناك • ومن القرائن الدالة على عدم وقوع كذب في حديثهم أنهم كلهم لم يكونوا يتهمون جمّـاً غفيراً من المسلمين كما قدمنا بل كانت مجموع أحاديثهم على كثرتهم نصاً في توجيـه التهمة على نفر قليلين •

مدة الواقعة لم تتجاوز نصف ساعة ، ففي هذه المدة قتل أربعة وعشرون من البلغار وجرح نحـو مائتين أو أكثر ، وأكثر هذه الجروح بالحجارة ، وكلها خفيفة إلا نحو عشرة • والذين توجهت التهمة عليهم قد حبسوا ولكن لم يحبسوا على الفـور بل تاريخ حبس أكثرهم موافق لتاريخ خروجنا من العاصمة لأجل هذا التحقيق •

مكثنا في « اشتيب » ثلاثة أيـام ، وفي أواخر اليوم الثالث نعني السبت ركبنا العجلات إلى محطـة يقال لها « قيريوالاق » ومنهـا ركبنا القطار الى سلانيك فبلغناها نحو نصف الليل ، ومكثنا فيها الاحد ثم ركبنا العجلات يوم الاثنين الى قصبة تابعة لها تدعى لنغظة لنستمع شكايات أخرى فيها ، وهي تبعـد ثلاث ساعات عن سلانيك ، أهلها مسلمون وروم ، وقد وقعت نحو ثلاثين جناية على الروم فيها في مدة قليلة ، ولكن لاضطرارنا إلى الرجوع للأستانة لمـا سمعناه من أخبارها كانت تحقيقاتنا فيها غير كافية ، لأننا لم نمكث فيها غير ثلاث ساعات وهو قدر لا يكفي ، ورجعنا مع الغروب ويوم الثلاثاء ركبنا القطار الى الأستانة فبلغناها عصر يوم الأربعاء ، فكانت مدة سياحتنا كلهـا في الروم أيلـي أحد عشر يوماً ، ولكن في هذه الأيـام القليلة وقفنـا على حقائق كثيرة من أحوال الروم أيلي نلخصها بهذه الكلمة : « أرى خَلَلَ الرمـاد وميض نار » ، وربمـا فصلنا هـذه الخلاصة في عـدد آخر •

ياويح البلاد والعباد (*)

قبل خمس وثلاثين سنة أعلن السلطان السابق القانون الاساسي ، وكـان كاتبه ومستشاره الخـاص يومئذ سعيد باشا ، فوسوس إليه بعد برهة قليلة ما وسوس فعطل هذا القانون بعد ذلك إلى أن حدث انقلاب ١٠ تمـوز ٣٢٤ ، وفي هذه المدة التي لم يكن فيها للأمة رأي في الحكومة ذهبت بلاد كثيرة واحتـل الفرنسيون تونس والانكليز مصر ، ووصلت الدولة الى ما وصلت إليه من الضعف المشاهد . واليوم قام ذلك المستشار للسلطان السابق الذي هو رئيس النظار الآن يسعى هو وتلك الفئة المعهودة في تعطيل مجلس الأمة ، ثم جعل نفوذه في غاية الضعف اذا بقي له وجود بعـد اليوم ، فياويح البلاد والعبـاد ما خلصت من قيود الاستبداد حتى رجعت إلى مثلها ، وما خلصت من المخاوف حتى عادت إليها .

أقول هذا وليت قومي يعلمون أنـه إنـذار عام ، قد اقتضاه ما رأينـاه في ثلاثة أعوام ، وما نراه في هذه الأيام ، فمن شاء فليصدق ومن شاء فليجحد ، فما المصدق بمأمول أن يزيد ما الله مريد أن يعطينا ، ولا المكذب بمخوف أن ينقصنا منه شيئاً ، ولكن المصدق قد يتخذ له نيـة وأعمالاً تنفعه في الأعقاب اذا لم تأته في العاجلة بثمرات ترضي

---

* جريدة (المدنية) العدد ٣ /٩١ (٥ كانون الثاني ١٩١٢) .

وتسر . والمكذب إنما يهمل نفسه وشأنه قومه ، وعاقبة المهملين خسران عظيم .

أخاطب بهذا إخواني الذين ذرفت عيونهم على ما حلّ بطرابلس الغرب ، وتقلق خواطرهم من أن يحلّ ببلادهم مثل ما حلّ بتلك الديار العربية ، أقول لهؤلاء الإخوان وقلبي كقلوبهم ، وعيني كعيونهم : ليشتد خوفكم ، وليعظم للآتي حسابكم ، فإن الذين تحسبونهم عَدَداً لأمثال تلك النوائب قد أصبحت معروفةً لديكم حقيقتهم ، وما شأنهم في نظر الغول الأوربي بأكبر من شأن الفاسيين ، ولا أمرهم أكبر من أمر الفارسيين ، ولا حولهم أقوى من حول الأفغانيين ، ومع هذا الضعف الذي وصلوا إليه من حيث الاستعداد أمام المَخُوفين الهائلين تراهم قد ضعفت وطنيتهم ، ورقّ تديّنهم ، وغلبت على عقولهم أهواؤهم ، وأصبحوا كثيري الشيَع ، قليلي الإخلاص ، تحسب الفئة منهم جميعاً وقلوبهم شتى ، وتحسب لهم نظاماً وأمرهم فوضى ، فاعلموا أنكم اذا لم تفكروا وتعملوا لغدكم فإن غدكم عصيب ، وشأنكم فيه عجيب ، ولا تكونون قد قمتم بالواجب الذي للأخلاف على الأسلاف وهو السعي للابتعاد بهم عن مواطن الهوان ، ومواقع الخزي والخذلان .

* * *

تجولت بالأمس في الروم أيلي ، وذكرنا في العدد الماضي سبب ذلك وأتينا فيه بخلاصة ما رأيناه . والآن نفصل قليلاً بعض أحوال تلك البلاد التي بالأمس نفضت الدولة يدها من مجاوراتها .

« الروم أيلي » الذي تسمعون به بلاد لا نعلم على وجه الارض نظيراً لها في تعدد المنازع ، وتباين المآرب ، قد حشرت فيها الأجناس

من الصقالبة والروم واللاتين ، واختلفت قِبلات آمالهم ، ووجهات أفكارهم • وقد كثر بينهم التحاسد والتحاقد ، والتنازع والتعاند ، كـل فئة منهم ساعية إما الى الاستعانة ببعض مأموري الحكومة على أختها ، وإما إلى الاستعانة بنفوذ بعض الحكومات على الحكومة • والدسائس في كل ذلك سارية في سبيلها ، جارية على طبق هـوى أهلها وقبيلها ، وهذا كلـه غير ما في تلك البلاد بين الحكومة وطوائف المسلمين من تخالف الأهواء ، وعدم المبالاة بالأدواء • ولأجل كـل ما ذكرناه تسمعون يوما بطاحنـة بها طحن الأرناؤوط ، ويوماً بداهية يشكو منها البلغار أو الروم ، ويوماً بدسائس تشكو منها الحكومة • ولأجل هذا كلـه تضطر الحكومة أن تحشر في هذه القطعة من العساكر ما تضطر معه الى نفقات لا قبل لماليتها بها على طول المدى ، ولكن كل هذه العساكر على كثرتها لا تتمكن من سدّ الأبواب على العصابات التي تسفك الدماء وتحرق البيوت وتهلك الحرث والنسل ، لا لغرض سوى إيقاع الفساد وتحريك الرأي العام في أوربا • فما ظنكم أيها الإخوان بالنساء تبقر بطونها ، والأطفال تمزق أشلاؤها ، والأبريـاء من الرجال مسلمين وغير مسلمين يقتّلون تقتيلاً ، ويمثّل بهم تمثلاً ، وما ظنكم بعواقب هذه الأحوال ؟ •

ومن غرائب ما وقفنا عليه في هذه السياحة القصيرة أن بعض البلغار يهانون ويضربون بزعم أنهم يمدون أرباب الفساد وما هم من أرباب الفساد بخالصين ، وبعض الروم يعذبون ويهانون من قبل بعض موظفي الحكومة ليصيروا من جماعة الأولاح أو لمزاعم أخرى ، وليت شعري أيـة فائـدة للحكومة من صيرورة الرومي الأرثوذكسي أو لاحياً وهو أرثوذكسي أيضا ، بل أية حكومة إسلامية على وجـه الارض

يتجاسر بعض موظفيها على مثل هذا ؟ وما إن أدري هل تجهل حكومة المركز ما يجري من أشباه هذا في البلاد أم تعرفه ولا تبالي به :

إذا كنت لا تدري فلتك مصيبـــة
وإن كنت تدري فالمصيبة أعظـــم

أيّ عذر للحكومة إذا ادعت الجهل بهذه الأحوال ؟ كم ارتفعت أمامها أصوات نواب الولايات، وكم علا من كل فَج صدى الشكايات ، ولكن الحكومة تعودت عدم المبالاة وألفت إخمـاد الأصوات ، ومـا هذه القوة الباقية التي تنفق الأمة الملايين عليها إلا ليعتزّ بهـا أولو الأهواء ويرغموا بها أنوف المعترضين على الضلالات الإداريـة وإن أدت هذه الضلالات إلى ذهاب البلاد وحسرات العباد ، وما شاهدي ببعيد فهذه طرابلس الغرب أمام الأبصار وغداً يرى الناس عاقبة الامر فيها بالرغم من زخرف الأخبار وطول الصبر والانتظار .

تلك حال غير المسلمين في الروم أيلي ، وماذا أحدثكم عن حـال المسلمين هناك ، نظر الله بعين رأفته اليهم . فالترك منهم في حيرات وحسرات من عواقب هذه الأمور ، والأرناؤوط منهم قد ملأت الآفاق شكواهم ، أخطأت الحكومة إليهم في المرة الاولى فنفروا واستنكروا بأصواتهم الى أبواب العدل والمرحمة في الأستانة فلم يـؤذن لتلك الأصوات أن تلج الأبواب ، وما لبثوا أن فاجأتهم القنابل مكان العدل والرحمة فخرّبت لهم بيوتاً ، ويتمت لهم ذراري ، وأتلفت لهم أموالاً ، والمسلمون اذا رزئوا بمثل هذه الرزايا لا تتحرك أوربا كأنها تـرى من الانصاف أن لا تتعرض لشؤوننا الداخلية إلا اذا كان شيء منها متعلقاً بالمسيحيين .

ثار ذلك الفريق من الأرناؤوط المسيحيين بعد أن سكنت ثورة ذلك الفريق من الأرناؤوط المسلمين ، ولم تكن المسافة بين الثورتين بطويلة ، ففي الأولى أظهرت الحكومة كل شجاعتها ، وافتخرت بقوتها وسطوتها ، وفي الثانية بصنوف من القيود ، وصبرت حتى انتهى أمرها بضروب من العهود •

أمر عجب وأيّ عجب ، قد سلمت الحكومة لما رأت أيدي أوربا أن يبقى هؤلاء الأرناؤوط المسيحيون مدججين بالسلاح ، معفَيْن من التكاليف والتزمت بعهود أخرى وفت لهم ببعضها وكانت قد سلخت من الأرناؤوط المسلمين أسلحتهم فلم تردها ، ووعدتهم أخيراً وعوداً لم تقم بواحد منها ، فكيف لا يضج اليوم هذا الفريق الذي خَسِر له في الوزن ، ولم يعط بعض ما أعطي صنوه من السؤل ؟ فليت شعري لماذا لا تحسب لأوربا في المسيحيين حساباً حتى ترى حركة أوربا بعينها ، ولماذا لا تحسب في المسلمين حسابا لعواقب الامور حتى تقع فيها ؟ •

❋ ❋ ❋

أواه لو أن هذا حالها في الروم أيلي وحده لا لتمسنا ما يعزينا في جهة أخرى ، كلا بل هذا حالها في كل جهة ، وهذا هو الشأن في قلة حسابها في كل أمر • وما نسي القراء ما صنعه هؤلاء الناس في الكرك ، هنالك أيضا خربوا للعرب المسلمين بيوتا ، ويتموا أطفالا ، وباعوا أموالهم كالغنائم في أسواق الحواضر على ملأ الناس • لله درهم ما أكثر هذي الفتوح ! !

أي قومي !

أعيذ بالله بلادنا ، وأعيذ بالله ذرارينا ، حسبنا أيها الإخوة رقودا ، حسبنا عدم تفكير في شأن الآتي ، حسبنا استخفافا بقيمة نفوسنا ، حسبنا اتكالا على من بدت حقائقهم ، حسبنا إعراضاً عن الدروس التي يبذلها لنا الزمان ، حسبنا اغتراراً بزخرف مواعظ البعيدين عن معرفة الحقائق .

لكم الله أيها الاخوة من العرب ، أنتم في هذه المملكة جزء عظيم ، فانظروا ما شأنكم فيها أمس ، وما خطبكم فيها اليوم ، وما أمركم فيها غدا ، أمس لم يكن في مصر وتونس وهما من أمهات بلادكم يد أجنبية واليوم فيهما تلك اليد ، أمس كانت طرابلس الغرب آمنةً مطمئنةً واليوم يفعل فيها الاجنبي ما قد سمعتم ، أمس قد كانت سواحل نجد والعراق خليّة واليوم هي شجيّة ، وقولوا لي هل سورية اليوم هنيئة البال فارغة الفكر من المخاوف ؟

لكم الله أيها الاخوة ، لعلكم اذا أمعنتم في هذا المقال وعرفتم معدن هذا القائل وماضيه وحاضره تكونون الى التصديق أقرب منكم الى التكذيب ، ولعلكم تقولون أخ حقيقي نصح وأنذر ودعا الى الانتباه والتفكير وهو جدير أن يُصغى الى قوله ، ولعلكم بانتباهكم بعد ذلك تحملون الذين يبيعون عليكم الزخارف والمموهات أن يأتوكم بشيء من الحقائق . وبالله سبحانه الاستعانة ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

تعديل القانون الأساسي (*)

ـ مواد لا مـادة واحـدة ـ

قد علم القراء الاعزاء أن هذه الوزارة التي رأت حاجة لجمع المجلس قبل ميعاد اجتماعه بشهر قد فاجأته بطلب تعديل المادة الخامسة والثلاثين من القانون الاساسي ، ولكن لدى البحث والامعان تبين أن الذي سيعدل أكثر من مادة ، وذلك أن نص المادة الخامسة والثلاثين هكذا :

« اذا وقع اختلاف بين النظار والمبعوثين وأصر النظار على رأي ورفضه المبعوثون رفضاً باتاً أكثر من مرة فعلى النظار حينئذ اما قبول رأي المبعوثين واما الاستقالة، فاذا استقالوا وأصر النظار الجدد على رأي النظار السابقين وبقي المبعوثين رافضين ذلك وشارحين أسباب الرفض فالحضرة السلطانية حينئذ تستطيع فسخ المجلس على أن يشرع في الانتخابات بمقتضى المادة السابعة ، لكن اذا أصر المبعوثون الجدد على رأي السابقين يكون حينئذ قبول رأي المبعوثين أمرا محتوما » .

والقيد الذي تشير هذه المادة اليه في المادة السابعة هو أن من جملة حقوق الحضرة السلطانية « فسخ المجلس بالشرائط الموجودة في المادة الخامسة والثلاثين وبشرط موافقة الاعيان ، على أن تجري الانتخابات ويجتمع المبعوثون في ثلاثة أشهر » .

---

* جريدة (الادارة) ــ بعد ايقاف جريدة (المدنية) ــ العدد ٩٢/١ (١١ كانون الثاني ١٩١٢) .

أما صورة التعديل الذي طلبته الحكومة فهو هكذا :

« اذا وقع اختلاف بين النظار والمبعوثين وأصر النظـار ورفض المبعوثون رأيهم رفضا باتا أكثر من مرة فمن حقوق الحضرة السلطانية حينئذ تبديل النظار أو فسخ المجلس وتعطيل المجلس موقتا زمن الحرب بشرط أن تجري الانتخابات من جديد في ثلاثة أشهر وبشرط أن لا يكون الفسخ ممكنا أكثر من مرة واحدة في السنة الاجتماعية • وللحضرة السلطانية أن تستشير الاعيان في أمر الفسخ وأن لا تستشير • لكن اذا أصر المبعوثون الجدد على رأي السابقين يكون حينئـذ قبـول رأي المبعوثين أمراً محتوما » •

ويفهم من هذا النص الذي تريده الحكومة أنه قد ارتفع من المادة السابعة قيد « بشرط موافقة الأعيان » وبهذا تكون المادة السابعة قد عدلت أيضاً •

وبمطالعة نص المادة الخامسة والثلاثين يعرف القارىء أن مسألة تعطيل المجلس موقتاً زمن الحرب لا ذكر لها فيها لا بنفي ولا بإثبات ، فاقحامها هنا إقحاماً في هذا النص الذي تريده الحكومة لا يكون في شيء البتة من تعديل تلك المادة بل يكون وضعاً لمادة جديدة •

ومما قدمناه يظهر جلياً أن الحكومة بهذا النص الذي قدمته للمجلس تكون قد عدلت المادة السابعة اذ قد حذفت منها قيد « بشرط موافقة الأعيان » وتكون قد عدلت المادة الخامسة والثلاثين اذ قررت حق فسخ المجلس متى اختلف مع الوزارة من غـير أن تسقط الوزارة الاولى • وتكون كأن قد وضعت مادةً جديدة لم تكن موجودة في القـانون الاساسي وهي « أن تعطيل المجلس موقتا زمن الحرب من حقوق الحضرة

السلطانية بشرط أن تجري الانتخابات من جديد في ثلاثة أشهر وأن لا يكون التعطيل ممكناً أكثر من مرة واحدة في السنة الاجتماعية » .

بهذه الصورة يراد تعديل مادتين من القانون الاساسي ووضع مادة جديدة فيه . كل ذلك تحت اسم تعديل المادة الخامسة والثلاثين . وقبل الخوض في الموضوع من حيث هو نقول إن النص الجديد الذي جاءت به الحكومة يصح أن يسمى تعديلا للمادة السابعة التي تذكر فيها حقوق الحضرة السلطانية ، وبعد تعديلها على هذه الصورة لا تبقى حاجة للمادة الخامسة والثلاثين من أصلها .

* * *

نتكلم الآن في هذا الموضوع من ثلاثة وجوه : الأول تعديل القوانين الأساسية من حيث هي ، والثاني تعديل قانوننا الاساسي في هذه الآونة، والثالث تعديل الحكومة لتلك المادة أو تلك المواد .

ونلتزم في هذه المسائل الإيجاز لأن الغرض الآن إعلام بالخلاصات لا سير مع التفاصيل ، وربما سمح الوقت بإشباع المقام وايفائه حقه ان شاء الله تعالى .

(١) تعديل القوانين الاساسية من حيث هي :

لكل أمة أساس تعتمد عليه في شكل حكومتها ، به تمضي الحكومة في سنن اذا حادت عنها أقامت الامة الحجة عليها ، وبه ترتبط الامة بفروض اذا تقاعست عنها ردتها الحكومة الى حدودها . بيد أنه قد تكون أسس الحكومة مرسومة مرقومة في دواوين وأسفار ، وقد تكون منقوشة في الصدور يجليها العمل والتعامل في العواصم والأمصار ، فالمدونات الأساسية ليست في الحقيقة بدعة أوربية من حيث موضوعها

بل ربما كانت بدعة أوربية من حيث شكلها وترتيبها ، فهي والحالة هذه من الصنف الذي استحسنته عقول الامم من بِدَعهم في سياسة الأمم وتصنيف وثائقها المدنية التي بها تتسهل معرفة الناس مالهم وما عليهم •

اصطلح الكتاب وأولو العلوم السياسية على تقسيم الحكومات بحسب شكلها الى مطلقة ومقيدة ، وظنَّ الكثيرون أن التقييد للحكومات أمر جديد قد اقتبس من أوربا ، أما المتتبعون فانهم قد أنعموا النظر وعلموا أن الاساس الذي وضعه الاسلام لشكل حكوماته ينافي الاطلاق المحض ويظهر التقييد في أكمل مظاهره • وبديهي أن الخلفاء الراشدين — أئمة الهدى — هم أفقه الناس لما جاء به الاسلام ، فاذا رأيناهم رضي الله عنهم يقول أحدهم « من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقومه » علمنا من ذلك أن لرأي الامة عندهم من القيمة ما حملهم أن يجعلوه فوق كل شيء ، ولا نعجب من ذلك بعد أن نسمع الوحي المقدس يصفهم بأن « أمرهم شورى بينهم » ومن كانوا كذلك لا يكون حكم رئيس حكومتهم الا مقيدا بالشورى •

فمن عرف هذا يعرف أننا انما اقتبسنا من أوربا طريقة من طرق ترتيب الاستشارة ولم نقتبس أساس الاستشارة ، على أننا لا نعني بهذا أن الذي اقتبسناه من أوربا شيء هيّن وانما نقصد به إثبات عراقتنا بما هو روح القوانين الاساسية •

لا نتكلم الآن عن تاريخ القوانين الاساسية عند الامم الاوربية فان هذا بحث على حدة وهو يطول ، وانما نذكر هنا ما شددت فيه تلك الامم التي عنها اقتبسنا هذا الشكل من الاستمساك بتلك الوثائق الاساسية وعدم تجويزها العدول عن كلمة من كلماتها بسهولة ، وهذا معقول فانه اذا تسهل العدول عن شيء منها نشأ عن ذلك مخاطر أقلها

تعريض الرأي العام لمرض الاضطراب المستمر • ولذلك أصبح ايجاد تعديل في القوانين الأساسية عند أية أمة كانت يعد من الحوادث العظيمة ولا يقدمون عليه الا لسبب عظيم •

(٢) تعديل قانوننا الاساسي في هذه الآونة :

واذا كان الامر كذلك فهل تعديل قانوننا الاساسي في هذه الآونة التي نحن محتاجون فيها الى سكون الرأي العام مناسب ، واذا كان مناسبا فما هي الاسباب القوية الحاملة عليه وعلى الاستعجال فيه بصورة جعلت المجلس يترك لأجله كل مذاكرة سوى المذاكرة فيه ، واضطرت الحكومة أن تشتغل فيه مع المجلس أيضا شغلا طويلا سراً وإعلانا ؟

إن الحكومة أجابت عن هذا السؤال وذكرت الاسباب الدواعي لتعديل تلك المادة أو تلك المواد ، ثم الاسباب الحوامل على الاستعجال بهذا التعديل بهذه الصورة ، ويجد القارىء كلام الحكومة في مذكرات المجلس من الاعداد السابقة ، ونحن الآن لا نتصدى هنا لاستصواب ما قالته الحكومة أو عدم استصوابه وانما نضع هذا السؤال أمام الرأي العام وسنعرف كيف يكون الجواب •

(٣) تعديل الحكومة :

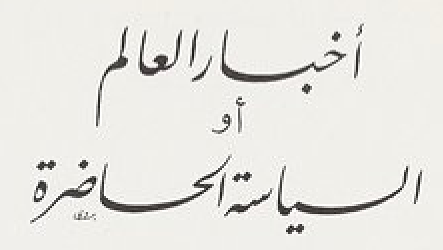
وكذلك لا نصف تعديل الحكومة بأنه حسن أو غير حسن وانما نجلوه بصورته الحقيقية وندع الحكم فيه لبصائر الملأ • إن المجلس متى قبل هذا التعديل سيكون معرضا للانفساخ كلما وقع بينه وبين الحكومة شيء من الاختلاف ، واذا كثرت حوادث الانفساخ كثرت الاضطرابات الداخلية بسبب توالي الانتخابات وضعف التربية السياسية وتصادم الاحزاب التي وجودها في الحكومات النيابية أمر طبيعي بالرغم من كل

ما يدعو الى جعل المملكة على قلب رجل واحد .

كلمة جامعــة :

والخلاصة أن هذه الحادثةالفجائية التي لانعلم لماذا بدت وكيف تنتهي ويضمها التاريخ اليه ، هي من الحوادث التي أبكت الوامقين ، وأضحكت الشانئين ، والله مع الصابرين .





السيـاسة الحاضرة

أصبحت العلائق التي بين العالم شديدة التماسك ، حتى صارت الحوادث الكبيرة في دولة من الدول تترك أثرا في الدول الاخرى ، وحتى أصبح تغيير وزارة من الوزارات في بعض الدول يحسب له أنواع من الحساب في غيرها من الدول .

غامَ جوّ السياسة في كثير من السنين الغابرة غيمةً كبيرة ، وكم اضطرت الامم في الشرق والغرب ، وكم تزلزلت دول ، وتزحزحت عن مواطن العز أمم ، وكم اشتعلت نيران حروب فالتهمت بلادا وتركت مكان العمران خرابا ، وترى الامة الواحدة قد جرى لها في تاريخها من نحو ما ذكرنا أشياء كثيرة ، وما حوادث ما وراء النهر ثم بغداد على عهد التتار بمنسية في أمتنا ، ولا حوادث الصليبيين بمجهولة في ماضينا ، ولكن مع كل ما تتذكره من الهوائل التاريخية لا نرانا مستصغرين ما نحن فيه اليوم .

تنقسم دنيانا اليوم ثلاثة أقسام : الاول الشرق البعيد وفيه اليابان والصين ، فأما اليابان فقد عرفوا الدنيا بأنفسهم بعد أن كانوا مجهولين

---

* جريدة (الادارة) العدد ٩٣/٢ (١٨ كانون الثاني ١٩١٢) .

وأصبحوا اليوم بعيدين عن مثارات عدوان الاجانب وهم معدودون بين الامم القوية من الانداد • وأما الصين فان كثرة أهلها ، وعراقتهم بالمعارف التي يناط بها العمران ، وسبق عادتهم في اجتماع الكلمة واستمساك الروابط ، وعدم عللهم في الاقتصاديات ، كل ذلك يجعل الباحث المفكر في أمن على مستقبل الصين مهما تحركت نحوه عروق المطامع الاجنبية ، ومهما تحركت في جوفه عروق الاختلافات الاهلية ، وقد تــواترت البرقيات في هذه الايام دالة على أن هناك اليوم ثورة داخليــة يريد مضرموها قلب شكل الحكومة وجعلها جمهورية • وطبيعي أن هذه الحادثة تعدُّ من عظمى الحوادث الحاضرة لكن ما أظن الجمهورية تتأثل هناك بسهولة وما أظن الدول ذوات العلائق هناك تقف وقفة المتفرج في هذه الحادثة وانما الذي يغلب في الظن هو أن الصين لا خوف عليها باعتبار النتيجة بل ربما كان لها مستقبل عظيم جدا •

القسم الثاني الشرق القريب وفيــه الهند وايران والافغان وبلاد التركستان الروسي والدولة العثمانية وسائر افريقية • ويشتمل هــذا القسم على أجناس وأديان ومذاهب كثيرة ، ولكن القوة المتجلية فيــه هي قوة الاسلام الذي من شأنه أن يكون عند أهله فوق الجنسيات • ولهذا القسم اليوم مميزات من أعظمها أنه متفكك الروابط متأخر الثروة والعمران مع جودة الاراضي وكثرة الانهار فيه ، ومتأخر في المعارف الحديثة ، ولا أسمي من المعارف حديثا الا هذه المخترعات الباهرة ، وبسبب ذلك صار من مميزاته أيضا أنه معرض دائما لتجاوز الغرب عليه، ومن يعرفه جيدا يعرف أن الغرب قد وضع يده على معظمه بل لم يبق أمام الغرب من هذا القسم دولة يرجى أن تدافع وتصبر حينا من الدهر الا هذه الدولة رزقها الله عقولا رشيدة ، ونيات حسنة ، وأيدي موفقة ،

وما ذلك بعزيز وصعب على منزل الآيات ومرتب الدرجات ، من يأخذ بنواصي المتعالين يوم يغترون حتى يضعهم ، ويأخذ بأيدي المنحطين يوم يتعلقون بأسبابه حتى يرفعهم ، سبحانه سبحانه ، كم أرى العالم من ذلك آيات بينات ، وكم هداهم بمثل ذلك الى أن الغيب هو خزانة الاسباب والمسببات ، ومنشأ التغيرات والتحولات ، ذلك كيلا يطغى مرزوق ، ولئلا ييأس محروم •

القسم الثالث الغرب الاوربي والاميركي وفيه هذه الدول والحكومات المعلومة التي قد وقف بعضها أمام بعض مواقف الحافظين للعهود وكان ذلك ثمرة حروب كثيرة فيما بينهم وثمرة الارتقاء الجديد في العقل الاجتماعي والسياسي الذي ساد أخيرا في أوربا وأميركا ، وقد تألف من مجموع العهود التي عقدت فيما بينهم في أزمنة مختلفة فن من الفنون الحقوقية يسمى « حقوق الدول » ، وهم يقيمون وزنا لهذه الحقوق ولكن فيما بينهم ، وقلّ أن يستفيد غيرهم منها ، وإن استفاد الشرق شيئا فالفائدة موقتة •

بسبب تلك العهود وما تفرع عنها استطاعت بعض البلاد في أوربا وأميركا أن تؤلف بنفسها لنفسها حكومات صغيرة ، واستطاعت مع صغرها وضعفها أن تثبت وتعيش ، كل ذلك لأن الدول العظمى رأت ذلك مناسبا وأقطع لتنازعها ، وأحسم للمشكلات بينها • ومن هذه الحكومات الصغيرة اليوم حكومة لا يبلغ أهلها كلهم نصف مليون من العالم وهي حكومة الجبل الأسود ، فهذه الحفنة من البشر لها ملك كالملوك وحكومة مستقلة كالحكومات ، وهي تجاور الحكومة العثمانية ويحسب لها حساب عندها ، وبديهي أن هذا الشأن انما نالته على يد الدول العظمى على الوجه الذي شرحناه •

لهذا الغرب الأوربي مميزات كثيرة ، ومن أعظم مميزاته أنه في أمن اليوم من تجاوز الشرق ، وهذا الامن يتمتع به قلب أصغر حكومة من حكوماته كالجبل الاسود فضلا عن قلوب حكوماته العظمى ، بل من مميزاته العظمى تفكره دائما بالتجاوز على الشرق ، وهـذا التجاوز تتحدث به نفس أصغر حكومة من حكوماته فضلا عن دوله الكبرى •

هذا التجاوز أعني تجاوز الغرب على الشرق بصورة دائمة هـو موضوع السياسة اليومية منذ مائة عام بل أكثر ، ولذلك لا نحسب من الامور الجديدة ما نراه اليوم أمام أبصارنا على هذه الصورة •

قد مرت حوادث كثيرة من تجاوز هذا الغرب على هـذا الشرق (القريب) ، ولكنا لا نظن أن هذا الشرق مُحِنَ من قبل بمثل ما يمحن به اليوم من التجاوز ، كما أننا لا نظن أن الشرق وجب عليه أن ينتبه لنفسه من قبل مثل ما وجب عليه اليوم من الانتباه ، فان دائرته ما زالت تضيق حتى شارف هذا الضيق أن يبلغ الغاية ، اذ ترى هذا الغرب يحيط به اليوم من جهات متعددة في وقت واحد ، فإسبانية وفرنسة من الغرب تتحاسبان على حكومة مراكش وبلادها ، وايطالية من الغرب أيضا تهاجم دولتنا العثمانية في طرابلس وبنغازي ومن الجنوب تهاجمها في سواحل اليمن ، وروسية تهاجم من الشرق والشمال بلاد فارس •

لسنا نعرف ولا أحد يستطيع أن يقول أعرف كيف يكون منتهى هذه الاحوال ، ولكنا نعرف شيئا واحداً وهو أن الغرب أصبح اليوم أكثر معرفةً منه أمس بحقيقة هذا الشرق ، وهذا ما يزيد تشجيعه •

يقال انه سيقع صلح بين ايطالية والعثمانية ، وليت شعري كيف يكون هذا الصلح ؟ هل تترك ايطالية طرابلس وتقول لنا سامحونا ولا تؤاخذونا ؟

نعم يدور على صفحات بعض الجرائد في أوربا وعلى ألسنة بعض رجال السياسة هنا وهناك أنه سيعقد الصلح ، ولسنا ندري أية دولة تكون صاحبة البند والعلم في إرضائنا وإرضاء الدولة المحاربةلنا .

إن فرنسة ملتهية الآن ببلاد مراكش ولا وجه لها أن تقول لإيطاليا دعي عنك هذا الطمع ، أو تقول لرجال دولتنا وعرباننا في طرابلس الغرب حسبكم هذا الدفاع . وإنكلترة واقفة وقفة المنتظر وقد أعطيت الحكومة المصرية « سلّوم » التي كانت من أجزاء بنغازي العثمانية المحضة وروسية ملتهية ببلاد فارس ومزمعة أن تلتقم هناك لقمةً كأنما قد نام عنها الرقباء فيها ، ثم ماذا يعنيها من الصلح في هذه الحرب التي تنظر الى نتيجتها بعين ملؤها آمال . فلم يبق الا النمسة وألمانيا اللتان هما حليفتان لعدوتنا ، ولابستان لباس الصداقة والمودة لنا .

هاتان الدولتان قد حيّرتنا أمرها في هذه الحرب ، وسيكون لهما دور في أمر هذا الصلح المنتظر ، وبديهي أن كل صلح يخل بالمنافع العثمانية لا تقبله الأمة ولا ينتظر أن ترضى به الحكومة (وفقها الله) ، ولذلك طالت حيرتنا هذه الايام في وضع كلمة للشكل السياسي الذي يُصوَّر أو يُتصور تحت اسم الصلح ، فالقواميس اللغوية عاجزة عن أن توافينا بلفظ يدل على ذلك المعنى المراد .

وهناك إشاعات عن أن ألمانيا تحاول الرجوع إلى سيرتها في مسألة فاس ، فإن صح ما هناك نرى ألمانيا بعد قليل ملتهية أيضا بحادثة سياسية عظيمة قد تصرفها قليلاً عن الاهتمام بصديقتها العثمانية وحليفتها الإيطالية ، ويومئذ تستوي إنكلترة على عرش سياستها في المحافظة على آمال صديقتها الجديدة فرنسة .

هذا ما يدور اليوم وتتداوله الجرائد ، أما نحن فإننا نرى الغرب أسعد حالاً مما تصوره السياسة أحيانا من قرب اختلال السلم فيه ، وذلك لانه مهما استحكمت حلقات الخلاف مابين ذويه يبقى من السهل أن يؤيدوا عُرَى الصلح على أكتاف الشرق التي يتسع عرضها له كلـه ، ولولا ذلك كانت الضجة فيه علـى فعلة إيطاليا أكثر دوياً مما سمعنا ، كلا بل لم نسمع من حسهم في هذا الأمر ما يسمى ضجة ، وما الضجة إلا في أحشائنا المحترقة أسفاً ، وأقلامنا المضطرمة لهفاً .

والخلاصة أن العالم اليوم مشغول البال جداً من أوله الى آخره ، ولكن بعض أقسامه تشغل بالها خواطر الاغتنام ، وبعضها يأخذها الهم والغم من جهة الخسارة ، وبعضها قلقة البال بما فيها مـن الاضطراب والاضطرام ، ففي الصين ثورة داخلية ، وفي فارس مذابح أهليـة وروسيـة ، وفي العثمانية وغى طليانية ، وهناك قلوب حنان علـى العثمانية في الهند والأفغان وسائر إفريقية الاسلامية ، وفي أوربا سلم لا خوف عليه وإن شاعت الشوائع ، وفي البلقان أمور ، وعلى الأحوال الحاضرة شيء من الستور ، بين كل ذلك مُنِيَ المجلس بالانفضاض .

نعم بين كل ذلك وبينما الأمة متطلعة إلى ما ستدبره حكومتها في أمر هذه الغوائل ، وما سيقيمه نوابها من المراقبة في هذه الهوائل ، قُضِيَ على المجلس أن ينفض ، وباتت الوزارة الحاضرة تفكر وحدها في وجوه الخلاص ، وهي على ما هو معهود مصبُّ الآمال التي تنبع من قلوب محبي هذه الدولة في الهند وغيرها من البلاد الاسلامية .

ومن الحوادث التي ليست ببعيدة عن هذا الموضوع أن تلك البلاد

التي تنبع فيها تلك الآمـال قد احتفلت احتفالات عظيمة عن عهـد قريب بإمبراطورها ملك الانكليز ، وأظهرت مالا مزيد عليه من السرور والابتهاج بمقدمه وزيارته ، فهل تترك هذه الاحتفالات أثراً في فؤاد السياسة ، وهل نحن متخذون من هذه الحالات ذكرى تنفعنا ؟ إن الذكرى تنفـع المؤمنين ، والله سبحانه خفي الألطاف .



الائتلاف مأمول والاختلاف لا يزول (*)

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

يتصور بعض المبتدئين بالفلسفة أن الناس لو كانوا كلهم على مبدأ الإخاء الإنساني العام لكان ذلك خيراً لهم في حياتهم ، وأضمن لسعادتهم . ومعنى هذا المبدأ تقريباً أن يكون الناس أمة واحدةً ، أما نحن فلا نعيب هذا التصور في حد ذاته وإنما نظن أن هناك فلسفةً أعلى منه ، وهي الاستفادة من التأمل في سنة الفاطر الحكيم الذي رتب كل شيء في هذا الكون على وجه حسن ، ومن جملة ما رتبه سبحانه جعل البشر متباينين وأن لا يكونوا أمةً واحدة .

نحن لا نريد أن نتوغل في هذا المقال بتفصيل دقائق هذا الموضوع، وإنما نمهد بهذه التذكرة الجميلة الى وجوب توطين النفس على المباينة من حيث هي ، ومتى توطنت النفوس على هذا وتذكرت هذه السنة الإلهية التي لم تتخلف مجاليها منذ بدء البشرية إلى يومنا هذا توقن النفوس حينئذ بأنها غير مستغنية في هذه الحياة عن السلوك الحسن الصالح مع الموافق والمخالف .

قد كتبنا في هذا المعنى مراراً ولكننا لا نجد هذا الموضوع

---

* جريدة (الحضارة) العدد ٩٤ (٢٥ كانون الثاني ١٩١٢) .

مستغنياً عن التكرار والإعادة ، على أن المعنى الواحد متى أفيد بأساليب متنوعة وجد القارىء فيه شيئاً من الجدة والجدوى . وقد اخترنا هذه المرة أسلوباً ربما رآه القارىء لطيفاً وربما ترك في نفسه أثراً ، وذلك أننا عمدنا الى إحصاء الاتحادات وبينّا الممكن منها بحسب العادة وغير الممكن ، والغرض تذكير قرائنا الأعزاء بأن لا يتركوا الممكن المستطاع اذا عزّ عليهم شيء مما يتمنونه من غيره ، ولمثل هذا أشار ذلك البليغ العظيم بقوله :

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

إذا نظرنا في الاتحادات كلها من أعمّها إلى أخصّها نجدها على هذا الترتيب :

١ ــ الاتحاد الإنساني .
٢ ــ الاتحاد الجنسي .
٣ ــ الاتحاد الديني .
٤ ــ الاتحاد الإقليمي .
٥ ــ الاتحاد البلدي .
٦ ــ الاتحاد الصنفي .

هذا ما ظهر لنا الآن من أنواع الاتحادات وربما كان هناك اتحادات أخرى أذهلتنا عنها العجلة حين تحرير هذا المقال . وإذا نظرنا في هذه الأنواع نرى بعضها غير ممكن البتة ، وبعضها ممكناً في نادر من الأوقات وغير ممكن في أكثر الأزمان ، وبعضها ممكناً في أغلب الأحيان . وتفصيل أن « الاتحاد الإنساني » غير ممكن البتة بل الناس يبقون إلى ما شاء الله مختلفين ومتباينين ، و « الاتحاد الجنسي » (وهو

أن يكون أهل لسان واحد على دين واحد مثلاً أو على سياسة واحدة) ممكن في نادر من الأوقات وكذلك « الاتحاد الديني » ، وأما الاتحاد الإقليمي و « الاتحاد البلدي » و « الاتحاد الصنفي » فهي ممكنة في أغلب الأحيان . ونعني بالاتحاد الصنفي اتحـاد طائفة صغيرة من الناس عملهم أو أملهم على شاكلة واحدة ، وذلك مثل اتحاد أهل صناعـة الحياكـة مثلاً ، أو أهـل تجارة الصابون ، أو طلبة علوم الفقه أو الطب ، ومثل اتحـاد الجماعات السياسية الذين يجمعهم ويوحّدهم برغرام واحد .

ونعني بالاتحاد البلدي اتحـاد أهل بلد أمام غـيره من البلدان الأخرى ، ومثله اتحـاد أهل إقليم واحد أمام غيره من الأقاليم وهـو المراد بقولنا « الاتحاد الاقليمي » وذلك كالاتحاد المصري مثلاً .

ولا نعني بهذه الاتحادات أن لا يكون بين المتحدين تباين ما البتة ، كلا بل نعني أنهم يكونون يـداً واحدة أمـام غيرهم من الاصناف أو البلدان أو الاقاليم في مسألة من المسائل أوفى جملـة مسائل .

قلنـا إن هذه الاتحادات الثلاثة أي الإقليمي والبلدي والصنفي ممكنة" في أغلب الاحيـان ، ومن تقسيمنا وبياننا على هذا الوجه يعلم القاريء أنا نرى في الاتحادات عدم الصعوبة اذا كان المتحدون قليلين ، والصعوبة اذا كانوا كثيرين ولا سيما إن كانوا كثيرين جداً . فالاتحاد الصنفي هو أسهل الاتحادات ، ويليه في السهولة الاتحـاد البلدي ، ثم الاتحاد الديني ، ثم الاتحـاد الجنسي ، ثم الاتحاد الانساني ، بل الأخير لا يتجلى إلا بمثل اتحاد عقلاء البشر أمام الغوائل الطبيعية التي تتهدد النوع كلـه كاتحادهم على مقاتلة جراثيم الجدري مثلا .

قبل أن ننتقل من هذا التمهيد ننبه إلى أن مرادنا بالاتحاد الديني هنا الاتحاد الديني العام مثل اتحاد كل الوثنيين الذين في الارض مثلا على كل اليهود لو فرض وقوع ذلك .

* * *

وبعد أن نعلم كل هذا نلتفت الآن إلى اتحاداتنا نحن معشر العثمانيين ونقسمها على هذا الوجه فقط :

١ ـ اتحاد عثماني عام .

٢ ـ اتحاد جنسي عثماني .

٣ ـ اتحاد ديني عثماني .

٤ اتحاد سياسي عثماني .

وعلى هذا التقسيم نقول إن الاتحاد العثماني العام إنْ كان معناه أن يكون العثمانيون كلهم على بروغرام واحد ومتفقين على اختيار أشخاص معلومين للإدارة والسياسة فمثله كمثل الاتحاد الانساني ، أي أنه لا يكاد يرجى ويتجلى إلا إن كان بمثل النفرة والامتعاض من الجرائم الغادرة كإيطاليا مثلاً ، ولكن هذا لا يمنع أن يسعى عقلاء العثمانيين لايجاد الألفة والمودة وحسن السلوك فيما بين الجماعات التي تختلف من العثمانيين إذ ليس الأمل بمنقطع من التصافي والتواد في حين وجود قليل من الاختلاف ، كلا بل الائتلاف مأمول ، والاختلاف لا يزول .

أما الاتحاد الجنسي العثماني كاتحاد الروم العثمانيين مثلاً فهو غير متعسر وليس مضراً بمصلحة الدولة أيضاً اذا وجد الرجال الذين يربون الاجناس على تربية سياسية من شأنها أن تجعل كل جنس يحب

أخـاه ويحترمه ويعلم أنـه يـده وعضده ، أما قبل شيوع هـذه التربية فهـو مضر .

وأما الاتحاد الديني العثماني كاتحاد اليهود العثمانيين مثلاً فهو أسهل مما قبله ولكنه تحيط به الظنون قبل أن توجد تلك التربية التي أشرنـا إليها .

بقي الاتحاد السياسي العثماني أي اتحاد جماعات من العثمانيين على قبول خطط (برغرامات) واختيار أشخاص للإدارة والسياسة . هذا أسهل كل هذه الانواع وهذا المرجو لإيجاد التربية السياسية التي نوهنا بهـا ، وهو نافع جداً بشرط أن لا يصل الخلاف بين الأحزاب الى درجة العنـاد والمكابرة وأن لا يوسع ميادين السباب والمهاترة ، وبشرط أن لا يؤدي التشيئع الى قطع الرحم الجامعة وإحـداث أمور تصبح بها عيون المخلصين هامعة ، وتجعل الانصاف وحسن السلوك لا تبصرهما باصرة ، ولا تسـمـع بهما سامعة .

هنا نوضح لإخواننا العثمانيين كلهم أن إخواننا الاتحاديين إن كانوا لا يزالون يريدون من الاتحاد الذي يدعون اليه الاتحاد العثماني العام فإن ما ذكرناه آنفا يفيد أن بينهم وبين غيرهم مباينة عظيمة في أصل موضوع الاتحاد ، وإن كانوا قد أصبحوا اليوم عارفـين أن الاتحاد العثماني العام صعب كالاتحاد الانساني العام فإن تلك المباينة العظيمة تزول وتبقى مباينة خفيفة في البرغرام لها نظائر كثيرة بين أهل البيت الواحد ، وحينئذ ينبغي أن لا يروا أنهم أغيرُ على حقيقة الاتحاد من غيرهـم من العثمانيين المشتغلين بالسياسة مثلهم ، ويكون لفظ الاتحاد الذي يعنون به دالاً على جماعة متحدين ضمن دائرة برغرام

سياسي ، كما أن الائتلاف مثلاً عنوان دالّ على جماعة متحدين في برغرام آخر .

نحن لا نقول إن المباينة التي في المذاهب السياسية بين الاتحاديين والائتلافيين خفيفة جداً بحيث لا تذكر ، كلاّ بل لكان من الفريقين مذهب في إدارة البلاد وسياستها مباين حق المباينة لمذهب الآخرين ، وإنما نقول إنه اعتصم كبار الفئتين بتحكيم القواعد التي ينبغي أن ننهج عليها معشر العثمانيين في تربيتنا السياسية فإن تلك المباينة على وضوحها تنحصر حينئذ في دائرة ضيقة ، وهذا هو الذي يرجوه العالم العثماني الذي كاد يتأفف كثيراً من توسع ميادين العناد والمكابرة . نقول هذا بصرف النظر الآن عن تعيين الجهة التي يكثر منها صدور تينك الخلتين .

وإذا كانت الأوقات الحاضرة غير مأمولة بالتمام لبلوغ هذه الأمنية فما هي من المستحيلات على الدوام ، ولعل غداً خير من اليوم ، والرجاء على كل حال أولى من اليأس . إن الجواد الكريم سبحانه لا يحب من عباده القنوط .

الحقّ والواجب في الانتخابات (*)

للانسان في هذه الحياة حقوق كثيرة وعليه واجبات بقدرها ، إذ ما من حق إلا وهناك واجب يقابله سواء كان ذلك من الحقوق الطبيعية أو من الحقوق الوضعية ، ولولا الواجبات لما رسخت قواعد الحقوق ولا قامت أركانها ، ولذلك يصح أن نسمي مجموع مسائل الحقوق علم الواجبات ، ولكن لدخول القسم الأعظم من الواجبات في علوم أخرى غير ما عرف من علوم الحقوق المعهودة كانت التسمية بعلم الحقوق أقرب وحينئذ يكون اسم « علم الواجبات » مدخراً لمجموع مسائل الاجتماع البشري •

نقسم الواجب إلى ثلاثة أقسام قد يرجع بعضها الى بعض وقد يستقل كل واحد منها عن أخويه • الاول ما يوجبه الاعتقاد الديني أو المذهبي ، الثاني ما يوجبه الوضع العرفي أو السياسي ، الثالث ما يوجبه الوجدان الشخصي ، فعند اجتماع المؤثرات الثلاثة في دعوة المرء الى فعل أمر أو تركه يكون المرء مستريحاً تمام الاستراحة وناشطا تمام النشاط في الغالب للقيام بالواجب ، وعند وقوع التعارض في نظر المرء بين هذه المؤثرات يحصل في فكره اضطراب

---

* جريدة (الحضارة) العدد ٩٥ (٢ شباط ١٩١٢) •

وفي عزمه تزلزل ، ثم اذا نهض الى تنفيذ دعـوة أحد المؤثرات كـان متلكئاً وانيـاً .

إن السير مع هذا المبحث الى آخره وبيان مواضع اجتماع هذه المؤثرات ومواضع افتراقها ووصف الأحوال عند تعارضها كل ذلك يستغرق شرحه المجلدات ويدخل فيه علوم النفس وعلوم التشريـع السماوي والتقنين الوضعي ، وبديهي أنه ليس من شأننا أن تتصدى في مثل هذا المقال الموجز الى كل هذه التفاصيل ، أما غرضنا في هذه النبذة فهو التنبيه الى أن في مسائل الانتخابات حقوقاً وواجبات وأن بينهـا وبين تلك المؤثرات الثلاثة علاقة وارتباطـات ، فمن أجل هذا بدأنـا المقال بتلك المقدمة ، والآن نشرح ما هنالك من هذا القبيل .

اصطلحت الامم الأوربية في الأزمنة المتأخرة على اختيـار شكل للحكومة من شأنه أن يكون فيه للأمة شركة في الحاكمية ، حتى إن الحاكمية كلهـا للأمة عند بعض الأمم ، ولكن مهما كانت الأمـة لها الحاكمية كلهـا لا تستغني عن إقامة فرد إليه المنتهى في التنفيذ . وعلى هـذه الطريقة يجري نصب الامام الأعظم عند المسلمين ، ولذلك إنمـا تنعقـد إمامة الامام بالمبايعة ، والذين يبايعونه هم أهل الحل والعقد . وقـد كان أكابر الصحابة في صدر الاسلام هم ذوي الحل والعقد ، أما بعدهم فقد اختلفت الاجتهادات في تعيين من هم أهل الحل والعقد . وفي خلـع عبد الحميد قد اعتبر العلماء هيئتي المبعوثين والأعيـان هم أهل الحل والعقد وهم الذين نفذوا فتوى شيخ الاسلام بخلعه ، وعليه يصح أن نقول الآن إن أهل الحل والعقد اليوم فئتان : فئـة

من كبار الأمة وأهل سابقتها في المهام العسكرية أو الادارية أو العلمية أو غير ذلك مما فيه خدمة الدولة ، وفئة تنتخبهم الأمة وتنيبهم عنها لينطقوا بلسانها في رغائبها وآرائها في القوانين التي ستجري وتنفذ عليها ، وليرصدوا حركات الوزراء والعمال الذين ينيبهم الإمام الأعظم عنه ، حتى اذا رأوا منهم مالا يصلح للأمة ودولتها كانوا سبباً في دفعهم عن منصة أحكامها .

هذه الطريقة شرعية كما أوضحناه للقارىء ، ووضعية سياسية لأن الأوربيين هم الذين أحيوها أخيراً بعد أن كنا قد نمنا عنها ، ووجدانية (في الغالب) لأنه لا شيء أسرّ لقلوب بني هذا النوع الإنساني من رفع شأنهم وكشف الغطاء عن حقوقهم الأساسية . ومتى تذكر القارىء هذا يتذكر أن المؤثرات الثلاثة (الدينية والوضعية والوجدانية) مجتمعة في دعوة من له حق بانتخاب النائب الى عمل الواجب بأمر هذا الانتخاب ، كما أنها مجتمعة أيضا في دعوة الذي يصير نائبا الى عمل الواجب .

وبما تقدم يعلم القارىء أن أمر الانتخاب قد أصبح حقاً من أعظم حقوق الأمة ، ولأجل إيجاد هذا الحق الذي هو أساسي في الحقيقة قد تعبت الأمم كثيراً ، ونحن أيضاً لم ننله إلا بتعب فلذلك يجب على الأمة قبل كل شيء أن تعرف له الشأن اللائق به وأن تكون متهيئة دائما للاحتفاظ به والمدافعة عنه ، وبعد هذا يجب أن تجعل الشكر عليه إحسان العمل في الانتخابات ، وإذ كنا الآن حديثي عهد بالحكومة النيابية ولم نقطع عن عهد الحكومة المطلقة مراحل كثيرة يجب على

الأمة أن تنفر كل النفرة من انتخاب الذين ليس في فطرتهم وتربيتهم وقابليتهم الميل الى حاكمية الامـــة وتعظيم حقوقها الاساسية والذين يخدمون كل قوة ويميلون معها وإن مالت الى الحكم المطلق وجنحت إلى استعباد الامة وأزهقت نزوعها نحو الحرية المشروعة .

هذا ما أقوله اليوم ولي عودة الى هذا الموضوع إن شاء الله تعالى .



الى قرائنا الأعزّاء (*)

بعد انقطاعنا أربعة أشهر عن الكتابة في جريدتكم التي تودونها وتوأزرونها ، نرى أجدر شيء بنا الآن أن تكون أول كلماتنا بعد عودتنا هي تحيتكم : فسلام عليكم ورضوان الله تعالى .

ليس انقطاعنا هذه المدة ناجما عن سفرنا الذي استغرق هذا الزمان كلـه ، فاننا في السفرات الماضية كنا نكتب ونرسل الى الجريدة ولكن ذلك انما نجم عن انكماش في الارادة به كنـا نزهد في أن نقول أو نكتب شيئا كلّ تلك البرهة وقد عرف ذلك منا خاصة أصدقائنا ، ولولا أن كانوا وقوفا على سببه لكان ذلك موجبا لاستغرابهم ، أما سببه فهو بالاجمال ما رأيناه من شيوع قلة الاعتبار بما حل في البلاد من المصائب ، وتهجم العدو على ثغورنا ، مع ضعف حولنا وصولنا في البحر ، وقد كانت مفاجأة الغادرين لثغرنـا العظيم بيروت بعد أيـام قليلة من وصولنا الى ذلك الوطن ، فرأينا شيئا من الحزن باديا على الوجوه ، ولكن مالبثنا أو رأينا من آثار القلوب ما يدل على أن هذه المصيبة لم تلق في النفوس شيئا من الاعتبار الحقيقي الذي كان ينتظر منه أن يخفف في البلاد الأحقاد أو يزيلها كما هو شأن الشدائد ودأبها .

سنتكلم ان شاء الله تعالى في هذا الموضوع كلاما خاصا مسهبا ،

---

* (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١١ ، تاريخ ٢٣ مايس ١٩١٢ .

أما الآن فنكتفي بهذا القدْر الذي دعانا اليه ما يجب علينا أمام القراء من الاشارة الى سبب انقطاعنا عن الكتابة في جريدتهم هذه قريبا من أربعة أشهر .

وأرى من المناسب أن أقول الآن أيضا عن شأننا الخاص في الانتخاب ، وعن نيتنا وخطتنا في الجريدة ، بعد التشديد الذي عرفوه في أمر الصحافة ؛ فأما الانتخاب فكانت نتيجته أنه لم تُقسَم لنا الخدمة هذه المرة في مجلس الأمة ، فمن كان عارفا كيف كانت حكاية الانتخابات في البلاد كلها فحسبُنا وحسبُه ما يعرفه ، ومن كان لا يعرف فليس بمهم لدينا أن يظنّ ما يشاء فمن يظن أن الناس كان لهم الخيرةُ واختاروا من هو خيرٌ منا ، فان ظنه يسرُّنا ، اذ هو مؤذن بأن بلدنا آهلٌ بالصالحين لمثل هذه الخدمة ، ولا يحرص على أن يُسمَّى وحيدَ بلده الا فاقدُ الاخلاص ، ومن يظن أن الناس هناك غُلبوا على أمرهم أو أخطأوا فانا نقول إن لهم ما لسائر الناس من المعاذير في مثل هذه الشؤون ، وبالجملة فما نحن بعائبين أحداً ، ولا عاتبين على أحد ، من هذه الجهة ، ولا ذلك يصرفنا ان شاء الله تعالى عن المضي في خدمة بني نوعنا ، بقدر ما يمكننا وعلى النحو الذي نصلح له ، ونساق اليه ، بيد العناية غيرَ تاركين سبيلا للانكماش من شوائب بعض هذا النوع .

الجريدة ستبقى بحوله سبحانه وتعالى ، على خطتها من قول ما تعتقده الحقّ وتظنه الاصلحَ من الآراء ، والاصدق الأصح من الانباء ، ولعلّ القراء يعلمون أن جريدتهم هذه لم يُنشئها حزب من الأحزاب ، بل أنشأها صاحبها بسَوْق من الهام الله تعالى ، وترغيب

منه له بخدمة قومه ، من طريق الصحافة ، وتسيير من عنايته سبحانه ، وكذلك لم تكن متشيعة لهوى فرقة من الفرق بل كانت كلٌ عمرها تابعةً للاعتدال الذي حاز قبولا من ذوق العلية من قرائها ، ولقد كان صاحبها عضوا في مجلس الأمة ، وكان له اعتقادٌ بأن حقٌ المراقبة على الحكومة وهو أكبر ما ينتظر من فوائد المجالس النيابية ، لا يتمُّ الا بوجود حزب مبتعد ، جهدَ امكانه ، عن منافذ التملق للحكومة ، فكان من جملة الساعين الى تأليف هذا الحزب ، ولكنكم تجدونه مع ذلك لم يجعل الجريدة آلة هوى لذلك الحزب ولم يخرج فيها عن حدود الاعتدال ، الا اذا كان قد وقع ذلك في مرات قليلة جدا ، فذلك الاعتدال سيظل على ماعهده القراء ، بل سيكون أكثر تجليا ، وتلك الحرية ستبقى بل ستكون أطيب ان شاء الله تعالى .

ولقد يتشاءم كثير من الناس ، ويظنون أن الحكومة ستقاوم جريدتنا ، أو توقف حريتها ، أما نحن فإننا مع كل ما نعرفه ، لا نود ان نكون بهذه الدرجة من إساءة الظن ولكن إن صدقت ظنونهم فاننا لا نندم على تحسين ظننا ، وربما عوّلنا يومئذ أن تصدر الحضارة في أفق آخر ، فمن سايرها من القراء حيث تسير ، وصار معها أنىّ تصير ، فاولئكم كرام قرائها المشكورون ، ومن ساير الزمان والمكان فما هو عندها من المعتوبين .

هذا ما نقوله الآن بعد تحية قرائنا الأعزاء ، والله سبحانه هو المستعان ، وهو يلهمنا واياهم حسن التعاون على ما به خير الوطن ، انه المرجوّلجلب كل خير ، ودفع كل ضير ، وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب .



المؤتمر (*)

أهم أحاديث اليوم : حديث المؤتمر الذي تتناقل الصحف فيه الأخبار والآراء ، وأهم الموضوعات السياسية اليوم في أوربا موضوع الحرب الطليانية العثمانية ، واشتغالهم بنا الى هذا الحد جدير أن يشغل بالنا جداً ، ويجعلنا ننسى ونعفو كل الخطيئات الداخلية ، وإن كان لبعضها علاقة باشتداد التحامل الخارجي .

أوربا مهتمة اليوم كل الاهتمام لأحوالنا الحاضرة ، لان لها علاقة عظيمة بشؤونها الاقتصادية ، ومسالكها السياسية ، وقد أوشك أن يحصل هناك اشتعال أو انفجار في السياسة لزيادة الاحتكاك في الشؤون ، وتراكم المشكلات .

وبمقابلة اهتمام أوربا لأحوالنا ، يجب أن يكون اهتمامنا نحن أزيد ، ويجب أن نبذل الجهد في التناصح ، والتصافي والتصافح ، والتذاكر والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وان نعمل بالجملة عمل الإخوان بكل معنى الكلمة عسى أن يثمر كل ذلك من اهتمامنا تخفيفاً للشرور المحذورة من اهتمامهم .

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١٢ ، تاريخ ٣٠ مايس ١٩١٢ .

إن تعاملنا معاملة الإخوان واجبة في كل زمان ومكان ، والتواصي بهـا من جملة الواجبات على كل بني الأوطان ، وياحبذا لو تسمح بها الأيام ، ولكن للطبائع البشرية مقتضيات لا بـد من حصولها ، ولا يُؤمل الرجوع الى ذلك الإخاء الصافي الا في إبّان الشدائد ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد ، ونحن اليوم ، معشرَ العثمانيين ، في شدائدَ لم يبق إنكارُها جائزا في جميع مذاهب السياسة فعسى أن نُحسن اليوم الإخـاء .

نحنُ أصبحنا منفردين تمام الانفراد أمام أمم كثيرة العَدد والعُدد، مجتمعة أحسن اجتماع ، تُحاربنا اليـوم ايطاليا في كـل بلادنا اذا استطاعت وليس في طرابلس الغرب فقط واذا أخلت هـذه الحرب بمنافع احـدى الدول ، تجد تلك الدولة لا تكاد تستطيع قمعها لان ايطاليا تأوي الى ركن شديد من محالفة ألمانيا وأوستريا ، ثم إن غير إيطاليا تريد أن تقنص أيضا شيئاً ، وتغتنم فرصاً سانحة ، فمن أجل هذا كلـه لا تستطيع الدول بعد اليوم أن تترك الامر فوضى ، ومن أجل هذا وغيره من الاسباب يتحدثون بعقد مؤتمر دولي .

نحن اليوم أمام حوادث عظيمة أصبحت متعاصيةً علـى الكتم والاخفاء ، ولقد كان العقلاء يرون بنور البصائر أن هـذه الحوادث آتية ولما تكن يومئذ ، أما الذين زين لهم التغرير فقد كانوا يُغمضون الأبصار عن كل نذير ، وكذّبوا بكل صيحة ، واستهتروا بكل آيـة من آيات الخطر ، واجتهدوا أن يسكتوا كل ناطقة من نواطق التنبيه .

ولست أدري أفتَحِت العيون الآن وشاهدت كيف أحيط بالدار ، أم لا تزال الابصار مغلقة ، والألباب خالية من اللوعة ، مع اقتراب السعير ، وفقد الظهير .

وليت شعري أتبقى الصحافة مع كل هذا آخذة بأشباه الهزل ، ومسخرة للأحقاد ، أم تأخذ رجالها من هذا الواقع أمام عيونهم هزة من هزات الجد ويهيب بألبابهم صوت من دواعي حب الوطن فيغلب يومئذ فيها التنادي الى ارتياد سبل النجاة ، مادام ثمة بصيص من الرجاء قبل أن تنطفىء منه آخر لمعة ولكن ماذا تصنع الصحافة وقد بات صوتها متضائلا ضعيفاً ، ونورها خامدا تائساً ، وقد اندس فيها أعمار زادوها إقرافاوأسرفوا في النقصمن فوائدها إسرافا .

ما هي تلك الحوادث العظيمة التي نحن أمامها ؟

قد أصبح الاطفال يعرفونها كالرجال ، والعور يبصرونها ظاهرة واضحة كذوي العينين ، إنها لبعض ما كنا نكثر الانذار به من غايات هذا المسير : فتن من الداخل كقطع الليل ، وحملات من الخارج تبتر حبال الامال ، وتستر وجوه المخرج والمناص ، تستهزىء بالذين كانوا يستهزئون ، وتزيد آلام المخلصين الذين كانوا بالمنذرات يصدقون .

لقد كنا وصفنا الحالة وصفاً جيداً ، عقب وقوع حادثة طرابلس الغرب ، وقلنا يومئذ إن هذه الحادثة على عظمها ، هي أصغر مشكلاتنا ، ولعل بعض الذين قرأوا تلك العبارة ذلك اليوم ، حملوها منا محمل المبالغة ، وياليت الايام أبقت قولنا ذلك داخلا في أبواب المبالغة ، ولم تخرج به الى فضاء الحقائق الراهنة ، ليت الأيام لم تأت بدليل على أننا إنما نكتب عن حس سليم ، خالص من شوائب الهوى والرياء ، ونظر صحيح متمرن ممتد الى بعيد غير غافل عن الماضي الذي هو خزانة الأشباه ومصنع المقاييس .

ها نحن أولاء وقوفاً شاخصين أمام ما صدّق ذلك القول ، فإن إيطاليا من بعد أن وعدت الدول بصورة غير رسمية بالتمـام ، أن لا تعدو في الحرب ساحة طرابلس ، أخذت اليوم تتجاوز على غيرها ، ويعلم القـراء أننا لم نكن من المصدقين بوعدها ذلك ، بل كنا نذهب الى ما هو طبيعي تقريباً من أن نار الحرب متى شبت بـين الدولتين يصبح من الصعب حصرُها في بلد واحد من بلادهما ، والعقل يُسلّم بأن ايطاليا لم تكن لتحدّثَ نفسها بأن تطمـع أمام أخواتها الدول بغير طرابلس الغرب ولكنّ الطمع بغير طرابلس الغرب شيء والتجاوز على غيرها لاجلها شيء آخر ، وتفاقم الشر وتولد الاطماع كلّما طالت الحرب شيء ثالث» .

رأت ايطاليا أن سبعة من الشهور مرت من غير أن تنـال الأرب الذي تريده من طرابلس الغرب ، وهـو أن تتركها دولتنا العلية لقمة سائغة كحق طبيعي (؟ ؟) ، رأت أن بين عرب طرابلس ودولتهم رابطةً متينـة بها آثروا أن يفنَوا عـن آخرهم ، في سبيل دينهم وشرفهم وشرف دولتهم وبها آثرت دولتهم أن تتحمل أثقـل المشكلات في الدفاع عنهم والمحافظة على إبقائهم في ظلها وحمايتها ، كـمـا هي رغبتهم وآمالهم ، فتكاتفت هناك القوتان ، وقام منهما سد» منيع ماثل للعيان أمام تلك المغازي الباغية ، رأت أن من الصعب اقتحام تلك القـوة التي تكونت في داخل البلاد بصورة لم تزل غامضة علـى أفكارهم ، وأفكار كثيرين غيرهم ، فلما رأت كلّ هذا وكانت قد تهورت باعلان امتلاك تلك البلاد ، لم تجد بُـداً من النزوع الى التضييق ، فانه أحسن آلة للانفجار ، وبلـوغ الأوطـار ، وقد ظهر

أن الطرق التي عمدت اليها من أجل التضييق ، انما تقصد الوصول بها الى إحداث حــرج في صدر دولتنا ، وصدور الدول معاً ، ومن ذلك ضربُها الدردنيل ، ووضع يدها على الجزر التي خارجه وعلــى أبوابه . بهذا الصنيع اضطُرّت دولتنا الى سد الدردنيل بالمنفجرات ، ولكن ما لبثت الدول أن تضايقت من سده فسعت إلى فتحــه ففتح ولم يشترط في فتحه أن لا تعتدي إيطاليا عليه مــرة اخرى ، فإن يتجاوز أولئك الباغون تجاوزاً آخر ، وحينئذ لابد من سده ، يرجع الحرج الى صدور الغربيين أرباب تجارة الدنيــا .

اختارت طائفة" من جرائدنا طريق التجلد ، فلمــا ضرب أسطول العدو ثغر بيروت قالت : هذا ليس بشيء ، ثــم ضربت الدردنيل ، فقالت : ليس بشيء ، وتبين أن روسيا تكثر من حشر جيوشها علــى حدودنــا ، فقالت : ليس بشيء ومســألة الأرناؤوط ليس بشيء ، والإدريسي : ليس بشيء ، وصعوبة الاستقراض في هذه الآونة : ليس بشيء ، ومهما زاد على كل ما تقدم فهو : ليس بشيء ، فليت شعري ما هو الشيء ، وكيف يكون الشيء إذن ؟

نعم لا بأس من بعض الوجوه بالتجلد ، وهو عمل سياسي قد ينفــع أحيانا ، ولا يجوز أن نُنكره البتــة ، بل قد يجب الاعتصام به في بعض الأوقات ، ولكن لكل شيء حدود ، وعندنا أن التغافل عن كــل هذه الامور يعــد مجاوزةً لحدود التجلد ، لانه قد برح الخفاء ، وظهر اليوم كلُّ شيء ، ظهورا تاما والمروءة الآن انما هي بارتياد المخالص وليست بالعبارات الحماسية التي تزيد الغرور ، وتُضاعف الشرور ، فلقد رأينا كثيراً من العقلاء في هذه الايام وألفيناهم كلَّهم

مُجمعين على استعظـام الواقع ، ولكنهم مختلفون في وجوه المناص ، فمنهم أناس قد باعدوا بينهم وبين الامل ، وقـد كنا نعرفهم أمس مسوقين بأمل كبير الى ارتياد وجوه المخلص ، ومنهم أناس بقي في حياة أملهم ذماء ، ولكن فقدوا معه مجال الرأي ، فهم حائرون ، ومنهم أناس أفقـه في سنن الواقعات ومجاري الاحوال ، وأقوى قلبا أمام الحادثات ومنافذ الاهوال ، هؤلاء قد وجدنا لهم أمـلا يسيرون به متأدبين واقفين به مع الحدود فلا يكثرون اللوم على ذوي اليـأس ، ولا يجارون ذوي التجلد ، هؤلاء قد انتعشنا بوجودهم ، فإن القراء يعرفون أننـا نكـره اليأس ، لانه مثبط للهمم ، محبط للاعمـال ، ويرى هؤلاء أن المؤتمر الذي تتحدث به المحافل الاوربية ، لا بـد منه ، وأن التمهيد والسعي لتنقيض السوء علينا فيه بقدر الامكان ، خير" من تركه لشأنه واهمال الأمر فيه كمـا سبق الاهمـال في كثير من الشؤون •

أما نحن فنخشى عواقب المؤتمر ، ولكن هل يتأخر عقدُه اذا لم ترض بـه دولتنا ؟ هذا نؤخر الآن رأينا فيـه •

حول الحرب (*)

(ذكرى جميلة)

من عرف تاريخ الحروب الماضية يستطيع أن يبدي حكماً في هذه الحرب الحاضرة ، إذ معلوم مما سلف أن القوة تغلب الضعف وتنال منه ما تريد ، ولا يحتاج العلم بموضع القوة وجانب الضعف في حربنا هذا الى زيادة إمعان ، فان إيطاليا قد تبدّى ضعفها لولا أسطولها ، لكن فريقاً من العقلاء يجعلون محطّ النظر في هذه المسائل سياسة أوربا ، فانهم يرونها بحد ذاتها تحدث قوةً وضعفاً لأحد الجانبين ، ولذلك يتطلعون الى مطالع السياسة وآفاتها أكثر من تطلعهم الى أخبار وقائع الحرب ، على أنه لا ينبغي أن يذهل المطالع عن أن وقائع الحرب لها تأثير أيضا في تكييف السياسة الأوربية في هذه المسألة ولذلك نجد إيطاليا مجتهدة بحشر جيوش جديدة لتعمل بها على زعمها أعمالا أعظم مما مضى في جهة لا تزال مجهولة ، والأمل بجيوشنا الباسلة أنها تعيد جيوشهم بالخزي والخيبة أنّى توجهت .

اليوم كأمس والسياسة كثيرة العجائب ، وما امتاز عصرنا به على

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١٣ (٦ حزيران ١٩١٢) .

العصور السابقة من الامتيازات لا ينفي المشابهات الكثيرة بينه وبين سائر العصور ، لأن مظهر تلك الامتيازات هو الإنسان ، وهو حتى الآن على ما كان عليه ، طبائعه هي هي ، وبحر استعداده الواسع هو هو ، وما نعرفه عن الانسان الماضي من الصفات العامة التي هي أمهات أخلاقه وأحواله كالشهوة والغضب ، والإفراط والتفريط ، والضعف والقوة ، والغفلة والانتباه ، كل ذلك نراه في الانسان الحاضر . وكما شحنت العصور السابقة كذباً ونفاقاً وخيانة ومكراً وحيلاً هكذا نجد عصرنا مشحوناً بمثل هذه الخلال ، وكما نجد في يومنا هذا شيئاً قليلا من الأخلاق المناسبة هكذا نجد مثل ذلك في العصور الماضية ، والمشابهة العظمى نجدها في تكالب الناس على ما يسمونه المنافع ، هذه هي التي دارت عليها سياسة الأولين وهذه هي التي تدور عليها سياسة المعاصرين ، فالذي نأمله هو أن ترى الدول منافع لها بصد أولئك الغادرين والسياسة كثيرة العجائب ، واليوم كأمس كما قلنا وقد ضرتنا سياستهم أمس أحياناً ، ونفعتنا أحيانا ، فنرجو أن ننال اليوم من نفعها .

على أنه يجوز أن يساء الظن ويجوز أن يقال إن حربنا الحاضرة لا يصح أن يبدى فيها رأي ، وأنها توجب حيرة الفكر ، فانها غريبة الشكل في عدة وجوه ، ومن جملة غرائبها العظيمة أن ألوفا من الطليان يوجدون داخل بلادنا كل هذه المدة وأن سواحلنا من أولها الى آخرها معرضة لتهديد الخصوم وليس بينهم وبين العدوان عليها إلا أن يصيبهم جنون يدوسون به كل الأصول الموضوعة كما أصابهم الجنون من أول الامر بدوس الاصول في التجاوز على بلدة آمنة مطمئنة .

نعم إن الحرب غريبة الشكل من أول أمرها ، فإن تلك الدولة الغادرة فاجأت تلك الولاية وهي آمنة مطمئنة ، ولم يتقدم عدوانها ما يتقدم مثله بحسب العادة من الحجج والدعاوي بل لم تكن حجتها إلا أنها أحق بامتلاك هذه الولاية وهو شيء يقل نظيره في سير الأمم الماضية ، فإن الدول كانت اذا تفارقت على سلم تتحاشى كل واحدة منهن أن تفاجيء بالغدر لغير ما سبب ، هذا هو شأن الأمم التي تحضرت وقوي في الحضارة جذورها ، أما الأمم العريقة في البداوة فهي خارجة عن هذه الزمرة التي تتكلم عنها • وقد زادت المعاهدات في عصرنا فكانت الدول المعاصرة أجدر أن يُنتظر منها اتقاء الغدر حتى جاءتنا فعلة إيطاليا هذه فعلمتنا هي وسكوت الدول عليها أن العهود ليست إلا حبراً على ورق وأنها لا تأثير لها في الحقيقة ولا تعطي ذرة من الطمأنينة •

إي والله إن إيطاليا اعطتنا بهذا الغدر درساً عظيماً ، وأفادتنا معرفة كبيرة ، ولكن قد كانت هذه المعرفة شديدة الإيلام فإنها جديرة أن تقطع آخر خيط من حبال آمالنا التي كانت متعلقة بالعهود والوعود الأوربية وما أصعب هذا اليأس اذا رافقه علمنا بموقفنا منفردين أمام محالفاتهم واتفاقاتهم •

إن فعلة إيطاليا دلالة صريحة وليست برمز ، إنها إعلان واضح على أنه لا ينبغي أن يستبعد شيء من الدول بعد ذلك ، لأن إيطاليا ليست بينهن ببدع في المسالك والتقاليد والعادات ، وليت شعري كيف تكون الطمأنينة بعد انصرام عرى الرجاء بالعهود على هذا الوجه الظاهر الواضح ؟

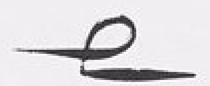
لكن ليخسأ الغادرون وليعلموا أن غدرهم هذا سينفعنا للآتي ، انه يُرجى أن يفيق به إخوان كانوا نياماً ، وتظهر به حقائق أقوام بلغوا كثيراً من الأرب بالأخاديع • أي لعمركم لتخيبنَّ إن شاء الله تعالى الآمال الكبيرة لتلك الغادرة كما خابت كثير من ظنونها ، إنها كانت ظنت أن أسود العرب لا يقفون في وجهها تحت لواء دولتهم ، وبعد اقدامها على ذلك الغدر الشائن تبدّى لها مالم يكن في الحسبان •

تبدّى لها أن تلك الولاية وحدها استطاعت أن تقف في وجهها ، وقد مرت الشهور وهي لا تزال تذوق المر من مكافحة أولئك الأسود رضي الله عنهم ، ولقد كانت تظن أنها لا تحتاج في امتلاك تلك الولاية إلا إلى قلة حياء تظهرها أمام العالم الإنساني بالتهجم على مالا حق لها به ، ولعلها قد وجدت من شياطين الانس ثمة من زيَّن لها سوء عملها ومنّاها بأن يواليها سكان البلاد ، ويالله ما أضل هذه الظنون وما أخيب هذه الأماني •

ويالله ما أخفر تلك الدولة للعهود وما أكذبها بالوعود ، لقد كدنا معشر العثمانيين نظن أن رحى الحرب لا تدور الا في طرابلس ، ذلك لما سمعناه من أن الدول لا تمكّن أولئك الغادرين من التجاوز ، ولكن كان الظانون منا هذا الظن مخطئين ، بل هذا الظن جديراً أن يعدَّ من جملة غرائب هذه الحرب ، إذ كيف يُتصور أن يرجع الذين ثبت غدرهم عما هم بصدده من صنوف الطغيان والغي والبغي ما لم يقضوا وطراً أو يزجرهم زاجر قوي ؟ وكيف يعقل أن تقدم احدى الدول على صدهم وزجرهم من غير أن توطن نفسها على محاربتهم إذا هم لم يرعووا ؟ وكيف يظن أن احدى الدول توطن نفسها على الدخول في حرب أوربية لاجل مسألة شرقية لا يصعب حلها على رأيهم بغير ما تطاحن ؟ •

نحن بسبب أمثال تلك الظنون اشتغلنا بالاستهزاء أكثر من الجد ، إن إخواننا المسلمين في سائر الأقطار الاخرى هم الذين دعونا الى الجد وهم الذين أعانونا عليه ، ولذا يجدر بنا أن لا نترك ذكرى ما صنعه أولئك وما اهتموا به من هذا الشأن ، على أن شكرهم والثناء عليهم لا تفي به ألسنتنا وأقلامنا . أولئك إخوة كرام قد شجاهم من هذا الأمر ما شجاهم ودعاهم الى السخاء في مساعدتنا مادعاهم ، فجزاهم الله خير الجزاء ، ووفقنا لمكافأتهم أحسن مكافأة :

أخاك أخاك إنَّ من لا أخاً له ... كساع إلى الهيجاء بغير سلاح



م ١٩

حول الحرب أيضاً (*)

فوائد هذه الحرب

نحن غير ملومين اذا لم تذهب هذه الحرب عن فكرنا ، ولم تبرح نصب بالنا ، فانها لها علاقة شديدة بمستقبل أمرنا ، ومصير عالمنا ، فلا يعجبن القارىء اذا رآنا مكثرين من ادارة الكلام حول رحى الحرب ما دامت هذه الرحى دائرة .

وقد خطر ببالنا هذه المرة أن نأتي على ذكر شيء من فوائد هـذه الحرب ، لان أكثر ما كتب حتى الآن مشوب بالتأفف من مضارها ، على حين أن أكثر الاشياء لها منافع ولها مضار ، والعقل هو الذي يساعد بني النوع على استخلاص منافع الاشياء من بين مضارها بقدر الامكان .

نحن لا ينبغي أن نشتهي الحروب من حيث هي ، ولكن اذا وقعت واقعتها فلا ينبغي أن نهلع ولا يحسن أن ننظر الى جهة الضرر منها فقط، لأن ذلك قد يحدث خورا في النفوس ، ووهناً أمام الخصوم . على أنه ما دام الظلم كمينا في النفوس فلا يحسن أن يرهب الاحياء مما تحدثه هذه الطبيعة من الجدال والجلاد .

ما أشبه الحرب بالنار ، فقد يجد بعض الناس ضررا عظيما من النار

---

* (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١٤ (١٣ حزيران ١٩١٢) .

ولكن منافع النار لمجموع العالم أكثر من أن يحاط بها . هكذا كانت الحروب فيما سلف تحدث أذى كبيرا لبعض الامم وتمحو بعضها ، ولكن كان لها اليد الطولى في إيراء زناد الفكر البشري واخراج هذا النوع بالتدريج من أدواره الساذجة الى مستواه الحاضر ، وهو لا يزال يرجو فوق ذلك مظهرا .

كان البشر جماعات صغيرة متفرقة متباعدة لا تعرف الواحدة منها بما عند الاخرى ، فما زالوا يحتكّ ويصطكّ بعضهم ببعض حتى حملهم ذلك على التقارب والتفاهم والتواصل ، وحتى كاد معظم المتقدمين فيهم يصيرون كأهل البلد الواحد ، وكأنما الى مثل هذه الحالة يؤدي هذا السير البشري ، وليس معنى هذا أنه يرتفع الشقاق لأن أهل البلد الواحد يوجد الشقاق بينهم أيضا وانما معناه أن مجال التعارف بين هذه الذرية الآدمية يتسع ، وبازدياد هذا التعارف يزداد الركض في ميادين الاختراع ، فتعظم بمثل هذا قيمة هذا النوع في نظر أفراده ، وربما خفت يومئذ الحروب ولكن لا تستأصل جرثومتها .

إنا لا نريد ههنا أن نعطي هذا الموضوع حقه من الوجهة العلمية ونأتي بالشواهد التاريخية لتأييد قضاياه فاننا لسنا بصدد تأليف كتاب أو تحقيق موضوع ، وانما أتينا بهذه الكلمات القليلة تمهيدا لذكر فوائد حربنا الحاضرة وتنويها بأن للحروب من حيث هي فوائد جمة .

أما فوائد حربنا هذه فأكثرها سيظهر في المستقبل ، ولا يظهر هذا اليوم من تلك الفوائد الا انكشاف حقيقة البلاد المعتدى عليها لأبصار وبصائر كانت لا ترى تلك الحقيقة المهمة ، وهي أنها بلاد تضم أحسن الكنوز

للعالم العثماني ، تلك هي النفوس الطيبة التي ترى الموت في سبيل الدفاع عن الوطن خيرا من الحياة ان اغتصبه الاجنبي ، ومن له مثل هذه النفوس كان له الغنى العظيم وكان جديرا أن يكون ضنينا بالبلاد التي هي منبتها ومدافعا عنها الى آخر نقطة من الاستطاعة •

(١) إن الحروب مطهرة : تطهر المبتلين بها من أدواء الجبن والخور والكسل والشتات • ومأمول أن يستفيد العالمان العثماني والاسلامي من هذه الحروب زيادة شجاعة واقدام وعزم وحزم وتعاضد ، ومأمول أن تنجلي هذه الحروب عن تربية جديدة للامة ، لان الشدائد في حد ذاتها من أعظم المربيات لهمم بعض الرجال ولذا يكثر أن نرى الحروب تلد رجالا عظاما نوابغ في حسن التدبير وحسن قيادة العسكر والسيادة على أرواحهم وأشباحهم حتى يصبحوا قادرين على الميل بهم الى تذليل كل صعب ، واقتحام كل عقبة كؤود • ويمكننا أن نعد من هؤلاء النوابغ الذين ولدتهم حربنا هذه الاستاذ الشيخ سليمان الباروني ، مبعوث الجبل الغربي ، فانه كان أول من جمع الجموع من العرب للمقاومة في جهات طرابلس ولا يزال اليوم على رأس الجموع وفي مقدمتهم ، وكذلك نستطيع أن نعد من النوابغ العظام الذين أنتجت لنا هذه الحرب المعرفة بهم فتحي بك الذي دفع بنفسه الى طرابلس في بدء الامر وهناك كان أول الواضعين لخطط الدفاع ومؤلفي النفوس حول المنازلة والقراع • وأي المنصفين يستطيع أن ينكر صنيع سائر ضباطنا الكرام الذين في طرابلس وبنغازي ولا سيما كبارهم وقادتهم مثل نشأت بك وموسى بك وأنور بك وعزيز علي بك ؟ على أنه يحسن بنا أن تتذكر أيضا في هذا المقام همم الذين قادوا الافكار في مصر وتونس وسائر الاقطار لجمع

الإعانات ، وكذلك هم الذين قدموا أنفسهم لتطبيب المرضى والجرحى رضي الله عن الجميع •

(٢) إن الحروب حاسمة لجراثيم الامراض المزمنة ، ومرجو أن تكون عاقبة هذه الحرب الخلاص من بعض ما يعدُّ من أمراضنا المزمنة ، فسينكشف الغطاء في نهاية هذه الهيجاء عن حقائق مهمة كان ضعف البصر حائلا دون اختراق الحجب الرقيقة التي عليها لأجل رؤيتها ، فبانكشاف الغطاء لا نخلص من ضعف البصر وانما نخلص من عدم الرؤية •

(٣) إن الحروب تخفف أو تذهب الاحقاد التي تفعل في الامم أعظم من فعل النار في الهشيم ، وعسى أن لا نكون بالغبن في الاحقاد درجةً تعجز هذه الحرب الخائنة عن إذهابها أو تخفيفها • كلا بل نحن آملون أن يكون العافون بيننا أكثر ، ومهما جاء الصفح متأخرا فانه يفيد ويقلل الضرر • اننا لا نستطيع أن نصير ملائكة لا يعادي بعضنا بعضا ولا يتذكر إساءة غيره اليه ، ولكننا نستطيع أن نتذكر أن كثرة الاحقاد تساعد في النهاية العدو الذي هو أكبر فنضطر الى التصافح فيما بيننا مهما كنا حقاداً •

(٤) إن هذه الحرب ستعوّد أفكار الأمة الجولان في ميادين التضامن والتعاون ، وربما انتهى بها الى نتائج حسنة جدا ، ومعلوم أن داء الحرص على الحياة الفردية قد ترك آثاراً رديئة في جسم الامة ، ونعني بالحياة الفردية أن لا يهم المرء الا راحةُ نفسه وشهواتها ، وأن يصرف الفكر عن كل ما يتعلق بمنفعة الامة ومضرتها من حيث المجموع •

الحرص على الحياة أمر جِبِلّيّ لا نستطيع إنكاره على أحد ،

وكذا لا ننكر على أحد أن ينظر ويتفكر في أمر راحته ، وانما نجادل الذين يظنون أن الحياة الفردية تطيب في الامم التي يشيع فيها هذا الداء مهما توفرت وسائل الرفاه .

إن الامم التي لا تتحسن فيها أحوال الحياة الاجتماعية جدير أن يتغلب فيها من لا يخالط قلوبهم الانصاف ، فتكون آثار تغلبهم بالتسلسل شاملة لمعظم أفراد الامة حتى يصبح أكثر من تلقاه يشكو دهره .

على أن غريزة الحرص على راحة النفس هي من الغرائز التي تقبل التصرف والتهذيب ، وهي مستعدة أن تتغلب عليها تربية الإيثار والتضامن ، ولولا ذلك لما كان من فائدة لحث الناس على تحميل أنفسهم كل عناء وكل مفاداة في سبيل الدفاع عن الاوطان ، وفي سبيل إقامة العدل والحق ، وفي سبيل حماية الضعيف ونصر المظلوم ، مع أنه ما زالت تشاهد فوائد ذلك كلَّ يوم ، وهل تريد مثالا لذلك أوضح مما صنعه رجال الانكليز في الباخرة تيتانيك اذ قدموا النسوة على أنفسهم فأنقذوهن في قوارب النجاة واستسلموا هم للموت يرونه بأبصارهم آتياً اليهم وهم واقفون أمامه غير فارين منه ، وقد كانوا يستطيعون الفرار لو سمحت نفوسهم أن تبقى النسوة طعمةً للموت ويلتمسوا هم النجاة في القوارب .

هذا مثال واحد أتينا به لشدة وضوحه ، وهنالك أمثلة كثيرة ولله الحمد ، وما اندفاع أسودنا في طرابلس الغرب الى ساحات الموت الا من هذا القبيل ، فانهم انما يقدمون على تلك الساحات الهائلة غير هيابين ولا وجلين من الموت لاجل أن تبقى أمتهم في حياة أشرف لها مما لو كانت تحت يد الطليان الغادرين ، وبالامس حدثنا بعض الاصدقاء

الآتين من مكان الوغى أن قبائل بني سيف كانت وهي قادمة الى ميادين القتال تنشد أهازيج الحماسة التي تتضمن توديع ما في ديارهم من بشر وحجر وشجر كأنهم تقاسموا على أن لا يعودوا أحياءً الى تلك الربوع والديار ان لم يفوزوا بدفع الطليان وأرجاسهم عن بلدهم الطاهر •

نحن لا نعدم ولله الحمد أرومة الحياة الاجتماعية ، ولكنا نرى جراثيم الحياة الفردية متغلبة على تلك الارومة ، فنرجو أن تكون هذه الحرب كاوية منابت تلك الجراثيم حتى تضعف حيلها وحولها فتجد جرثومة الحياة الاجتماعية مربعا صالحا حينئذ •

(٥) ومن فوائد هذه الحرب أنها ستزيد انتباهنا الى أن القوى المعنوية مع كثرة فوائدها لا تغني وحدها عن القوى المادية ، وربما دفعنا هذا العلم اليقيني الى ارتياد أسباب القوى المادية أشد مما كنا نرتادها فيما سلف •

إن القوى المعنوية لا يصح أن يستهان بها فهي كم وكم فعلت الأفاعيل العجيبة ، ولكن من المعلوم أنه يعتبر ويقدّر لكل شيء حدود ، فكما أن الاستهانة بالقوى المعنوية خطأ كذلك تصويرها بصورة خارجة عن حدودها يكون خطأ •

قلت إن القوى المعنوية لها حدود ، وليس هذا القول من محض تصوري بل اقتبسته من سيرة أكمل الهادين وما أثر عنه صلى الله عليه وسلم من أقوال وأحوال • فانّا قد رأينا أنه كان يتخذ كل ما يستطاع من أسباب الغلبة في الحروب والمقاومة للخصوم ، وهكذا كان يوحى اليه مع أن قواه المعنوية الشريفة فوق كل قوى ، ومما أثر عنه عليه السلام أنه قال : انتصرت بالرعب مسيرة شهر ، فتجد أن انتصاره بالرعب كان

مقيدا بمسافة شهر مع أن الله سبحانه قادر على أن يجعل تلك المسافة أكثر من شهر ، وما ذلك الا تعليما وتبيانا واشارة سنية لطيفة ينبغي أن نفهم منها ومن أخواتها الاشارات الشرائف الكرائم . اننا مهما كنا أقوياء بمحبتنا بعضنا بعضا ومساعدة بعضنا لبعض ومهما صرنا أقوياء بالاخلاق الصالحة لا يغنينا ذلك عن اتخاذ آلات الدفاع ، ثم مهما كان اجتماعنا كلنا عن بكرة أبينا ممكنا ومهما كان خصومنا مثلينا في العديد وكان هذا الفرق لا يضيرنا ينبغي أن تتذكر أن هناك أمرا جديرا بالاعتبار وهو اعداد القوى المادية ، وهكذا درج أسلافنا رحمهم الله تعالى فلم يتهاونوا فيها لأنهم فهموا الوحي جيدا ، فكانوا يبذلون غاية الامكان ونهايـة الاستطاعة ثم يكون لهم بعد ذلك مع العـُدَد التي يتخذونها قوة أخرى عظيمة من توكلهم على الله سبحانه وثقتهم بعنايته عزّ وجل .

فهذا سنستفيده أيضا من هذه الحرب ، وهناك فوائد أخرى كثيرة ربما غاب بعضها عن ذهننا وبعضها لم يغب عن الذهن ولكن لا يتسع لذكره المجال ، في هذه الاحوال ، اذ لكل مقام مقال ، وما كل ما يعلم يقال ، والآتي حسن ان شاء الله تعالى ، وبه سبحانه وتعالى الثقة .

حول الصلح (*)

لم ترو البرقيات عن المحافل السياسية الاوربية أنّ هناك محادثات في الصلح بصورة ملتزمة كل الالتزام ، أما المحافل العثمانية فانها كلهاتنفر من لفظ الصلح لأن الصلح الحقيقي عندها هو أن تنسحب ايطاليا خائبة خاسئة ، ولكن يترشح من بعض مصادر الاخبار في أوربة أنه تجري ثمة محادثات لعقد مهادنة ريثما يقع الاتفاق على وضع شكل للصلح قد ترضى به المتحاربتان .

يشك الناس في أكثر الاشياء ، وتتردد خواطرهم وتتقلب قلوبهم وتختلف آراؤهم وميولهم في أعظم الاحوال التي تحيط بهم ، ولكن بعض الامور لا يرتاب فيها أحد ما كقولنا ان العثمانيين لا يرضون بصلح غير شريف لهم ، وبعض الشؤون تتفق فيها ميول أمة من الامم وتجتمع فيها آراؤها وتتجه خواطرها فيها الى وجهة واحدة تقريبا كاتفاق ميولنا على الصبر في هذه الحرب الى أن يخسأ العدو الغادر .

نعم نحن معشر العثمانيين نود الصبر في هذه الوغى ، ومع هذا تتشوف نفوسنا الى معرفة مصير هذه الحرب ، وليس هذا التشوف عن ضعف ثقة بنفوسنا كلا بل ذلك لأنا نحسب حسابا لسياسة أوربة قبل كل شيء ، ونظن أنّ لنا الحق في هذا الحساب .

---

* (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١٥ (٢٠ حزيران ١٩١٢) .

الإشراف على مصير هذه الحرب بالتمام صعب ، وأصعب منه الجهر بما يستطيع المشرف الوقوف عليه من هذا المصير ، وأصعب منها أن يبقى التساؤل عقيما غير منتج جوابا وأن يبقى للحيرة هذا النفوذ العظيم على النفوس ، فان الحيرة العامة تأتي بمرض شامل شديد الوقع مخوف العاقبة ، وهو أن تصبح النفوس مضيعة قوّتها التي تتألف منها قوة الحكومة ، وقد عرف المفكرون من قبل ومن بعد أن أول قوة للدول هي القوة التي في نفوس أفراد شعبها .

قلنا إن الإشراف على مصير هذه الحرب بالتمام صعب ، على أن هذا لا ينافي أن يدنو الفكر من المواطن التي يصح أن تكون من جملة المصير ، لأن المصير ليس جزءاً واحدا بسيطا كالعناصر البسيطة التي تتركب منها الاشياء بل هو مركب له صور وأجزاء متعددة ، وحينئذ يكون من السهل الوقوف على بعض المصير لا المصير بالتمام ، ولتقريب هذا نورد ههنا عدة مسائل تصحو الاذهان باكتشاف أجوبتها فتصبح قادرة على الدنوّ من تلك المواطن التي أشرنا اليها ، فليتأمل القارىء :

(١) أتظل هذه الحرب مدة طويلة أم لا تساعد السياسة الاوربية على شدة طولها ؟

(٢) لماذا لا تساعد السياسة الاوربية على شدة طولها ؟

(٣) اذا حالت تلك السياسة دون شدة طولها فهل ينتظر أن تتصدى لها بجد أكثر مما سبق حتى الآن ؟

(٤) أتتفق أوربة كلها على إرغام ايطاليا وارجاعها خائبة من كل شيء ؟

(٥) أم تتفق على ارغامنا أن نعطي لايطاليا كل ما تريده ؟

(٦) واذا لم تتفق على واحد من هذين أتبقى صابرة على الاختلاف

في حل مشكلة لا تريد بقاءها ؟

(٧) أم تجنح الى وجوب اقناع ايطاليا بشيء قليل واقناعها بختم الحرب مكرهين متنازلين عن بعض الحقوق ؟

(٨) ما تصنع أوربة اذا أصررنا على عدم التنازل عن شيء من حقوقنا ؟

(٩) أتتفق على محاربتنا ، وهل تقدم نحن على ايصالها الى هذه الدرجة ، وماذا نصنع حينئذ ؟

(١٠) وما هو الشيء الذي قد ينتظر أن تحاول أوربة اقناع ايطاليا واضطرارها إيانا الى التسليم به ؟

(١١) وهل تكون مذاكرات أوربة بواسطة السفراء كما هو جار أم يفتحون لذلك مؤتمرا ؟

(١٢) وهل يقتصرون في المؤتمر على مشكلة طرابلس أم يخرجون فيه أمورا أخرى ، وما هي تلك الامور ؟

الجواب عن هذه المسائل :

إن مما لا ريب فيه لدى أحد أن هذه الحرب ستنتهي ، ومما يغلب الظن فيه أن سياسة أوربة لا تساعد على شدة طولها ، فهي بحسب هذا الظن لا تبقى سنين كثيرة ، وكذا يظن أن انتهاءها سيكون بسبب تصدي سياسة أوربة لختمها لأن ايطاليا قد ظهر ضعفها في البر ، وبتنا نرجو أن تقهرها فيه قهرة عظيمة ، ولا يخشى على عزمنا أن يُقَلّ لقوة أسطولهم وضعف أسطولنا ، فان مثل هذا وحده من الاسباب لا يكفي لأن يجعل مثل أمتنا ذات الجيوش العظيمة الباسلة مذعنة لمثل الطليان ذوي العسكر الجبناء .

أما تصدي أوربا لختم الحرب فيجدر بنا أن لا نعلق عليه آمـالا لمصلحتنا ، لانه من المستبعد أن تتفق أوربة على ارغام ايطاليا وارجاعها خائبة من كل شيء ، أفليست هي تلك التي عرفناها وعرفنا نفسنا معها حتى اليوم وعرفنا أن كل واحدة من دولها انما تدور مع منافعها ، وماذا يتصور من المنافع لكل واحدة منهن حتى يتفقن في إرغام تلك الغادرة على الرجوع خائبة مما أقدمت عليه من الرغائب ؟ واذا كنا لضعف ثقتنا بالعهود السياسية (بعد أن سبرنا حقيقتها) نستطيع أن نتناسى التحالف الثلاثي الذي يصعب جدا تصور انفكاكه لغير مصلحة المانية ونمسوية فهل نستطيع أن نتناسى ما يترشح في هذه الايام عن برلين من الطموح الى بعض رغاب بحرية تضاد رغائب لندرة وباريس كل المضادة ، وحينئذ أنّى يتصور مثل ذلك الاتفاق الاوربي العام على تخييب ايطاليا البتة . وكذا لا نظن أن الدول تتفق على ارغامنا أن نعطي لايطاليا كل ما تريده لأن ذلك ليس من مصلحة كل الدول على ما نظن ولأن من البديهي أن ذلك لا يستطاع تنفيذه من قِبَلنا والحكيم يقول :

إذا شئت أن تعصى وإن كنت قادراً　　　فمر بالذي لا يستطـاع من الأمر

ومما لا ريب فيه أن أوربة ذات الروح الاقتصادية الفعالة لا تستطيع الصبر على بقاء هذه المشلكة التي تتدرج كل يوم من شديد الى ما هو أشد ، فهي من هذه الجهة لا تصبر على بقاء هذه المشكلة المهددة للاقتصاد والسياسة ولا تترك الاختلاف في حلها من غير أن تعالجه ، ولهذا نخالها من دون ما شك ستتباحث في هذا الامر بجد أكثر مما سبق ، ويظهر لنا أن نغمة المؤتمر التي خفتت قليلا ستتجدد لأن المخابرات الحاضرة بواسطة السفراء لا تجيء كافية بعد أن تأخذ الحرب شكلا آخر وتظهر

من خلف الستار سياسات كانت مختبئة في هذه المسألة حتى الآن .

هناك رغائب كثيرة متضادة وليس تضادها قويا بحيث لا يمكن أن تنتفي معه كل تلك الرغائب ، ولا ضعيفا بحيث يمكن أن تنال معه كل تلك الاماني ، وهذا ليس بمعنى يصعب اكتشاف كنهه كلا بل هو مفهوم ، ومعناه أن ذلك التضاد بين منافعهم لا يعول عليه في إيقاف مجرى المطامع وإن كان يؤخر بعضها أحيانا .

هناك أمور تود كل واحدة من تلك الدول أن تغتنم فرصة فيما تفكر فيه منها ، فما تضاربت فيها الافكار والآمال كل التضارب قد يجنحون الى اقصائه عن مطارح البحث ، وما يمكن فيها التفاهم والتقارب قد يرجحون اخراجه الى عالم البحث والمذاكرة ، نعم هناك أمور وما أسهل ايجاد الامور على من استراحت أذهانهم في داخل بلادهم وقاموا يفكرون في غنائم خارجها .

هناك مسألة البوغازات ومعلوم اهتمام روسيا بها ، وأمنية البحر الابيض ومفهوم غرام ألمانيا بها ، وهناك مسألة مصر وغير خافية رغبة انكلترة في تغيير شكلها ، ومسائل مكدونيا وليست بغائبة عن الذهن العيون المنصبة عليها ، والايدي المحركة فيها . ويستخلص القارىء مما تقدم كله أن اسم الصلح يخيفنا ، وأن اختتام الحرب أمر لا بد منه على كل حال لأن الحرب لا تكون أبدية ولانه مهما اختلفت سياسة أوربة نخالها متفقة في عدم الصبر على بقاء هذه المشكلة كما أوضحناه آنفا .

ويستخلص أيضا أننا لا نخشى أن تتفق أوربة كلها على ارغامنا أن نعطي لايطاليا كل شيء وانما نخشى أن تكلفنا بالتنازل عن شيء من حقوقنا لا كلّها ، وهنا نعيد هذين السؤالين : ما هو ذلك الشيء القليل

الذي قد تصر الدول على طلبه منا لتلك الدولة الغادرة ، وهل نصر نحن على مخالفة كل الدول اذا اتفقت ، وما هو عملنا يومئذ اذا وقع منهم الاصرار على شيء ومنا الاصرار على خلافه وأدى الامر الى انذارهم إيانا بالحرب ؟

بديهي أن الجواب على هذا السؤال من أصعب الصعب ، ولكنا نظن أن الامور اذا وصلت الى هذه الدرجة يرتفع حينئذ كل ما قد رتبته علوم السياسة وقواعد المدنية في العهد الاخير ، ونرجع جميعا الى العصور الاولى ، وفي تلك العصور كانت أمتنا تصبر على الشدائد مهما عظمت وتكافح فيها جهد طاقتها مهما طالت أيامها حتى يأذن الله بالتغيير والتحويل فيخلق من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفا ، كما يجعل من الحياة جمادا ، ومن الجماد حياة •

أما الشيء القليل الذي نخشى أن يتفقوا على طلبه منا فهو لم يتضح بعد ، ولم يترشح أخيرا الا ما ذكرناه في صدر المقالة من أنهم سيبادرون الى التكليف بعقد هدنة ومصالحة وقتية على أن لا تتجاوز ايطاليا حيث احتلت الى الآن الى أن تحل المشكلة حلاً دوليا ، ويقصدون بذلك أن يدفعوا شرا مستطيرا من اختلافهم في كيفية الحل اذا ظلت الحرب مستعرة لانه قد يخشى حينئذ أن تسري هذه الحرب الى ما بينهم وهم يتشاءمون كثيرا في مثل هذا •

أما نحن فما أجدرنا أمام هذه السياسات العجيبة الغائلة ، التي تؤيدها قوى مدهشة هائلة ، أن نحافظ على صبرنا وثباتنا وشجاعتنا ، وننتظر فرجا قريبا كم جاءت بمثله الايام من عند من شأنه تحويل الاحوال، وتقليب القلوب •

أشياء جديدة (*)

(تزييد التكاليف ـ المفتشون الاجانب ـ التقرب من الانكليز)

— ١ —

تزييد التكاليف

عرف القراء مما ذكر في العدد الماضي من الاخبار أن الحكومة قررت أن تضم خمسة وعشرين في المئة على معظم التكاليف الاميرية ولم نبد هناك رأينا في هذه المسألة . إنّا لا نجد لنا حقا في تخطئة الحكومة لاننا نعرف أنها انما عمدت الى هذا عن اضطرار ، بل نحن نراها ستضطر الى ما هو أعظم من هذا ، بل عندنا أن الحكومة لن تتخلص من مثل هذه الضرورات ما دامت أبواب احتياجها الى المقاومة مفتحة ، وما نخال هذه الابواب تغلق .

نعم لا نخطّىء الحكومة لأنا نرى ما أمامها وما وراءها وما فوقها وما تحتها ، ولكن عدم تخطئتنا الحكومة لا ينسينا الالتفات الى ما قد ينتجه مثل هذا التكليف الجديد .

إن الأهالي يسمعون ويطيعون كما تعودوا حتى الآن ، بل منهم من يتقبلون هذا التكليف بقبول حسن لفرط حميتهم وغيرتهم على حمى الدولة ، ولكن من المحقق أن كثيرين منهم يستصعبون هذا الحمل كل

---

* (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١٦ (٢٧ حزيران ١٩١٢) .

الاستصعاب ، وقد يكون هذا عند بعضهم سببا مضافا الى أسباب الهجرة ، وبتزايد الهجرة تتناقص منابع الثروة العامة ويسري شيء من ذلك الى مالية الدولة بالطبع .

ربما قال القارىء كيف لا تخطّىء الحكومة في عمل ينتج مثل هذه النتيجة أو ربما قال ما الفائدة الآن من ذكرها مع أنك لست في صدد مؤاخذة الحكومة ، فأقول أما عدم تخطئتنا الحكومة فقد بينا سببه وأما ذكر هذه النتيجة فالغرض منه التذكير بأن هؤلاء الاهالي الذين هم سند الدولة عند اشتداد الضرورات ينبغي أن يفكر رجال الحكومة جيدا في أحوالهم وفي احتياج الدولة اليهم عند الشدائد وأنه لا يصح أن يعاملوا معاملات يكرهون من أجلها البلاد ويهاجرون منها .

ظنت الحكومة أنها نجحت في كثير مما صنعته حتى الآن ، ونظن أن الايام كشفت لها الخطأ في كثير مما صنعت ، فالذي نأمله ــ وما نحن بيائسين ــ هو أن تكون الحكومة اليوم قد أصبحت أكثر روية وأبعد نظرا في العواقب وأكثر استجلابا لقلوب الاهالي .

— ٢ —

المفتشون الاجانب

وقد يجعل لنا أملا بتبصر الحكومة أن بعض الجرائد المنسوبة اليها في العاصمة أصبحت تعترف بكثير مما كانت تتباعد عن الاعتراف به ، بل النظّار المخلصون أصبحوا يعترفون ، فلقد روت « طنين » في عدد يوم الاثنين من هذا الاسبوع عن الحاج عادل بك ناظر الداخلية أنه قال لأحد محرريها في محادثة دارت بينهما ما نصه :

« إن كانت هذه السياحة قد اقنعتني بشيء فذلك الشيء هو أن

أية حكومة كانت لا تمشي أمورها جيدا ما لم يكن فيها تفتيش ومراقبة، وليس الذي اقتنعت به هو أنه ينبغي أن نؤسس ادارة تفتيش فقط كلا بل هنالك نقطة أهم من هذه وهو أننا محتاجون الى الاستفادة من أجانب لهم اختصاص وفيهم مزايا واقتدار » .

إن هذا التصريح عندنا جدير بالاعتبار ، ولا غرو فان الحاج عادل بك رجل يتجلى فيه الاخلاص والذكاء وحب الوطن ، وهذا كاف أن يسوقه الى مثل هذا التصريح بعد أن رأى ما رأى في سياحته .

إن هذه العبارة وحدها كافية للدلالة بطريق الاشارة على ما يرتكب بعض مأمورينا من الخطيئات ومقدار احتياج البلاد بسببهم الى تفتيش جدي ، ولكن اذا نطنا التفتيش برجال من جوهر أولئك المأمورين لا تحصل الفائدة كما قد وقع حتى اليوم ، فلذلك ارتأى ذلك الناظر الذكي أن لا وسيلة لتخليص البلاد من براثن بعض من لا ينظرون في العواقب فيصرون على الصغائر حتى تتولد منها الكبائر الا باتخاذ طريقة جديدة لاجراء تفتيش جدي في البلاد بواسطة مفتشين أجانب ، ولقد قال لمحرر « طنين » لو ساعدت الميزانية لعينت لكل ولاية مفتشين اثنين، ولكنا سنعين للولايات كلها بالتدريج، ونبدأ الآن بالروم أيلي والاناضولي الشرقي وسورية .

وعندنا أن الحكومة لا تخطىء بهذا لأنها أمام ضرورة أيضا ، ولكن عليها أن تفكر في إزالة تلك الضرورة أيضا ، وليس بصعب على الحكومة التي قد تستطيع أن تدخل المأمورين كلهم في جمعية واحدة أن تجعلهم صالحين بواسطة تلك الجمعية ، والا فكيف ترضى أن يبقى مأموروها سبب الاحتياج دائما الى مفتشين أجانب ؟ نحن بحق واخلاص نقول هذه الكلمة لان المأمورين في مثل هذه الامة التي قد عرف أمرها هم

الذين يعمرون وهم الذين يخربون ، فكما نرجو شيئا من صلاحهم بواسطة مفتشين أجانب كذلك نرجو شيئا من ذلك بواسطة الجمعية التي يلجأون الى ظلها ، ولا شيء جديرا أن يبيض وجه الجمعية مثل أن يكون مأمورو المستقبل خيرا من مأموري اليوم ومزيلين ضرورة الاحتياج الى مفتشين أجانب ، فهل ثمة أمل ؟

— ٣ —

التقرب من الانكليز

ويظهر أن المفتشين الذين سيعينون في نظارة الداخلية سيكونون من الانكليز ، فان الجرائد الشبيهة بالرسمية يترشح منها في هذه الايام تصويب التقرب من الانكليز ، ونحن نصوب الحكومة كل التصويب في تقربها من الانكليز ، ولكن هل المجال الحاضر متسع لهذا العمل العظيم ؟

نحن نظن أن المجال لا يزال متسعا لهذا لأن الانكليز قوم يقدرون الفضائل قدرها ، وهم كسائر العقلاء يعرفون أن صدور الخطأ من البشر أمر طبيعي لا يعاب عليه المخطىء اذا كان لديه استعداد أن يعرف خطأه ويرجع عنه ، وانما العيب والمؤاخذة على الذين يتعشقون العناد حتى يعميهم عن رؤية الخطأ وأن يروه لا يريدوا مفارقته ، فاذا رأى الانكليز اليوم أن العناد لم يزمن فينا الى هذه الدرجة وأننا قد أصبحنا الآن مبصرين طريقنا الأنفع لنا وراغبين أن نسير فيه فما نظنهم يحلّون اليأس منا محل الامل وما نخالهم يضنون علينا بوداد نبغي التزيد منه .

ليقل غيرنا مايشاء أن يقول ، إنا نحن لم يتبدل رأينا منذ سنين في

أمرين يقترن احدهما بالآخر : الاول أن دولتنا العلية أيدها الله تعالى لا تستغني عن دولة تأخذ بيدها وتكون زائدة عنها شيئا من طغيان تلك السياسات المعهودة ، والثاني أنه عند التأمل بالمنافع المتقابلة التي هي أساس السياسات كلها نجد أن انكلترة أجدر الدول أن تصدقها دولتنا بصداقتها • وربما اعترض على هذا الرأي بعض اخواننا المشتغلين بالسياسة وقالوا إن تمكين الصداقة بيننا وبين انكلترة قد يخشى منه أن تتدرج انكلترة بتمكين قدمها في مصر والكويت ، والجواب على هذا في غاية السهولة وهو أن إمعان النظر في مجموع الاحوال الحاضرة يرشد الى أن عدم تمكين الصداقة لا يرجى منه أن يدفع المحذور بل قد يرجى بتمكين هذه الصداقة دفع ذلك الامر المخوف ودفع مخاوف اخرى سياسية قد أصبح غير جائز إنكارها او تناسيها • وبعد وصولنا الى هذا المكان من تحرير هذا الموضوع اطلعنا على مقالة لرصيفنا الهلال العثماني فوجدنا شيئا من الخلاف بين رأينا ورأيه في هذا الموضوع ، فمع احترامنا لرأي الرصفاء كما هو معلوم من مشربنا نود أن يتذكر رصيفنا أن السياسة المخوفة ليست في انكلترة وحدها بل في أوربة كلها، وأن التفكر لمصلحة الدولة من حيث هي من مقتضاه النظر في كل مسألة من مسائلها من جهات متعددة لا جهة واحدة •

إن مصر جوهرتنا العظيمة التي نفديها بالمهج ولكنها ليست جوهرتنا الوحيدة ، ثم هي بحول الله سبحانه مصونة كيفما تقلبت السياسات ، والرصيف العزيز يعلم أن ليس لانكلترة في مصر مركز طبيعي ولا شرعي، فعلى مَ نخشى حينئذ التقرب من انكلترة اكثر من التباعد عنها ؟

بعض أحوالنا الحاضرة (*)

ـ لا نيأس وإن كانت دواعي اليأس كثيرة ـ

قد يظن بعض الناس أنه لو تركتنا أوربة وشأننا لكانت حالنا أحسن وكنا نصلح أنفسنا بأنفسنا ، أما من يتحقق ويدقق فهو يعلم جيدا أن أوربة كما ضرتنا كثيرا قد نفعتنا كثيرا أيضا ، ويعلم جيدا أنه بعيد عن التصور ان نصلح أنفسنا بأنفسنا . كيف والتجارب في هذا الباب كثيرة وآخر هذه التجارب أن نفرا من الذين كانوا يطلبون الدستور أيام كانوا فقراء صعاليك لا يؤبه لهم أصبحوا يدوسون الدستور ويهتكون حرماته لما اعتلوا بفضله وصاروا أغنياء وهم لا يزالون يقولون نحن أنصار الدستور .

بيد أن هذه التجارب الكثيرة لا تستطيع أن تدخل اليأس على قلوب ملأى إيمانا بقدرة الله تعالى وعنايته ولطيف تدبيره وتحويله الاحوال وتغييره الاخلاق ، ولذا ينبغي لمن نطلعهم في كتاباتنا على أحوالنا الحاضرة أن يتذكروا قدرة الله تعالى ليدافعوا بهذه الذكرى هواجم اليأس لأن اليأس مضر بالافراد وبالجماعات ، وانما يجوز أن يخفف أحدنا أمله ويكون على مذهب الرجل الذكي ناظر الداخلية الحاج عادل بك من أننا محتاجون الى مفتشين أجانب ويا للأسف .

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١٧ (٤ تموز ١٩١٢) .

ومن يريد الاطلاع على أحوالنا الحاضرة لا يعوزه شيء كثير ، إن الاطلاع على مذكرات « المبعوثان » والبلاغات الرسمية تكفيه ، وقد كانت مذاكرة يوم الاثنين حافلة بأهم الأمور ، ذلك أن الحكومة قدمت الى المجلس لائحة لتعيين جزاء على من يشتغل بالسياسة من الضباط ، وقد جرّت المناقشة إلى بيان أسباب هذه اللائحة وهناك أخذت الصراحة حقها في شأن حادثة الضباط الذين تركـوا الجيش وصعدوا الى الجبال في مناستر ، وبديهي أن الحادثة ذات بـال من وجوه كثيرة ، وهي ليست من الحوادث التي تكثر أمثالها عندنا أو عنـد غيرنا من الامم ، وقد فهم مما كتبته الجرائد أن حادثة خروج الضباط هي غير حوادث قيام بعض الأرناؤوط ، ولكن بعض الجرائد تصدت لخلط هذه بهذه وجعلهما شيئاً واحدا وذلك لا يستر الحقيقة .

إن أكثر النـاس خارج العاصمة يبيتـون ويصبحـون منتظرين نبـأ عن الحرب في طرابلس الغرب ، ولكن الناس في هذه العاصمة يبيتون ويصبحون منتظرين أنباء عن شؤون جديدة فيما حولهم ، لانهم يرون ويسمعون مالا يراه ويسمعه الغائب وحسبهم أنهم يعلمون أكثر ممن عداهم مِنْ هم مستلمو الأزمة هنا ، وما نظر الناس وقولهم فيهم ، وما يشيع من الشوائع في شأنهم ، وما تحدث وتتحدث به المحافل من العواقب المنتظرة لاعمالهم وتدابيرهم .

سيسمع الناس خارج العاصمة أن فئـة من الضباط في مناستر خرجوا عن الطاعة وتبعهم عدد من الأفراد ، وستحوم هنـاك الظنون حول هذا النبـأ العظيم الذي أيدت صدقه وصحته البلاغات والمذكرات الرسمية ، ولكـن القلوب هناك لا تخفق بمقدار القلوب القريبة من

المصادر والموارد ولا يكون حدس النفوس هناك بمقدار حدسها هنا •

❋ ❋ ❋

وغـداً سيلتقي عاهلان من أعظم ملوك الأرض (قيصر ألمـانية وقيصر روسية) وليس أحد يجهل أن مثل هذا التلاقي ليس الغرض فيه شم الهواء وتباثّ الاشواق ، بل الناس كلهم قائلون إن الغرض من هذا التلاقي غرض سياسي • وبديهي أن أعظم مسائل السياسة الحاضرة هي مسألتنا ، فهما من دون ما ريب سيتحدثان ويأتمران في شؤننا ، وليت شعري من ذا الذي سيخالف قرار مليكين كل منهما أبودولـة عظيمـة وصديق دولتين عظيمتين •

نحن اذا كنا لا نزال نقول إن اتفاق أوربا محال فإن ذلك لا يغير الحقيقة ، وهو أنه لا محال في الدنيا الا اجتماع الضدين وارتفاعهما ، وليس اتفاق أوربا من هذا القبيل ولا قريبا منه ولا قريب القريب ، كلا بل هو ممكن متيسر في غاية السهولة ، فإننا كل يوم وكل لحظة نرى متنازعين يتراضيان ، ومتراضيين يتنازعان • ومن التاريخ عامـة وتاريخ أوربة خاصة نجد الشواهد على هذا كثيرة ، ولكن لا نوغل في الماضي البعيد بل نذكر القارىء بسياسة انكلترة أمام فرنسة وروسية قبل عهد العاهل العظيم إدوارد السابع وبسياستها منذ عهده الى هذا العهـد •

إن أوربا تتفق ، وإن اتفاقها جدير بأن يخيفنا وإن كنا نعد أنفسنا في بعض الساعات أسوداً ونموراً وفهوداً ، ذلك لأن الاسود والنمور والفهود يعتريها الخوف أيضا اذا رأت النسبة بين قوتها والقوة التي أمامها فاحشة الفرق !!

إن أوربا تتفق ، ومن المظنون ان اتفاقها أصبح قريبا . فماذا أعددنا من الحساب لذلك اليـوم الذي تقضي فيه سياسة الاتفاق بما هي قاضيـة ؟

إنّا لا نبحث الآن عن سياسة حكومتنا الماضية والحاضرة ، ولا عن كونها لها دخل في بعض كيفيات السياسة الدولية ، ولا نسأل هل رجال الحكومة منتبهون وماذا أعدوا ، إنّا نبتعد الآن عن كل شيء من هذا القبيل ونترك الحكومة في حالها وبالها وتفكراتها وتدابيرها كيفما كان آمال تلك التدابير والتفكرات ، نترك كـل ذلك ونلتفت الى الامة وجماعاتها لنرى ماذا أعدت لغد ، أفهي على مانعهدها ياترى مع كل هذه المنذرات ؟

ولكن من نناشد من الامة ، وأين الروابط ، وأين الروابط القوية لجماعاتها ، وماذا يغني القليل النادر من أفرادها المؤثرين على أنفسهم ؟

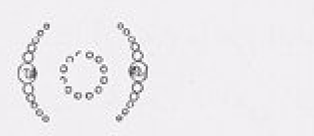
وليت شعري لماذا يشكو بعضنا أوربة ؟ ما هي البدعة التي ابتدعتها أوربة في البشرية ؟ أهي ابتدعت الحروب ، أهي اخترعت المطامع ، أهي ابتكرت حب العلو والتميز ، أهي أوجدت الانانيات ، أهي أحدثت الأثرة ، أهي اكتشفت طبيعة القوة ، اهي ابتدأت تاريخ التهجم ، أهي افتتحت أبواب التعصب ، أهي خلّفت عادة التغلب ، أهي سنت سنة التحكم ، أهي أنشأت قواطع الترحم ، أهي اطلعت قواطع الانصاف أهي أخرجت مناهج الاحتيال ، أهي أظهرت باكورة الاغتيال ؟ ؟ كلا وربك ثم كلا وربك ، بل كان ذلك من أوضاع البشر وسننهم من قبل ، وكل ذلك كـان حقـاً علينا أن نعرفه ونعدّ العدة له ونحسب لـه أنواعا من الحساب . ولكننا نمنـا طويـلا ولمـا فتحنا أعيننا ووجدنا

هذه الاهوال الحائقة قام بعضنا يتسكع ويتعثر في سكك الاستخذاء ، وقام آخرون يتسلون بشتم أوربة في أشياء لم تبتدعها ابتداعا • فوامصيبتاه ! إن هذه الامراض من أعظم النوائب •

ولو كان رمحاً واحداً لا تقيته ‏ ‏ ولكنـــه رمـــح وثـــان وثالث

و ••• و ••• و •••

على أننـــا لا نيأس ، لا نيأس •



حروبنا الداخلية (*)

إن محاربة ايطاليا ستنتهي ونرجو أن يكون انتهاؤها على أقل وأهون مما نخاف من الصور التي تشتغل السياسة الدولية اليوم بوضعها ، واذا كان القراء متذكرين أن حقي باشا أيام نُصِّب صدراً أعظم زار أوسترية ولم يكن قد مضى زمن طويل على فوزها بغنيمتها منّا (نعني البوسنة والهرسك) فليس عليهم الآن من بأس اذا قالوا ان النظار أو رئيسهم غدا سيفعلون في زيارة ايطاليا كما فعله سلفهم من قبل وليس عليهم من حرج اذا ظنوا أن ايطاليا التي كانت صديقة حقي باشا وأترابه وهي اليوم عدوة العثمانيين سترجع كما كانت صديقة لاولئك الناس بعد وضع الحرب أوزارها ، نعم كل هذا مظنون أنه سيصير ولعله سيبطل كل حرب فيما بعد بين هذه الدولة وبين أوربة لانه يحل كل شيء حلاً سياسياً ولا تجد السياسة الأوربية معارضاً ، وتضعف يومئذ فكرة تقوية الاسطول ويقوى الاتكال على تفكير الغرب بمصالحه هنا ، ويستريح البال من أمور كثيرة كانت الشغل الشاغل لرجال الدولة فيما مضى ، ولكنّ الحروب الداخلية هي التي ستبقى منغصةً هذا العيش لاننا لا نظن أن هذه الحروب تنقطع .

اشتغلت هذه الدولة بالحروب الداخلية كثيراً ولكنا لا نصادف

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة، العدد ١١٨ (١١ تموز ١٩١٢) .

في تاريخها البتة أنها حاربت في الداخل في ظرف أربع سنين بمقدار ما حاربت في الاربع سنين التي مضت منذ عهدها الجديد أي بعد ١٠ تموز ٣٢٤ ، ولكيلا يبقى القول جزافاً نضع نصب الاعين هذه الحروب التي دخلت فيها في هذه المدة .

(١) حادثة ٣١ مارت ٣٢٥ . بقيت كيفية ترتيب هذه الحادثة غامضةً حتى اليوم ، ومحل الشاهد منها الآن أنها لم تُدفع شرورها الا بحرب وقف فيه بعض الثائرين من عسكر الآستانة في صف ووقف بعض القادمين لتأديبهم من عسكر الروم أيلي في صف آخر ، واستعملت المدافع في هذه الحرب التي لم تطل كثيراً وقتل فيها كثير من العثمانيين من الصفين .

(٢) حرب في اليمن . كان سببه استنكاف الحكومة عن عقد صلح مع الإمام يحيى بشروط رضيت أخيراً بأعظم منها .

(٣) حرب ثانية في اليمن .

(٤) حرب ثالثة انتهت بعقد صلح مع الإمام .

(٥) حرب في عسير . اختصرت بعقد وفاق مع الأدريسي .

(٦) حرب ثانية في عسير . تولاها أمير مكة ثم اختصرت بعقد وفاق أيضا مع القبائل .

(٧) حرب ثالثة في عسير . لا تزال الى هذه الساعة .

(٨) حرب في حوران . زعموا أنها تغيرت بها حالة حوران .

(٩) حرب في الكرك . خربت فيها الكرك .

(١٠) حرب في الأرناؤوط . اختصرت بتحريك الإحساسات الدينية وتغليبها عليهم فألقوا السلاح بسبب ذلك .

(١١) حرب مع الماليسور . انتهت بإعطائهم مطالبهم .

(١٢) حرب ثانية مع الأرناؤوط باقية حتى هذه الساعة .

(١٣) تعقيبات عسكرية للفارين من الضباط .

قــد يقول قائل إن هذه الحركات والحروب كان يقع من مثلها كثير في العهد الماضي ، وأن ما وقع منها في هذا العهد ناشيء عن أسباب لها علاقة قوية بالماضي ، وليست كلها محض خطيئات لهــذا العهــد .

لو كــان قصدي التحامل على هذا العهد وأهله ومحض الحطّ من منزلتهم لكان هذا القول نِعْمَ الجواب لي ، لكن لما كان قصدي غير ذلك لم يكن هذا القول الا مساعداً فيما أردت اليه من الغرض ههنا .

إن غرضنا في هذا المقال هو استنتاج نتيجة مهمة من أمر واقع لا يتمارى فيه اثنان ، تلك النتيجة هي صعوبة تخلص هذه الدولة من الحروب الداخلية ، وذلك الامــر الواقع هــو الاستعداد الموروث في طبيعة بــلاد هذه الدولة وطبيعة رجالها .

لقد أشبعنا العهد الماضي هجواً وذماً ، وحقنا أن نفعل ذلك فاننا كيفما التقينا كنا نــرى آفــة من آفاته ، ولكن ماذا نرى اليوم ؟ واأسفاه ! إن كل ما كنا نراه أمس فاليوم نحن له مشاهدون مــع زيادات كثيرة ، إن هذا الامر قد أوجب استغرابنا بادىء بــدء ثم ماعتم أن ظهر لنا سره ، وما كان هذا السر من الغوامض بل يكــاد يكــون بديهياً ، وإنمــا الذي حجبــه عن بصائرنا هجوم الآمــال دفعةً واحدةً باندكاك تلك القوة التي كانت تمثل استبداد ذلك اليوم . لقــد نسينا ناموس الإرث ، وغفلنا عن تأثير المحيط ، وذهلنا عن أن

جمهــور العاملين لذلك الاستبداد سيظلون عاملين لاستبداد جديد ، بيد أن الزمان لم يطل حتى جاء بأعمال جديدة أماطت عن أذهاننا غشاوة النسيان والذهول والغفلة • رأينا في مقدمة كل شيء أن الميل الى اصلاء الحروب الداخلية أشد مما سلف ، ولم نر جماعة ألفت للنظر في هذا الامر العظيم واقامة الاقناع والارشاد بواسطة وفودنا صحة مصلحة مقام السيف والنار اللذين ليس وراءهما في داخل البلاد سوى التشتت والبــوار •

الذين كانوا يعلمون عبد الحميد دروس الاستبداد ، والذين كانوا يعملون بأمره كل شيء ممــا جــاز ومما لم يجز ، والذين كانوا من عبيده الصغار أو من عبيد عبيده ، والذين كانوا من السعاة والوشاة لــه بحق الابرياء ، والذين كانوا يتمنون أن يكونوا من مقبلي أعتابه وخدّام أبوابه ، كل هؤلاء رأيناهم يتسنمون مقامات عالية متنوعة في هذا العهد أيضا •

رأينــا الذين كــانوا معروفين بالرشوة لا يزالون في مراكزهم ، والموصوفين بالجهل ما فتئوا في مواقعهم ، أمــا العدد القليل الذين طردوا إذ ذاك فقد تبين فيما بعد أنهم لم يطردوا لانهم جهــلاء أو مرتشون بل كان ذلك انتقاما منهم لبعض الأشخاص ، ثم تبين أن من دخلوا حديثاً في الوظائف هم من قبيل أولئك الذين تقدموهم •

كان الناس قد سئموا من موظفين مغرورين منفوخين بمن ينتمون اليه من بعض كبار الرجال في العاصمة ، وقد رأينا عدد هؤلاء المنتمين زاد أضعافا مضاعفة إذ قد فتح لهم باب جديد أوسع من الأبواب السابقة وهو باب الجمعية •

لا تسل عن كل ما رأيناه في هؤلاء الجدد فإن المجلدات لا تفي بشرح كل ذلك ، فإن كنت تعرف أو تسمع كل أحوال سلفهم فحسبك أن تعرف أن هؤلاء زادوا عليهم كثيرا ، ومن جملة ما فاقوهم فيه الرشوة فقد تصاعدت فيها القيم كما تصاعدت القيم في كل شيء ! ! .

أما الذي كان ادعى الاشياء الى الاستغراب فهو ما تبين من أن بعض الذين كانوا معروفين بمقاومة الاستبداد والزهد بالمنافع الشخصية هم في الحقيقة أميل الى ما كانوا يقاومونه ويزهدون فيه وأكثر استعداداً له ، وقد ظهر الآن أنهم بسائق هذا الاستعداد يحبون أن لا تخلو المملكة من القلاقل ليستعينوا بها على خدع المغفلين ــ وما أكثرهم ــ فهم كلما كثرت القلاقل ازدادوا تمكناً من الإيهام واتهام من يخشونهم من الرقباء والمناظرين وازدادوا تضليلاً للأفكار بأنه لا يجوز والحالة هذه التهجم عليهم .

هكذا يفعل هؤلاء ، وهكذا سيظلون فاعلين ما داموا ، وكذلك سيفعل من يرث مراكزهم ، وبسبب هذا لا يرجى أن تنتهي الحروب الداخلية في هذه البلاد الا أن تتداركنا عناية من الله ، فهو سبحانه لا يبطل ناموس الإرث ولا تأثير المحيط ، ولكنه يحدث تغييراً بسبب نواميس أخرى ، وكم رفع من منحطين وحط من عالين ، ولذا لا نقنط من روحه تعالى .

الأحوال الحاضرة (*)

ـ الثورة في الأرناؤوط ـ فرار الضباط ـ الأزمة الوزارية ـ موقع المجلس ـ وجه المستقبل

الاخبار عن الاحوال الحاضرة على ثلاثة أنواع : نوع منها رسمي وهي الاخبار التي تعلنها الحكومة أو تفهم من مذاكرات المجلس أو تترشح على صفحات الجرائد الشبيهة بالرسمية ، ونوع منها جرائدي وهي الاخبار التي تتناولها سائر الجرائد ، ونوع منها خصوصي وهو ماوقفنا عليه بصور خصوصية . فالآن لا نذكر شيئا من هذا النوع الثالث لان الزمان والمكان لا يساعد عليه ، ومعلوم أن ليس كل ما يعلم يقال ، وانما نورد هنا شيئاً من النوعين الأولين :

الأخبار الرسمية :

حاولت الحكومة كثيرا أن تصغر من شأن هذه الفتنة القائمة في تلك البلاد ، وعندنا أن حكومتنا وسائر الحكومات معذورة بمثل هذا الصنيع في مبادىء الامور ، وقد يعد هذا من أحسن التدابير وعلى الصحافيين المخلصين أن يصنعوا هكذا أيضا ولا يبادروا الى إكبار حوادث الفتن والتهويل بها ، ولكن اذا تفاقم الامر واتسع الخرق على الراقع فانه لا يبقى مجال حينئذ للكتم والاخفاء ، ولذا

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١٩ (١٨ تموز ١٩١٢) .

اضطرت الحكومة أخيرا للتوسع في اعلان الحوادث . وخلاصة هذه الحوادث بحسب المصادر الرسمية هكذا :

(١) يوجد فريق من الأرناؤوط خارجون على الحكومة وواقفون بوجهها بالسلاح يطلبون منها مطالب أهمها اسقاط الوزارة وفسخ مجلس المبعوثان واعادة الانتخابات وتعيين المأمورين عارفين باللسان المحلي . وعدد هؤلاء القائمين لم يبق اليوم قليلا كما كان في أول الامر .

(٢) اضطرت الحكومة لسوق جيوش لزجر هؤلاء الخارجين وايقافهم عند حدهم وإرجاعهم الى الطاعة .

(٣) وقعت معارك متعددة بين الجنود والقائمين .

(٤) لا تزال الفتنة قائمة حتى هذه الساعة .

(٥) يوجد أيضا ضباط عصوا وخرجوا الى الجبال يطلبون كذلك مطالب من ذلك القبيل .

(٦) تلف في تلك المعارك عدد ليس بقليل من الأرناؤوط .

هذا هو المعترف به من الحوادث بصورة رسمية ، وهي ساكتة عن مقدار ما تلف من العسكر ، وغير جازمة بعدد الضباط الذين عصوا حتى الآن .

أخبار الجرائد :

كتب مخابر جريدة « يكي عصر » السلانيكية عن أسكوب : إنني أحدثكم عن مصدر وثيق بما وصل إليّ من المعلومات : في اليوم الثامن والعشرين من حزيران وقعت مقتلة شديدة في ولجترين بين الثوار والعساكر وللآن لم ترد التفصيلات .

ومن الأنباء الموثوق بها أنه وقعت مصادمة شديدة في برشتنة في اليوم التاسع والعشرين من حزيران كثرت فيها القذائف وارتفعت أصوات المدافع وكانت شديدة جدا فأسرع القائد اسماعيل فاضل باشا سرعة برقية من ولجترين الى برشتنة ، غير أن التفصيلات عن هذه المصادمات مفقودة ، وقد طرقت أبواب الحكومة للوقوف على الحقيقة فوجدتها مع الأسف مسدودة بخصوص الحوادث ، وفي كل جهة سكوت عميق وخرس عن بيان أحوال الجهة الشمالية من الأرناؤوط ، وهذه الحال تستدعي سرعة انتشار الاشاعات التي لا تخلو عن مبالغة . أحوال برشتنة وخيمة جدا فالاسواق والحوانيت مغلقة من يومين وقد تعطل البيع والشراء وتوقفت الحركة التجارية وعظم الهيجان في جميع الجهات ، وأحوال كيلان لم تكن أدنى من أحوال برشتنة فان القائممقام اضطر أن يرجع الى أسكوب لما هدده الثوار فذهب محله جلال بك قائم مقام قوما نوه ، وذهب لمحل مأموريته وبذل الوالي مظهر بك جهده في دعوة الأرناؤوط المجتمعين في جهة كيلان للانقياد ، ولكن الاحوال تضطرب يوما بعد يوم ويقول من له خبرة بأحوال الأرناؤوط إن التهيج في أسكوب عظيم جدا ، وكل جهة عليها علائم السخط ، وليس أحد له وقوف على خطة الحكومة والاشاعات لا تنقطع، ولم يبق في أسكوب أثر الطمأنينة . وقد كان مدير التحريرات يقوم بوكالة الولاية حال غياب الوالي وقد بلغني أنه اعتزل الوكالة وأبى أحد سواه قبول تلك الولاية ، وسببه الاضطراب الذي في اسكوب .

وكتبت جريدة (عثمانيشر لوئيد) عن مخابرها في أسكوب في ١١ تموز أن قرارات جمعية الاتحاد والترقي في الاجتماع المنعقد أمس

توجب الحيرة والتعجب ، فانهم قرروا استقالة الوزارة وتجديد انتخاب الجمعية المركزية والاسراع بدعوة الاتحاديين للاجتماع في سلانيك .

وقد قيل ان ناظر الحربية اذا لم يستقل من النظارة يزداد عدد الفارين ، ومتى أمعن النظر في هذه الرواية يمكن أن تفهم أسباب تلك القرارات ، ان استقالة محمود شوكت باشا كان لها وقع حسن في بعض المحافل العسكرية ولهذا يؤمل أن يبقى الضباط صادقين في خدمتهم .

ولا شبهة في أن الوقائع الأخيرة التي سكنت باستقالة ناظر الحربية بعد حادثة مناستر قد شجعت الساخطين في الأرناؤوط ، ويروى أن الأرناؤوط متجمعون في أطراف برشتنة بكثرة عظيمة ، ولا شبهة أن عيسى بولا طين له مدخل بهذه الحركة ، والآن قد علمت مقاصد رؤساء الأرناؤوط الحقيقية ، وقد دعوا لان يكونوا حاضرين في مؤتمر الاتحاديين فلم يجيبوا الدعوة ، هم يطالبون فسخ مجلس المبعوثان لا محالة .

هذه نبذة من أخبار الجرائد ، ومنها يعلم مقدار ما وصلت اليه هذه الثورة ، واذا أضفنا اليها ثبات الضباط الفارين حتى الآن يعلم القارىء أنه قد أصبح مستهجناً ما يحاوله بعضهم من إنكار ما وصلت اليه الحالة .

بقي علينا أن نعرف ماذا تستطيع الحكومة أن تعمله أمام هذه الواقعات المهمة ؟ والذي يظهر بالبداهة أن الحكومة أصبحت حائرة ، وحق لها أن تحار ، كيف لا وهي قد فقدت عضوا من كبار أعضائها هو محمود شوكت باشا ولم تلف خلفا له حتى الآن ؟

بل يقال إن خورشيد باشا ناظر البحرية قد استقال أيضا أو سيستقيل على فرض الوزارة في مركزها .

أما موقع المجلس فقد أصبح غريبا في نظر نفسه فضلا عن نظر سائـر الناس .

وجـه المستقبل :

بسبب ما تقدم أصبح وجه المستقبل عليه لثام غير رقيق ، وبات الناس لا حديث لهم الا استيصاف ماوراء هذا اللثام ، وما أقل الذين يتمكن نظرهم من اختراق هذا الغطـاء والاطلاع على ما تحته .

استقالة الوزراء :

كنت أحرر هذه المقالة وقت العصر من يوم الاربعاء (أمس) ومن غرائب المصادفات أنني لما وصلت بتحرير هذه المقالة الى هذه النقطة أتاني أحد الاصدقاء بجريدة « ترجمان حقيقت » (وهي تصدر العصر) فاذا فيها أن الوزارة استقالت ، فالآن أقول إن استقالة الوزارة كشفت جزءاً صغيراً من وجه المستقبل وبقيت هناك أمور كثيرة هي محـل التساؤل تتناشد عنها الأفكـار ، وتدور بها الالسنة . فانه لا يعلم من الذي يخلف سعيد باشا وكيف ينتخب الصدر الجديد رفقاءه وكيف يكون شأن الاتحاديين وشأن الأئتلافيين ، بل كيف يكون شأن هذه الدولة . أما مأمولنا والذي نظنه فهو أن الأحوال ستكون أحسن مما كانت . والله سبحانه قدير على تحويل الأحوال .

عهد جديد في الاتفاقات (*)

بدأت الايام تكشف حقائق مهمة ، وأخذت تزيح الحجب عن بعض اتفاقات عقدت سراً ، وأصبحت الافكار تحسب الحسابات للاتفاقات السرية ، وحق للافكار أن تقلق وأن تتوقع وقوع حوادث قد تأتي فجأة بحسب الظاهر وهي مدبرة من قبل في الخفاء ، وبسبب ذلك بات جو السياسة أشدّ دجوناً وقلب الخافقين أكثر خفوقا ، فليس مشرقنا هذا وحده مخصوصا بالهواجس ، ومحاطا بالمخاوف ، بل مغربهم ذلك أيضا تساوره المزعجات ، وتدور حوله المخيفات ، وما أرى ربوع سياسته آخذةً حظّها من الطمأنينة كما ينبغي والا لكانت الاعين في سبيل الاستعداد الحربي جديرة أن تهدأ وتساير الكرى دقيقة من الدهر .

هيهات ، هيهات ! فمقادير الجنود مازالت في ازدياد ، ومصانع الاسلحة ما برحت في اجتهاد ، والاختراع في هذه الفنون ما فتىء في دأب ، والتجديد ما انفك في تقدم ، وليس كل هذا لتهديد الشرق فانهم لا يخشون اليوم منه هاجما ، ولا يتوقعون منه معارضا في أمر يجمعون عليه ، وانما ذلك لأن بينهم ما بين البشر أجمعين من حب استعلاء هذا على ذاك ونفوذ كلمته عليه ، وإباء ذاك ورفضه هذا بقدر ما يستطيع . فمن قال إن هذه الامم الاوربية التي تجمع بينها القرابات المتعددة انما قصارى همها اخضاع الشرق والاستيلاء عليه فقوله صحيح تؤيده

---

* (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١١٩ ص ٢ (١٨ تموز ١٩١٢) .

المؤيدات الكثيرة من المعقولات والمحسوسات ، ولكن مع ذلك ينبغي أن لا يظن أن تلك الامم تتنزه عن مقتضيات الطبائع البشرية التي من جملتها أ نيعارض ويقاوم بعضها بعضا ، ومن جملتها أن يطمع ويعتدي بعضها على بعض •

على أنا اذا فرضنا أنهم لا يقتتلون لأجل استيلاء بعضهم على بعض فان الفكر يذهب الى أنهم ربما يقتتلون لأجل تزاحمهم وتدافعهم على الغنائم الشرقية ، فمن أجل هذا لا تستريح أمة من أممهم تلك من غير أن تبذل وسعها في تقوية نفسها ، ولما أصبح من العقائد الراسخة المبنية على العيان والتجربة أن قوى الدول أمر نسبي كثر الميل الى عقد المحالفات والاتفاقات ، وبديهي أن من أصبح فاقدا حليفا أمام تلك المحالفات قد صار محكوما عليه بما تتصوره العقول من طبائع الضعف أمام القوة التي لا رحمة معها •

وقد أرانا هذا العصر كثيرا من آثار ذلك الميل ونتائجه ، ورأينـا ضمن تلك النتائج ما يصح أن يستغرب قليلا ، مثال ذلك تصادق انكلترة وروسية بعد أن كان المثل مضروبا بما بينهما من المباينات ، وما تصادق انكلترة وفرنسة الا من هذا القبيل ، بل لم تنس انكلترة أن تلتمس حليفا لها في أقصى الشرق •

إن الميل الى هذه المحالفات يكاد يشبه الميل الى الاستكثار من الاسلحة والجيوش ، اذ الغرض منهما واحد وهو تزييد القوة لدرء ما يتوقع من الهواجم والصوادم ، أو لايقاع ما يتصور من الوقائع لجر المغانم •

وجدير بالذكر أن أمم أوربة تخشى وتتوقى ايقاع حرب بينها لأنها اذا وقعت الحرب عمت وهددت البلاد بالدمار ، فكل واحدة منها تريد

من غير ما ريب أن تصل الى مأربها من غير ايقاد هيجاء عامة ، كما أن كل واحدة تحسب حسابا لاستعار مثل هذه الهيجاء فتتهيأ بما تستطيع من القوة ولا تظهر أمام أخواتها الا متأبطة سلاحا ، فالسلاح هو حــارس السلام اليوم كما كان حارسه أمس ، والمحالفات هي أعظم أسلحة اليوم •

لو غدت كل المحالفات والاتفاقات علنية لاستطاع أحدنا أن يقول إن وقوع الحرب ما بين هؤلاء المتحالفين المتوازنين المتكافئين أصبح قريبا من المحال ، لأن حصول التوازن هو أعظم أساس لحصول التفاهم ، وبحصول التفاهم تندفع التطوحات ويغدو الوقوف عند الحدود أمرا مألوفا • ولأجل هذا يدور حول التوازن كلام كثير وسياسات كثيرة ، ولكن تكوين بعض المحالفات والاتفاقات في السر هو الذي يجعــل المخاوف في أوربة كثيرة والغيوم فيها كثيفة ، واذا كانت أوربة جديرة أن تخاف تلك الاتفاقات فما قولنا في الامم التي عليها ومن أجلها التزاحم والاقتتال المخوفان ؟

لقد كثرت في الايام الاخيرة تلك الاتفاقات السرية أو كثرت الشوائع عنها ، وليست شائعة من تلك الشوائع ببعيدة عن الاحتمال ، فبين انكلترة وفرنسة وايطالية زعموا أنه يوجد اتفاق لأجل التوازن في البحر الابيض، وبين ايطالية وروسية زعموا أنه يوجد اتفاق ، وبين ألمانية وروسية زعموا أنه قد أوجد اتفاق حديث، وقد رأينا أن كل واحدة من هذه الشوائع تشهد لها آية من آيات السياسة المحسوسة ، فان ايطاليا لم تظل سادرة في غلوائها في الاستيلاء على الجزائر بل وقفت حيث وصلت من الاحتلال ، وألمانية

وروسية لم ترضيا التصافح الا على أيدي مليكيهما ومعهما وزراء سياسة الدولتين ، ومن الغريب أن هذه الاتفاقات الجديدة التي يقال انها وقعت في السر دائرة كلها حولنا ، وهذا ما يجعلنا نظن أن أمام أوربا وأمامنا عهدا جديدا في السياسة قد يصح أن نعده مخيفا ولكن ربما كان حسن العواقب .



بعد أربع سنين *

ـ سقوط استبداد ثان ـ

((وبشر الصابرين))

١٠ تموز :

يوم تموز لا عدتك التحايا ... ما أتى النور ماحياً للظلام
كنت فجراً والليل ليل عليل ... فيك بشرى اقتراب برء السقام
وتخذناك بعد ذلك عيداً ... هكذا شأن أبهج الأيام
فسلام عليك ما جئت ، ما رحـ ... ـت وما عدت في مدى الأيام

* * *

إنّ يوم ١٠ تموز ٣٢٤ هو مبدأ تاريخنا الجديد ، فانه فيه أعلن في المملكة الحكم النيابي وقيامه مقام الحكم المطلق . ومعلوم أن ذلك كان نتيجةً لقيام العسكر في الروم ايلي وانذارهم السلطان السابق بسوء العقبى اذا لم يعلن القانون الاساسي ويأمر بجمع مجلس المبعوثان .

منذ ذلك اليوم الى الآن قد مضت أربع سنين كوامل قد رأينا فيها العجائب ، ولقينا ضمن تقلباتها المصاعب ، وأصعب ما صادفناه رجوع الاستبداد بشكل آخر على أيدي أناس زعموا أن لهم الحق بالتغلب على كل أحد ، وقد صبرنا في مقاومة الاستبداد الجديد ، حتى أرانا الله

---

* (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٢٠ (٢٥ تموز ١٩١٢) .

عقبى الصبر الجميل ، وزعزع أركان هذا الاستبداد الثقيل ، وكان ذلك في تموز أيضا فنحن من أجل هذا نبارك هذا اليوم الذي تجلت فيه البركات مرتين ، ونقابل مرتيه هاتين بألوف من التحيات •

إن يوم تموز كما كان جديراً بترحيبنا من حيث أنه كان بدء انقلاب الاستبداد الماضي قد أصبح خليقا وقمينا به من حيث أنه صار بدء انقلاب الاستبداد الجديد الذي حدث في ظرف هذه السنين الاربع ، اذ في ٣ تموز الجاري استقالت وزارة سعيد باشا التي جرت في عهدها الانتخابات على النحو الذي علمه الخاص والعام والقريب والنائي ، وفي ٩ تموز الجاري تألفت وزارة جديدة رأسها أحمد مختار باشا الغازي وأعضاؤها من المجربين المدربين الموثوق بأكثرهم وفي مقدمتهم كامل باشا، فمن أجل ذلك استحق يوم تموز تبجيلا على تبجيل ، وترحيبا على ترحيب •

فرح الناس كثيرا بيوم تموز ٣٢٤ وكان الفرح عاما لم يشذ عنه الا قليل ، وأقام الناس على أثره حفلات وأعيادا ، وقد ذكرنا ذلك في العدد الثامن من الحضارة (بتاريخ ٢٠ مايس ٣٢٦) وأتينا هناك بكلمات يصح اقتباسها هنا لأنها من موضوعنا • قلنا :

« الاغاني والاناشيد والحفلات التي صنعت تلك الايام كانت كلها قلبية بعيدة عن الرياء ، وليس هناك شيء يضطر اضطرارا الى هذه الاعمال لو لم تكن قلبية • وكانت ضرورية أيضا لإرغام أنوف الجبابرة الذين ظنوا أن لن تهدم صروح الاستبداد والحكم المطلق ، وكانت طبيعية لأن كل من خرج من السجن يفرح ••• ولكن من البديهي أن الاغاني والاعياد أمور موقتة يحدثها السرور أو تصنع لاستجلاب السرور

ويكون السرور مرافقا لها مدة قصيرة ، والمدار الحقيقي هو العمل المستمر ، فاذا كان الناس قد استمرت حسراتهم وآلامهم في الدور الماضي من أعمال الرجال القائمين بادارة البلاد اذ ذاك فان استمرار سرورهم بعده ليس فيما أقاموا من تلك الاعياد التي تنقضي مهما طالت وانما سيكون سرورهم أو ضده بالاعمال التي ستصدر من الادارة الجديدة ، ولذلك كان يوجد بين المشتركين بتلك الحفلات أناس من أهل الجد هم من أشد الناس فرحا بالانقلاب ، ولكن كان حديثهم في أفكارهم أكثر من حديثهم بألسنتهم ، كان الصمت يعلوهم كثيرا ولم نسمع منهم تغنيا ولا تشبعا بالطرب ، كانوا يرون عهد الاغاني قد أزف وقت انقضائه وقرب وقت العمل ، كانوا يقولون في أنفسهم هل يصير إصلاح ، وكيف يصير ، وهل توجد رجاله ، وهل يساعدون ؟ » •

الاصلاح ورجاله :

إن العهد الماضي كثير السيئات ، ومع كثرة سيئاته قد سلّم دولة عظيمة ليد الدور الذي نسميه جديدا • بيد أن الدولة كان فيها شيء من العلل ، ومن أعظم تلك العلل قلة الاخلاق الفائقة في الرجال الذين كانوا يتولون أمرها • فهل نجد تلك الاخلاق عند أناس جدد ، وهل يمكننا الاستغناء عن كل القدماء ، وكيف يكون الاصلاح يا ترى اذا لم يوجد رجاله ؟

هذه المسائل كانت أعظم شاغل يومئذ لبال المفكرين الذين هم أكثر اهتماما بمصلحة الدولة والوطن ، ولم يكن لهم مندوحة من الحيرة أمام تلك الحالة الصعبة التي لم يظهر معها رجال جدد فوق العادة ، ولم يتبين فيها إمكان الاستغناء عن رجال ذلك العهد الذي كان كل لسان يردد مقته في تلك الايام •

ولقد كنا أنشأنا مقالات متوالية في السنة الماضية تكلمنا فيها على « رجال اليوم » ، وفي صدر المقالة الاولى (عدد ٦٤ تاريخ ١٦ حزيران) وصفنا هذه الحيرة التي كانت الامة جديرة بها على عقب الانقلاب قلنا هنـاك :

« ماذا رأينا يوم تلك الحيرة الاولى في بدء هذا العهد ؟ رأينا دولة قائمة ماثلة فيها كل موظفيها القدماء من أكبر كبير فيهم الى أصغر صغير من رجال عسكريتهم الى رجال قضائهم ، الى ذوي ادارتهم وسياستهم ، الى أولي ماليتهم ، الى أهل الضبط والربط فيهم ، ورأينا أن تنظيف العاصمة والولايات من كل هؤلاء الموظفين ليس من الاصلاح في شيء بل هو في الحقيقة هدم لبناء الدولة الماثل على كل حال أمام النظر ، على أنه ليس يصح في وقت من الاوقات أن يقال إن كل أولئك الموظفين عن بكرة أبيهم لا يصلحون ، ورأينا مع هذا طائفة من الرجال جديدة تريد أن تزاحم وتحتل المراكز العليا ولا بد لها من وسائل وأبواب لذلك ، وأنها ستتوسل الى ذلك بأبده الوسائل وهي اسقاط بعض القـدماء بدعوى أنهم كانوا كيت وكيت . رأينا أن ذلك سيلهينا ويشغل بعضنا ببعض فتتنبه حينئذ العيون التي لم تكن قد نامت وانما استراحت قليلا باغفاءة لطيفة ريثما تتكون فيما بيننا أسباب التجاذب والتدافـع من جديد ، ورأينا كأن قد تكونت فيما بيننا هذه الاسباب ، وتنبهت لنـا تلك العيون ، وتفتحت علينا أبواب تلك الحوادث المنتظرة حوادث الطمع الاوربي الذي ليس له آخر ما دام لنا وجود ، ورأينا كأن قد نال أولئك المزاحمون ما كانوا يأملون وهم ليس لهم من عدة يعتدون بهـا من الحنكة والتدرب ، ولا ملكة من الروية وبعد النظر ، فلم يلبثوا أن ظهرت خطيئاتهم من بعد أن جعلت آثارها في القلوب نكتـا سوداء ،

وصبغت وجوه الذين يستحيون حمراء ... وهذه المرائي التي تبدت لنا في نظرات عميقة لم تكن لتحزننا لأن من ينتظر من الانقلابات أن لا يحدث فيها مثل ذلك لا يكون على شيء من العلم بسير البشرية ، ولكن كنا بين هذه المناظر نخشى شيئا واحدا وهو أن يطول العهد في المخاطر من غير أن يظهر في الامة رجال فيهم خواص لشفاء الامراض الاجتماعية والسياسية » .

* * *

بعد أربع سنين لم يظهر في الامة اولئك الرجال الذين أشرنا اليهم وانما في أثنائها ظهر فيها رجال ملأوا الدنيا إعلانا عن أنفسهم وملئت فصول حياتهم السياسية معايب ومخازي وعلى يدهم وصلت الدولة الى مشاكلها الحاضرة ، ولا ندري متى وكيف يكون حسابهم ، ومتى وكيف تكون خاتمة رواية أعمالهم . قلنا وقال الناس أجمعون اننا أزلنا استبدادا في ١٠ تموز ، ولكن ما عتم الاستبداد أن عاد بشكل آخر على يد أولئك الذين أشرنا اليهم ، فالاربع السنين المواضي كانت مجلىً لتجليات استبداد غريب الشكل ، وكانت أفظع مناظره وتجلياته حكاية الانتخابات .

وكان من جملة المناظر المقلقة كثرة تبدل الوزارات ، وقد أشرنا الى أسباب ذلك في العدد السابع والستين (تاريخ ٧ تموز ٣٢٧) فقلنا :

« في وزارة كامل باشا كان النظار كلهم من المجربين الذين يعرفون الامور والرجال الصالحين للاعمال ، وكان يقال إن بعضهم قد قيل فيه ما قيل في الدور الماضي ولكن مقتضى ذلك الدور نحو ومقتضى هذا الدور نحو آخر ، وأنه لا بد لنا من الاستفادة من وقارهم وتجاربهم

في أثناء هذه الفوضى التي تلت الانقلاب ، وكان الناس مستبشرين كثيرا وآملين أن تتحسن الاحوال الداخلية وأن تحل القضيتان السياسيتان اللتان كانتا يومئذ حلا حسنا وهما : قضية البوسنة والهرسك وقضية حقوقنا في البلغارية ، بيد أنه ما عتم الناس أن رأوا وزارة كامل باشا متدحرجة ، وهي أول حوادث في الدور الجديد ، بل العقلاء يجعلون رابطة بين سلسلة الحوادث التي جرت بعد ذلك وبين هذه الحادثة التي يسمونها الحلقة الاولى .

« القارىء قد رأى مما ذكرناه به الآن أن وزارات تتدحرج وتقوم غيرها مقامها ، وطبيعي أنه بهذه المناسبة يخطر بباله الآن عدة مسائل مثـــل :

« لماذا تبدلت الوزارات بهذا المقدار في هذه المدة القليلة . وعلى أية طريقة نصبت هذه الوزارات في كل مرة ، وكيف كان حظ الوزارة الاخيرة من اللبث والبقاء أكثر من السوابق ، وهل يعرف الآن المرشحون للوزارة أم لا، ومن هم المرشحون إن كانوا معروفين ؟

« وبتأمل قليل يتبين للمطالع أن هذا المبحث وايضاح هذه الخفايا هو بحث في أعظم مسائلنا الحاضرة ، وأنه لا ينزل مكانة عن الخوض في مشلكة الارناؤوط ومعضلة اليمن لأن مثل هذه المشكلات والمعضلات تجيء على يد الوزارات التي هي ليست بصالحـة ، وتـذهب وتزول وتتلاشى ويقوم مقامها اليسر والخير والفلاح على يد الوزارات الصالحة.

« فأما كثرة تبدل الوزارات في هذه المدة القليلة فهو أثر ونتيجة لتنازع عاملين قويين : الأول إرادة الذين يفكرون من رجال اليـوم قبل كل شيء بصلاح المملكة ونجاحها ، والثاني ارادة الذين يفكرون

من رجال اليوم قبل كل شيء بمنفعتهم والتغلب على كل أحد وجعل زمام المملكة في أيديهم من غير أن يعترض عليهم أحد بشيء وإن أخطأوا » .

وفي العدد التاسع والستين قلنا :

« نعم يوجد اليوم هذان الفريقان المتباينان : مريدو التغلب على كل أحد قبل كل شيء بحيث لا يجوزون أن يعترض أحد عليهم ، ومريدو سلامة الوطن واعتلائه قبل كل شيء . ويوجد بين هذين الفريقين تنازع قد يستصغر شأنه من لم يقف على جلياته ودقائقه ، ولكن المطلعين على تلك الظواهر والخوافي يعلمون أنه تنازع ذوبال ، بينه وبين حظ الوطن ارتباط عظيم ، فانه إن نجح أولئك الذين سفهت أنانيتهم الشخصية وفسقت عن سبيل الاعتدال فما من حظ للوطن حينئذ الا أن تلتقمه أفواه المصائب وهي تكاد ترى منذ هذه اللحظة ، وان نجح من رقت على عيال الله في هذا الوطن أفئدتهم وكان أكبر همهم السير للمصلحة العامة أنى دارت المصلحة ، غير جامدين في التحزب والشخصية على أمور قد تكون أسباب الدمار وطرق البوار ، فعسى حينئذ أن يكون حظ الوطن من السلامة واعتلاء الشأن عظيما ... هال خلقا كثيرين من الامة بلوغ التنازع بين فريقين من رجالها المعدودين هذا الحد ، وانقسم الناس بسببه ثلاثة أقسام كبار : قسم تَنقِم على الفريقين ، وعاف المشربين ، واعتزل السياستين ، وهو يائس في الحالين ، وغير راض عن انتصار احدى الفئتين ، وقسمان قد تراءى لكل واحد منهما أن ينتصر لأحد الفريقين المتنازعين ، ومن هؤلاء الانصار تتألف اليوم الاحزاب السياسية التي ولدت الليالي بعضها ولا تزال حبلى بأخرى » .

وبعد تفصيل قلنا :

« دع حزب اليأس في مسلّيات نفوسهم سادرين ، وخذ بك الى أحزاب تشيم لديها بارقة أمل ، وتشمّ عندها رائحة عمل ، ثم لاتك من المتنطعين الذين يقطعون السبل بقولهم ماذا عمل وماذا عملوا وماذا يعملون ، فان الطموح الى الاحسن هو اللائق بالحي ، والاحسن لا يأتي اذا بطل الانتقاد ، والانتقاد لا يتيسر اذا صادف من يقدر على الاستبداد، فالوقوف أمام منافذ الاستبداد أعظم الاعمال ، وتأييد الذين يقفون هذا الموقف أكرم الخلال ، وليكن ارتقاء الاحزب وتكافؤها مفرحا لك فانه أضمن لخير العموم وأرجى أن تدخل به الوزارات في طرق مثلى ، وأن تتألف من رجال هم في خلال الخير أمثل وأعلى ، وأن تكون آجالها أطول وأبقى ، ويومئذ يكون التنازع أقل وأهدى . أما قبل ذلك فتسمع كثيرا من الاضطرابات والتنازع وانقسام الحزب الواحد وكثرة تبدل الوزارات وربما سمعت عن أمور أخرى حديثا عجبا » .

هذا ما قلناه قبل سنة ، وقد ظهر الآن شيء من مصداقه ، فانه سقطت بعده من الوزارات ثلاث ، وجاءت على أيدي الفئة المتغلبة عجائب من الاحداث . والآن نعيد ما قلناه من وجوب اطراح اليأس والقنوط ، وضرورة الصبر والثبات في سبيل الحق لإزهاق الباطل ، فان الباطل لا يجول ويصول الا اذا وجد الميدان خليا من أنصار الحق ، وحسبنا ما رأيناه من العبر في تموز ٣٢٤ وفي تموز ٣٢٨ ، فان الناس كانوا قد ظنوا أن لن تأتي غارة من غارات الله سبحانه تدك صياصي الاستبداد والعسف ، وتسوق بسلاسل الخزي أهل الجبروت والعنف ، فما عتم الزمان أن كشف الخطأ في تلك الظنون ، وبيّن أن الصبر والثبات هما الاولى والاجدر بالذين يعقلون ، إن الله مع الصابرين .

لا خوف اليوم (*)

الناظرون الى ظواهر الاحوال الحاضرة عندنا يحكمون بأن هذه الاحوال مخيفة وخيمة العواقب . والواقفون على روح الماجريات والحوادث يعلمون أن الخوف كان أمس أما اليوم فلا خوف ، والخلاصة أن الظواهر الآن مخيفة وأما بواطن الامور فمطمئنة ، معها بشائر حسنة .

الظواهر مخيفة لأننا في أحوال تشبه الفوضى ، والبواطن مطمئنة لأنه قد ظهر الآن أثر من آثار الحياة ولمعت بارقة من بوارق الهمة .

الظواهر مخيفة لأن الضباط تصدوا بأنفسهم لإصلاح ما دبَّ في هذه السنين الأربع من الفساد على أيدي النفر القليلين من رؤوس الاتحاديين الذين كانوا يستعينون بالضباط أيضا ، وقد يقال الآن من ذا الذي يمنع الضباط غدا عن أن يعملوا مثل ما عملوه اليوم ، واذا كانت المملكة مهددة دائما بمثل هذه الانقلابات العسكرية فكيف يتحمل جسمها كل مرة هذه الصدمات التي قد تأتي واحدة منها شديدة جداً ؟

الظواهر مخيفة لأن الضباط لا يمكن أن يكون اتفاقهم في السياسة الا موقتا فاذا ظلوا على عملهم في هذه المهنة التي لا تناسب روح الوظيفة الواجبة عليهم فانهم سيختلفون ، وعواقب اختلافهم أسوأ من عواقب

---

* (الحضارة) السنة الثالثة ، العدد ١٢١ (اغستوس ١٩١٢) .

اختلاف غيرهم من أفراد الامة الذين ينجبلون في السياسة ، وهم اذا تركوا ما دخلوا فيه فربما استبد بالأمر من تركوه بيده وربما احتاجوا أن يعودوا الى القصة ويعيدوها •

الظواهر مخيفة لأن أصغر شرارة من الاختلاف وتفريق الكلمة بين الضباط ينجم عنها في المملكة حريق كبير اذ على الابواب أكثر من دولة واحدة تبغي اختطاف شيء من الداخل والعياذ بالله تعالى •

* * *

وتخيف الظواهر لأن قيام الارناؤوط في هذه المرة لا يشبه قيامهم في المرات السابقة ، فلقد تألف منهم هذه المرة جيش جرار لا يقل في الحقيقة عن ستين ألفا ممن يحملون البنادق ، ويقول العارفون ان مثل هذا الجيش لا يستطيع إخضاعه جيش نظامي يقل عن مئة ألف ، فان غرّت الارناؤوط اليوم أنفسهم ولم يقفوا عند المطالب السالفة المعروفة — التي في طليعتها فسخ المجلس — فكيف يا ترى تعمل الدولة ؟ أفتشتغل يومئذ بسوق مئة ألف لإخضاع شعب من شعوبها والعدو واقف أمام فم الآستانة ، أم تتركهم يزدادون تجمعا ويتوفرون على مهاجمة البلاد والعيث فيها ؟ ألا يرى القراء أن كلتا الخلتين نار وأن الحيرة نار ثالثة ؟ وما حال من علقت به نار وهو بين نارين ؟

وتخيف الظواهر لأن بلاد الارناؤوط تخوم لعدة دول وحكومات ، والذي حفظها الى الآن انما هو دين القوم وإخلاصهم لدولة الخلافة ، ومعلوم أن لكل شيء حدا وغاية ، ومعروف أن الغضب اذا طغى يجرف أمامه علائق المحبة والاخلاص ، فمن أجل ذلك يتساءل الناس اليوم ما هو مقدار غضب الارناؤوط الذي حملهم على هذا القيام ؟ وما مقدار الغضاب منهم ؟

وتخيف الظواهر لأن الدسائس الاجنبية رقيقة ناعمة تنفذ في كل منفذ وتسري في كل مسرى ، فهي قد تدخل تحت طيات لباس الحق وضمن ترقرقات شراب الصدق ، حتىاذا استحكمت فيموقعها ، وتمكنت من نفث سمها ، فعلت فعلها ، وانتجت نتيجتها .

وتخيف الظواهر لأن مجموع مطالب الارناؤوط نزعة من نزعات عدم المركزية ، ومن الناس من يتشاءم بعدم المركزية ، ويظنها آخذة نحو تقطع المملكة وتجزؤ أوصالها ، وعلى هذا الرأي جماعة الاتحاديين وفريق كبير من الائتلافيين ، ولأن مثل هذه المطالب متى نالها شعب من الشعوب قد تضطر الدولة أن تنفذها في سائر الشعوب غير متباطئة في تنفيذها ، ولا يخلو الاستعجال في ذلك من مخاطر .

وتخفيف الظواهر لانه قد يظن الآن أن الحكومة لا تنجح في إقناع الارناؤوط اما لأنها قد تتردد في بعض المطالب ولا توافق على اعطائها واما لأنها تصادف من الدسائس ما ترى الضرورة قاضية باجتثاثـه ، وحينئذ تقف أمام ذلك المحذور الذي وصفناه في محاربة أولئكالقائمين الذين يزيد عددهم يوما فيوما .

* * *

وقد تدهش الظواهر لان سقوط الاتحاديين دفعة واحدة أمر ربما لا يملكون الصبر معه ، فماذا يكون اذا طاش لب غلاتهم وطار حلمهم ؟ وهم قد يملكون مبالغ من المال على ما يقال ، وقد يكون حولهم زمر ممن يؤجرون أنفسهم من الرجال ، فهم والحالة هذه قد يستطيعون إقامة ثورة في العاصمة وثورات خارجها ، ومن يعلم كيف تكون عواقب هذه الثورات المستعرة إن لم يطفئها الله تعالى .

وقد تروع الظواهر لأن الحكومة الجديدة أمامها ضرورة لا بد من الوقوع فيها ، وهي عزل كثير من الولاة وغيرهم من المأمورين الذين تطرّفوا وتطوّحوا في الجري على هوى غلاة الاتحاديين ولا سيما في الانتخاب الذي خانوا فيه الامة خيانة هي نهاية في العلانية ، وبكثرة العزل والتبديل ربما تستحدث لها أعداء من الصنف الذي له حركات وتأثير في الاحوال الداخلية ، ومعلوم أن شيوع الاحقاد في مملكة من الممالك مضرّ بها ولا سيما في مثل هذه المملكة .

وقد تهول الظواهر لأن الصحافة خرجت من ضيق تقييد الادارة العرفية الى فضاء إطلاق الحرية ـ ضمن القانون ـ وقد أخذت الصحف على اختلاف منازعها تتطرف ، حتى رأينا بعض الجرائد الاتحادية تجهر بأن المبعوثين يستطيعون أن يجتمعوا ويعقدوا مجلسهم في بلد آخر غير العاصمة ! !

* * *

وهناك ما يخيف من جهة ضعف ما ليتنا واحتياجنا الى القرض ، ومن جهة تألب المطامع الاجنبية علينا ، ومن حيث ما ستصادفه الوزارة من الاقتراحات الدولية بشأن الصلح الذي نرتعش الآن من لفظه .

* * *

كل هذه التي سردناها أمور لا يستهان بها ولا يهمل النظر اليها ، ولكن هناك ما يطمئننا مع وجود كل هذه الظواهر المدهشة .

فأما ضباطنا فانهم يملكون من حب الوطن ما يحمل أكثريتهم العظمى على تحاشي كل غلو يؤدي الى تفرق كلمتهم ووهن نظامهم ، ومهما بقي في المملكة شيء من الاستبداد الصريح فان الوطن لا يستغني عن

صوتهم في ارهاب ذلك الاستبداد وهزمه ، وربما كان هذا الدرس الجديد الذي أعطي لغلاة الاستبداد الجديد مؤثراً تأثيراً عظيماً لا تحتاج المملكة بعده الى مثله •

وأما الارناؤوط فان بينهم من الرؤساء وقادة الرأي من نرجو أن يصغي الى صوت الحق المنبعث من لسان الحكومة الجديدة وقلبها ، كيف وهم يرون فيها غير تلك الوجـوه التي نكروها ونقموا منهـا ؟ ورجاؤنا باخلاص الارناؤوط لدولة الخلافة عظيم ، فهم سيقفون موقف المخلص متى لبتهم الحكومة في مطالبهم ، وليس فيما طلبوه ما يؤدي الى التجزؤ كما يسبق الى الهواجس •

وأما الاتحاديون فانهم لا يخلون من عقلاء نأمل أن يكونوا هـذه المرة هم المتغلبين على غلاتهم • ومهما أسأنا الظن بغلاتهم يجب أن لا نبلغ فيه درجة تجريدهم من حب الوطن بالتمام ، على أن الحكومة قـادرة على دفع كل كيد من أمثال كيودهم •

وأما ضائقتنا المالية ، واحتياجنا الى القروض ، وتألب المطامع الاجنبية علينا ، والاقتراحات الدولية فهي ليست من الامور الجديدة ولا من الامور التي حدثت بحدوث هذه الازمة ، بل هي مرتبطة بشؤوننا العامة• وليست تلك الشؤون العامة من صددنا الآن وانما نتكلم في الازمة الجديدة التي يصبح الناس ويمسون فيها يتوقعون مكروهات كثيرة ، ولكنها ــ على رأينا ــ ستمر إن شاء الله تعالى من غير أن يقع ما يتوقعون• والمعضلة العظمى في هذه الساعات العصيبة هي مسألة فسخ المجلس ، وسيرى الناس أنه بانفساخه تنحل كل العقد ، وليس الخوف الحقيقي الآن الا من عدم فسخه ، ولكنه سيفسخ عما قريب غـد فـلا خوف لا خوف اليوم •

أيها الخافقان قولا نعما (*)

يا حاملي رسالة الأولين الى الآخرين ، ولابسي شعار الارتقاء والانحطاط في العالمين ، ناشدتكما بالنور الذي به تحييان ، والروح الذي به تخفقان ، وبسعة صدريكما الحافلين بأسرار الخلائق ، الحافظين مفاتيح الحقائق ، أن تحسنا الظن بنا معشر العثمانيين ، مهما تعددت حولنا حيل المتغلبين ، فاننا نصبر حتى يظننا المغرورون موتى ثم نمور مورة فاذا نحن بالتواصي آخذون ، وبأسباب النجاة والنجاح متعلقون ، ولأبواب التجدد فاتحون ، وإياكما بعد اذ رأيتما كيف دككنا استبداد هذه الفئة المعهودة التي أورثت نفسها بنفسها مقام السيطرة المطلقة في المملكة أن تظنانا نرضى بضيم أو نهجع على غضاضة ، كلا بل مهما ظهرنا في مظاهر الساكنين الساكتين ، ومهما كان ذلك هو الخلق الغالب على أقوامنا المتعددين ، فاننا مع هذا لا نعدم ماتجده الأمم من الأفراد الذين هم كالجبال « تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب » . وربّ سكوت يفعل مالا يفعله الكلام ، ورب كلام يصنع مالا يصنعه الحسام ، « فنحن سكوتٌ والهوى يتكلم » ، ونحن وقوف والزمان يسير .

فبالله عليكما أيها الصاحبان إن كنتما قد أحصيتما على هذه الامة اعتلاء السفلة فيها فلا تنسيا أن الذين أسقوطهم لم يكونوا الا من أبنائها أيضا فالسلام عليكما وعلى عباد الله الصالحين .

---

* (الحضارة) ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٢ (٧ اغسطوس ١٩١٢) .

اتقوا الله في أوطانكم

اتقوا الله في أوطانكم (*)

— ١ —

أيها المؤمنون بالقرآن المجيد :

القرآن نعم المعتصم ، وحبذا الدليل ، لقد جمع من قواعد الاجتماع أثبتها على طول المدى ، وأقواها لإقامة بنيان الامة ، وأبعدها عن مثار زلازل الشكوك ، وأسماها بين النظائر والأشباه . ولقد وصف الدنيا وما فيها أجمل وصف وأجمعه ، وذكّر بانصرام الحياة فيها أحسن تذكير وأنفعه ، وصعد بالنفوس الى مستوىً عال من الايمان الذي لولاه لظلت في حيرة وحسرة لا انتهاء لها ، وذلك أنه آنسها بتصور عالم الغيب ، وأدخل عليها الطمأنينة بخلود الروح ، فهو من أجل ما فيه من هذه المراشد العظيمة ، والفوائد العميمة ، يراه المؤمنون غذاء أرواحهم ، ومؤنس وحشتهم ، ومذهب حزنهم ، وكاشف كرباتهم . هو سراجهم الوهاج ، وكنزهم المكنون ، وغيثهم المريع ، وحبلهم المتين . فالى القرآن المجيد أيها المؤمنون يدعوكم أخو تذكير يرجو أن يذكّر معكم ، فالى هذا الكتاب الكريم انظروا ، وبآياته البينات اتعظوا ، وتذكروا ما وصف لكم به هذا المتاع القليل ، وما

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٢٣ (١٥ أغستوس ١٩١٢) .

بيّن به حقيقة هذه الحياة الفانية ، وما دعاكم إليه من معاني التضامن ، وما جمعكم عليه من مسالك التصاحب والتواطن ، وما هداكم به من فوائد الاهتمام بشؤون الامة ، وما أقامكم فيه من وظائف إقامة العدل والاحسان ، وما نفركم منه من التخاذل ، وما زادكم عنـــه من الوهن والتكاسل ، وما أعدّكم له من المركز بين الشعوب ، وما أعده لكم في هذه الدنيا وفي الخلود من كرامة اذا أصلحتم واحسنتم ، وهوان اذا أفسدتم وأسأتم ، ألا فاذكروا كل هذا ، ولا تدعوا ما قد بين لكـم من جميع مناهج الفوز والرشد والفلاح بل اعملوا به حق العمل ، واعتصموا بـــه حق الاعتصام لعلكم تفلحون .

❋ ❋ ❋

إن هذا الكتاب الكريم دعاكم الى مالا أحصيه هنا من أصول الخير وفروعه ، وانما أذكركم بأن أعظم شيء نوّه الكتاب به وعظّم من شأنه « إقامة العدل » ، وليست اقامة العدل وظيفةً قاصرةً على مأموري الحكومة كما يظن كثير من الناس بل كل واحد مكلف بإقامة العدل ، وذلك أن العدل على نوعين عـــام وخاص ، فالعام هو الذي تتــولى الحكومات من قبل الامة اقامته فتحفظ به حق الضعيف ، وترد بـــه عنـــه كيد الحائف ، والخاص هو الذي يطلب من كل واحد مـــن الناس أن يكون متحلياً به من اعطاء الحقوق ، والوقوف عند الحدود وعـــدم الاعتداء .

قـــد يكون معلوما من هذا كيف تجب على كل واحد اقامة العدل بمعناه الخاص ، ولكن ربما لا يعرف بعض الناس كيف تكون اقامة العدل بمعناه العام واجبةً على كل أحد ، أما الذين أوتوا نصيبا من علوم الفرقان فانهم يعلمون أن تكوين الامة من أعظم مطالب هذا

الدين الاجتماعي ، وبديهي أن كل أمة انما تقوم بنيتها على أسس ، ولا تكون تلك الأسس متينة راسخة ما لم يكن كل فرد من الامة عضواً أساسيا فيها ، ومتى كان فرد عضواً أساسياً في الامة كان مكلفا بأن يحافظ على بنية الامة وكيانها • وليس يجهل أحد أن الامم لا تحيا وتبقى اذا فقد فيها العدل ، فبمقتضى هذا وبمقتضى تقسيم الاعمال وجب أن يكون في كل مأة هيئة تتولى حراسة كيان الامة وتكفل انصاف المظلوم فيها من الظالم ، هذه الهيئة هي التي يقال لها « الحكومة » ، وهل تنصب الحكومة نفسها بنفسها أم تنصبها الامة ؟ فاذا ثبت أن نصب الحكومة انما هو بيد الامة لايبقى خافيا حينئذ ما يترتب على كل فرد من الاهتمام باقامة « العدل » الذي هو من أعظم المطالب • ومن هذا البيان يعلم القارىء أن مسألة نصب الحكومة هي المادة الاساسية الاولى للأمم ، وكل أمة تهمل هذه المسألة فهي انما تهمل واجبا من أعظم الواجبات ، وحقا من أكرم الحقوق ، فتكون معرضة لانواع من الخزي والخذلان ، والذلة والهوان ، تنتاشها المصائب من كل جانب ، وتتساقط عليها الحسرات تساقط الامطار في أوانها • كل ذلك قد سبقت في اثباته التجارب ، ووعته الدفاتر والذواكر ، وأمثلته ماثلة أمام النواظر ، وكل ذلك كان في الكتاب مسطوراً •

* * *

هل تنصب الحكومة نفسها بنفسها ؟ مضت من قبلنا أمم أرانا التاريخ شيئا كثيرا من عجيب شؤونها ، وآتانا عبرا كثيرة من تحول أحوالها • فبينا الامة من تلك الامم في سامق لا يبلغ الفكر فيه مدى عليائها اذا هي في غور لا يكاد يعرف فيه شبحها ، وبينا الاخرى في قعر يكاد النور يتعب في الوصول اليه اذا هي في ذروة لا يبرحها

السنا ، وبينا الشعب من تلك الشعوب في قوة تخر أمامها النسور العصم هيبة اذا هو في ضعف تمتطيه معه الديدان ، وبينا الآخر في وهن تسوقه من أجله الصعاليك اذا هو في مُنّة تجمد أمامها حواشي الملوك • ومن أمعن النظر في هذا التقلب قد يصل الى مكامن الاسباب التي انبعثت منها هذه الغِيَر أما بحسب ما قرأناه في أسفار القدماء ، واستفدناه من أفواه العلماء والحكماء ، فان أعظم أسباب ما هنالك من تعال وتسفّل ، وقوة وتضعضع ، هو من طبيعة نفوس الشعوب وجوهرها لا من أمر خارج عنها في الغالب ، وكأنه عن هذا المعنى يعبر الكتاب المجيد بهذه الاية الكريمة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » نعم ، نعم إن هذه النفوس منجم العزة والعلاء ، والسعادة والهناء ، وهي هي منشأ الذلة والصغار ، والشقاء والخسار • أجل ، أجل إن هذه النفوس هي التي تجعل بعض البشر عبيداً وبعضهم سادة ، وهي هي التي أعدت لها دار النعيم ودار الجحيم ، وهي هي التي بها الفخار وبها العار والشنار ، وهي هي التي بها الفناء وبها البقاء •

« نفسُ عصامٍ سوّدت عصاما وعلمتـه الكرَّ والإقداما

فاذا وقفتم أيها القراء المحترمون على هذه الحقائق وتجلّى أمامكم مقدار دخل النفوس في اعتلاء الامم وتسفلها فاعلموا أن الامم التي تموت فيها النفوس ، وتهن فيها العزائم ، وتضمحل فيها المروءة ، وينوس فيها تأثير الدين الرافع للهمم ، تكون الحكومات فيها ناصبةً نفسها بنفسها أي أن نفرا من الناس يتغلبون فيها على جميع الناس ، ويستبدون فيهم ويقبضون على أعنة أمورهم ، ويتولون الحكم فيهم بأهوائهم ، فما يصدر عن أمثال هؤلاء مما يصح أن يسمى عدلا

أو ظلما لا يكون صادرا على ترتيب مقرر ، أو نظام مضبوط بل هو تابع لهوى المتغلب ، ومصادفات المحيط • وأكثر نتائج هذا الشكل هوان الامة ثم تضعضع القوة القائمة عليها • ومن كان حظه عظيما من علوم القرآن يعلم أن هذا الشكل ممقوت في ذلك الكتاب الكريم ، يسمى فيه الحاكم والمحكوم ظالمين ، والله لا يحب الظالمين •

وأما الامم التي حييت فيها النفوس ، وفكّت العُقُل فيها عن العزائم وانبثت في أرجائها النخوة وإرادة الشرف ، وأطلعت منابتها أزهار المعالي ، وملأ آفاقها روح عشق الحق والولع بالمناقب الفاضلة ، فانها لن ترضى أن تكون بيد متغلبين كما يكون العبد في يد سيده ، بل هم يقاومون كل متغلب يريد أن يتخذهم خَوَلاً وعبيداً ، ويجدون في أرض الله الواسعة مهاجراً اذا لم يستطيعوا في بعض الأحيان دفع المتغلب أو إنزاله في المنزلة التي ينبغي أن يكون فيها الحاكم وهي أن يكون بينه وبين القوم عهد وموثق على أمور يشترطونها ويبينونها ، ومتى كان الحاكم خاضعا لشروط كان منصوبا بيد الامة وليس بناصب نفسه بنفسه ، ومتى كان كل فرد من الامة عضوا أساسيا فيها كان بالطبع شريكا في نصب الحكومة ، فان حرست الحكومة الكيان وأقامت العدل في أمة من الامم كان ثمة ربح لكل فرد من أفراد الامة ، وإن لم تفعل ذلك كان هناك خسر على كل أحد من آحادها • وبديهي أن الامة التي لا تتقن الحساب ولا تتوسل لدفع أسباب الخسر ليس لها أن تشكو غير نفسها ، أما الامم الميتة المستسلمة للمتغلب فانها جديرة — اذا لم تر العدلَ — أن تقول كما يقول العبد المظلوم المهان : « لم يشبعني سيدي ، لم يكسني ، لم يرحمني ، لم يخفف عني التعب » •

ولكن ماذا تفيد العبد هذه الشكوى اذا كان لا يملك حيلة سواها ؟ وما أشنعها من مهانة اذا ابتليت بمثلها أمـة من الامم !

* * *

فأنتم ياتلاة الفرقان المبين جديرون أن تكون لكم حياة الهمم ، وصدق العزائم ، وعلـو المقاصـد ، وطيب المناقب . فعلى هـذا مضى أسلافكم الأولون الذين كان الفرقان ربيع قلوبهم ، وضيـاء بصائرهم ، وحادي نفوسهم ، ولقد علمتم أن أولئك الأسلاف الكرام ، عليهم الرضوان ، نصبوا بعد نبيهم صلى الله عليـه وسلم أول حكومة وأقاموا عليها بالمبايعة رجلا من خيرة خيرتهم واشترطوا عليـه حفظ البيعة واقامة العدل ، وعاهدوه على الطاعة والنصيحة ما دام وافيا لهم بما اشترطوه ، وذهبت هذه المبايعة سنّةً متّبعةً بعـد ذلك في الحكومات الاسلامية التي حرصت على أن تكون مقبولة عند الامة ، وفي هذه المبايعة اشعار ظاهر بما للأمـة من الحق الأساسي الاصيل بنصبها الحكومة ، ولكن انما يرث وينال هذا الحق الاحياء ، فهل أنتم اليوم ياقوم أحياء ترزقـون ؟ .

لا أسألكم عن الحياة التي يجد مثلها سائر أنواع الحيوان مـن الاستعداد للأكل والشرب والوِقاع والنوم فانني بالبداهـة عارف أنكـم تحملونها في هذه الاجساد ، وانما أسألكم عن الحياة الفاضلة التي وصفها لكم القرآن ودعاكم الى ورود ينابيعها ، انمـا أسألكم عن الصبر والمصابرة في سبيل الحق ، انما أنشدكم عن قوة القلوب ، وصحة الارادات ، انما أستعلمكم عن درجة الشعور بمقومات الامة ، إنمـا أستنبىء عن التضامن ، واستخبر عن التعاون ، وأستفسر عـن التعارف والتعاطف .

عن قوة النفوس أسألكم لا عن قوة أبدان لن تساووا الفيلة والسباع مهما بلغتم فيها ، فان كنتم تجدون هذه القوة فنعم الاحياء أنتم ، وحبذا ما ترزقونه بسبب هـذه الحياة من عز وبقـاء ، وان رأيتم أنفسكم بعيدين عنها فتساءلوا لماذا هذا الموت وأنتم أهل ذلك الكتاب الذي أحيا الموتى من قبـل ؟

* * *

تساءلوا ياقوم واجعلوني بينكم سائلا ومسؤولا ، وهلموا نتذاكر جميعا فان الذكرى تنفع المؤمنين .

تذكروا يا قوم ما أهملناه من القواعد الاساسية التي لا تقوم حياة الأمم بدونها ، لقد شاعت بيننا كلمـة « لا يعنيني » شيوعاً فاحشاً : ترى منكرا من المنكرات يتفشى كشهادة الزور مثلا فتذكر ذلك لعالم من علمـاء الدين فتسمعـه يقول لك « لا يعنيني » ، وتذهب في ذلك إلى رؤساء الاسر والبيوتات فتجد ثمـة « لا يعنيني » ، وتريد أن تحمس العامة فتحول بينك وبينهم « لا يعنيني » ، وبالجملة أنت تجد هذه الكلمـة أين جئت وأنى ذهبت تسبقك الى منازل الخاصـة ، وتلحقك الى بيوت العامة ، ثم تحاول أن تدخل بينك وبين ضميرك . على هذا النحو يشيع كل منكر من الظلم وينمو ويترعرع بلبان تلك الكلمة لادرّ درها ، وعلى هذا النحو نسينا قوله عز وجل « واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة » ففتحت منافذ التغلب ، وتسرب منها الظلم على أنـواع كثيرة فماتت أمام ذلك النفوس أو كادت ، وما ظلمهم الله ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

ولقد كان من أعظم ما أهملناه مسألة « نصب الحكومة » تلك

المسألة التي اعتنى السلف بها كثيراً ووضعوا أصولها بالسيف والقلم أحسن وضع ، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا كل مقومات الأمة حتى صاروا خَوَلاً وعبيدا ، وما زال موروثا في طبيعة الذراري في عهدنا أيضا وان كانت روح العصر تنكر ذلك وتمقته كما تنكره روح الكتاب الكريم •

كيف أضاع المضيعون أعظم تلك المقومات ، وكيف أهمل المهملون أكرم تلك الحقوق وأوجب تلك الواجبات ؟ البحث في ذلك طويل وتفصيله يملأ صحفا وأسفاراً ، فلذا نقف عند هذا السؤال وقفة المحب الذي لا يستطيع أن يمر بالأطلال غير مناج إياها بأنةً جوى ، ونفثه صدر على ذاك النوى •

وبعد فنحن الآن قائلون « مضى ما مضى » وقد فتحنا أعيننا في هذه الدنيا فوجدنا الامم قد سبقتنا الى الاهتمام بتلك المادة الاساسية الاولى أعني « نصب الحكومة » ، ووجدنا الاقوام قد وضعوا فيها من القوانين ما هو غير بعيد بروحه عما كان عليه أسلافنا الاولون الذين كانوا عالمين بالقرآن وبه عاملين ، فأصبح وراءنا سائقان وحاديان يسوقاننا ويحدوان بنا الى وضع قانون أساسي يشبه تلك القوانين التي وضعها الاقوام الذين سبقونا ، سائق الهدي القرآني وحاديه ، وحادي الروح العصري وسائقه ، وقد شغل هذا الامر بال ذلك الوزير الشهم الغيور مدحت باشا فكان شرف تحرير القانون الاساسي من نصيبه ، وستبقى له ذكرى هذا الشرف ما بقيت العثمانية •

حرر قانوننا الاساسي الذي هو الوثيقة الكبرى بين الامة والحكومة في أوائل العهد الحميدي وعمل به مدة قليلة ثم أهمل العمل به لان الامة كانت لم تزل هاجعة في عاداتها ، بعيدة عن فهم

المراد من قانونها الاساسي • ولكن لم تكن الامة محرومة من أبنـاء متفقهين في علوم السياسة والاجتماع فهؤلاء كانوا يرفعون أصواتهم من حين الى آخر بطلب القانون الاساسي فيسمعهم طوراً عبد الحميد فيسخط عليهم ، طورا يسمعهم أبناء جلدتهم فيقبل بعضهم ويعرض بعض ، وما زال الامر كذلك حتى كثر المعتقدون بأن الدولة لم تبق قادرة على السير بغير بعث القانون الاساسي من مرقده ، ثم سرت هذه العقيدة الى ضباط الروم ايلي فثاروا تلك الثورة المعهودة التي انجلت عن خضوع السلطان السالف واجابته لما طلبوا •

وانكم لتعلمون أن أهم ما في القانون الاساسي عقد ندوة الامة المسماة « مجلس المبعوثان » ، ولقـد علمتم أن هذا المجلس تنتخبه الامة ويشترك في انتخابه الجميع (إلا مَنْ استثناهم القانون) ، وعرفتم أن وظيفته النيابةُ عن الامة في ابداء رأيها وإرادتها عند وضع القوانين ، والمراقبة على أعمال الحكومة الموظفة من قبل الامة باقامة العدل ، وعرفتم أن الذين يقصرون من الوزراء الذين هم المسؤولون عن الحكومة يستطيع نواب الامة اسقاطهم ، فمن بعد كل هذا يجب أن تعلموا أن انتخاب النواب هو حق من حقوقهم ، لكم أن تطالبوا بـه اذا اغتصب منكم بكل وسائل المطالبة ، وهو واجب عليكم من حيث أنكم مطالبون باقامة العدل ومن حيث أن اقامته لا تكـون الا باقامة الحساب ولا تكون اقامة الحساب الا على هذا النحو من إنابة نواب •

فيا أيها الذين آمنوا بكتاب الله إنْ كنتم تذكرتم بمـا قدمناه أن من أعظم مايرشد اليه هذا الكتاب المبين تكوين الامة والاهتمام بمقوماتها،

وان كنتم تذكرتم أن نصب الحكومة انما هو بيد الامة ولكن على طريقة تقـرر الاصطلاح عليها بموجب القانون الاساسي ، وان كنتم تذكرتم بهذا أن الامة هي المسؤولة بعد ذلك عن حراسة كيان نفسها واقامة العدل في ربوعها وهي الملومة ان انتفى ذلك المطلوب العظيم ، وان كنتم تذكرتم أن وظيفتكم تتجلى بانتخاب النواب وانكم ان أسأتم أسأتم لانفسكم وان أحسنتم فلأنفسكم تمهدون ، اذا تذكرتم كل هذا فاتقوا الله في أوطانكم !

إي والله يجب أن تتقوا الله في أوطانكم ، فانه ليس بغائب عـن أبصاركم ما وصل اليه هذا الوطن البئيس من التأخـر في المرافق كلها وما يحيط به من عيون المطامع ، وأيدي الدسائس • وليس بخاف عليكم ما جرّته خيانة الامانة في الانتخابات التي سلفت من الغوائل التي كادت تقضي على الوطن لولا لطف رباني ، وعنـاية إلهيـة •

إي لعمر الحق يجب أن تتقوا الله في أوطانكم ان كنتم مؤمنين ، وان كنتم لتسلط الاجانب كارهين ، فانـه ليس بينكم وبين ذلك التسلط الا أن تخان الامانة في الانتخاب مرة أخرى والعياذ بالله تعالى •

نعم ان الانتخاب أمانة والله سبحانه يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل •

لقـد فضحت الامة في تلك المرة فضيحة كبيرة اذ قـد انقسمت قسمين : قسم أباح لنفسه خيانة الامانة فتفنن بالتزاوير واغتصاب رأي الناس وقسم جمد أمام هذه الفظائع جمود بعض الديدان التي تصادف معارضا في سبيلها ، وما عار هؤلاء الجامدين بأخف في نظري من عار أولئك الخوانين •

لكن الامل من الحق سبحانه أن الامة تأتي هذه المرة من الحسنات ما تفكر بـه تلك السيئات وتمحو به عنها ذلك العـار الذي أبـاه الأرناؤوط ولم يجدوا حاسما له الا النار لله درّ الحرائر اللائي ولدنهم ، ولا عاش من زعمـوا أن الخير في عدم تلبية مطالبهم وان أدى ذلك الى امتداد القتال واتساع مجال البوار والوبال •

❋ ❋ ❋

وأنتم يارفقاءنا في الوطن ، أهل الانجيل الشريف ، أخاطبكم بما خاطبت بـه قومي ، أهل القرآن المجيد ، فان الانجيل والقرآن بيانان شافيان ، الى الصدق والامانة داعيان ، وعن الزور والخيانة ناهيان • وانكم لتعلمون أن القانون الاساسي الذي نوهنا به في هذا المقال قد زاد في اعلان حقوق أرباب المذاهب وتسويتهم بالمسلمين ، وتعلمون أن الخير من عمران هذا الوطن مشاع ، وكذا الشر من نقص العمران عام شامل • وتعلمون أن شركتكم في هـذا الوطن أصبحت منقوشـة بالبراهين الصحيحة على القلوب ولم تبق كما في السابق حبـرا على ورق •

فأنتم أيضا ياقراء الانجيل الشريف تذكروا أن الانتخاب أمانة ، وتذكروا ما قـال السيد المسيح في الامانات ، وتذكروا أن لجلالـة السلطان حقوقا علينا وعليكم ، وليست حقوقه منحصرة بتأدية بعض التكاليف المالية التي لا بد لقوام الدولة منها ، كلا بل من جملة حقوقه أن نكون له ناصحين مخلصين ، وقـد رفـع اليوم صوته يستنصحنا أجمعين اذ قال « اني أريـد أن تجري الانتخابات هذه المرة نقيـة خالصة مـن شوائب الضغط والقسر والتزوير » فلبوا دعـوة جلالته

وتذكروا قول السيد المسيح أعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله .

* * *

وكأين من قارىء يقول : ما بالك قد جئتنا اليوم بأساليب خطابية ، فأجيبه ذلك لان من جملة حقوق القراء علينا أن نوافيهم بمثل هذا في بعض الاحيـان ، ومن الله سبحانه الهداية ، ومنه نسأل العـون والعنايـة .



اتقوا الله في أوطانكم (*)

— ٢ —

الوطن – أيها السادة – هو الجامعة ، سواء جمعتنا الدور المجاورة ، أم الالسنة المتفقة ، أم الضمائر المتحدة ، أم المصالح المتقارنة .

عرف الناس أن الاوطان محبوبة ، وظن بعضهم أنها انما تحب لطيب ماء وجودة هواء ، كلا ليست محبة الاوطان لهوائها ومائها ، ولا لحيوانها ونباتها ، فان أرض الله سبحانه مختلفة البقاع ، متنوعة الاصقاع فيها الجبال والوهاد ، والحزون والسهول ، والاراضي التي تجري فيها الانهار ، والاراضي التي لا ماء فيها الا ما تجود به السماء ويتجمع في الغدران . وفيها الفيافي القفراء ، والآجام الغبياء ، ومنها ما يقرص فيها القرّ ، وما يفلح فيها الحرّ ، ومنها ما مسته المدنية بيدها ، ووضعت عليه شارتها ، وما لم تره عينها ، ولا جاوره جنابها . وكل هذا البقاع المختلفة يحتلها أناس من بني آدم ويتخذونها وطناً ، وقد لزم كل فريق منهم وطنهم كما يلزم المحب حبيبه ، ولولا ذلك لهجرت كثير من البقاع التي يتعسر فيها العيش ، ويكثر فيها العناء ، وقد سبقنا الاولون الى هذا المعنى فقالوا فيما ذهب من أقوالهم مذهب الأمثال « لولا حب الوطن لكانت بلاد السوء خرابا » .

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٢٤ (٢٢ اغستوس ١٩١٢) .

وانما تحب الاوطان لامور أخرى يسميها المبتدئون في الفلسفة أوهاما ، ويسميها المتمكنون في التفكر عوامل روحية ، ويرونها جديرة بالالتفات واحلالها المحل اللائق بمثلها من البحث والتفكر •

إن ذهاب بعضهم الى أن أسباب حب الوطن أمور وهمية هو الوهم نفسه ، فان الامور التي ترسخ ألوفا من الاعوام ، ويستوي فيها الخاص والعام ، والبدوي والحضري ، والفقير والغني ، واللبيب والغبي ، والراقون من الاقوام والمتسفلون ، والفائزون منهم والمحرومون ، لا يجوز الاستعجال بتسميتها أمورا « وهمية » • وهذه التعابير لاتكشف في الحقيقة عن غوامض الاشياء ودقائقها ، كلا بل مثل هذه الامور لها علاقة عظيمة بطبيعة النوع من حيث هو ، ومعلوم أن للنوع طبائع عامة لا يتخلف عن أخذ النصيب منها الا قليل من الافراد ، فالانس بالاوطان على علاتها هو من تلك الطبائع العامة ، وأول تباشير المحبة الاستئناس •

إن محبة الاوطان من أعظم أهواء النفوس ، ومعلوم أنه « لهوى النفوس سريرة لا تعلم » والشيء من الاشياء قد يشترك الناس كلهم أو أكثرهم في هواه ، ويصح أن نسمي هذا الضرب من الهوى عاماً وإنا نرى الفكر يتعب في استنباط أسرار ما يعمّ من الهوى ، فانه ليس بمرْوٍ للأفكار ارجاع كل شيء من هذا القبيل الى حب النفس ، أما الهوى الخاص فقد يجد البحث مجالا لتناول أسراره واستخراجها من بين « الأوهام » وقد يجد علم النفس باباً للتصرف فيه وتكييفه •

ومن حسن الحظ حب الوطن هو من قبيل الهوى العام الذي

تجمجم الفلسفة حوله جمجمةً وتَجِم أحيانا وجوماً ، وهو عظيم النفع لهـذا النـوع الانساني .

نعم لا يخلو مع هذا من شيء من الضرر ولكن عظيمَ نفعه يلاشي قليلَ ضرره فلا يكون النوع الا رابحا دائمـا من حب الوطن فـان الوطن هو المنبثق الاول لما يسمى الحقوق والواجبات ، وهو لايزال مدار الاجتماع والسياسة وحولهما تدور الحقوق والواجبات ، ومن أمعن النظر يجد أن الواجبات التي يضعها الواضعون لاتعادل مايتحمله المـرء من تلقـاء نفسه في سبيل وطنه بسائق من العوامل الروحية ، وكذلك يجـد الممعن أن الحقوق التي ينالها أبناء الوطن في أوطانهم ليست مكافئة لفضل ذلك العامل الطبيعي ، وانما فصّلت الواجبات الوضعية وأقيم لها شأن عظيم واحتفظت بهـا دواوين القوانين لان بعض الناس قد يصابون بعلل اجتماعية من طبيعتها التأخر والتراخي في تلبيـة الوطن الى مايدعو اليه لسان حاله وقد تسري هذه العلل وتعدي كثيرين ، وكذلك فصّلت الحقوق وأقيم لها شأن وصينت في بطون الاسفار لان بعض الافراد قد يضعف عن تناول ما يستحقه جزاء مشاركته في عمران الوطن ، بل تصاب بعض الامم بعلل من طبيعتها أن يصبـح أكثر أفرادها ضعفاء ، والخلاصة أن جمهور الناس محبـون لاوطانهم ، وأن من سلموا من العلل التي تورث الشذوذ لا يحتاجون في حب الوطن الى كونه جميلا أو طيب الماء والهواء وانما يحبونه بسائق طبيعي ، وأما من يجدون فتورا في محبتهم أوطانهم فانهـم شاذون وللشذوذ علل ولا يجوز أن تهمل هذه العلل .

❋ ❋ ❋

لا نقول لكم أيها السادة أحبوا أوطانكم فإنا نخالكم تحبونها حبا جماً ، ولكنا قد آنسنا بحسب تجاربنا في بلاد وأصقاع كثيرة أن ثمـة ذهولا عن تعدد الاوطان لكل واحد منا ، ونرى الاكثرين انما يحبون في الغالب وطنا واحدا هو مسقط الرأس وبيئة العشيرة ، وهو الوطن الذي تشاهد علائم الانس به والاحتفاظ بحق الاقامة فيه على سائر أنواع الحيوان ، ونحن لا نرى لوما على أحد بحبه هذا الوطن كلا بل نأسف لمن يشذون عن محبـة الديـار التي تتجلى فيها أرواحهم تجلياتها الاولى ، وانمـا نرى من النقص في التكامل الاجتماعي أن يكون الوطن ضيقاً الى هذا المقدار ولذلك نقول كمـا يقول كـل المتكلمين في هذا الموضوع ان لكل منا معاشر الافـراد أكثر من وطن واحد ، بعضها ضيق وبعضها واسع ، وما نقص محبتنا لبعض هـذه الاوطـان المتعددة الا ناشئا عن علل في طليعتها الذهول والنسيان ، فيجب أن نتذاكر دائمـا في إزالة هذه العلل لانه بمقدار ما ينفـع المجتمـع شيوع حب الاوطـان يضره حدوث فتور في هذا الحب ولا سيمـا اذا شاع وعم هذا الفتور .

من أجل هذا نخاطبكم اليـوم مذكرين وما نحن بأخبر منكـم بالاحوال ، ولا أغير منكم على الاوطـان ، ولكن ليس بمشترط في التذكير أن يكون صاحبه أكثر خبرة ممن يريد تذكيرهم ، بل المأثور عن كبـار حكمائنـا الاولين أنـه ليس أحد أصغر من أن يذكّر ، ولا أحد أكبر من أن يذكّر ، وكثيرا ما شاهدنا آباء يضربون أبناءهم ضرب غير الشفيق ورأينا من بحضرتهم يذكرونهم بالشفقة والرحمة مع أن رحمـة الآباء بالابناء غريزية ولا يخطر ببال من يدعو أبـا الى الشفقة على ابنه أنه أكثر حنانا على ذلك الولد من والده .

إني أخال أنه ليس فيكم من لايريد أن تكون أوطانكم الصغيرة التي هي مساقط رؤوسكم ومجمع عشيرتكم الأقربين رياضاً مونقة يهب فيها نسيم العدل ، وتشرق كلها بنور العرفان ، ويشعر الانسان فيها أنه وليد وطن عزيز شريف محترم الجانب ، نعم تريدون هذا ولكنا نجد قلة سعي الى تحصيله كما ينبغي أن يكون السعي ، فما أحراكم والحالة هذه ان تتغطوا بقول ذلك الشاعر :

« ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لاتجري على اليبس »

الدنيا دار سعي ، قد كتب الكدح فيها على كل أحد ، والامور فيها منوطة بأسباب ، ومحصورة بأبواب ، فاذا سلمنا أن ثمة أفراداً كسالى قد يسعى غيرهم لهم فينالون حظاً وسعادة بهذه الواسطة ، لا نسلّم أن الامم التي تكسل وتنتظر سعي غيرها لها تنال يوماً ما حظها المطلوب وسعادتها المرغوبة ، ذلك لان الافراد يصح في حقهم من الندرة والشذوذ والاستثناء مالا يصح في حق الامم ، كلا بل ليس لكل أمة الا ما سعت كما أنه ليس لكل أحد الا ماسعى ، ولا عبرة ببعض الآحاد الذين يسعى لهم غيرهم .

إي والحق إن الدنيا لدار سعي ، وإن أمورها لمنوط بعضها ببعض ، فهلا نظرتم ــ أسعدكم الله ــ بما تناط سعادة أوطانكم الصغيرة وهلا تذكرتم أنها لا تسعد ما لم يصلح وطنكم الكبير ، ذلك الذي هو بمثابة الدماغ للأوطان الصغيرة .

إن أوطانكم الصغيرة مرتبطة بسلطنة هي التي نطلق عليها اسم وطنكم الكبير ، لانه حيث وجد ظل هذه السلطنة هناك لكم أن تقولوا إن ههنا مربعنا ومقيلنا ، فاذا كان ذلك الوطن الكبير عامراً

فالعمران تجدونه في الاوطـان الصغيرة وأما اذا كـان خرابا فأنّى تجدون لتلك عمـاراً ؟

* * *

لقد عرفتم أن وطنكم الكبير تحيط بـه غوائل تكـاد لا تحصى من خارج ومن داخل ، فهل تذكرتم ـ يارعاكم الله ـ أن دفعها أمر واجب عليكم يوجبه المعقول والمنقول وهو المنتظر والمرجو من حبكم وطنكم ، وهل تفكرتم في طرق دفعها ؟

غوائل كقطع الغيوم السوداء ، مظلمة مخيفة قابضـة للنفوس ، لا ندري وراءها صواعق أم عواصف أم سيول جوارف ، ان لكم أن تقولوا والحالة هذه أنّى لنـا رد ما ينتظر وقوعه من هذه النوازل السماوية ، ومريد تذكيركم له أن يقول إنّا لا ندعوكم الى رد مالا قبل لكم به ، إنْ ندعوكم إلا الى ما تستطيعون ، فان نوازلنا تشبه النوازل السماوية من حيث خطرها اذا حاقت بالوطن والعياذ بالله تعالى ولكنها لا تشبهها من حيث مباغتتها وتعاصيها على الرد والمقاومة •

إن هذه نوازل أرضية مرئية الاسباب والابواب ودفع أمثالها أمر معهود كثيرا عند أولى الالباب ، أما تلك فنوازل سماوية لا يستطاع دفعها ومع ذلك لا يترك الاحتياط أمامها •

أنتم أيها السادة مؤمنون بقدرة الله عز وجل ، والمؤمن لا يليق به القنوط ، فانـه لا يقنط من روح الله الا القـوم الكافرون ، وكيف يصح لنا أن نقنط ونحن نرى كل يوم آيـة من آيات تلك القدرة البـاهرة ؟

ستتساءلون ماذا نصنع وليس بيدنا شيء ؟ فواعجبي كيف صار

بيـد أولئك المتغلبين كل شيء وخوت يدكم مـن كل شيء ، إني أسألكم ما هي قدرة أولئك المتغلبين المعهودين ولماذا صار في يدهم كل شيء ؟ هل هم من عالم غير عالمكم أم هم عملوا وأنتم قاعدون ؟ إن الناس مسؤولون عما يجب عليهم وقد وجب عليهم دينـا وعقلا أن يقاوموا الباطل بقـدر ما يستطيعون ، وبديهي أن الذين يريدون الباطل يفزعون الى التعاون ويؤلفون جماعة فاذا ظل سائر الناس سواهم أفرادا أفذاذاً فانهم يبقون عن بكرة أبيهم ضعفاء عاجزين أمامهم ، لان كل فرد منهم يقف أمام جماعة ، والجماعة مهيبة وقوية بالنسبة الى الفرد ، ولكن هل يخلص من الاثم الافراد الذين لا يبذلون الجهد في تأليف جماعة من أنفسهم لتكون لهم قوة أمام قوة الباطل الذي يرهقهم ويقهرهم ويحيي العسف فيهم فيميت منهم أشرف ما يمتاز به الانسان الذي يحب الله أن يكون نوعـه كريما ماضيا الى التكامل والمعالي •

نعم إن دفاع الباطل واجب من أول الواجبات ، والتقاعد عنه إثم وخطيئة من أول الآثام والخطيئات ، واعلموا أنـه لا يتنزه عن الوقوع في الخطـأ فرد ولا أمـة من الامم ولذلك لا يكون الحساب شديدا على خطـأ صدر فبادر الفرد أو الامة الى التطهر منـه ، وانما يشتد الحساب في الخطيئات التي يهمل الواقعون فيها أمرها ، أو ينكرون أنها من نوع الخطيئات ، أو يصرون ، وإن أنذروا على التمادي فيها وعـدم المبالاة بعاقبة أمرها ، ويكون الجزاء في مثل هذا التمادي شديـداً •

إن الجزاء على الخطـأ سنة إلهية ، وهو أثر طبيعي يعقب الاصرار على الخطأ ، والمشاهدات ترينا أن أكثر هذه الآثار توجد في هذه

الحياة وثمة آثار أخرى قد أرشد الدين أنها توجد في دار الخلود ، فالجزاء واقع هنا بدلالة الحس وارشاد الدين معا ، وواقع هناك بارشاد الدين فقط ، فليت شعري أنعرف هذا ولا نخشاه وتتقيه ؟ فما أكثر شجاعتنا حينئذ مع أننا من قلة الشجاعة تهيبنا الباطل ولم نقاومه، أم أكثرنا لا يعرفون هذا فلماذا حينئذ لا نكثر من التذاكر ويعرّف العارف منا غير العارف ؟

تأملوا أيها السادة ملياً وانظروا في أي طريق أنتم مسوقون والى أي مصير أنتم صائرون ، واعلموا أن الدنيا لا تخلو ممن يحبون الباطل ومماشاته ونصر القائمين به ، فأنا انما أخاطب الذين يحبون الحق ويشتهون أن ينتصر ، وأذكرهم بأنه مادام الباطل في هذه الدنيا فمحبو الحق مبتلون بمقاومته لا مناص لهم منها ، واعلموا يا أصدقاء الحق أن الباطل انما يصول ويستشري وتعظم هيبته في نفوس العامة فيستخذون ويخنعون له اذا نام عنه أمثالكم ، أما اذا كنتم أيقاظ الهمم ومتعارفين ومتعاونين فان قوة الحق التي تكون معكم ستغنيكم عن كثرة العديد وعن البأس الشديد ، إن قليلا من الصبر والثبات أمام الباطل قد يكفي لهزمه ، وقليلا من التعاون قد يجزىء في هدمه .

إي والله يجب أن تتأملوا جيداً وتتذكروا أن للاهمال آثارا من الجزاء لا ينفع الندم بعد وقوعها ، ولقد ضاق الزمان ووجبت المبادرة مادام الرمق موجودا والباب للعمل غير مسدود .

أخاطب الأغنياء منكم وأذكرهم ان كانوا ذاهلين أنه يوجد في البلاد التي احتلها الاجانب من هم أكثرمنهم أموالا ولكنهم مع تلك الاموال المتدفقة لا تطيب لهم الحياة وهم تحت يد الاجنبي ، ويود كثير منهم لو يكونون فقراء وخالصين من هذا الذل الذي يحسون به .

وأخاطب الفقراء منكم وأذكرهم إن كانوا ذاهلين أن الذين يرضون ذلة الخضوع الى الباطل وهم أولو ثراء قد يعذرهم العقل لانهم يخشون أن يذهب ما أنسوا به من المال الذي بيدهم ، ولكن المعدمين لا يجدون عاذراً اذا جمعوا بين ذلة الاملاق وذلة الملق الباطل .

لو كنتم غير مؤمنين وغير كارهين حكم الاجنبي لوجدت لي قوما آخرين غيركم ، أما وأنتم تحملون ما أحمله من الايمان والنفرة من سيطرة الاجنبي فأنتم قومى الذين تجد روحي الانس بهم ، وترغب العمل والتعاون معهم .

حقا أنتم أيها السادة قومي الكرام لا أيأس مهما طالت هجعتكم من أن تفيقوا ، ولا أمل مهما خشيت مللكم من أن أذكركم وأدعوكم الى التفكير في شأن الأوطان ، فأعيد اليوم عليكم قولي « اتقوا الله في أوطانكم » وقول الله سبحانه وهو الأجل الأعلى « واتقوا فتنةً لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة » .

❊ ❊ ❊

قد يخطر ببال بعضهم أننا انما كتبنا الفصل السابق وهذا الفصل لان الموسم موسم انتخابات ولأننا نريد بهما إمالة القلوب نحونا ، فلمثل هؤلاء نقول نعم قد كتبنا هذين الفصلين لان الموسم موسم انتخابات ، ونعم نقصد بهما أن يتذكر من قرائنا من يتذكر فينهضوا بهمة لا يليق بالمؤمنين سواها ويكونوا نافعين في ادارة الانتخاب في البلاد ليكون لنا مبعوثون صالحون يبيضّ بهم وجه الوطن ، ولا يصيب الوطن من وجوههم شيء من قبيل ما أصابه في تلك المرة ، على أنا نحن لا نقول بهذا انتخبوا فلانا وفلانا وانما نقول انتخبوا

بحق وأمانة من تعلمون أنـه صالح لهذا الامر وان لم تفعلوا تكونوا قد أهملتم أمر أوطانكم ، أما ما يتعلق بنا فاتنا ولله الحمد نحمل نفسا تترفع عن ايراد مثل هذه النصائح لآمال ومقاصد شخصية ، على أننا لا نعدم والحمد لله كثيرين يعرفون أننـا لا نؤثر النيابة عن الامة على غيرها من المسالك لنفع شخصي وحسبنا الله دائما، في مثل هذا الامر عارفونا ومجربونا والله عليم بذات الصدور ، وهو ذو العناية المرجوة ، وبه الثقة وبألطافـه الخفية الطمأنينة ، وعليه تعويل الروح ، واستناد الضمير ، وبه المستعان ، واليه الانابة ، إياه نرجوه واياه نتقي وهـو الكبير المتعـال .



اتقوا الله في أوطانكم (*)

— ٣ —

قد سمعت في هذه الايام كثيرا ، ورأيت كثيرا ، وتأملت في الحاضر والآتي كثيرا ، ولذلك أكثرت عليكم من الكلام في هـذا الموضوع ، وأملي أن هذه الاقوال تصادف قلوبا قد ملأها الايمان حرارة ، وآذانا لم تسدها الانانية الفردية .

اعلموا أيها السادة أن المال وخيم جدا اذا ظللنا سادرين في غلواء الحياة الفردية ، فأيقظوا رعاكم الله من بين جوانحكم حسن الاهتمام بصيرورة أمتنا أمة حقيقية والا فان الخسر عظيم .

لقد كنا كتبنا في العدد الرابع عشر من الحضارة قبل سنتين وشهرين فصلا في إيقاظ هذا الحس الشريف وقد وقع نظرنا عليه الآن بالعرض فرأيناه صالحا أن يوضع أمام نظركم الكريم كأنـه مكتوب حديثا فهبوه شيئا من حلمكم ونظركم .

* * *

ما أنت أيها الفرد وما حياتك ؟ تأمل جيدا بحالك ، وانظر ممعنا الى منتهاك ، التفت الى ما يحيط بك من الكوارث ، ولا تغفل عمـا يحوم حولك من الغاشيات ، وتفكر قليلا في ساعات غمومك ، ودقائق

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٢٥ (٢٩ أغستوس ١٩١٢) .

مزعجاتك ، ولا تنس أحمال الحاجات التي على ظهرك وسائق الضرورة العنيف من خلفك ، احفظ كل هذا جيدا ثم قل لي ما أنت وما حياتك أيهـا الفرد ؟

قسّمت المعايش وسبقت إرادة القاسم أن لا مساواة في الحظوظ ، ولا ملامة ولا عتب في المقسوم ، فواحد على العرش لا تقع عينه الا على ما يشتهي من زخرف ، ولا يحتاج فيما يبتغيه الى حركة ، ولا تجسر المزعجات أن تقف في أبوابه ، حركة خفيفة من حركات شفتيه تدوي لها الارضون ، وتخر لها الاعناق ، وتوقد بها الحروب ، وتتلاحم بها الصفوف . وآخر على الحضيض ، يأوي الى مثل أوكار الوحوش ، ويغشى ظهره من الاثقال مثل ما يغشى ظهور الزوامل ، يعدو النهار والليل تحتها لينال من القوت ما ليس هو بأفضل من الاعشاب ، ومن اللباس مالو عرض على الحيوانات لفضلت عليه جلودها ، وبينها درجات فيها صنوف بني آدم قـد كثرت فيها المزاحمات ، وتأخذ القـوم اللباس مالو عرض على الحيوانات لفضلت عليه جلودها ، وبينهما درجات وأضحكت منهم الضلالات ، وكم شوتهم الحسرات ، وكوتهم الندامات، مايحل بدار أحدهم الفرح ، حتى ينزل به الترح ، بل الأذى يردفه الاذى، والاسى يتبعـه الاسى ، ثم إن ذهب الظن الى أن المتغافلين باللهو ، والمغالبين بالسهو ، يفوزون بطيب من الحياة ويذوقون صفوا من الايام ، جاء اليقين يرد هذا المذهب ، ويكشف عن الرّنَق الذي في ذلـك المشرب ، ويؤيد صدق ذلك الحكيم القائل :

تعب كلهـا الحيـاة فمـا أعجب إلا من راغب في ازدياد

هذه هي معايش الناس التي فيها يتنافسون ، وعليها يتحاسدون ،

ومن أجلها يتزاحمون ويتلاكمون ، ويتطاعنون ويتذابحون •

وهب أنك أيها الفرد الماشي على وجه الارض قد بلغت كل أرب ، وذقت كل مشتهى ، بل هب أنك كنت صاحب العرش والتاج ، وصاحب البنــد والعلم ، تسير برغائبك الرياح ، وتطير اليك بها الكهرباء ، تنظر الى الأفلاك فلا تراها تـُطلع لأعلى منك زواهرها ، والى البحار فلا تجدها تـُكـِنُّ لأولى منك جواهرها ، هب أنك كنت في هذه الأرض المفــرد العلم الذي لا يشار الى سواه ، ولا ينفذ فيها أمر من عداه ، هل تجد لك وَزَراً يمنع عنك هازم اللذات ، والقاضي بعــد الوصل بالشتات ، هل تستغني عن بطن الأرض مهما طال علوك على ظهرها ؟

فما أنت أيهــا الفرد الا ظل مهما امتد يتقلص ، أو سحاب مهمــا تراكم يتفرق ، فــان كنت ممن أصابتهم لظى الحسرات فهــذا الفراق المحتوم عاصمك من ذلك العذاب ، وإن كنت ممن عصمتهم الحظوظ من هــذه النــار الموصدة فهذا الفراق جاعل لعزورك منتهىً يعلن لك أنك لا شيء من حيث شخصك •

نعم أنت لا شيء من جهة شخصك لانك ليس لك الا بروق من الحياة سريعة الانطفاء ، قليلة البقــاء ، يكــاد يعدم الفرق فيها بين الهنــاء والعنــاء • والكدر والبقاء ، واذا تحققت أنك لا شيء من جهة شخصك كما يحققه لك العيــان ففكر هل خلقت عبثاً ؟ •

لم يخلق الله الجماد الصامت عبثاً فكيف الانسان الذي ركـّبه في أحسن تقويم وكرّمه أعظم تكريم ، وعلمه أحسن تعليم •

ما عبثاً أظهرك الله أيها الانسان لانه قــد تعالى البارىء المصور عن العبث ، ولا لاجل شخصك خـُلقت لان شخصك ظل زائل ، وانمــا

أظهرك المبدع الحكيم لأمور جليلة قد يعرفها الحريصون على التعرف بهـا ، ويظهر لنا أن من جملتها تكوين الامم المتباينة التي بنقوش تباينها تتم الدلالة على العليم ، ويزيد جمال العالم ، فكأنك أيها الفرد خلقت تابعاً لمعنى الامة ، بل خلقت لتكون عبدا فيها لمبدع اجتماعها ، متمماً أمره فيها بمقدار ما أعطى شخصك من الحيز والمظهر .

فاذا ظهر لك أيها الفرد أنك تابع لمعنى الامة ، وأنك ما أنت الا عابد فيها خاضع لمبدع اجتماعها متمم أمره في تكونها ، فكن على بينـة من أمرك ، ونية من عملك .

اذكر حينئذ أن حظك الحقيقي ليس بطعام تسيغه ، ولا كساء على قدك تصوغه ، ولا بناء على هواك تشيده وتزخرفه ، ولا جـاه تقيمـه وتذيعه ، وانمـا هو بأمة تنوي أن ترفع في العالمين قدرها ، وتعلي ذكرها ، وتبقي على الدهور اسمها . اذكر يومئذ أن لحياتك معنى جليلاً ساطعا غير خفي كحياة الذين لا يشعرون الا بأشخاصهم وما أشخاصهم الا في الحضيض حساً أو حكمـا .

اذكر عند ذلك أنك نورٌ من مشرق قد تباركت حركاته ، تستضيء بك الاجيال المتعاقبة ، وتزهـو بك الأدهـار المتوالية .

تبقى الامم ما شاء الله تعالى ، وببقائها يبقى الافراد الذين يقومون بالعبودة للحق فيها ويكونون أحرارا مما سواه بقدر الامكان ، هؤلاء قد يظنهم نفر من الناس حمقى لانهم يرونهم غير منهمكين في بعض لذائـذ قد فتنوا هم بهـا ، وانما يقدمون النفوس في سبيل أمور الى الامم مرجعها لا الى أشخاصهم ، وما الحمقى الا أولئك الظانون

هذا الظن فان العمل والسعي لما به ارتقاء الامة وفلاحها لم يكتب معـه الشقاء كمـا يتصورون •

البقاء هو المحبوب ، وهو الذي يطلبه بنو آدم كلما زحزحوا عن الغفلـة قليلا وليس المتاع القليل من الاكل والزخرف بأمر تقف عنده الافكار السليمة ، وما هو بالامر الذي يفوت اذا تفكر الانسان بغيره ، القوت مبذول يتناوله غير الانسان بغير اجهاد الفكـر ، والزخرف فضول يميل اليه المرء عنـد فقده ويمله في الغالب متى وجـده ، ولا يمـلأ النفس الانسانية الا فكرة بقائها ولا يضمن لها البقاء حظهـا الشخصي من المتاع القليل وانمـا بقاؤها في عمل يذكـر •

تموت الافـراد ، ويعلوهم التراب ، فتتبدل الوجنات المتوردة ، وتخمـد اللحاظ المتوقدة ، وتصطك الثنايا ، وتجمد الشفاه البسامة ، وتقف الألسنة المفصحة ، والافكار المنتجة ، ويصير أقل الاحجـار أجدرَ بالبقاء على وجه الارض من هذه الاشخاص المتخشبة وأحبَّ منظراً الى الانسان من منظرها ، وأكرمَ مخبراً من مخبرها •

هذا هو منتهى الفرد الذي لا بد منه ، يـراه كل واحد منـا رأي العين ويعلم أنه صائر اليه علم اليقين ، فما الذي يحرص عليـه أحدنـا اذا لم يكن للحياة الا هذا المنتهى ، وما الذي يستطيبه منها وقـد شيبت فيها الراحة بالمتاعب ، والـعزة بالمصائب ، والشهوات بالحسرات ، والهدايات بالخيرات • والحرمان مع هذا أكثر ، والأسى أوفـر وأظهر ، بل قلَّ الذين يصلون فيها الى الاقوات ، الا باحديداب الظهور تعبـاً ، واكفهرار الوجوه غمـاً وهماً •

هذا هو المنتهى الذي يفجأ الافراد فيه يوم لم يكونوا فيه على

موعـد ، ولا يستطيعون فيه الصدور عن ذلك المورد ، وأما الامم فلا تتلاشى مادام فيها الصالحون الذين يخدمونها ، فمن كانت نفسه حبيبة اليه وأحب بقاءها فليطلب بقاءها في غير شخصه الذي يمحوه ذلك اليوم ، ليطلب بقاءها في أعمال يعملها وخدمة يقدمها لامته قبل حلول تلك الساعة، فيبقى حينئذ ببقاء أمته ويرتفع الى الحق جل وعلا طيب من نيته ، وصورة جميلة من عبودته له ، والحق يتولى عباده الصالحين .

* * *

هذا ما قلناه في ذلك الفصل ونحن لا نزال نعيد تلك المعاني ، والآن نقول إن التعبير بالاوطان هو كناية في الغالب عن الامم ، وقد عرف القراء أنا قلنا في صدر المقال السالف في الاسبوع الماضي « الوطن هو الجامعة » وأية جامعة أعز وأغلى وأجدر وأولى من جامعة الامة ، وما هو عز الافراد اذا ذلت الامة ولا سيما اذا تناهى ذلها فتذكروا كل هذا يا أبنـاء أمتي وأدوا حق الاوطان عليكم .

أوطانكم ، أوطانكم ، مهبط الوحي الأقـدس ، ومهـد المدنية الاولى ، مشرق أنـوار الفضائل ، ومنبع أعاظم الرجال ، رفيقـة التاريخ منـذ انجلى عنه الغسق ، وصاحبة المكانة منذ تعارفت الامم ، الى يدكم قد ألقيت اليوم أمانة عزّها وشرفها ، تدعوكم أرواح الجدود الى صونها ، ومن ضمير المستقبل صوت يسألكم العنايـة بهـا ، فبالله لا تضحكوا بهذه الاوطان شامتاً ، ولا تساعدوا عليها شاتمـا ، ولا تصمّوا آذانكم عن صوت الجدود الآتي من المقدس الاعلـى حيث أرواحهم الكريمة ، وصوت الاحفاد الصاعد من ضمير المستقبل .

أوطانكم ، أوطانكم ، تقدمت الاوطان وهي وراء ، وارتفعت البلاد

وهي تحت ، وملئت المدن وسائل تسهيل وهي خلو ، وعتِقت الديار وهي رق ، وأشرقت الارجاء وهي دجون ، واخضرت الجهات وهي قفر ، واذا قمتم اليوم تلتمسون من تلومونه فانكم ستجدون سر التقصير ساريا في الطبقات كلها وحينئذ لا يخلص من اللوم أحد ، وانما تختلف الدرجات فلا يستوي الذين صبروا وصابروا في مقاومة الباطل والذين كانوا بالباطل وللباطل قائمين، والذين كانوا بالباطل وللباطل قاعدين • هيهات لا تستوي الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور ، أقول هذا وأستغفر الله العظيم وأسأله تعالى أن يلهمنا النيات الزاكيات دائما وأن ييسرنا للصلاح انه سبحانه غني قدوس ، لا حاجة به الى صلاح الصالحين ، ولا يضيره فساد المفسدين ، وانما أمدنا بالهدايات عناية وكرما ، والانسان المسكين هو الذي ينفعه الصلاح ويضره الفساد « فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما ربك بظلام للعبيد » •



نصائح مهمة (*)

تكاثرت المشكلات الخارجيـة هذه الايـام الى درجة كـاد معهـا يكون الخروج بسلامة من هذه المضائق صعبا . وبديهي أن هذه المشكلات لم تخلق من جديد بل هي من جملة ما أورثه الماضي وزادت كميته سيئات السياسية الاتحادية أمس واليوم أيضا ، ومع تكاثر هذه المشكلات الخارجية نغمض أعيننا ونفتحها فلا يكون أمامها الا المعضلات الداخلية كيفما التفتنا ، على أنـه من المعلوم أننا نحن الامة الوحيدة التي بين مسائلها الداخلية ومسائلها الخارجية ارتباط أعظم ممـا هو عند الامم الاخرى من علاقة داخليتها بخارجيتها ، فمن أجل ذلك نرى أننا معشر العثمانيين أجمعين في احتياج أشد ممـا سبق الى الاعتدال والتعقل وحسن التفاهم والتصافح والتعاضد .

الاعتدال مشرب هذه الجريدة لانه الخلق الذي يهواه صاحبها ويحرص على نيلـه والتحقق بـه ويدعـو اليه نفسه وغيره ونظن أنـه هو الذي يغلب عليه وعلى جريدته ، وان شذّ عنـه أحيانا فذلك لاننا بعيدون عن العصمة المطلقة التي لم تكتب الا للرسل عليهم الصلاة والسلام .

واذا كان ما نظنه في اعتدال جريدتنا حقا فاننا بحق يصح لنـا

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٢٨ (١٩ ايلول ١٩١٢) .

أن ننوه بالاعتدال ولا سيما في هذه الآونة التي أجملنا آنفا وصف أحوالنا الحاضرة فيها • فالى الاعتدال ندعو وبه نذكّر اجمالا ، وبروح منه نكتب هذه النصائح تفصيلا •

(١) نصحت نفسي دائما هذه النصيحة النفسية وأعيدها عليها وهي أن لا يطير بها غرور ، ولا يقعد بها قنوط ، فتكون من أجل ذلك في مستوى يحدو بها الى العمل بصدق عزيمة وطيب نية وذلك باب السعادة الحقيقية ، وأعانتني هذه النصيحة على نصحها في هذه الآونة أن لا تتكبر على رغائب الذين يريدون أن أكون نائبا عن بلادي وأن لا تحرص كل الحرص على هذه النيابة باطنا وظاهرا ، ويساعدني على قبول هذه النصيحة ما أعلمه من مشاق النيابة ومتاعبها فانْ وقع اختيار أمتي على تحميلي هذه المتاعب فاللائق بي أن أحترم حسهم ولا أوثر على آمالهم راحة نفسي ، وان اختاروا غيري فاللائق بي أن أشكرهم وأن أجدد حمداً لله عز وجل على ما منح بلادي من كثرة الرجال الاكفاء لمثل هذا الامر • ولقد نويت أن أزور منبتي الذي هو موطن الآل والصحب الكثيرين وليس ذلك لاسعي لنفسي فان الاعتدال قد يمنع من ذلك السعي الذي يعرفه أرباب السعي وانما ذلك لمهمات في تلك الجهات كلفني بها الحزب الذي أنا من أعضائه ولولاها لاخرت هذه الزيارة ومن الجائز أن يحدث ما يوجب تأخيرها •

(٢) بعد ذلك أنصح اخواننا المظاهرين لحزبنا حزب الحرية والائتلاف ، من صحافيين وغيرهم ان يتخذوا الاعتدال خطة ويجانبوا مسّ كرامة الافراد الذين كانوا انتموا الى جمعية الاتحاد ثم لم يتيسر لهم أن يطلعوا على حقائق آباء هذه الجمعية ومديري أسرارها ،

وليناظروهم ــ ان لم يكن بد" من المناظرة ــ بالتي هي أحسن ، وقد يحدو بكم أيها الاخوان الى قبول هذه التذكرة ما أنتم عليه من المروءة التي مقتضاها عدم التحامل على العاثرين •

(٣) التحزب في البشر من الامور الطبيعية فيهم ، وهو في البلاد التي حكومتها دستورية يكون أكثر تجليا وظهورا فمن أجل ذلك أرى الذين يكثرون من الكلام المجمل في ذم التحزب لا ينظرون في هذه المسألة الا من جهة واحدة وهي جهة مضرات التحزب وتفرق الكلمة، ولو نظروا في المسألة من كل جهاتها ولا سيما جهة أن التحزب أمر طبيعي لوجهوا نظرهم الى ما هو أنفع من ذلك الكلام المجمل ولربما كنا نستفيد من ارشاداتهم في جعل الاحزاب يحترم أحدها الآخر ، ومن أجل ذلك أرجو أن يمعن هؤلاء الكتاب نظرا في هذا الامر ويتحفونا بشيء من بديع بيانهم في تمشية الاحزاب على خطط مثلى ، وانما يكون ذلك بالتنبيه على مواطن الخطأ بالعبارات المعتدلة الدالة على تلك المواطن بالتفصيل •

(٤) بعد كل هذا أنصح اخواننا الذين استحبوا الاتحاد مذهبا ورجحوه على غيره أن يعتدلوا بل أن يكونوا مثالا صالحا لنا في الاعتدال ، وأنصحهم أن يتذكروا ما وصلت اليه المملكة على أيدي قادتهم •

الاتحاديون ثلاثة أقسام ، بين كل قسم منهم والآخر فواصل عظيمة في المكانة السياسية والاجتماعية وفي درجات الاطلاع على الاحوال ، ولربما يكون أمر الائتلافيين هكذا ، أما في هذه الفقرة فنريد تذكير من يطلع على هذه المقالة من ذوي درجاتهم المتفاوتة • فالقسم الاول

آباء الجمعية ومديرو أسرارها ، والقسم الثاني المظاهرون المنتفعون ، والقسم الثالث المظاهرون غير المنتفعين • أما القسم الاول فعددهم قليل ونحن نعرفهم كلهم أو أكثرهم وبعضهم يكادون يعدون أصدقاء لنا شخصيا بالرغم من تباين المذهب السياسي ، وقد قمنا مرارا بوظيفة نصحهم مشافهة تارة باللين وتارة بالشدة ، والعارفون بهذا كثيرون ، وقد كانوا يعترفون لنا بخطأهم أحيانا ويعدون الوعود أنهم يقلعون عن تلك الخطيئات ، ولكنهم لم يفيقوا وياللأسف من سكرة غرورهم وإخلاف مواعيدهم حتى أوصلوا المملكة وأنفسهم الى ما هو معلوم • وأملنا اليوم باستماع هذا القسم نصائحنا أضعف مما كان أمس ، وأما القسم الثاني فكان معظمهم من المأمورين وقليل منهم من غير المأمورين ، هؤلاء قد يتمكن نصحنا من الدخول الى أفئدتهم ، فنقول لهم احذروا مهما استطعتم التظاهر بمظاهرة الاحزاب والتفاخر بالانتماء اليها فانكم تظلون معرضين لانتقاماتها وما أنتم الا صنف من الاصناف الفقيرة في الامة ، أكثرهم لا يتحملون الانتقامات فما لكم ولتلك المآزق ، وهناك أمر أوجه اليه نظر الاغنياء فيكم وهو أن المرء انما يطلب في هذه الحياة مع المعيشة شيئا من العزة والمجد فأي مجد وعزة لمن يبيع ضميره ويحني رأسه لآمره فيما يخالف الحق والوجدان ورغائب الامة ، وأي عذر للغني اذا قبل هذا ورضيه مع أن معيشته متيسرة بغير ذلك السبيل الذي يستطيع ذلك الآمر أن يسيطر عليه فيه ؟ ؟ وأما القسم الثالث فقد كانت مظاهرتهم لاولئك الناس عن حسن نية في الغالب ، وهم غير مطلعين على حقائق الاحوال ومجاري الامور ، ونظن أن أكثرهم لا يصرون على المظاهرة بعد وقوفهم على الحقائق واطلاعهم على ما كان خفيا وأصبح جليا ،

هذا القسم أيضا نرجو أن تجد نصائحنا في أفئدتهم مكانا • ولهؤلاء نقول ان مظاهرة أولئك الناس في هذه الآونة جناية على الوطن لان الطريقة التي أسقطوا بها لا يخلو العود اليها من خطر على الدولة ولا يجد أربابها بـدأ من العود اليها اذا أراد أولئك النـاس أن يرفعوا رؤوسهم الآن •

(٥) بقيت نصيحة واحدة أوجهها الى أصدقائنا وخصومنـا في السياسة أجمعين وهي أن سياسة اللين والملاطفة والدعوة بالتي هي أحسن خير لنا أجمعين ، ويستفيد الوطن كثيرا من هذا الخير ويتضرر من ضده ، وأخص اخواني الائتلافيين باعادة هذه النصيحة وتكرير التذكير بهذه الحكمة : وهـو أن الكلمة الصالحة الطيبة جالبـة ، الكلمة المستهجنة الثقيلة مذهبة • والبلاد مستعدة أن تكون حزبـا واحدا اذا استعملت فيها الحكمة، فبفوائد الحكمة أذكّر صحافتنا الائتلافية حتى اذا شاءت مدح من تريده تتحاشى مسّ كرامة غيره ، ولنتذكر جميعاً أننا كلنا بشر فينا قابلية الصلاح والفساد ، فالاتحاديون اخواننا في الروابط كلها لا يفرق بيننا وبينهم الا المسلك السياسي ، ولا يصح أن نقول انهم كلهم أساءوا تعمـدا كما أنـه لا يصح أن نيأس من صلاحهم ولا أن نغتر بتفضيل أنفسنا عليهم من كل وجه ، واذا جوزنا شدة الهجوم على كبارهم فالاولى أن نتلطف بصغارهم •

هذا أقوله من قلب مخلص ان شاء الله تعالى ، ولعل جميع ما نكتبه صادر على هذا النحو من هذا القلب الذي يجد سعادته بهذا الاخلاص ، والله على ما نقول وكيل وعنايته سبحانه حسبنا دائمـا •

طائفة صغيرة من الخطيئات (*)

التي لا تحصى في أقل من سنة

عنّ لي أن أفكر في احصاء الخطيئات التي ارتكبها من كان بيدهم زمام الامة فوجدت الاحاطة بها صعبة ، ثم قلت في نفسي : أحصي خطاياهم في سنة واحدة وهي السنة الاخيرة من سنيهم فوجدت ذلك صعبا أيضا، ولكني تذكرت قول الحكماء «مالايدرك كله لايترك جله» وحينئذ أعملت الفكر في جمع ما ظهر لي من أغلاطهم في هذه المدة القليلة منذ مثّل سياستهم سعيد باشا الى أن سقط وأسقطهم معه أو سقطوا وأسقطوه معهم ، أي من أواسط شهر أيلول سنة ٣٢٧ الى أوائل شهر تموز سنة ٣٢٨ ، وما سأذكره هو ما ظهر لي ولعلي لم أحص في هذه العجالة الا قليلا لانني اكتفيت بما هو شديد البداهة منها .

(الفصل الاول : فيما ارتكبه الاتحاديون في المجلس)

(الخطأ الاول) إصرارهم على انتخاب أحمد رضا بك للرياسة ، ولا يعرف القارىء عظم هذا الخطأ الا اذا اطلع الآن على هذه الحقيقة العظيمة وهي أن جميع المخالفين الذين في المجلس اجتمعوا وتذاكروا فيما بينهم وقرروا أن يخففوا من المخالفة في ذلك الوقت العصيب ، وأن يكونوا مع حزب الحكومة يدا واحدة جهد الامكان ، وفرح بذلك

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٢٩ (٢٦ أيلول ١٩١٢) .

الاتحاديون لما سمعوا به ، وطلبوا منهم الشروط التي يمكن التوافق بها ، فكان أول شرط وضعه المخالفون هو أن ينتخب رجل غير أحمد رضا بك لرياسة المجلس ، وأتوهم ببراهين كثيرة قوية على عدم كفاءته لهذا الامر ، فلم يكن من الاتحاديين الا الاصرار على انتخابه ، وبهذا هدموا أساس اتفاق كانت تنتظره الامة من ذلك المجلس الذي اجتمع قبل ميعاده • ولولا خوف الاطالة لأتينا بتلك البراهين على عدم كفاءة ذلك الرجل للرياسة التي ألبسوه خلعتها أربع مرات ، ومن أجل هذا الاصرار الذي جاء بمنتهى الغلاظة رفض محرر هذه السطور قبول الرياسة الثانية لانني خشيت ان تتفرق كلمة المخالفين الذين كنت أرجو أن يصيروا حزبا واحدا بعد أن كانوا أحزابا ، وقد حقق الله أملي وتألف منهم حزب « الحرية والائتلاف » الذي كاد يملك الاكثرية لولا أن عاجلته الحكومة الاتحادية بالفسخ •

(الخطأ الثاني) تحاشيهم من سوق وزارة حقي باشا الى الديوان العالي ، نعم لهم بعض العذر في هذا لأن بين أعضاء تلك الوزارة أناسا ممن يعدون أركانا لهم •

(٣) اصرارهم على طلب الثقة بالوزارة الجديدة (وزارة سعيد باشا) مع أن المخالفين قالوا لهم أنكم بين خلتين : اما أن تحملوا سعيد باشا على اجادة الانتخاب فان بعض أعضاء وزارته لا يصلحون لاصغر المأموريات فضلا عن مثل هذه المقامات في مثل هذا الوقت واما أن تتركوا الوزارة تشتغل الان من غير أن تطلب ثقة فتبقى المسألة مستورة مدة من الزمان حتى يتهيأ له تبديل بعض النظار والا فاننا مضطرون اذا أصررتم على طلب الثقة أن نخالفكم ونطاوع

ضمائرنا بعدم الثقة بهذه الوزارة ، فلم تفلح هذه النصائح فيهم وانتهى الامر باعلان ستين مبعوثا عدم الثقة بتلك الوزارة ، وكان الذين بذلوا الثقة مائة وخمسة وعشرين وهو عدد قليل بالنسبة الى جملة أعضاء المجلس .

(٤) اظهارهم عدم المبالاة باستيضاح طرحه مبعوثو الروم بشأن مقتل مطران « كرابنة » (في ولاية مناستر) ومن ارتاب في ذلك فليراجع مذكرات الاجتماع السابع (بتاريخ ١٥ تشرين الاول ٣٢٧) وقد قال لهم محرر هذه السطور يومئذ كلمة صغيرة كبيرة الدلالة قال لهم (المملكة هكذا تنتهي بمثل هذا الاهمال) ولكن هل هم صاحون لمثل هذه الكلمة .

(٥) اظهارهم عدم المبالاة بتصدي محمود شوكت باشا لحبس لطفي فكري بك والمجلس في أبان انعقاده ، والقصة معروفة لم ينسها القراء على ما أظن .

(٦) اصرارهم على فسخ المجلس ، وهذه القصة معلومة أيضا بجميع ما فيها من ضروب الحيل والتلاعب فلا نطيل الشرح باعادة حكايتها ، ولكنا نذكر القراء بأنه قد وقع ضمن هذا الخطأة ثلاثة خطأت فنتبعها للعدد المتسلسل هكذا :

(٧) عدم رعايتهم أحكام القوانين في « عملية » فسخ المجلس .

(٨) عدم مبالاتهم بما ينجم عنه من الاثر في أوربا الفاتحة أربع أعين للنظر في أحوالنا .

(٩) عدم مبالاتهم بما ينجم عنه من الاثر في داخلية البلاد .

(١٠) إلهاء الحكومة والامة بمسائل الانتخاب عن المسألة المهمة

العظيمة أعني تلك الحرب المدهشة التي كسرت قلوب الامة لمجيئها بغتــةً وبصورة مخالفة لسنن التمدن الحاضر •

(الفصل الثاني : فيما ارتكبه الصدر الاعظم)

(١١) ان الصدر الاعظم الذي طاوع الاتحاديين على فسخ المجلس قبل أوانه هو الذي جمع المجلس قبل ميعاده ، فبديهي أن أحد هذين صواب والآخر خطــأ ، فليمعن القارىء النظر في أيهما الصواب وأيهما الخطــأ •

(١٢) الوعود الفارغة لا تليق بمن يحتلون المقامات العظيمـــة ، وقــد ملأ سعيد باشا الخطبة التي قرأها في مجلس المبعوثان وعودا فارغة وأكثر منها كثيرا حتى خيل لقارئها ان البلاد ستصبح عمــا قريب حدائق وجنات ألفافا وقد انتقدتها الجرائد اذ ذاك وتهكم كــل العقلاء عليها يومئذ ، وواجهه في المجلس بعض المبعوثين بهذا التهكم فقال له سترى أن كــل ما قلته يصير ، فراح زمان وجاء زمان ورأينا نتيجة تلك الوعود فاذا هي صفر ، كلا بل رأينا أضـــداد ما وعــد بــه ، فلو كـــان هناك تروفى الامر لما صدرت وعــود منــه تضحك العقلاء وما ضحك العقلاء على مثل هؤلاء الذين يقومون في الامة مقام العظماء من الامور التي يستخف بها •

وقد يقول قائل ان كل رئيس نظار مضطر أن يعــد وعودا وكذلك كل حزب سياسي يعد ويكثر من الوعود ، نقول نعم هذا صحيح ولكن بين وعــد ووعد فرق كبير فمن ارتاب فيما وصفنا به وعــود سعيد باشا فليراجع مذاكرات الاجتماع الثالث (بتاريخ٥ تشرين الاول ٣٢٧) •

(١٣) لم يحسن سعيد باشا انتخاب أعضاء وزارته ولذلك أخذوا

يتساقطون واحد بعد واحد ، حتى كان آخر من خرج منهــا محمود شوكت باشا ، وبخروجه سقطت كلها دفعة واحدة .

(١٤) ان كان سعيد باشا لم يحسن انتخاب رفاقه فذلك خطــأ يعدّ على أمثاله ، وإن كان لم ينتخب هو وانمــا عينتهم له الجمعية المعهودة فالخطأ أكبر ، والاول قد يغتفر أما هذا فبعيد جدا عن الاغتفار .

(١٥) صرح سعيد باشا أثناء تصديه لفسخ المجلس أنه يريد الدخول في مذاكرات الصلح ولم يكن هذا الباب مفتوحا يومئذ وقد ضحكت من هذا التصريح الصحافة الاوربية .

(١٦) وصرح في تلك الاثناء أن أحد السفراء في العاصمة أشار عليه بوجوب ذلك الفسخ ، وهذا من الغرابة بمكــان .

(١٧) مرض سعيد باشا أياما ثم تمارض أشهرا وترك فيه تلك المدة حبل الصدارة على غاربها مستسلما فيها الى ما يدبره آباء الجمعية .

(١٨) كان أكبر همّ سعيد باشا وهو في صدارته الاشتغــال بالتنفير من كامل باشا ، فكان لا يضيع في ذلك فرصة سانحة تــارة في المجلس يعرّض ، وتارة في الصحافة يصرح ، وبديهي أن مثل هذا يستقبح من كبراء الامة ولا سيما في مثل الظروف التي نحن فيها .

(١٩) تظاهر سعيد باشا بأنه يريد الحرب طوراً وأنه يريد الصلح طورا آخرا حتى ضعفت ثقة الانديــة السياسة في أوربة بكــلامه ، وحتى أصبحت كل جرائدهم تتهكم وتحكم بوجوب الخلاص مــن سياسة التمويه البارد الذي ليس في الامكان أن ينطلي على صغــار الاطفال فضلا عن دهاة الرجــال .

(٢٠) طمأن سعيد باشا مجلس الاتحاديين المعهود قبل سقوطه

بيوم أن الاحوال داخلا وخارجا على غاية مايرام ، وأخذ منهم ثقـة عظيمة (اتحادية) وبعد ساعات استقال وذكر في أسباب استقالته أنه عجز عن وجدان رجال النظارة الحربية والبحرية بعد استقالة محمود باشا وخورشيد باشا لان كـل من طلب اليهم قبول هاتين النظارتين أبوا قبولهما . فكيف تكون الاحوال على غاية ما يرام ولا يرضى أحد أن يدخل في وزارته ؟؟؟

(الفصل الثالث : فيما ارتكبوه في الادارة الداخلية)

(٢١) أعظم هذه الاغلاط عـدم المبالاة بميول الامة وعـدم الالتفات الى حقوقها في الانتخاب وقد انضوى تحت هذا الغلط الذي هو أصل عدة فروع كل واحد منها في غاية الخطر ، فليتأمل القارىء كم يكون الخطر من مجموع هذه الفروع .

(٢٢) منع الاجتماعات والخطب في الساحات والاندية العامة .

(٢٣) تكليف الجرائد التي يراد اصدارها من جديد بمبالغ عظيمة .

(٢٤) تعطيل الجرائد المخالفة .

(٢٥) اهانة أعاظم خطباء الامة وعلمائها مثل رضا توفيق بك الشهير الغني عن التعريف ، واسماعيل بك مبعوث كوملجنة ، والعلامة الشيخ صبري أفنـدي .

(٢٦) حبس كل من تصدى بصورة جدية لمعارضتهم في الانتخابات ، من ذلك جماعة في أسكيشهر (في ولاية انقرة) ومن ذلك حبس غالب بك مبعوث قيصرية ، ومن ذلك حبس جماعة من قرمان (من أعمال قونيـة) .

(٢٧) إباحة قتل بعض المعارضين ، من ذلك قتل جماعة في لنغظة (من أعمال سلانيك) بأيدي الجندرمة .

(٢٨) استخدام ضباط الجيش في هذا السبيل أيضا ، من ذلك ضابطان جاءا سورية بصفة أنهما مفتشان على أبنية الرديف ، وقد اجتمع محرر هذه السطور بأحدهما وعرف صفته السياسية معرفة يقينية .

(٢٩) عزل كثير من المأمورين لعدم مطاوعتهم فيما يخالف من القوانين وترفيع كثيرين منهم بسبب انهماكهم في تنفيذ تلك الرغائب فقط .

(٣٠) وأهم من كل ما تقدم احراج صدور شعب كشعب الارناؤوط واضطرارهم بمثل تلك التحكمات على الامة الى الخروج والتجمع والمقاومة بالسلاح ، وهذه القصة معلومة فلا حاجة الى اعادة شرحها .

(الفصل الرابع : في خبطهم في السياسة الخارجية)

(٣١) أصبح من المحقق أن سياسة صبيان الاتحاد في طرابلس الغرب هي التي جعلتهم يعجلون في اقتحام أهوال هذه الحرب غير ناظرين الى شيء من سنن التمدن الحاضر ، وربما ارتاب في هذا أناس ممن لم يقفوا على مجاري الامور من أولها فنحن لا نحرص على اقناعهم بهذا الشأن لاننا على ثقة أن الزمان لا يبطىء بكشف هذه الحقيقة ، أما الآن فلم نجد من الحكمة تفصيل هذا الاجمال .

(٣٢) بمثل تلك السياسة الرديئة الكثيرة الالوان ، الظاهر فيها الزور والمين ظهوراً فاضحاً ، عاملوا وقابلوا وواجهوا جميع الدول

فوجدوا حينئذ أنىَّ توجهوا في هذه السياسة وجوها معرضة حتى سقطوا على وجوههم خائبين ٠

(٣٣) أزعجوا بسياستهم العوجاء الانكليز حتى اضطر نفر من كبـار رجالهم أن يرسلوا الى جلالة مولانا السلطان رسالة يبينون فيها الخطر ، ومعلوم أن ارسال مثل هذه الرسالة من مثل ذلك الجمع الانكليزي يعـد من الامور التي هي فوق العادة ، وقد جد من جراء تلك السياسة الرديئة أن الانكليز رأوا حـاجة لزيادة التحوط في مركزهم في شرقنا ، فزادوا قوتهم وصفتهم في مصر وعزمـوا على جعل الاسكندرية ثغرا حربيا لهم يأوي اليه قسم من أسطولهم ، وقـد صرح رجال الانكليز مرارا انهم كانـوا يريدون مساعدة الحكومـة العثمانية في أمر المسألة الطرابلسية ولكنهم يخشون إن فعلوا ذلك أن يعزى النجاح الى سياسة الاتحاديين ٠

(٣٤) ولم تكن ألمانية في الحقيقة راضية عن سياستهم لمـا عرفته بالتجربة من شدة تلونها حتى إن سفيرهم الرجل الكبير مارشال ذهب مُغاضباً متوعدا على ما أخبرني ثقات واقفون على الحقائق ، هـذا وهو قد كان أعظم مساعد لهم في تلك المدة الماضية ٠ إن ألمانية تريد من يسايرها في هذه الدولة ولو قليلا فبعد أن وجدت منهم الكثير قنعت أخيرا منهم بالقليل فلم تجده بل رأت وجههم متوجهاً تلقاء إنكلترة قبيل سقوطهم ولذا لم تأسف على سقوطهم ، ويبلغنا أنهم أدركوا اليوم خطأهم أمامها وأنهم يريدون أن تشملهم بنظرها ولكن بعد ماذا ؟ ؟

(٣٥) وحاروا في أمـر التقرب من انكلترة وأخيرا أقدموا عليه ولكنهم وجدوها ضاحكة من ضعف عقولهم وظنهم أنهم يجدون عند

رجال هذه الدولة ثقة وإقبالا ، ونحن لم نكن من المنكرين عليهم نية هذا التقرب والتشبث به ولا كنا يائسين من نيلهم القبول عند أولئك الرجال ، ولكن تبدى لنا فيما بعد أن حركتهم جاءت متأخـرة كثيرا وأن أولئك الرجال أعلم منا بالمواضع التي يضعون فيها ثقتهم •

(٣٦) ومما غفلوا عنه علاقة أحوالنا الداخلية بأحوالنا الخارجية فكانوا كل يوم يزدادون بعداً عن نيل ثقة أوربة كلها من وجوه كثيرة ، منها ماكانوا سادرين فيه من الافساد في الداخل وابعاد البلاد عـن الطمأنينة وميادين العمران ، ومعلوم أن أوربة انما تكره ذلك لتضررها من جهة أن الشرق سوق لسلع مصانعها ومعلوم أيضا أننا اذا لم ننل من أوربة ثقتها لا نجد يومئذ ما يسد من عوزنا حين نمد أكفنا نطلب منهـا القروض المعهودة •

(٣٧) وهناك أمر آخر جعلهم يخبطون في السياسة الخارجية خبطا عظيمـا وهو عدم المبالاة بدولة من تلك الدول الا حين الحاجة اليها أو حين تكشر أنيابها علينا ، فترى روسية انزعجت منهم لمـا زعمـوا أنهم يريدون اقتناص أراض جديدة من الاراضي الايرانية فلمـا فغرت فاها قبعوا واستكانوا ، وأزعجوا إنكلترة بعدة أمور نضرب صفحا الآن عن تفصيلها فلما حملقت بهم خنعوا وأنابوا ، فما كـان أغناهم عن ذلك الغرور السمج الذي يؤدي الى مثل ذلك الذل ؟

(٣٨) لقد كانوا عينوا مندوبين للدخول في مذاكرات الصلـح بصورة رسمية وهم في تلك الآونة كانوا يعلنون ويرفعون أصواتهم أننا لا نحيد عن الحرب ، أفكانوا يريدون بهذه الخزعبلات أن يسحروا الامة أم أوربة ؟ أمـا أوربة فكانت تضحك من هذا السحر الصبياني ثم طفح الكيل ووصلت الى درجة عدم التحمل •

(٣٩) ان أوربة التي انزعجت كل حكوماتها وكل شعوبها من سماجة تلك السياسة طفقت في أواخر مدتهم تتحدث بالتقسيم، واشتغلت بهذا الموضوع كل جرائدها ، فهذا وحده كاف في الدلالة على مقدار خطبهم في السياسة ومقدار تأفف أوربة منه .

(٤٠) وأقبح الاغلاط عدم المبالاة باجماع أوربة على هذه النفرة والوصول بهذه الدولة الى هذه النقطة من فقد الظهير، فان قال قائل ان عداوة أوربة لنـا أمر طبيعي لا يمكن رفعه نقول فلماذا حينئذ نظارة الخارجية التي تنفق الامة عليها مبالغ عظيمة ، وما هي اذن مزية نظار الخارجية عندنا ان كانوا لا يكسبوننا ظهيرا ولا يربحوننا سوى زيادة الخصوم ، نعـم ، نعم لماذا إذن تلك الرواتب وهاتيك الالقاب ؟ ؟ .



بين أمس واليوم (*)

أكتب هذا الفصل وأنا على رصيف « أزمير » وقد وصلناها الساعة الثامنة صباح الاحد (١٧ شوال ١٣٣٠) ، وكانت الباخرة على أهبة السفر فاغتنمت من الوقت خلسة خفيفة لتحرير هذه السطور .

أكتب هذا الفصل وأملي ان يجد فيه المؤمن ما يزيد ايمانه ، والشاك ما يجاهد به شيطانه، واليائس ما يروي جذور رجائه فينبتها خضراء زاهية، والمغرور ما يقطع المادة عن عروق طموحه فيعيدها ذابلة واهية ، فأخو الفلسفة والتصوف يلقى ههنا حديقة فسيحة لتجديد سوانحه ، وأخو السياسة والاجتماع يلقى رسوما صالحة لتفتيح لوائحه .

أكتب هذا الفصل وأمام ناظري بحر عظيم تبارك من سخّره وما فيه للانسان ، وأمام خاطري ماض وحاضر ، بآيات قدرته تعالى مشحونان ، أقايس بينهما فيتجلى أمامي فرق باهر فيتضاعف سروري بتذكر محوّل الاحوال سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن .

قبل سبعة أشهر سافرت من الأستانة الى بيروت فمرت باخرتنا بأزمير فخرجنا اليها وطفنا فيها قليلا ، والآن مرت باخرتنا بهذه المدينة فخرجنا اليها مثل ذلك الخروج ولكن شتان بين ما وجدنا أزمير عليه تلك المرة وما وجدناها عليه هذه المرة .

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٣١ (١٠ تشرين أول ١٩١٢) .

لم يتبدل في أزمير شيء من أوضاعها المادية والصورية ، وانما وقع ذلك التبدل الذي أشرنا اليه في أوضاعها الروحية والمعنوية ، واذا أردنا اجمال القول نستطيع أن نقول مررنا بأزمير تلك المرة وهي اتحادية ، ومررنا بها هذه وهي ائتلافية ، والقارىء يدرك عظم هذا الفرق ويسيح فكره في القدرة الإلهية التي أرتنا هذا التحول السريع في هذه البرهة القصيرة .

كان والي أزمير في تلك المرة جلال بك الذي تناقلت عنه الجرائد قولا مأثورا يدل على منتهى الغرور والجهل بالسنن الكونية والآداب السياسية والاجتماعية ، ذلك قوله ان أزمير بكل مافيها اتحادية ، بشرها اتحاديون وحجرها ومدرها ، وشجرها وعشبها وحيوانها وماؤها وهواؤها وجوها ، كل ذلك اتحادي ولا يعيش فيها الا الاتحاد . وواليها اليوم رشيد بك ولكن لرشيد بك عقل حصيف يمنعه أن يقول كما قال جلال بك ، فهو لا يقول ان أزمير اتحادية أو ائتلافية وانما يقول هي عثمانية ، وهي ميدان واسع لكل أصحاب الافكار على حد سواء ، ولا شيء من الجبر والاكراه يمنع الاتحاد أن يعيش فيها اذا صادف في الافكار مادة حياة ونمو ، ونحن كنا نود أن نتأدب ولا نقول ان أزمير اليوم ائتلافية لولا أننا أردنا أن نوضح كيف كذبت قدرة الله تعالى كلام جلال بك واليها أمس .

***

كان من جملة رفاقنا في الباخرة رضا توفيق بك ، واذا قلنا « رضا توفيق » فاننا نظن أننا لا نحتاج في هذا الاسم الشهير الى تعريف ، ونخال أن كل قرائنا يعرفون من هو هذا الرجل الذي بمثله يصح

أن يقال بحق واستحقاق انه طائر الصيت ، ولكن مع هذا نزيد القراء شيئا من التعريف بشيء ربما لا يعرفونه من مناقب هذا الرجل .

رضا توفيق نشأ في الاستانة وتأدب باللسان التركي واشتهر بأنه من أدباء الترك ، أما هو فابن رجل ألباني كان يتولى المأموريات في هذه الدولة (كان أبوه قائم مقام) ووالدته جركسية ، وقد حببت اليـه الفلسفة فطالع كتبها وتعمق فيها حتى اشتهر بلقب الفيلسوف . ومن مميزاته أنه يعرف من الالسنة عشرة يقرأ ويكتب في سبعة منها . وأكثر هذه الالسنة حصلها بنفسه أي بدون واسطة مدرسية وبدون ترتيب معلم ، وهو طبيب فيعرف من الفنون كل ما يحتاج الطب الى معرفته ، وهو فيلسوف ومعلوم أن الفلسفة تحتاج الى فنون كثيرة أيضا . فبلاجمال يصح أن يقال في هذا الرجل انه « دائرة معارف » متحركـة سيارة .

على أن محرر هذه السطور لا يعتد في الرجال بكثرة المعارف وانما يعتد بجودة الاخلاق ، وقد أتاح لي النصيب اختبار الرجل فوجدت أن أخلاقه في غاية الجودة والظرافة ، نعم اختبرته لانني رافقته في الحضر والسفر زمانا طويلا ، رافقته في مجلس الامة أربع سنين الا قليلا ، ورافقته في سفرة الروم ايلي في الشتاء الماضي ، ورافقته في هذه السفرة القصيرة من الاستانة الى أزمير .

رضا توفيق فقير لا يملك شيئا ولكن الذي يملكه من المزايـا يجعلـه فوق أكثر الاغنيـاء إن لم أقل كلهم ، بل عظيم الحظ من الاغنياء هو الذي يتيسر له أن يحظى بصحبة أمثاله وما أمثاله في العالم بكثيرين ، لذلك لا ينبغي أن يستغرب القارىء اذا قلنا له الآن ان رفيقنا

هذا كان محط نظر من في الباخرة من العثمانيين ، وكانوا يتحلقون حوله حلقا لاستماع حديثه أو خطبه ، على أنه لا فرق بين حديث الرجل وخطبه فكل ما يحدث به خطب وكل خطبه كأنها حديث ، وما قولكم برجل يحدث أو يخطب الساعات الطوال بدون توقف وبغير أن يتعب سامعه أو يمل ، هذا هو الرجل الذي أباح الاتحاديون اهانته وتعذيبه في العام الماضي فسجنوه في الاستانة وسلطوا عليه الاوباش والجندرمة في كوملنجة فضربوه وحبسوه ! !

* * *

على ذكر تسليط الاوباش أقول ان أولئك المساكين الذين جوزوا كل شيء من المنكرات لبلوغ أربهم كان من جملة ما يصنعونه في الانتخابات الماضية هذه الوسيلة الرديئة التي تنفشى بها في المملكة الفوضى والاحقاد العظيمة ، وقد توسطوا بهذه الوسلية لاهانة عدة من عظماء الامة ، وما درى المساكين أن هذه الوسائل لا تغبر نعال أولئك العظماء فضلا عن أنها تحط من كرامتهم ، أو لم يروا كيف تنقلب الاحوال أو لم يخشوا أن يفعل غيرهم بهم كما فعلوا ؟ ولكن أملنا أن لا يعاملهم الاخرون بمثل ذلك العمل المستنكر .

ليت شعري ماذا استفادوا من تسليط الاوباش في أزمير على لطفي فكري بك الذي كان رفيقنا في تلك المرة ؟ ألا يرون اليوم أن أزمير التي تجاسر الاوباش فيها على لطفي فكري تلك المرة تحت تدبير الوالي جلال بك وشرطته انقلبت اليوم الى غلبة روح الائتلاف فيها ؟ ووفد عظماؤها وأدباؤها يستقبلون رضا توفيق بك الذي جاءها ليحضر افتتاح ناديين جديدين ائتلافيين غير النادي الاول فان كانوا ظنوا أن

جلال بك سيخلد في أزمير لتمشية سياستهم فليفتحوا أعينهم ولينظروا أن جلالهم ارتحل من أزمير قبل مضي نصف سنة وحل محله رشيد .

فمن قرأ هذا فليقل معنا سبحان محوّل الاحوال وسبحانه القدير على كـل شيء .

أزمير في ١٧ شوال ـ ١٦ ايلول ٣٢٨



صدى الحرب (*)

لست أدري حين تسطير هذه الحروف هل تقع الحرب المنتظرة بيننا وبين دول البلقان أم تحول السياسة الدولية دون وقوعها . وانما نرى ونسمع هذه الساعة مما ينقله البرق من الانباء أن الحرب واقعة لا محالة وقد كان لصداها دوي عظيم ههنا ، وقد كان وقوع هذه تلو تلك جديرا أن يثير منا الاسف ولكن ما رأينـاه من نشاط حكومتنا وأمتنا لايقاف المتهجمين المعتدين عند حدهم قد أثار منا السرور مكان الاسف لوقوع هذه الهيجاء .

نحن لا نخاف وقوع حروب بيننا وبين المعتدين علينا من الخارج ، فاننا متى أصبحنا فاقدين الامل من أننا نقف أمام المعتدي كان الموت أجدر بنا مع أننا لا نزال نرى أننا نستحق الحياة . وانما نخاف وقوع الحروب الداخلية ولهذا نددنا كثيرا بتلك السياسة الحمقاء التي كانت تثير تلك الحروب وتتلذذ باشعال نيرانها ، ذلك لان الحروب الداخلية مضرة من جميع جهاتها أو من أكثرها وأما محاربة المعتدين فان فيهـا فوائد كثيرة ان لم يظهر بعض تلك الفوائد عاجلا فستظهر آجلا . على أن الحياة على الضيم وقبول العدوان ، والحياة مع الاشتغال بالحروب الداخلية طول الزمان كلتاهما غير مقبولتين ، فليكن أساس سياستنا

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٣٢ (١٧ تشرين أول ١٩١٢) .

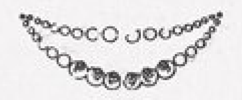
الابتعاد عن الحروب الداخلية كل الابتعاد ، وعدم الخوف من الوقوف في وجوه المعتدين والأضداد ، والله سبحانه مع الصابرين •

من أجل هذا لا نجد بُداً هنا من تذكير قرائنا الاعـزاء بأن الذين كانوا يتشددون ويطلبون أن تضرب الحكومة الأرناؤوط ضربة شديدة كانوا على نهاية السخافة وضعف الرأي هذا اذا كنـا نحسن الظن بنياتهم ، أما من يسيء الظن بتلك النيات فانه يقول انهم كانوا على نهاية اللؤم والخيانة للوطن ، فان أولئك الذين كان يراد أن تضربهم الحكومة ضربة قاسية هم الآن في مقدمة من ستعتمد الحكومة عليهم في هذه الهيجاء ، وهم في مقدمة من يقدمون نفوسهم ونفيسهم لارجاع العداة على أعقابهم خائبين خاسرين ، ولا نجد بداً أيضا من تـذكير جميع الشعوب العثمانية بأن الواجب يقضي عليهم أن يكونوا على هذه الشاكلة من التقدم بالاموال والانفس جهد الامكان ، ونحن لا نقول هذا إلا لأن أملنا بحماسة أمتنا قوي وهذا أوان الحماسة ، هـذا أوان النجدة ، هذا أوان استرخاص الاموال والانفس في جانب الشرف والكرامـة التي أصبحت أصغر الحكومات تعتـدي عليها اعتـداء ظاهرا واضحاً •

نحن لسنا دعـاة حرب ، أما وقد وصلنا مع هذه الشعوب والامم المتهجمة الى هذه الدركـات فانه لا يبقى جائزا عندنا التحاشي مـن المغامرة في سوق الارواح فنبيع فيها حينئذ ونشري ، وما يشري الذين يموتون منا الا طيب المقام لارواحهم في عالم الخلود والذين يعيشون ويبقون انما يشرون طيب المقام بين بني نوعهم ، ومن طمح الى الكرامة لا يبخل في سبيلها بنفيس • الامة العثمانية قد جمعت

عليها اليوم الجموع فهي الآن جديرة أن يزداد ايمانها وأن تقول بلسان استعدادها واستمدادها حسبنا الله ونعم الوكيل ، واذا سبقت لها بوادر من عنايته عز وجل تتنزل على أخلاقها وهممها فتقلبها وتعل الرجل منها برجال فان الظفر مأمول ، ولن يعجز الله شيء وما نحن من روحه بقانطين .

بيروت في ٢٣ شوال ١٣٣٠ — ٢٢ أيلول ٣٢٨ .



لا تكرهوا الموقظات (*)

للدولة العثمانية شهرة في الفتوح يكاد يعرفها كل أحد ، وقد أتى فاتحون كثيرون من مثلها ولم يستقر لهم ما فتحوه ، ذلك لان حفظ البلاد بعد الفتح أصعب من فتحها لما يعقب الفتح من الآفات التي تكثر ويتولد بعضها من بعض فتضر بالفاتحين وتودي بهم اذا سدت عليهم أبواب التخلص منهـا •

قامت الدولة العثمانية على أنقاض حكومات صغيرة اسلامية في آسيا ، وما لبثت أن اقتحمت أوربا فتوغلت فيها مثل لمح البصر ، ثم استولت على عرش الامبراطورية الشرقية في مدينة قسطنطين ، وظلت في هذا المستقر البهيج الى يومنا هذا • وكتب لها أن تفتح فتوحا كثيرة في افريقيا أيضا فأصبحت ذات يوم وهي كالنسر الروماني القديم جاثمة في أوربا وفارشة جناحيها على أفريقيا وآسيا •

ونفذت هيبة هذا العقاب الاعصم الى قلوب الشعوب ، فوقفت أمامها وقفة العصافير المذعورة ، وكان لهـا يوما من الايام نفوذ لا يغالب في جو السياسة ، ثم أتى عليها مثل ما أتى على الفاتحين من قبلها حتى انتهت اليوم الى حالتها المعلومة أمام تحكمات الدول العظمى •

وليست حالتها اليوم بموجبة لليأس من بقاء حياتها لا سمح الله

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العـدد ١٣٦ (١٣ تشرين الثاني ١٩١٢) •

تعالى ، ولكنها موجبة للأرق وزيادة التفكر في التماس المخارج ، أما اذا هجعت الامة طويلا مع هذه الحالة فان الخوف يومئذ يكون في محلــه ، فانــه لم يصب الدولة شيء بمقدار ما أصابها من بــاب هجوع الامــة •

واذا ما تذكرنا هجوع الامة فاننا نتذكر الموجعات الكثيرة التي جاءت من بابــه ، فان هذا التهجم الخارجي نتيجــة طبيعية للضعف الداخلي ، ولم يبلغ الضعف الداخلي هذا الحــد الا بالهجوع ، فاذا صــح أن الشدائد موقظة كان حقا علينا أن لا نكـره الموقظات ، واذا نحن خالفنا طبائع من فيهم الحياة وبقينا رقودا مع كل هذه الشدائد فان خوفنا من طول رقادنا ينبغي أن يكون أشد من خوفنا من كل هذه المزعجات •

❋ ❋ ❋

مــاذا تصنــع الامــة ؟

يقول أكثر الناس ماذا تصنع الامة ؟ ونحن لا نعجب من هــذا السؤال فان الامة تعودت نسيان نفسها ، فهي تعمل ولا ترى أنها هي العاملة ، وهي تقعد عن العمل ولا ترى أنها هي القاعدة ، ولو عكسنا السؤال على هؤلاء السائلين وقلنا لهم : من ذا الذي يصنع غير الامة اذا استغنينا عنها لبهتوا لانه من البديهي أن الدولة لا تقوم الا بالمال والرجال ، وهل للمال والرجال منبع غير الامة ؟

نعم لا نعجب من قولهم ماذا تصنع الامة ولا نأبى أن نقبل منهم هذا السؤال ، وان ورد من بعضهم على أسلوب الانكار ، بــل نحن

نساير الناس على مقدار ما يبلغه نظرهم ونبذل الجهد أثناء ذلك في إراءتهم ما لم يكونوا قد رأوه من قبل لسبب من الاسباب •

الامة يا اخواننا تصنع أشياء كثيرة ، بل هي التي تصنع باذن الله تعالى كل شيء مما تحتاج اليه ، ان حاجات الدول والامم في أيـام الحـرب تختلف قليلا عن حاجاتها في أيام السلم ، ففي السلم تحتاج الدول أو الامم الى رجال يحسنون الادارة في داخل البلاد حتى تعمر أحسن عمران وينتشر فيها العدل وسائر الخلال المرغوبة المطلوبة أحسن انتشار ، والى رجال يحسنون السياسة مع الدول الاخرى حتى يستقر السلم وتتوفر الطمأنينة ، أما في الحرب فتزيد حاجتها عمـا تقدم وتصبح محتاجة الى التفاني والمفاداة في سبيل الوطن ، ومتى رزقت الامـة حظا كبيرا من هـذا الحس الشريف حسن التفاني والمفاداة والايثـار فانها تصنع يومئذ كل شيء بعون الله تعالى •

ليت الناس يتأملون جيدا بهذه المعاني ، فمتى أشربت مداركهم لـذة حقائقها فانهم يقولون حينئذ أي شيء لا تصنعه الامة مكان قولهم أي شيء تصنعه ، وما أبعد الفرق بين القولين •

لكن الامة أتى عليها حين طويل من الدهر طال فيه هجوعها ، ولذلك كثر فيها القائلون ماذا تصنع الامة ، فاذا نحن استفدنا من المزعجات افاقة واتباها تاما فمـا نحن حينئذ بخاسرين شيئا بهذه المقلقات بل نحن انشاء الله تعالى رابحون ، ولذلك تقول اليوم هذه الكلمة المختصرة « الموقظات » • وكيف نكـره الموقظات وهي تعيد الينا أشرف ماكنا من قبل تتحلى به من علو الهمم وعدم المبالاة بالموت في سبيل الاوطان، وكيف نكرهها وهي تحيي فينا المبالاة والاهتمام بأساليب الاصلاح في

الداخل وحسن السياسة مع الدول ، وكيف نكرهها وهي تذكرنا بنفسنا بعد نسيان طويل خسرنا فيه كثيرا من الماديات والمعنويات ؟ فلتجتمع علينا الجموع انها ستكون سببا في جمع القلوب بعد تفرق ، ولتستعر نيران الحروب انها ستكون وسيلة لاضطرام نيران حميتنا بعد خمود ، ولتتهجم علينا المطالب والاقتراحات انها ستكون واسطة لنبعان قرائحنا بعد نضوب . وبعد كل هذا فبالصبر والثبات نرجو ظفرا وتأييدا ، والله سبحانه مع من صح صبرهم ، وصدقت عزائمهم ، وهو نعم الولي ونعم النصير .

حمص في ٢١ ذي القعدة ٣٣٠ و ١٩ تشرين الاول ٣٢٨



مقالات بتوقيع «س»

ويُرجح انها للمؤلف

شعور الأمم بماضيها وجمعية التتار (*)
في الأستانة

لم يزل شعور الانسان بسابق مجده وماضي فخاره المورث له عن أسلافه (ان كان له سلف صالح) من أكبر البواعث له على اقتناء المحامد وابتناء المكارم واقتحام الاهوال في سبيل الوصول الى غايات المجد احتفاظا بما بقي له من آثار ذلك التراث ودعما لما عساه أن تسقطه عواصف الزمان من أركان حسبه ويمحوه كرور الايام من رونق نسبه ، ويتصل بذلك حرصه على التخلق بالاخلاق الفاضلة ، والتشبه في حاله ومقاله بعظماء الرجال ، وتعمده الظهور بمظهر الكمال والمروءة ، حتى تصبح تلك الحالة في نفسه سجايا راسخة وملكات ثابتة .

وكم تغنئ الاخلاف بمفاخر الاسلاف أغاني بعثت النشاط في الهمم الخامدة ونفخت الحياة في العزائم الهامدة ونهضت بالخاملين من مطارح الخمول والضعة الى مراتب من الشرف والعزة لم تكن لتوصلهم اليها الحكم والمواعظ التي يتخذها قادة الامم وسيلة لانقاذ أقوامهم من الرذائل والصعود بهم الى ما استعدت له نفوسهم من الفضائل .

الانسان مفطور على محبة ذاته وايثارها ، ومولع بالمحافظة على بقائها ، وهو مع ذلك يعتبر حياته الشخصية سلسلة متصلة بحياة

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثانية ، العدد ٥٥ (٢٧ نيسان ١٩١١ .

أسلافه من جهة الماضي وبحياة أخلافه من جهة المستقبل ، واذا كان لا يطمع في البقاء الابدي في هذه الحياة فقد نشأ فيه الحرص على بقـاء بنيـه وأحفاده بقاء مقرونا بالكرامة متصلا بأسباب من السؤدد والعظمة ، لان في بقائهم ذروا من بقائه وذماءً من وجوده اذا فاته الوجود الحقيقي وانحسر عنه ظل البقاء ، وهذا سر ما تراه من ولوع الآباء بالابناء وافتتانهم بهم •

الوجود وجودان : وجود جسماني قاصر على قيام المرء في هذه الحياة واستيفائه ما يحفظ بقاءه من تناول الغذاء واستنشاق الهواء والتقلب في جوانب العيش ، وهو وجود قليل الغناء يوشك أن لا تقنع بـه الا النفوس الخاملة من البشر ويكاد لا يشعر بمن هذا شأنه أحد من مشاركيه في هذا الوجود •

وهناك وجود معنوي لا يقوم الا بأنواع من المزايا الكاملة والشيم المحمودة والفوز بنصيب من الشرف والفخار ، وهو الوجود الذي يتنافس بـه الناس في حياتهم وتتمايز به الامم وتتنازع عليه الاقوام فيكون أشرفها وجودا وأكملها مظهرا من كان أكثرها من ذلك حظا وأوفرها قسطا • واذ كان ليس في قدرة الانسان أن يفوز بما تطمح اليه نفسه من هذه المزايا بسعيه وجده فقد نشأ فيه الميل بطبعه الى أن يضم مفاخر أسلافه ومزاياهم الى ما اكتسبه هو من ذلك توخيا لوجود أوسع مـن وجوده ومظهر أكمل من مظهره ، وهذا سر ماتسمعه من تفاخر الناس بأنسابهم والتحدث بمفاخر أسلافهم والاهتزاز عند ذكر مآثره لمن يتصلون به أو يدلون بنسب اليه •

فحب السلف والافتخار بآثاره والحرص على الصلـة به سجية

انسانية مؤاخية لمحبة الذات ، أو هي شعبة منها لا يتصور انفكاك الانسان عنها الا اذا انسلخ عن مقومات ذاته ، وانفصل عن حقيقة انسانيته ، واتصل بنوع آخر من أنواع الموجودات . ومن حاول الفاته عن خطته هذه فقد حاول قلب الاوضاع الطبيعية وتحويل الطباع البشرية .

لا يؤخذ على من يحتفظ بآثار قومه وينشر محاسنهم ويستنهض همم أبنائهم الى الاقتداء بهم واقتفاء آثارهم ، ولا ينكر عليه أن يبذل أقصى ما في وسعه لتخليد ذكرهم لان ذلك من مقتضى طبيعة النوع ومن أشد عوامل الارشاد تأثيراً كما قلنا ، وانما يؤخذ عليه اسرافه في ذلك وتبجحه بالباطل وتزينه بما ليس عنده ، ثم يتضاعف عليه النكير اذا انتحل حق الغير وأغار على مفاخر الاقوام (اذا أعوزته المفاخر) فنسبها الى قومه ، وعدا على آثارهم فحاول طمسها ليتسنى له اضافتها الى ذويه .

نعم هذا ما ينكر عليه ، لانه من العدوان المبين الذي مضى على انكاره الشرع والعقل ، ونبت عنه طبائع الناس وتقاليدهم ، واشمأزت منه نفوس الذين يتذوقون معنى المناقب الموروثة والمفاخر المأثورة .

عرف كثير من المفكرين سر اتصال حياة المرء بحياة أسلافه وسلطة ماضيه على حاضره وتأثير شعوره بمفاخر قومه في شوقه الى التشبه بهم والنسج في سعيه على منوالهم ، فدخلوا على ارشاد أقوامهم من هذه الناحية وأطلوا على وجدانهم من نافذة ماضيهم ، فتيسر لهم أن يحركوا هممهم للمعالي ويسيروا بهم في منهج الكمال .

وعلى أثر طعن بعض جرائد الاستانة بالتاتار في هذه الايام ورميهم بطبيعة السفك والفتك والعدوان على المدنية ، شعرت جمعية التاتار هنا بوجوب المدافعة عن قومها وتذكيرهم بماضيهم والتأليف بينهم وبين الأتراك وازالة العداوة التي كان حمي وطيسها بينهم من عهد اغارة تيمورلنك على هذه البلاد ، وتمثيله بيلديرم بايزيد وقلبه ملك بني عثمان قلبا لم يكن يرجى معه نهوض لولا عناية الله تعالى بهذه الامة ، فعقدت مسامرة في أحد مراسح التمثيل في الاستانة خطب فيها نفر من خطباء الترك والتاتار ، فتكلم أحدهم يوسف أقجورا بك في خطاب طويل عن اتصال نسب الاتراك بالتاتار ، وأنهما يرجعان الى أرومة واحدة ، واشتد في اللائمة على من يذهب الى أنهما صنفان مختلفان ، ثم وصف أخلاق هذه الارومة على العموم واستعدادها للرقي وخدمتها للمدنية وصفا يخيل لسامعه أن كل حسنة وجدت فانما وجدت بسعيها وحفظت بسيفها ، ثم انتقل الى ذكر المدنيات التي قامت في آسيا في القرون الوسطى وفي روسيا ، فذكر أن معظمها كان بسعي الاتراك أو التاتار ، ونحن ننقل خلاصة هذا الخطاب نقلا عن جريدة « طنين » في عددها الصادر في ١ نيسان ١٣٢٧ ، قال الخطيب :

ان الترك والتاتار شيء واحد ، ولا يوجد فرق بينهما من جهة الارومة كما دلت على ذلك الادلة التاريخية التي كنت أبنتها في المسامرة الماضية ، وبعد أن أطال في الاستدلال على هذا انتقل الى البحث في تاريخ الترك أو التاتار فقال ان الترك لم يكونوا يوما مانعين لترقي المدنية وانكشافها لا في روسيا ولا في غيرها ، بل انهم كما كانوا في القرون الاولى قد أسسوا أنواعا من المدنيات فكذلك خدموا المدنيات التي دخلوا اليها وعملوا على تقدمها واعتلائها .

ثم ان للترك مدنية مستقلة عالية في ماض قديم جدا ، ولكن كانت المعلومات عنها قليلة الى عهد قريب ، ولو طالعتم رسالة نجيب عاصم بك التي عنوانها « أقدم كتابة للترك » لعلمتم أنه وجد على شواطىء نهر « أورخون » أثر تاريخي ركز في أواسط القرن الثاني للهجرة مكتوب عليه بكتابة تركية أنشئت باغة مرتقية ونمط أدبي مما يثبت أن لهؤلاء القوم مدنية مستقلة ومرتقية في ماض قديم جدا . وقد حقق بعض الباحثين من الالمان في الاحافير التي بدأوا منذ ثمان أو تسع سنوات بتحريها ولا يزالون يفتشونها الى الآن أن للترك حضارة أقدم من حضارة أورخون ، نعم انه لم يمكن تعيين تاريخ هذه المدنية على التحقيق لكن يظن أن ازدهارها وترقيها كان في نهاية القرن الاول للهجرة، ثم ذكر أن رئيس الهيئتين الكشفيتين اللتين عنيتا بالبحث عن مدنية الترك العالية في مدينة (يدي قوت) بجوار طورخان قد كتب ما نصه : ان ما بقي محفوظا منذ عصور في تلك الارض الرملية القاحلة من أبنية وهياكل وجدران عظيمة وتماثيل مجسمة وصور مرسومة وكتب وبقايا من الادبيات الراقية المخطوطة في الاوراق لشاهد قطعي على وجود مدنية عظيمة هناك .

ثم قال الخطيب : فانتم ترون أن الترك الذين يرمون بأنهم لم يخلقوا الا للحرب والسفك قد وفقوا لاقامة حضارة كبيرة لزمن الهجرة النبوية وقبلها أيضا ، يعني حين كانت أوربا لا تعرف معنى الخط ولا ماهو الكتاب ، حين كانت منتشرة في الحراج تعيش عيشة تقرب من المعيشة الوحشية ؛ ثم لا تظنوا أن مدنيات الترك هي ما أشرت اليه فقط بل يظن أن كثيرا منها لم يكشف بعد ، فان بعض معلمي دار الفنون في برلين يرجحون أن مؤسسي مدنية بابل المعدودة من أقدم المدنيات

هم من أصل توراني يعني تركاً • فان تحقق هذا كنا نحن الترك مع المصريين أول أساتذة الدنيا ، واذا بحثنا عن خدمة الترك في القرون الوسطى للمدنيات التي دخلوا اليها نرى أنهم لم يكونوا دون غيرهم من الاقوام ، والكثير منكم يعلم مقدار الخدم الجليلة التي قاموا بها في المدنية الاسلامية •

يسمي بعضهم المدنية الاسلامية مدنية عربية ، لكن هذه التسمية ليست موافقة للحقيقة بل هو تعبير غير صحيح نشأ من كون خادمي هذه المدنية كانوا على الاكثر يكتبون ويتكلمون باللغة العربية ، وبتدقيق قليل في الاسماء والكنى يظهر أن من كان منهم يظن من العرب انما هو ترك • الترك سعوا في ترقية المدنية الاسلامية من جهة ، وجاهدوا في المدافعة عنها أفضل جهاد من جهة أخرى • الترك لم يكونوا سببا في تدني المدنية الاسلامية التي دخلوا اليها بل كانوا دائما أقوى عامل للدفاع عنها ، وأظن أنه يكفيني أن اذكر لكم بعض الاسماء لتتمكنوا من تقدير خدمة الترك لترقي الاسلامية حق قدرها • ان أكبر محدثي الاسلام هو صاحب الجامع الصحيح الامام البخاري كان تركيا وأكبر فيلسوف وطبيب في الاسلام الشيخ الرئيس ابن سينا كان تركيا ، وألوغ بك الذي لم يكن في علم الهيئة دون كبلر وغاليلة كان تركيا ابن تركي كان أميرا وعلامة معا ، والعلامة الزمخشري من أئمة المفسرين كان تركيا خوارزميا ، والفارابي أيضا تركي • وان وجود رجل في المدنية الاسلامية اكثر احاطة من محمد بن طورخان بن أوزلوغ والفارابي لصعب جدا • الفارابي كان مطلعا على كل اللغات المعلومة في زمانه وكان أستاذا في الحكمة السياسية والاجتماعيات والطبيعيات

والفلسفة والطب والموسيقى ، وقد ناظر علماء الشام مرة ولما غلبهم عدلوا عن مناظرته واقبلوا يكتبون كلامه وبقدر ما كان الفارابي عالما كان انسانا كاملا . ولو أمررنا النظر على أكبر مفكري العالم الاسلامي لوجدنا ثلاثة منهم في المقام الاول وهم الفارابي وابن سيناء وابن رشد وان اثنين منهم تركيان . ثم قال ومادامت الحقيقة هكذا فاسمحوا لي أن أقول ان القول بأن الترك لم يخدموا المدنية الاسلامية كذب . ثم ذكر خدمة الترك للمدنية الروسية في العصور الاخيرة فذكر أسماء كثير من قادة الافكار في روسية من المؤلفين في السياسة والادب ، وقال برجوعهم الى أصول تركية .

وقد علمنا أنه نهض بعده في المسامرة أحمد آغايف بك من أساتذة دار الفنون ، ورضا توفيق بك مبعوث أدرنة ، وعبد الرشيد أفندي من علماء التاتار ، فنحوا نحو الخطيب في ذكر مزايا الاتراك وفضائلهم وكونهم مع التاتار من عنصر واحد ، واعتذر رضا توفيق بك عما أتاه جنكيز خان من الفتك والسفك ، ودافع عبد الرشيد أفندي عن تيمورلنك وأثنى على خدمته للمدنية الاسلامية في سمرقند بما أنشأه فيها من دور العلم التي لم تزل قائمة الى الان . ونحن لا نقصد بمقالنا هذا رد ما بخس به الخطيب حق العرب ، ولا الاشارة الى ما يشف عنه مقاله من نكران الجميل ، بل نترك ذلك للمطالع الكريم يعمل فيه الفكرة ويستخرج منه العبرة ، وانما أردنا تنبيه قومنا الى أن التقصير في العرفان يفتح عليهم أبواب العدوان وأنهم ان داموا على تقصيرهم عرضوا تراث أجدادهم لغارات الامم فانمحت آثارهم وانقطعت أخبارهم وصارت مفاخرهم الى غيرهم ولعلهم يشعرون .

(س)

التنازع والإصلاح (*)

اذا انطلقت العقول من قيودها ووجدت مضطربا لحركتها ، ذهبت من الفكر الى أقصى ما استعدت له ، وتسربت منه في مذاهب من الرأي لم تكن لتهتدي اليها لولا انطلاقها من وثاقها . ولقد ظهر مصداق هذا بعد انقلابنا العثماني اذ بدا من آراء المفكرين وأنظارهم ضروب وأفانين في السياسة والادارة وشكل الحكومة وسائر ما يتعلق بالحياة الاجتماعية .

مرت هذه الآراء والافكار على الانظار وفيها الغث والسمين ، والصحيح والعليل ، والموافق للروح العمومية في هيئتها الاجتماعية وغير الموافق ، فكان لا يعلق بالعقول منها الا ما أيدته القوة ووزارته الكثرة وقامت على تنفيذه الغلبة دون التفات الى ما تحدثه تلك الآراء والافكار من النتائج والآثار ، وذلك لضعف قوة النقد وانمحاء الاستقلال الفكري عند الاكثرين بما أثره عهد الاستبداد في العقول ، فكان لا يزن الامور بموازينها الا نفر قليل ممن أعطوا حظا من الاستقلال بأصل فطرتهم .

ظهرت الآراء الصادرة من جانب القوة والمؤيدة بها فجعلت

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثانية ، العدد ٦٨ (٢٧ تموز ١٩١١) .

تتسرب الى العقول وتستولي على الخواطر ، تارة بعامل النفوذ وأخرى بعامل حب المنفعة ، ثم أخذت مع الزمان تمكناً حتى كاد يكون معظمها في نظر الكافة من الامور المسلمة التي لا يصح البحث فيها ، على حين أنه يوجد في كثير منها ما لا ينطبق على منفعة الامة ولا يلائم مصلحتها . فنشأ عن ذلك أن تكونت للناس منازع في السياسة والاجتماع لا تتفق مع مصالحهم أو هي توافق مصالح قبيل منهم وتنابذ الآخرين . على ان المطلوب انما هو رعاية الجميع والسعي على مصلحتهم ، لان الرقي الصحيح انما يرجى بمجموعها ، ولكن القوة تقترن بالقبيح أحيانا فتلبسه للعيون لباس الحسن الجميل ولا سيما اذا دخلت الى ما تريد من أبواب دعوى الحكمة وحب المنفعة العمومية واتفق أن قامت على صدق دعواها بعض الشبهات ، ولذلك تجد كثيرا من أهل البصيرة والاستقلال قد ساروا مع تيار القوة واتهجوا منهجها وتشيعوا بأفكارها ، وهم يحسبون أنها الطريق القويم الذي لا تعدوه مصلحة الامة . غير أن تلك الآراء ، مع مؤازرة القوة لها وتوفر المنافع المادية لمن وافق الداعين اليها ، لم تقو على البقاء طويلا ولم تستطع مقاومة الفكر العمومي الذي رسخ في الاذهان وكونته حوادث مختلفة ، فبدأ الناس يبحثون في تلك الآراء ويعملون أنظارهم في نقدها وتمحيصها ويقابلون بينها وبين العقائد الشائعة في الامة والتقاليد الموروثة لها والبادية آثارها في كل عمل من أعمالها ، حتى بدا لهم عوارها وانكشف لهم منها ما كان مستورا بحجاب القوة والنفوذ الشخصي ، فاندفع فريق منهم الى مقاومة تلك الآراء وتوسلوا الى ذلك بما استطاعوه من البراهين ، مستنجدين بما رسخ في مجموع الامة من العقائد والتقاليد ، واندفع مؤيدو تلك الآراء بالضرورة

الى تأييدها بما لديهم من قوة ، فقام تنازع بين الفريقين ، وبات الباحثون ينتظرون الغاية من هذا التنازع ويرمقونه بعين الاهتمام لعلمهم أن نجاح الفريقين معا غير ممكن لاستحالة ثبات الرأيين المتناقضين في نفس واحدة .

لكل حادث يحدث في الوجود نسبة خاصة الى ما حدث له ، فان كانت النسبة بينهما هي الموافقة ثبت ذلك الحادث واستقر ، والافان قَوِيَ على ما حدث له أزاله وحلّ محله وان لم يقو فلا سبيل الى بقائه بل لا بد أن يتلاشى ويزول شيئا فشيئا مهما عظم سلطانه وكثرت أعوانه .

وهكذا العقائد والآراء التي يراد ادخالها على الامم ، انما يرجى ثباتها وشيوعها فيها اذا لم تكن منابذة لتقاليدها الثابتة وروحها العامة ، والا فلا بدّ من التغالب والتنازع حتى يستقر ما كانت قوته أكثر وكانت النفوس له أقبل ، ولكن الامة في خلال هذا التنازع تبقى منحلة الروابط ، مختلفة الاهواء ، فاقدة للروح العامة التي بها تتكون الامم ، والباحثون في أحوال الاجتماع انما يخشون من نتائج تلك الفترة ويحسبون لها الحساب . على أن استقرار الفكر الجديد يحتاج في مثل تلك الحالة الى زمان طويل يظل القائمون فيه بين هبوط وصعود ، وفوز وخذلان ، ونقض وابرام ، وتظل الامة معهم غير مستقرة على حال ، وغير مرتبطة بجامعة حقيقية ، قلما سلمت في تلك الحالة من الغوائل لذلك تجد العقلاء من قواد الامم يفكرون جهدهم في التوفيق بين تقاليد الامة وأحوالها الروحية وبين ما يريدون احداثه فيها من الافكار الجديدة ، فلا يبدون منها شيئا حتى يعلموا موافقته للروح العامة أو يتحققوا تمام استعداد الامة لقبوله .

يعرض لكثير من المشرعين والحكماء كثير من الاراء التي يقوم لديهم البرهان على فائدتها واتيانها بالثمرات النافعة للامة اذا هي أخذت بها ، ومع ذلك يضربون صفحا عن العمل بها دفعة واحدة اذا علموا أنها بعيدة عن المألوف ومناقضة للعهود ، لعلمهم ان ارتباط الامة ولو بتقاليد عقيمة خير لها وأضمن لسلامتها من أن تبقى منحلة الروابط موزعة الاهواء . ونحن ان نظرنا الى الآراء التي ظهرت في هذه المملكة منذ عهد الانقلاب الى الآن نجد أن كثيرا منها ــ وخصوصا ما يتعلق بالعناصر ــ مناف للروح العامة في مجموع الامة المؤلفة من تلك العناصر التي حفظت مشخصاتها منذ زمن بعيد ، ولذلك لم تلبث أن حدث فيها من اختلاف القلوب وانقسام الاميال الداخلية والحروب الاهلية ما يتألم له كل محب لوطنه ، صادق في خدمة أمته . ونرجو أن يوفق القابضون على أزمة الامور في تلافيه لسلوك المنهج الطبيعي في حل أمثاله من الاحوال الاجتماعية .

هكذا ظهرت الآراء الجديدة ، وهكذا كانت آثارها ، وهي نتائج طبيعة لها كما قلنا ، فلا مطمع في تخلفها عنها وآخر ما ظهر من تلك الآراء هو اعتماد كثير من أولى الامر في المسائل الادارية والسياسية على بعض الجمعيات التي خفيت مقاصدها على العامة ولم يعرف عنها سوى أنها تريد تعميم الاخوة بين سائر البشر ، فقام بإزاء هذا الرأي رأي آخر يمثله أميرالاي صادق بك من أعظم أركان الانقلاب وأخلصهم ، وتابعه في تأييده جم غفير من المخلصين ، فنهضوا الى مقاومة الفريق الاول والعمل على ابطال رأيهم ، وأيدهم في ذلك الرأي العام لموافقة آرائهم الجديدة للروح العامة في الجملة ، ثم ان البحث في أمر تلك الجمعية والعمل على منع مداخلتها في ادارة الحكومة قد ساق هؤلاء الى الوقوف على أغلاط كثيرة في ادارة المملكة ، فاشتدوا

في المقاومة وبادهوا أولئك بما لم يكونوا يحتسبونه حتى انقسموا فريقين كل يؤيد مذهبه ويدافع عنه ويدعو اليه ، وهذا هو التنازع الذي أشرنا اليه آنفـا وبينـّا أنه لا بد من حدوثه في مثل تلك الحال •

يذهب الفريق المعارضون الى أن انتشار مبادىء هذه الجمعية في هذه المملكة مؤدٍّ الى تفكك جامعتهم وانحلال عراها لمنابذتها لاعظم عناصر اجتماعها وهو الدين ، وحجتهم في ذلك أن الجمعية أسست في بلاد تقاوم أديانها مبدأ الاخوة العامة بين البشر ، وهو مبدأ لا بد منه في هذه الجمعية ، فهي بذلك مقاومة للاديان كلها عاملة على هدمها ، فضلا عن أنــه لم يظهر من آثارها عند الآخذين بها سوى تأييد ذوي المطامع وتمكينهم من مناصب الحكومة ، واذا سألت أولئك عن وجه رغبتهم في اعتناقها لا تجـد لهم جوابا سوى البراءة منهـا ونكران الانتساب اليها ، وبما تقدم يظهر أن رأي صادق بك سيثبت ويبقى ، اذا لم يظهر من الآراء ما هو أشد ملاءمة منه للروح العمومية رغمـا من سعي الآخرين ، ولتعلمنّ نبأه بعد حين •

(س)



الجمعيّات السياسيّة وكيفيّة تكوّنها (*)

تتكون الجمعيات السياسية في الحكومات القانونية بعوامل تقتضيها حالة البلاد ويستدعيها استعداد الامة وتستلزمها ارادة الجمهور ، ثم تحوطها روح عامة تتجلى في نفوس الافراد وتتمكن من عقولهم حتى تكون شعورا عاما واعتقادا شاملا يتحصل منه مدد لنماء تلك الجمعيات وغذاء يكمل به تكونها ويتم به نشوءها ، ثم تتدرج بهذا المدد وبما يتبعه من المناسبات والحوادث في مراتب كمالها التي استعدت له في أصل بنيتها تدرجا يشرف بها على ما تتطلع اليه من المقاصد التي انعقدت من أجلها حتى تستولي منها على الغاية المطلوبة والنتيجة المرغوبة . ثم لا تزال كذلك في نماء دائم وارتقاء مستمر وحياطة من الافكار العامة الى أن تحدث في الافكار روح أخرى يبعثها تقادم الزمان ونبوغ أسباب خاصة ، وعندها تكون الجمعية بين أمرين : أما أن تعدل في أسلوبها ومجرى أحوالها الى مايناسب الروح الجديدة المنبثة في الافكار والمستولية على الآراء فتحفظ بذلك كيانها وتدعم أركانها ، واما أن تبقى جارية على نهجها سادرة في غفلتها عن مادة بقائها فتذبل نضارتها وتتحلل أجزاؤها وتتفرق أعضاؤها بانقطاع المدد عنها ، ولا يلبث أن يقضي الحال بتكون جمعية أخرى موافقة في مبدئها وأعمالها

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثانية ، العدد ٨٨ (١٤ كانون الاول ١٩١١) .

للارادة العامة ، فتدال من تلك وتحل محلها في تمثيل ارادة الامـــة والتعبير عن شعورها •

ومعلوم أن الغاية التي ترمي اليها الجمعيات السياسية انمـــا هي احداث شكل جديد في ادارة الحكومة أو سعي وراء انقلاب عام في الافكار ثم في الادارة • والتغيير في أشكال الحكومات هـــو كسائر المشاريع العامة الكبرى لا يقوم الا بسعي الجماعات ، وهذا السعي لا يتأتى الا بسوائق حقيقية تسوق القائمين به الى اقتحام الاخطار واحتقار المنافع الخصوصية واطراحها والمفاداة بالراحة ، وهم انمـــا يكونون من نخبة رجال الامة غالبا ، أو ممن أحدثت لهم الظروف والحوادث شعورا خاصا جاروا بـــه هؤلاء ونسجوا على منوالهم •

واذا أنعمنا النظر في تاريخ الحوادث الكبرى التي حدثت للامم من جهة ادارة حكومتها نجد أنها انما كانت بسعي الجمعيات السياسية ، وان تلك الجمعيات لم تبلغ أشدها ولم تفز برغبتها في أمة من الامم الا اذا اتفق لها من أحوال الاجتماع حال يتهيأ لها بها أن تنمو عناصرها وتشيع تعاليمها وتحل من النفوس محل القبول وتصادف من القلوب اعتقادا بموافقة مبادئها للمصالح العمومية :

انمـــا تنفـــع المقالـــة في المـــر

ءِ اذا صادفت هوىً في الفـــؤاد

ولقد رأينا كثيرا من الجمعيات قام بتأليفها عدد كبير من أرباب القوة والمنعة ، واجتمع لها بذلك من أسباب البقاء مالم يجتمع نظيره لغيرها ، ثم لم تلبث أن انتثر عقدها وانحل نظامها قبل أن يظهر لها في

الوجود أثر أو ينقل عنها خبر ، وما ذلك الا لانهـا لم تصادف من الهيئة الاجتماعية حالا تساعد على نفوذ تعاليمها ونمـو جراثيمها • فالجمعيات تخلق بخلق مبادئها ، وتلك المبادىء انما تخلق أولا في النفوس ، وهناك تنمو بذورها وتتأصل جذورها وتستوي على سوقها ، ثم يكون من أول ثمراتها أن تؤلف بين المتفرقين من طلابها وتعرف بين المتناكرين حتى تجتمع قلوبهم على تأييدها ، وعندما يدخل جميعهم في شكل خاص بهم ، ويأتلفون تحت عنوان واحد ، ثم تندفع الجمعية في أعمالها وتفوز بما ترجوه من آمالها •

وهكذا شأن الجمعيات التي تتأسس على قواعد ثابتة وتنمو نموا طبيعيا ، وهي التي تثبت أصولها في الامم وتزهو فيها آثارها • بل ان الجمعية التي تتكون على هذا الوجه تكون حاجـة من حاجات الاجتماع لا يستغنى عنها ، لانها من حاجاته الضرورية التي لا بد منها ولا انفكاك عنهـا •

اذا علمت هذا علمت أن الجمعيات السياسية ليست من الشهوات التي تعرض لبعض النفوس فتحدو بها الى تأليفها ، ولا من أمـاني بعض الاشخاص التي يقوم بها عدد خاص فيحمل الكافة على قبولها والانتظام في سلكها ، بل هي حادث طبيعي متولد بأسباب طبيعية ، وناشيء عن حاجة الامة اليه حاجة ضرورية وانها متى تمت لها أسبابها يستحيل أن تقف أمام ظهورها الموانع القاهرة، أو تحول دون نفوذها القوى الجائرة • وعلمت أن محض القوة وان عظم بنيانها وكثرت أعوانها وتمـادى بها زمانها فليست من الاسباب الطبيعية لتشكيل حزب من الاحزاب أو تقويم جماعة من الجماعات ، وانها لا تقوى على هدم ما بنته

الحاجة الماسة والحقيقة الراهنة ، وان قصارى ما تستطيعه القوة المحضة أن تبني لها هيكلا من الاوهام الواهية على الخضوع له أمدا من الدهر ريثما تنقشع عنها جهالاتها وتدنو اليها كمالاتها ، ثم لا تلبث أن تثوب الى ما ركز في أصل طباعها ، وتأصل في صميم فطرهـا من التماس ما هو أمس بمصالحها وأقـوم بمنافعها واوفى بحاجاتها في انفرادها واجتماعها (فأما الزبـد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال) .

هذا ما أردنا بيانه في تعريف ماهية الجمعيات الحقيقية التي تظهر في الامم فتثبت فيها أصولها وتجتنى ثمراتها ، وفيه بلاغ لمن تغرهم الاوهام وتزعجهم الخيالات وتستهويهم مظاهر القسوة وتروعهم تهاويلها .

وعلى هذا الاساس الطبيعي الذي وصفناه تألفت فرقة (الحرية والائتلاف) في العاصمة وأخذت تتشكل شعبها في آفاق المملكة . تألفت هذه الفرقة بعد أن مثلت القوة المنسوبة الى (الاتحاد والترقي) دورا فظيعا في ادارة المملكة ، وجنت جناية عظيمة على منافع الامة ، واتخذت دعوى تأييد القانون الاساسي وسيلة لابطال كثير من أحكامه ، وزعم صيانة الدستور حيلة لتقرير قواعد الاستبداد ، والاشفاق من وقوع الفرقة بين العثمانيين ذريعة لهدم حقوق العناصر والقضاء على مميزاتها ومقومات حياتها وتحويلها الى عنصر مخصوص تفنى ارادتها في ارادته وتخفى أشخاصها في شخصه وتسخّر قواها لخدمة منافعه ، هذا الى ما أهرقته من الدماء البريئة ، واجترمته من الارهاق والتعذيب والحرمان والتذليل لمن خالف مبدأها واستنكف عن خدمة غاياتها ، والى ما أثارته في أرجاء المملكة من نيران الحروب والفتن التي أحفظت

القلوب وفرقت بين الشعوب ، والى ما تبع ذلك من اضطراب الحبل في الادارة الداخلية وما نتج عنه من زلزال الموقف في الادارة الخارجية ، والى ماجاء في نهاية تلك الفظائع من اهمال شـأن طرابلس الغرب واخلائها من الحامية وتفريق جنودها وقوادها وأسلحتها في اليمن وحوران والكرك وبلاد الأرناؤوط مما أمكن الرامي من ثغرة نحرها وكان سببا في وقوع تلك الفاجعة الكبرى التي يخشى من عواقبها على كيان الدولة ، والى غـير ذلك من الاعمال التي أيسر خطوبها اختلاف الكلمة وتشتت الشمل واستحكام الفرقة والمـام اليأس في نفوس الافراد والجماعات من حياة الدولةوتفكير كل قبيل في التماس سبيل للنجاة غير السبيل التي يسلكها القبيل الآخر ، حتى أصبح سكان المملكة أفرادا متخالفين وأفذاذا متدابرين ، وكادت تنفصم من بينهم عرى الجامعة التي لا نجاة لهم الا بها ، فنشأ عن ذلك كلـه أن حدث في النفوس شعور عام بأن تمادي تلك القوة قابضة على زمام الادارة ربمـا ينتهي بهذه المملكة الى هاوية العدم ، وبان لا سبيل الى النجاة إلا بتأليف حزب تنتظم فيه سائر الفرق المخالفة ، فتكون بـه قـوة عظيمة تنتزع الادارة من يـد القوة الغالبة وتسلمها الى من يضطلع بهـا ويحسن القيام بشأنها ممن تثق بهم الامة وتركن اليهم ، فتألف الحزب موافيا لرغائب الامة ومعربا عن شعورها ومنفذا لارادتها .

أما القوة الغالبة التي تدير أمور الدولة على الوجه الذي وصفنا فقد شعرت بأن الحزب الجديد مبني على أسس طبيعية وأنه يستمد القـوة من الارادة العامة ، فراعها طلوعه وخلبها نبوغه ، وأحسّت منـه بعاصفة تذهب بما بنته من الامال ، وقارعة تضرب على الايدي العاملة ، وتأتي على هياكل الاوهام المائلة ، وتقوض دعائم تلك العظمة

التي وان هال منظرها فانها عرضة للزوال لا بتنائها على محض القوة •
شعرت بذلك شعور الحريص على ما بيده فطفقت تـدافع الحزب الجديد وتقاومه ، وتبذل ما لديها من وسع وقوة في تقويضه وهدمه ، أو تهوين أمره على النفوس ، والوقوف دون مقاصده النافعة ، ولكن هيهات أن يقف السيل منحدرا الى قراراته ، فان الحزب كان لا يزداد على كثرة المدافعة الا نفوذا وانتشارا وكثرة وقوة ، وهو لا يزال كذلك مناطا للآمال ومطمحا للأنظار وموضعا لثقة الجمهور وعلى الله قصد السبيـــل •



(الحضارة) و (المدنيـــة)

بنـــاء على قرار ديوان الحرب العرفي في العاصمـــة أوقفت ((الحضارة)) .
ستصل ((المدنية)) الى قراء ((الحضارة)) سالكة مسلكهـــا .

تعديل القانون الأساسي (*)

القانون الاساسي للأمة هو صورة إجمالية لشرائعها وقوانينها ، ونسخة جامعة لمناهجها وأساليبها ، وأصل ثابت لمذاهبهـــا في الادارة والسياسة والقضاء والجندية وجميع ما يتعلق بشؤون المملكة الداخلية والخارجية . بل هو مرآة تتجلى فيه صور أشكالها ، ومرامي آمالها، ومراتب انحطاطها وارتقائها ، وقوتها وضعفها ، وانتظامها واختلالها ، وانحرافها عن جادة الصواب أو اعتدالها ، وبالجملة فهو بمثابة جوهر مقوم لوجودها ، وروح مدبرة لقواها ومصرفة لأعمالها ، وصفة كاشفة عن حالها واستقبالها ، فهو الأصل الاصيل ، والمرجع الوحيد لجميـــع تصرفاتها وشؤونها ، وأخذها وتركها ، ونهيها وأمرها ، ولذلك كان احتفاظ الامم الراقية به والعناية بصون قواعده وأحكامه عن التغيير والتبديل بل عن التصحيح والتعديل بالغا غايتـــه ومساويا لاحتفاظهم بحدود المملكة واستبسالهم في المدافعة عنها ، وكانوا لا يجرؤون على

* (المدنية) ، العدد ٨٩/١ السنة الثانية (٢١ كانون الاول ١٩١١) .

مس قواعده بشيء من التنقيح الا عند الحاجة الماسة والضرورة المبرمة، وما ذلك الا لأن حدوث تغيير في قواعد القوانين الأساسية يتبعه تحوّل في أعمال الحكومة وتغير في صورة الادارة وشكلها ، وانما يطلب لصلاح الممالك الاطراد في الاعمال وجريانها على نمط واحد . على أن التغيير غير ميسور في كل زمان وإن تيسر فهو غير مفيد في المصلحة الا عند مسيس الحاجة اليه وبلوغها حدا يتوقف صلاح المملكة عليه .

يكثر النزاع بين عناصر الدولة في الامم الاوربية ويشتد الخلاف بين الهيئات الممثلة لارادتها ويتذرع كل قبيل بما يمكنه من الوسائل لتأييد ما يراه أصلح لحال الامة وأوفى بحاجاتها ولكن تبقى القوانين الاساسية بنجوة عن مثار النزاع ومضطرب الخلاف سامية باصولها وقواعدها عن مرامي السهام ومطاف الخيالات والاوهام وانما يكون النزاع في تطبيق أعمال الحكومة على مقتضى أحكامها وموافقتها الفحوى نصها ونظامها .

نعم تقضي الحال أحيانا بادخال بعض تعديل على قاعدة من قواعد القوانين الاساسية فتعدل أو تبدّل ، ولكن لا يكون ذلك لشفاء علة من علل النفس أو لتأييد قبيل على قبيل ، وانما يكون ذلك لمحض المصلحة العمومية اذا تهيأت الافكار العامة لقبول ذلك التبديل واستشعرت بلزومه وساعدت عليه الظروف وكان مأمونا من الغوائل .

هذه منزلة القوانين الاساسية من الاجتماعات الراقية ، وهكذا تجري بها الامم التي تعرف قيمتها وتقدرها حقّ قدرها .

ولذلك اشتغلت الافكار العامة في هذه الايام ، وهبّت حملة الاقلام تحرر المقالات الضافية في نقد الوزارة الحاضرة وتهجين عملها في اقتراحها تعديل المادة الخامسة والثلاثين من مواد القانون الاساسي ، وهي المادة

المتعلقة بفض المجلس النيابي وتعطيله والمعينة لصاحب الحق في ذلك وهي لم يمض على تعديلها على الصورة الراهنة زمن طويل ، ولم يقم على لزوم التعديل حجة ولا دليل ، فقد وقف رئيس الوزارة على منبر الخطابة في مجلس الامة وعرض لهذه المادة تعديلا يخول جلالة السلطان أن يفض المجلس ويفسخه بمحض ارادته دون موافقة مجلس الاعيان ، وقد أفاض بطلاقته المعهودة في تأييد طلبه ، وحاول البرهان على صحته ومن ورائه ثلة من المنتسبين الى الاتحاد والترقي يزينون أقواله ويروجون أدلته ، فهاج لذلك غيظ المخالفين واشتد احتجاجهم وعلت في المدافعة أصواتهم اشفاقا على حق الامة أن ينتهي أمره بالسقوط في الايدي المستبدة ، ولكن رئيس الوزارة اقتحم اللجة غير مكترث بما ينتج عن هذا التكليف من النتائج الوخيمة وغير متلفت الى ما يحيط بالمملكة من الغوائل التي كان يجب الاشتغال بدفعها وتلافي أمرها . وقد بات الناس في حيرة من إقدام سعيد باشا على هذا المشروع ، ولم تظهر لأحد الحكمة في إيثاره الاشتغال به على مالا يحد كثرة ولا يحصى عددا من أمهات المسائل التي يتوقف عليها صلاح المملكة . ومن أشف ما سمع أن الرجل كبر عليه أن يرى مدى حرية النواب واسعا في نقده وتقدير أعمـاله بمقدار ، وأن يسمع حجتهم بالغة في لومه على تقليد أمور الدولة من لا يضطلع بها وهو قد فتل كل هذه السنين من غير أن يرد له أمر أو ينتقد له عمل فأراد بذلك تحديد حريتهم وكمّ أفواههم .

وإن تعجب فعجب قوله أنّ حصول الصلح مع ايطاليا متوقف على وجود وزارة قوية ، فليت شعري ماذا يعني هذا الوزير المحنك من قوة الوزارة ؟ أيعني أن لا يبقى معها لأحد قوة حتى ولا بالقول لكي تكون فعالة لما تريد دون مراقبة ولا تفنيد ؟ ثم متى وقف النقد والتعريض بها

عن مرامها وهي قد مضى عليها حين ليس بقصير متصرفة بشؤون الامة وحاكمة على إرادتها وعاملة على خلاف مصلحتها ولم يثنها عن ذلك نقد ناقد ولا مراقبة مراقب ؟

متى ضعفت الوزارة حتى تلتمس لها القوة • ومتى فقدت أسباب القوة من الوجود حتى تلتمس لها في حقوق النواب الممثلين لإرادة الأمة ؟ أليست وزارة حقي باشا هي التي أحدثت في ادارة المملكة ما تتألم من آثاره الى اليوم ؟ والنواب وقوف ينظرون ، لا يملكون لأنفسهم ولا للأمة الذين هم وكلاؤها الا أقوالا يرددونها فلا يكاد يحس منهم أحد ولا يسمع لهم ركز ؟ ماذا يريد سعيد باشا بعد ذلك أيريد أن يقضي أيضا على ذلك الصوت الضعيف لأنه لا يحب أن تقرع سمعه الاصوات وان كانت أشبه بترجيع الانين ورنة الكئيب الحزين ؟

نعم إن الوزارة ضعيفة لأنه يعوزها غذاؤها الحقيقي وهو تأييد الرأي العام لها ، ضعيفة لأنها فاقدة ثقة الامة وهي المستمَدُ الوحيد لقوة الوزارات في الامم التي بدأت تعرف حقوق نفسها والتي ذاقت لذة الحاكمية ووقفت على شيء من سرها ، فكان على الوزير أن يلتمس لها قوة من ثقة الامة واردة الجمهور فيؤلف الوزارة على الوجه الذي تريده وينتخب لها من تضع فيهم ثقتها واعتمادها بدلا من أن يعمد الى القانون الاساسي وهو بمنزلة الروح المدبرة فيحاول فيه التغيير والتبديل• انما تلتمس قوة الوزارة في الاعتماد الحقيقي عليها والثقة الصحيحة بها أما السعي في استحصال الثقة الصناعية والاعتماد الظاهري بسوائق من الترغيب الباطل وضروب من الترهيب الجائر أو كمّ الافواه عن الجهر بالحقيقة وحبس الاقلام عن الجولان في ميدان البيان وتعطيل الصحف

المنورة للاذهان أو محاولة تعديل القانون الاساسي على ما يوافق رأي الوزارة ومصلحتها فليس من شأنه أن يكسبها قوة بل ذلك فضلا عن كونه منافيا لروح الحرية ومخالفا للاصول الديمقراطية فهو لا يزال يزيدها ضعفا على ضعفها حتى ينتهي أمرها بأن لا تستطيع فتقا ولا رتقا، ولا تملك صرفا ولا عدلا ، وهناك تستحكم الفوضى ويتشعب الصدع ويتسع الخرق على الراقع .

على أن تعديل مادة من المواد أو تصحيح مسألة من المسائل انما هو من الكماليات التي لا يتوقف عليها وجود ، ولا يقترن بعدمها عدم ، ومن أين للأمة التي شغلتها الشواغل وأحاطت بها الغوائل وأصبح موقفها في زلزال أمام عواصف الغير أن تفرغ الى استيفاء الكماليات وهي في أشد الفاقة الى الضروريات ، هذا اذا فرض أن المادة المراد تعديلها ليست جارية على شاكلة الكمال فما بالك اذا كان التغيير المطلوب منافيا لمصلحة الامة ومحددا لإرادتها ومقيدا لحرية نوابها وممكناً ليد الاستبداد من معقد خناقها .

نحن ليس من شأننا مناقشة الوزارة على استهانتها بحقوق الأمة وسعيها في تحديد حرية نوابها ، ولا معاتبتها على اتخاذ القانون الاساسي (وهو ما عرفت منزلته) وسيلة لتأييد نفوذها ، وانما غرضنا من هذا المقال أن نبحث في أصل المادة ، وهل في تعديلها على الوجه الذي اقترحته الوزارة فائدة للامة ومصلحة للهيئة الاجتماعية ومطابقة لقواعد المشروطية ، وسيقف القارىء الكريم على الصواب في ذلك اذا أجملنا له القول في معنى حاكمية الأمة من الجهة الحقوقية وفي الادوار التي مرت عليها عند الآخذين بها .

الحاكمية في أصل الفطرة وفي عرف الامم الراقية ، قديمها وحديثها ، حق أساسي للأمة استحقته بمجرد تكونها واجتماعها ، يعني منذ صح اطلاق لفظ أمة عليها • ومن مقتضى هذا الحق أن يكون للامة تمام الحرية في التصرف بأمور نفسها والاستقلال في إرادتها واختيارها ومباشرة سائر فروع الحكومة وما يتعلق بذلك بجملتها دون أن ينفرد بعض أشخاصها بذلك أو بجزء منه • وقد مرت أدوار على غير واحدة من الامم القديمة سلكت فيها هذا السبيل بالفعل ، فكانت تجتمع الامة لسنّ القوانين وتنظيم الشرائع واجراء كثير من الاحكام وتفويض بعضها الى من يقوم بها من الامراء والحكام ، وبقي لهذا العهد أثر لذلك في بعض الامم الصغيرة ، ولكن كثيرا من الموانع الناشئة عن كثرة عدد الامم وتبسطها في العمران وتوزع هموم الناس في تكاليف الحياة واستبحار الحضارة حالت دون ذلك فاضطرت الأمم الى التوكيل ، وحدثت من أجل ذلك أشكال الحكومات النيابية ، فجعلت الامة تنتخب من خيرة رجالها هيئة تفوض اليها أمر الحكومة من تقنين القوانين وسنّ الشرائع والقيام بتطبيق الحوادث على مقتضى أحكامها والعناية بتنفيذها • وكان شأن هؤلاء في العجز عن القيام بجميع أمور الدولة والوقوف على جليلها ودقيقها شأن موكليهم لبعض الموانع التي حالت دون أولئك ، فنشأ عن ذلك تفريق الوظائف وتوزيع الاعمال ، وفوض أمر الادارة والقضاء الى هيئات تختار وتعيّن على وجوه يقتضيها الزمان وحال الاجتماع وتختلف باختلاف الامم ، وبقي لنواب الامة أمر التقنين وتنظيم الموازنة المالية والمراقبة على الهيئات الاجرائية بحيث يسوغ لهم اسقاطها ونزع الامر من يدها على وجوه مخصوصة اذا صدر منهم ما يراه النواب مخالفا لمصلحة الأمة التي هم وكلاؤها • وكان الشأن في هؤلاء أن يترك لهم مليء الاختيار والاستقلال في القبول والرفض والاعتماد وعدمه ،

وفي إمضاء الشرائع والقوانين التي يقرونها ، ولكن وقع في بعض الحكومات أن جرى النواب بالدولة الى غاية اتفق أنها لم تكن محمودة، فرأى بعض الباحثين تحديد سلطتهم بهيئة يكون لها الحق في مناقشتهم وفي أن لا ينفذ لهم قرار ما لم يكن مقترنا بتصديقها ، وتلك الهيئة هي هيئة الاعيان ، فصار لهذه الهيئة حق في تمثيل ارادة الأمة والقيام عنها بالحاكمية بالاشتراك مع نوابها ، وإن لم تكن عند أكثر الامم منتخبة من قبلها ، وقد شاع ذلك حتى صار قاعدة جارية في أكثر الحكومات النيابية • ويذهب كثيرون الى أن نتائج هذا التحديد كانت حميدة ، وأنها أتت على المجتمعات بالفوائد الجليلة ، وأنه بذلك صحت الموازنة بين العناصر المقومة لوجود الدولة والقوى المؤثرة في حفظ كيانها وتسهيل ارتقائها • ثم تطرف قوم في اعتماد هذه الفكرة فجعلوا الهيئة الاجرائية سلطة حددوا بها سلطة المجلس النيابي حيث جعلوا لرئيس القوة الإجرائية حقا في فسخه وتعطيله دون موافقة مجلس الاعيان وتصديقه وهو الشكل الذي اختارته الوزارة الحاضرة وكلفت المجلس بقبوله وتقريره • وهو كما ترى بعيد عن روح الحاكمية الملية مباين لأصولها ومناف لقواعدها وأحكامها • نعم إن ما سواه من الاشكال التي مرت الاشارة اليها لا يسلم من المغامز ولا ينزه عن العيوب ولكن هذا الاخير أشد الوجوه انحرافاً عن الجادة وأبعدها مسافة عن معنى الحاكمية التي علمت أنها حق طبيعي أساسي للأمة • على أن اختيار بعض هذه الأشكال على علاتها في بعض الحكومات يناط عند أهل الإخلاص منهم بالمصلحة وبما ترجى فائدته للأمة وذلك بمراعاة حالها واستعدادها ومناحي أفكارها • وربما اتخذ في بعض الاحيان علاجا لبعض أمراضها الروحية فتعالج الأمة المفرطة في الحرية مثلا باختيار

الشكل الذي يكسر شرتها ويكفكف من غلوائها ويأخذ الطريق دون جماحهـا .

ولكن هل من المعقول أن يُختار ذلك لامة حديثة عهد بالنجاة من الاستبداد ؟ إن أمة توارثت الخضوع للحاكم منذ عهد بعيد وقد حان لها أن تتذوق معنى الحرية ولاح في أفق نفوسها بصيص من قبس الحاكمية الملية لجديرة بأن تطلق سلطة الهيئة الممثلة لارادتها اطلاقا تستأنس فيه بمعنى الاستقلال وتنسى معه الطاعة للاستئثار والخضوع للاستبداد وتتربى به في نفوسها ملكة الحكم حتى تصطلم من حكامها طبيعة الميل الى التغلب وتستأصل منهم ملكة الحيف والتسلط ثم لها بعد ذلك أن تختار الطريق التي يزعمونها في توازن القوى اذا حان أوانها وجاء زمانها وصح من الاستبداد سلامها وأمانها .

على أن فوز الوزارة بما ترجوه من تعديل المادة على الوجه الذي تقدم بعيد عن متناول الظن ، فانه لا يوجد في المجلس النيابي الا جزء يسير ممن يميل الى هذه الفكرة ويؤيدها فيما تظن ، والقرار في مثل هذا الشأن متوقف على أكثريـة الثلثين ، والشأن كذلك في مجلس الاعيان ، والله المسؤول أن يوفق الى ما فيه خير الامة وصلاحها وبـه المستعـان .

(س)



المستقبل (*)

المستقبل هو خزانة الغيب ومستودع سره ، وممكن حوادث الدهر ومضطرب صروفه • احتجب عن عقول البشر فأعياها كشفه ، وشغفها حب الوقوف على ما خبيء لها في تضاعيفه من خير وشر وسعادة وشقاء وحزن وهناء فهو نشدة النفوس البشرية وموضع طلبها ومثابة سعيها ، واليه منتهى أعمالها وفيه مثوى أمانيها وآمالها •

وقد هام الناس منذ القدم باستطلاع أسرار المستقبل وأولعوا بتعرف أحواله ، فرصدوا من أجل ذلك النجوم وراقبوا حركات الافلاك ، وقارنوا بين المطالع ، وذهبوا في البحث والتنقيب مذاهب أودت بالكثير منهم وأتت على أعمارهم واستغرقت مدة حياتهم • كل ذلك ليقفوا على شيء من خبايا المستقبل ويظفروا بذرو من خفاياه •

وقد أفضى البحث ببعضهم أن لاحت لعين خياله أعلام من الاوهام ظن أنها نصبت لتدل على ماينشده وتؤدي الى ما يتلمسه مما يضمره المستقبل ، فأقام منها منارا لسراه في مهامه مسعاه واجتمع له من ذلك على توالي الازمنة طائفة جعلها كالقواعد الاساسية ليبني عليها أبحاثه في استخراج المغيبات من ضمائر المستقبل • ثم تقدم البحث بآخرين اقتفوا آثار من سلفهم من هؤلاء ، فدونوا بما استفادوا من

---

* (الحضارة) ، السنة الثانية ، العدد ٩٦ (٩ شباط ١٩١٢) •

التجارب الكثيرة والمقارنات بين الحوادث المتوالية فنا ضموا اليه ما ورثوه عن أسلافهم وما اهتدوا هم الى وضعه وتصنيفه من تلك القواعد ، حتى صار يعد في جملة الفنون وحتى تناوله العلماء بالجرح والتعديل والتصديق والتكذيب . غير أن تلك المساعي لم تأت بشيء يعتمد الناقد البصير عليه اللهم الا بوارق تلوح من قبل الحقيقة مغشاة بسحب كثيفة من الاوهام والخرافات ، مستورة وراء حجب من التهاويل والخيالات . حتى جزم جمهور الباحثين بأن جميع ما دون من ذلك انما هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، مقتفين أثر ذلك الشاعر الحكيم حيث يقول :

وأعلم عِلْمَ اليوم والامس قبله
ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِ

ولكن مهما خفي على الناس أمر المستقبل واحتجب سره فقد هدتهم كثرة التجارب الى معرفة جزء كبير منه وخصوصا فيما يتعلق بالحوادث الاجتماعية ، فاهتدوا الى القانون الطبيعي الذي وضعه الحكيم الخبير في ترتيب حوادث الكون ، ووقفوا على سر الناموس الثابت بين كل كائنة وأختها ، والرابطة المطردة بين الاسباب والمسببات ، فانكشف لهم بذلك قسم من المستقبل المحجوب ، فجعلوا يعملون على ما يرفع شأنهم فيه اذا هم وصلوا اليه . وتبين لهم أن عملا يعمله المرء سيكون له أثر في كل ما يلاقيه في مستقبل أيامه من الحوادث ، ليس ذلك في نفسه فقط بل يظهر أثره على ما تستقبله أمة بتمامها . نعم قلما يظهر أثر الاعمال الجزئية للأفراد في مجتمعها لصغر خطرها بالنسبة اليه ولكن لا بد هناك من أثر تنفذ الى معرفته البصائر النيرة وان خفي

أمـــره على الكافة ، اذ أن ذلك من مقتضى القانون الطبيعي الثابت الذي سبقت الاشارة اليـــه •

جلّت عناية الله بعباده فلم يكتم عنهم بيان هذا القانون الطبيعي المطرد بين الاعمـــال وآثارها لفرط حاجتهم اليه وتوقف سعادتهم عليه ، بل صرح به في غير موضع من كتابه العزيز فقال تعالى (وانما تجزون ما كنتم تعملون) ، وقال سبحانه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يـــره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فقرر لهم بذلك القاعدة التي أودعها في طبيعة الاشياء وضمنه ارشادهم الى أن يتقوا من الاعمال ما يكون له أثر سيء في مستقبل حياتهم القريب او البعيد •

على أنه مهما يكن من أمر المستقبل في ظهوره واخفائه فان الناس لم ينصرفوا عن البحث عنـــه ولم يفتؤوا يتابعون السير الى تحصيل علمه ويجهدون النفس في العمل لاجله ، وما ذلك الا لشغفهم بمعرفة ما تنتهي اليه حالهم في مستقبل حياتهم فان كـــان خيرا استزادوا من أسبابه ، وان شرا اجتنبوا الدخول في أبوابه • وهو شعبة مما فطروا عليه من الحرص على البقـــاء والميل الى التمتع بلذة الراحة والهنـــاء والتملص من بواعث التعب والعنـــاء •

يدأب المرء حياته في العمل ويقتحم المشاق وراء تحصيل الامل ، ويقاوم حوادث الدهر ويقارع تصاريف الغير • ولكن اذا دققت النظر وجدت معظم هذه المساعي مصروفة لتوطيد أمر المستقبل وتمكين الثقة بالبقاء فيه على وجه يضمن الراحة ويكفل الطمأنينة • وكذلك تجهد الدول في تنظيم الجيوش وسد الثغور ومقارعة الاعداء والذود عن الحقيقة ليبقى لها في المستقبل مقامها أو المقام الذي تطمح اليه بـــين

الامم • فالعناية بالمستقبل والعمل له صفة من صفات الانسان الراسخة واخلاقه الثابتة ، وغريزة من الغرائز المميزة له عن سائر الحيوانات ، على أنها موجودة بعض الشيء في بعض الحيوانات المرتقية أيضا •

بهذه الغريزة بلغ الانسان الى ما بلغ اليه من الرقي المادي والمعنوي، وبها حدثت المزاحمة في الاعمال والمنافسة في العروج الى الكمال ، وبها ارتقت علوم البشر وتفرعت معارفهم وتقدمت الصناعات والفنون ، ونشأ عن ذلك لطف في الاذواق وارتقاء في الفهوم نتج عنه ما تراه وتسمع به من تقدم الحضارة والعمران ارتقاء شأن الانسان • أودع الله هذه الغريزة في فطرة هذا النوع ليعده بها الى ما كتبه له من الكمال وليهديه بها الى اكتشاف أسرار الوجود والاستفادة مما أودع فيه من المنافع والاعتبار بمظاهره المختلفة وعظاته المتوالية توفيرا لمصلحته وايثارا لما يفيده في معاشه ومعاده • وقد اطردت آثارها قلما عرض له تخلف فترى في الافراد اطرادا كل فرد مندفعا في العمل لمستقبله مسوقا الى ذلك بعوامل تلك الغريزة الشريفة ، وان ماتراه أحيانا من تعمد بعض الافراد أعمالا تنافي مصلحة مستقبلهم وتنغص لذة الآتي من حياتهم ليس شذوذا عن حكم هذه الغريزة ولا خروجا عن دائرة نفوذها وانما هي الغفلة عن الفائدة الآتية بالفائدة الحاضرة ، أو الخطأ في الفكر يعرض لبعض العقول فتلبس لها المضار لباس المنافع وتظهر لها السيآت بمظاهر الحسنات فتأتي أسباب الالم من حيث تظن أنها توفر أسباب اللذة • وتقارف بواعث الشقاء من حيث حسبها بواعث للهناء •

ولكنها لم تطرد آثارها في الجماعات بل غلبت في أكثرها الاثرة

على أفرادها ، واستولت محبة الذات على آحادها . فجعلوا سعيهم قاصرا على مستقبلهم الشخصي ، وحالت المطالع الذاتية بينهم وبين معرفة أن المنافع الشخصية في هذا النوع لا يتوفر عليها ولا يظفر بها الا في ضمن المنافع العمومية وان رقي شخص في مجتمع منحط ورفاهه في موطن خشن وسعادته في بيئة شقية محال في نظر العقل وممتنع في حكم الواقع والشواهد على ذلك كثيرة لا تحيط بها مثل هذه العجالة . وانما تتفاضل الامم وتتمايز الشعوب بحسب قوة هذه الغريزة وضعفها ، فالامة التي يشعر أفرادها بان منافعهم منوطة بمنافع مجموع الامة فيسعون في طريق ترقيتها واعلاء شأنها لتعلو بذلك أقدارهم وتسمو منازلهم هي التي يكون لها المقام المحترم في معترك هذه الحياة . والامة التي يظل أفرادها في غفلة عن منبع سعادتهم فلا يدورون الا حول محور ذواتهم فتلك التي كتب الله عليها الشقاء وحكم عليها بالانقراض والفناء . ولا يغرنك ما يناله هؤلاء الافراد أحيانا من مراتب العزة ومظاهر السعادة فما هو في الحقيقة سوى ظل زائل وخيال مائل ليس تحته من الحقيقة طائل .

لو كان شعور المراء بحاجته الى سعادة قومه يشبه شعوره بالحاجة الى سعادة ذاته لكان سعيه لمستقبل الامة مثل سعيه لمستقبل نفسه ولترتب على ذلك نهوض الامم العاثرة ، والممالك الساقطة وانتعاش الاقوام المنحطة . ولحدث للأمم نوع آخر من التزاحم والتغاب يتغير معه شكل المناسبات بينها اذ تصبح كلها متقاربة متكافئة في مراتب الكمال ويحدث لها حينئذ تنافس وتنازع في أنواع أخرى من مزايا الانسانية الحقة أعلى وأسمى مما تتنافس فيه الآن .

وبالجملة فان من شأن هذه الغريزة أن ترتقي بالانسان الى أسمى

ما استعد له ، وتصعد به الى مستوى المدنية الصحيحة وتوفر له أسباب السعادة . ولكن المطامع الذاتية حرمت أمما كثيرة من الفوز بهـذه النعمـة العظمى والهداية الربانية ، وحالت بينها وبين الاستفادة من آثارها واجتناء ثمراتها ، واهتدى بها آخرون ففازوا بمعنى الحيـاة الحقيقية واستخدموا قواعد العلم والمدنية وذهبوا بثمرات هذا الوجود وقبضوا على أزمة القوة واستأثروا بمنابع الثروة وأصبح أولئك عالة عليهم بجميع مرافق حياتهم ، وليس ببعيد على رحمة الله وعنايته أن ينهض بقومنا الى ما هو أليق بهم وأشبه بدينهم وبتاريخ أسلافهم من احسان تصريف ما غرز في طباعهم وأن يبصرهم بعاقبة مصيرهم فيهيئوا لها من حسن أعمالهم ما يكون فيه نجاحهم وسلامتهم ، فقد أوشكت غير الدهر أن تمزق شملهم وتذهب بجملة مقوماتهم . وأمامهم الآن مسألة من أهم مسائل مستقبلهم وهي مسألة انتخاب نواب عنهم في مجلس الامة فعليهم أن يحسنوا الاختيار ويضعوا فيمن يرجون منه خدمة مصلحتهم القومية في حالهم واستقبالهم ، والله الهادي وبه الحول والقوة .

(س)

* * *

قوة الاجتماع (*)

لو تمثلت قوة الاجتماع في جوهر محسوس وتراءت في جسم محدود لكان لها سلطان على المشاعر يتضاءل عنده سلطان الرياح في هبوبها ، والنيران في اضطرامها ، والسيول في طغيانها وانحدارها ، ولكان تأثيرها على الحواس تأثير سائر القوى الطبيعية الهائلة المودعة في عجائب هذا الكون والظاهرة في عظمائه . ولتمثل لعين الرائي حينئذ كيف تأتي هذه القوة العجيبة على ما يقوم أمامها من العقاب ، وتستهين بما يعارضها من الصعاب . وكيف تصل الى الاماني البعيدة من الطريق القصد في الامد القريب ، وكيف تتحاماها صروف الدهر فتتراجع عن طريق نفوذها مشفقة من قوة بأسها ، وتتقدم اليها منقادة لامرها ، صاغرة أمام سلطانها .

ولكن الله تعالى أفرغ هذه القوة في قالب معنوي ، وألبسها لباسا روحيا فصرفها بما سلطها عليه تصريف الارواح بالاشباح ودبره بها تدبير العقول المجردة لهياكل الاجسام ، دون أن يجعل للحواس اليها سبيلا . فهي على عظم شأنها ونفوذ سلطانها لا تكاد تعرف الا من آثارها ولا تظهر إلا في أفاعيلها . ومن خواصها أنها انما تتجلى في المظاهر المجتمعة ، وتعمل عملها على أيدي الافراد المؤتلفة قلوبهم ،

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثانية ، العدد ٩٧ (١٦ شباط ١٩١٢) .

المتحدة مشاربهم وميولهم ، والمتجهة الى غرض واحد هممهم ومساعيهم وانك اذا فرقت بين هؤلاء الافراد بعامل من عوامل التفريق ، ثم وازنت بين مجموع ما يتجلى في كل واحد منهم من هذه القوة متفرقين ، بمـا لديهم منها مجتمعين ، هالتك مسافة البعد بين القوتين وجزمت بأن قوة الاجتماع ليست عبارة عن مجموع القدر الموجودة في أفراده بل هي نتيجة المزاج المتكون من اجتماعهم وائتلافهم على مبدأ واحد ، ثم توجه ارادتهم اليه وتعويلهم في شأن من الشؤون الهامة عليـه •

وليس من السهل أن نقف هنا على كل العناصر المكونـة لهـذا المزاج الذي تتولد عنه هـذه القوة ، ولا أن نعين أسباب حدوثها ونشوئها ثم تطورها في ظهور آثارها المختلفة باختلاف الامم والبيئات ونتائجها الجارية على حسب منابتها في الشعوب والجماعات •

فان منها ما يتولد بالشعور المحض ، ومنها ما يوجد بتأثر خاص تتفق له أسبابه في صور غـير مطردة وعلى قواعد ليست بثابتة • أضف الى ذلك أن التقاليد الموروثة للاجتماع ، والعقائـد الشائعة فيه ، والافكار المنتشرة بين أهله دخلا عظيما في تكوين هذه القوة ، ثم تصريفها والتأثير بها • وذلك مما تختلف أنواعـه وتتعدد أشكاله اختلافا يصعب معه حصرها في دائرة شاملة لها ، أو ادخالها تحت عنوان كلـي • فقوة الاجتماع من هذا القبيل وان كانت تصدر عنها نتائج كبيرة الخطر عظيمة الاثـر في أحوال البشر ليست مما يقصد بالتعريف ، أو يحاط بالحد والتعيين ، وانما نلم هنـا ببيان القـوة المبينة على أسس ثابتة في نشوئها وتطورها بقطع النظر عن المؤثرات الخارجية التي تثيرها وتقضي بظهورها • وهي بهذا المعنى تكـون

محمودة الاثر دائما لابتنائها على قواعد العقل والحكمة العملية ، فهي قوة أخلاقية صرفة يصلح أن تسمى (القوة الحقيقية للاجتماع) ، وهي فيه بمثابة القوة الغضبية في الفرد . ولذلك كانت أكثر ما تظهر آثارها في المحافظة على الحوزة ، والمدافعة دون الحق اذا امتدت اليه الايدي الغاصبة . وهذه القوة تتكون من مجموع القوى الغضبية القائمة في الافراد وتنشأ للمزاج المتكون من اجتماعها واتجاه ارادتها الى مدافعة عن حق خاص تتوقف المصلحة على بقائه ثم تظل كامنة الى أن تعرض حاجة الى المدافعة عن حق أو المحافظة على محوز فعندها تظهر بروعة هائلة تشبه الشواظ في التهابه، والعباب في اضطرابه ، وتقوم دون الحق سدا منيعا يعجز الدهر صدعه ، ومدافعا باسلا يعز على الاحداث صده وردعه ، وهي بهذا المعنى موجودة وجودا مطردا في كل الاقوام والمجتمعات الحية لانها لا يمكن بقاؤها مصونة من عوادي الغير الا بها ، كما أنه لا يمكن بقاء الفرد في معترك الحياة دون أن يكون له من القوة الغضبية ما يدفع عنه .

ومن آفات هذه القوة بنوعيها أن يحدث في تركيبها شيء من عناصر التفريق ، فانها لاتلبث أن تنحل الربط وينشعب الصدع وتذهب بكل مالها من السلطان أدراج الرياح ، ولذا أرشدنا الكتاب العزيز في آيات كثيرة الى وجوب الاعتصام بحبل الله مجتمعين وعدم التفرق والبعد عن الاختلاف ان كان من شأنه أن يؤدي اليه ، والى تحامي هذه العناصر المفرقة والاحتراز من وجودها ، وعلمنا أن في وجودها في القوة المجتمعة خطرا يتهددها بالفشل فقال : (لو كانوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) .

فأعظم ركن في توفر هذه القوة هو سلامتها من المفرقات واتفاق قوى الافراد وارادتهم الى قصد واحد تجتمع لاجله وتقصد بسعيها اليه ، مهما تعددت اليه سبلهم واختلفت مذاهبهم • وكأني بالقارىء الكريم وقد عرف من هذه الاشارة الموجزة منزلة هذه القوة من حياة المجتمعات ، وشعر بأنها في حاجة ماسة اليها اذ بها يحفظ بقاؤها ويكمل نظام حياتها ، ولولاها لما توفرت لامة سعادة ولما أمنت على ما لديها من نعمة • وعلم أن الله تعالى انما جعل البشر مظهرا لهذه القوة لينجز بها ما سبق في علمه من حفظ استقلال الامم ، وليميز بها بين الشعوب والاقوام باقدارهم على حماية حوزتهم والاحتفاظ بتقاليدهم ومقومات حياتهم ، وليتمكنوا بها من الاعمال العظيمة التي لا يتم لهم ما استعدوا له من الرقي الا بها • وذلك أن ما تقدم وما يشبهه مما يحتاجه البشر في اجتماعهم لا يتصور لهم استيفاؤه أو الحصول عليه الا بهذه القوة (قوة الاجتماع) • فقد شاهدنا أمما كثيرة قد عبث الدهر باستقلالها وذهب بمقومات حياتها بسبب وهن الرابطة بين أفرادها وفقد هذه القوة من بينها حتى أصبحت أثرا بعد عين ومثلا وعبرة للآخرين •

أجل ان قوة الاجتماع هي التي تحفظ بها الامم استقلالها وترتقي بها الى أوج العظمة ، وهي التي تتغلب على عوادي الطبيعة وتحرس البشر من آفاتها ، ثم هي التي يصل بها الانسان الى الغاية من الحياة الطيبة ويتقلب في بحبوحة السعادة • وحسبك أن تطيل التأمل قليلا في حوادث التاريخ وتنتظر الى الامم التي نهضت والممالك التي عظم شأنها وامتد سلطانها والى الشعوب التي ذهبت بثمرات هذا الوجود واستأثرت بمنافعه هل نالت شيئا من ذلك الا بمظاهرة هذه القوة

والاستعانة بهـا ؟ وهل رأيت مشروعا من المشاريع العظيمة التي أتت بالفوائـد الجليلة على هذا النوع الا وهو أثر من آثار تلك القـوة وحسنة من حسناتها ؟ ثم هل تجد فيما تتصفحه من حوادث هـذا الوجود قوما أو أمة انحلت عُقَد اجتماعها ووهت ربط المناسبة بين أفرادها وتقطعت الصلات الوطنية بين آحادها ثم هي ماشت غيرها من الاقوام والامم في طريق من طرق السعادة أو شاركتها في مرتبة من مراتب الارتقـاء ؟

يصل المجتمع الذي تتجلى فيه هذه القوة في الامد القريب الى مالا يصل اليه بدونها في الازمنة المتطاولة من مراتب السعادة ، ويتمتع من ثمرات هذه الحياة بمالا يتمتع بمثله المحرومون من فضل هـذه النعمة . وليس ذلك ببدع فقد عرفت مما قدمناه أنها أعظم أسس الحياة الحقيقية وأفضل مقومات الوجود الاجتماعي .

لست أدري كيف تعوز هذه القوة قوما من الاقوام وهم قد أصبح احساسهم بالحاجة اليها احساسا عاما لجميـع طبقاتهم ، وكيف لايزال الوهن والتفريق يعبث بعزائمهم ولهم في كل يوم قارعة من قوارع الدهر تدعوهم الى الانضمام ونبذ التنازع والخصام .

ان في طبيعة الامم والاقوام ميلاً الى البقاء وحبا للتقدم والارتقاء وشغفا في الرقي الى مراتب الكمال ، كما هو في الافراد كذلك ، فهل يحسب المتخاذلون أن ذلك يتوفر لهم بدون هذه القوة أم هم قـد انعكست عقولهم وفسدت ملكاتهم بحيث سلبوا هـذا الميل الفطري ونزعت من نفوسهم تلك الغريزة الطبيعية فعادوا وقد انفصمت روابطهم وانحلت عرى أوصالهم وتقطعت بهم أسباب الاجتماع حتى كأنهم ليس

لهم اليه حاجة وحتى طمعت بهم الامم واستوفزت لاجتياحهم صغار الهمم بله ذوي العزة والشمم ؟

ألا لا يحسبن المتخاذلون أن لهم من دون هذه القوة عاصما يعصم مصالحهم ويحفظ لهم مقوماتهم ومميزاتهم ، ولا يستهينون بقوة اجتماعهم مهما صغر خطره ومهما زاحمته الاجتماعات المنابذة مصالحها لمصالحه فان لقوة الاجتماع وخصوصا في المدافعة عن الحق صولةً لا تقاوم كما تقدم آنفا .

هذا ما عنَّ لنا بيانه في وصف قوة الاجتماع والتعريف بفوائدها والتذكير بآثارها . ذكرناه في هذا المقام تذكرةً للمتخاذلين من إخواننا العثمانيين عامة وقومنا منهم خاصة لعلهم يلتفتون الى ما حلَّ بهم والى ما سيلاقون من مزاحمة الامم والاقوام . ولعلهم يرجعون .

(س)

الرأي العام والانقلاب الأخير (*)

يعجب المتأمل في أحوال المملكة العثمانية والباحث في شؤونها وخواص شعوبها والقوى الكامنة في عناصرها اذ يراها قد استكانت لاستبداد الادارة الماضية زمنا ليس بالقليل وألقت بمقاليد أمورها لأناس انتهى بهم الحال أخيرا أن تلاعبوا بحقوقها تلاعبا لم يعد خافيا على البسطاء فضلا عن العقلاء فقادوها الى مطارح هلاكها وهم يزعمون لها أنهم يتنقلون بها في منازل رقيها ومراتب نجاحها ، وقيدوها بأغلال من القهر تحت ستار الحكم الدستوري وهي بظاهر حالها كأنها غير شاعرة بقوة الضغط وشدة الاستخفاف بها وبحقوقها .

ثم يأخذ منه العجب مأخذه اذا رأى هذه الامة نفسها قد نشطت لاسترداد مالها من الحق ونهضت نهضة الضواري فكسرت تلك القيود والاغلال التي شدتها القوة الى أعناقها ، وأول ما يتبادر للمتأمل أن بين هاتين الحالتين تناقضاً بيناً لا يمكن معه تأليف أمة كانت بالامس تدعى الى فلاحها فلا تجيب ، وتبصر بعظم الخطب فلا يدور لها بصر ولا يخفق لها قلب ، وتنذر بسوء الحال وخطر الاستقبال فلا تنبس ببنت شفة ولا تبدر منها ثائرة غضب ولا تذكي لها جمرة من حمية ، حتى كأنها فقدت قوة الاحساس وحرمت من نعمة الشعور ، ثم هي تنهض اليوم فتثل عرش الاستبداد وتقوض دعائم تلك القوة التي كانت سائر قوى الدولة

---

* (الحضارة) ، السنة الثالثة ، العدد ١٣٠ (٣ تشرين الاول ١٩١٢) .

مسخرة لها وخادمة لآمالها ومنقادة لأمرها ونهيها ، ولكن الناظر اذا أمعن في أسباب هذا الانقلاب ومبادىء ظهوره والتفت الى العوامل التي تنقاد اليها الامم في أحوال اجتماعها علم أن صبر هذه الامة على الضيم كلّ هذه المدة واقامتها على الخسف لم يكن لضعف في شعورها ولا لغفلة عما يريد القابضون على الامر بها وانما هو فقدان الرأي العام الذي يصل بين قلوب أفرادها ويتوجه بجملة ميولهم الى مصلحتها ، وان نهضتها الاخيرة لم تنشأ عن حدوث قوة جديدة لها أو المام بعلم لم تكن تعلمه من قبل وانما هو تكوّن الرأي العام وابتداء ظهوره وتجليه على سكان هذه المملكة .

ظهور الآراء العامة في الامم من آيات حياتها ، وتأثير تلك الآراء في أطوارها الاجتماعية وادارتها السياسية من أعظم البراهين على بلوغها مبلغ الرشد من سني هذه الحياة ، ويوشك للأمة التي لم يتكون فيها رأي عام أن لا تحسب في عداد الامم اذ لا يتم معنى الوجود الاجتماعي الا بما يحدثه هذا الرأي من الآثار ، ولقد تحدث في كثير من الامم أحداث من الانقلابات الاجتماعية أو الادارية ولكنها لا تكون معلولة لذلك الرأي ولا ناشئة عنه فلا تلبث ان تنقضي بانقضاء سببها الخاص ، وكل الاسباب التي تحدث من هذا القبيل لا تكون ثابتة بالطبع بل هي تابعة لحكم التغير والحدوث كدأب سائر الاسباب الخاصة والكوائن المنفردة . اعتبر ذلك بما وقع للعثمانيين في انقلابهم الاول يوم دمروا هيكل الاستبداد الذي تعب في بنائه الخاقان السابق مدة ثلاثين سنة ، فانه لم يلبث أن قام على انقاضه هيكل آخر أولع الناس بعبادته والتقرب اليه وأولع هو بتسخيرهم وقهرهم واذلالهم على نحو ما أولع به ذاك ولكن بشكل آخر ، وما ذلك الا لأن الرأي العام الذي يقوم على محافظة

الحق في الامم والشعوب لم يكن قد تكوّن لذلك العهد ولا تمت أسباب نشوئـه •

ليس تكوين الرأي العام مما يقع تحت مقدور الافراد ولا مما يمكن ايجاده بتأثير الخطب والمواعظ ، وانما هو نتيجة علوم تحصل في عقول الشعب مما يتوارد على حواسها ومداركها من جزئيات الحوادث ومما تشاهده من آثار الاعمال المتكررة ، فاذا كثرت تلك الحوادث وتكررت جزئياتها بحيث عمّ الشعور بها سائر أفراد شعب أو معظمهم حصلت عندهم تلك العلوم ، والعلم نسب بين أهله وصلة شابكة تربط بعضهم الى بعض ، ومن طبيعته اذا تمكن من النفس أن يرعج صاحبه الى العمل بما يلهمه ويهدي اليه ، فاذا اشترك أفراد شعب في علم حقيقـة من الحقائق وخصوصا مما يتعلق بحوائجهم ومرافقهم الاجتماعية كان ذلك رأياً عاما لهم يمضون في أعمالهم على رسمه وينزلـون في همـومهم وعزائمهم على حكمه ، وهكذا كان الشأن في الانقلاب الاخير •

كثرت سيئات الادارة السابقة وتعددت مصادرها وظهرت آثارها حتى لم يعد في الامكان سترها بضروب التفسير والتأويل ولا بنـوع من أنواع الايهام والتضليل ، فأصبح الشعور بها عاما والعلم بمضارها ثابتا متمكنا في النفوس ، ونشأ عن ذلك الرأي العام الذي مرت الاشارة الى بيانه ذلك الكائن المعنوي الحي الذي يسطو بقوته على قوى الجيوش الجرارة والاموال الوفيرة ، ويبدد قوة المأمورين بما لهم من السلطة على قلوب الشعب ، ويبطل حيل المتزلفين الذين يبالغون في إطراء الباطل ايثارا للمنافع الخاصة ، والذي يدلك على تكوّن هذا الرأي في الامة العثمانية واستقراره في قلوب شعوبها شواهد كثيرة أظهرها أن هذا

الانقلاب انما تمّ على يد الشعب نفسه ، وأن الجيش كان مؤيدا له فيه ومساعدا عليه ، وأن الانقلاب الاول تم على يد الجيش وكانت مظاهرة الشعب له مظاهرة استحسان ورضى لا مظاهرة جهد وبلاء ، والواقف على طبيعة الاجتماع وغرائز البشر يعلم أن الفرق بين المنزلتين بعيد جدا كبعد ما بين الحياة والموت وكالفرق بين الحركة بالذات والحركة بالغير .

هذا الرأي العام هو الذي أيقظ الارناؤوط الى المطالبة بحقوقهم ، ودفع بهم الى الاحتشاد ، ولجأ بهم الى استعمال السلاح في وجوه الغاصبين . وعندي أنه لو لم يوقظ هؤلاء لأيقظ غيرهم من عناصر هذه الأمة ولو بعد حين ، وانما سبق هؤلاء لمكان قربهم من أوروبا التي عظم شعورها بالرأي العام وتمرنت منذ زمن بعيد على تحكيمه في أمور الادارة والسياسة والرجوع اليه حتى في حل المشاكل العظيمة وتنفيذ العهود والمواثيق الدولية .

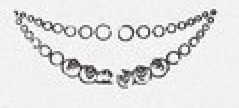
الرأي العام هو الذي أزعج الجيش وأشعره بآلام الوطن وألفته الى البحث فيما تأتيه الفئة الغالبة من الفظائع ثم دفع به الى القيام ضد مقاصدها . الرأي العام هو الذي أطلق ألسنة الصحافة وأرهف أقلامها وفتح لها الى القلوب أبوابا نفذت منها أنوار الارشاد رغما عن الوسائل الكثيرة التي اتخذتها القوة لتحطيم تلك الأقلام وقطع هاتيك الألسنة .

الرأي العام هو الذي وقف بكثير ممن كانوا يستفيدون من تلك القوة فوائد مادية عن متابعة أوامرها التي لو نفذت لقضت القضاء الاخير على هذه المملكة .

الرأي العام هو الذي أوقف الامة بأسرها من وراء هؤلاء الناهضين

تصفق لهم سروراً بأعمالهم وشكرا لهممهم وتوسعهم تحبيذا واستحسانا . هذه بعض آثار الرأي العام وهو لأول عهد تكوّنه وظهوره فكيف به اذا ثبتت أصوله واستقرت قدمه ؟ لا جرم أننا سنتمتع منه اذ ذاك بمثل الفوائد التي يتمتع بها الغربيون ، ويكون هو الزعيم بحفظ الادارة المشروطة مما عساه يلم بها من الاخطار ، وعندنا أن هذا الرأي كما كان أهم العوامل وأكثرها تأثيرا في إحداث هذا الانقلاب ، فسيكون أول العوامل أيضا في أمر الانتخابات الحاضرة وما يليها من المسائل ، ولعل قومنا يكونون أسبق الاقوام الى هذه المنقبة فانهم لجديرون والله الموفق .

(س)



بوادر الحرب وأسباب نشوبها (*)

تجاوزت حكومات البلقان حدها في الطموح الى القسم المجاور لها من الممالك العثمانية والطمع في ضمه الى أملاكها الضيقة ، فأخذت منذ زمن بعيد تتوسل الى ذلك بوسائل دنيئة ، وتغمض العين عن عدوان أشقياء رعيتها على الحدود ، وعبثهم بالامن وارتكابهم الفظائع قتلا وتمثيلا فيمن تصل اليه يدهم من العثمانيين المسلمين ، حتى أصبحت تلك البلاد بما تلقيه من الفساد وبما تقترفه من العيث في الارض عباباً مضطربا بالفتن ، وشواظا ملتهبا بالحروب والغارات ، وحتى كاد يخيل للناظر أن هذه البلاد لا يمكن أن يسود فيها نظام ، ولا يرجى أن تنمو فيها بذور الاصلاح ، وانها بطبيعة أرضها تنبت الخطوب العظيمة ، وباستعداد سمائها تمطر المصائب الفادحة ، وكان من دأب هذه الحكومات كلما أحدثت من هذا القبيل حدثا أو أوقعت على العثمانيين جناية أن توجه وجهها نحو الدول العظمى وتجأر اليها بالشكوى من ظلم العثمانيين وعسفهم مشيرةً الى عجزهم عن ادارة البلاد وعدم استعدادهم للاصلاح، وهي في ما تأتيه من هذه الحركات الباغية تزعم نصرة الانسانية والغيرة على حقوق بني جلدتها من سكان ولايات الروم ايلي .

كل ذلك والحكومة العثمانية آخذة بالحزم والحكمة تدافع هذه الحوادث بصدر رحب ، وعزم متين وتتقلب في تلافي الاخطار على

---

* (الحضارة) ، السنة الثالثة ، العدد ١٣١ (١٠ تشرين الاول ١٩١٢)

ضروب من حسن الادارة تفاديا من اقتحام أهوال الحروب ، ومحافظةً على السلم العام ، ولتفرغ الى تطبيق الاصلاح اللازم في داخلية هذه الولايات وغيرها من الولايات العثمانية ، ولكن هذه الخطة السليمة لم تقف بمطامع هذه الحكومات ولا كشفت الستار عن تلك الخيالات التي تحلم بها ، بل تمادت في ارتكاب الجنايات وإثارة الفتن وتأليب العصاة وبثهم في طول البلاد وعرضها ثم عقدت بينها اتفاقا على مناوأة الدولة العلية وإرهاقها ، ثم اعلان الحرب عليها .

وانتهى الامر بها في المدة الاخيرة أن نهضت نهضة رجل واحد تذمر رجالها وتعد الذخائر والمهمات الحربية وتجهد في تعبئة الجنود على الحدود ، مائلة ماضغيها فخرا بقوتها ، مصرحة بالتهديد والوعيد ، وفي مقدمتهن حكومة البلغار تدل بانتظام جيوشها ، ووفرة عداتها ، منذرة الدولة العلية بويلات الحرب إن هي تأخرت عن إجابة مطالبها في ادخال الاصلاح على ولايات الروم ايلي ، وتطبيق اللائحة القانونية التي كانت وضعت بمعرفة هيئة مختلطة تنفيذا لمقتضى المادة الثالثة والعشرين من معاهدة برلين .

أثارت هذه المداخلات العدوانية نخوة العثمانيين ، وألهبت الحمية في رؤوسهم ، وأذكرتهم بماضي سطوتهم ، فوقفت الوزارة الحاضرة وقفة الأسد يدفع عن أشباله ، واستصرخت قواد الجيوش فحشرتها الى الحدود ، فجعلت تزحف اليها بقلوب طارت بها الحمية شوقا الى لقاء الاعداء وانقاذ الشرف العثماني من وصمة العار .

وعلا من ورائها ضجيج الشعب بطلب الحرب حتى غصت جوادُّ العاصمة وشوارعها بالجموع يموج بعضها في بعض حميةً وحماسة ،

وهي تنادي على اختلاف المذاهب والمشارب فليحيى الحرب ، فليحيى الحرب • وأخذت تتألف طوابير المتطوعين ، وتتوارد إعانات المتبرعين ، وتنعقد الاجتماعات الحماسية في جميع أنحاء المملكة مما يدل على أن الشعور بوجوب الحرب وكبح جماح هذه الحكومات الصغيرة التي أغرقت في العدوان وتجاوز الحد أصبح عاما ، وأن محافظة شرف الامة لم يعد ممكنا الا باتباع هذه الخطة •

على أن الوزارة بعد ما قضت ما عليها من الاستحضار التام والاهبة الكاملة لم تحد عن جادة الحكمة والحزم ، بل أخذت بالأحوط فابلغت الدول العظمى ميلها الى السلم ، واستلفتت نظرها الى ما تقوم به دول البلقان واليونان من التأهب الذي ليس له سبب معقول سوى تهديد السلم ، وقطع صلات الولاء ، وأبلغتها أيضا أنها تتذاكر في تطبيق القانون الموقت المنوه عنه آنفا ، وأنها إن جرت بأهالي تلك الولايات على مقتضى أحكامه فانما تفعل ذلك لاعتقادها أنه أنفع للبلاد وأدنى الى إسعادها •

غير أن هذه الحكومات الباغية لا يهمها الا أن تظفر بما تطمح اليه، ولذا لم تلتفت الى وعد الحكومة الوثيق بتطبيق الاصلاحات واجراء أحكام اللائحة القانونية الآنفة الذكر بل ظلت سادرة في غلوائها ، مشيحة في غوايتها ، حتى اذا كان اليوم السادس والعشرون من شهر شوال الحالي أعلنت حكومة الجبل الاسود الحرب رسميا وربما أعلنتها رفيقاتها كذلك في القريب العاجل •

جاء إعلان الحرب بعد ما مر من مقدماتها قرة لأعين العثمانيين ومسرة لنفوسهم ، فاستقبلوها بوجوه طافحة بشرا وقلوب مملوءة ثقة بالظفر وأفئدة فائضة شعورا بأن الصبر على ما تكيده تلك الحكومات ليس له معنى سوى الذل والهوان والاستكانة الى الضيم الذي لا يليق الصبر

عليه بأمة يحدثها ماضيها بمناقب أسلاف لها دوخوا الشعوب وفتحوا الممالك المنيعة وأرهبوا الدول العزيزة ، وأخضعوها لسلطانهم ، ويمدها حاضرها بمليون من الجنود المنظمة التي اعتادت خوض الغمرات ، وشهد لها العالم كله بحسن البلاء والصبر على أهوال الحروب . هذه مقدمات الحرب وأسبابها ، والمتأمل البصير يرى أن اقتحامها قد أصبح أمـرا ضروريا لصيانة شرف الدولة ووقاية منافعها ، وأن نفوس العثمانيين قد سئمت من غطرسة حكومة البلغار ورفيقاتها ، وأيقنت أن دفع مطامعها وعدوانها بالحرب هو أخف الضررين وأهون الشرين .

أصبحت الحرب ضرورية لأن ولايات الروم أيلي من أشد الولايات العثمانية حاجةً الى الاصلاح ، أو هي محتاجة في بقائها اليه ، وما دامت عقارب تلك الحكومات تدب في البلاد ويتسرب اليها فسادها فلا رجاء في ادخال الاصلاح المطلوب وتقرير قواعده ، فلذا كان من الواجب أولا ابطال كيد هذه الحكومات الغـادرة وقهرها بالقـوة على لزوم السكينة والانكماش بمساعيها العدوانية الى داخلية بلادها .

أصبحت الحرب ضرورية لأن المشاكل التي أحدثتها هذه الحكومات في ولاياتنا والجرأة على المداخلة في شؤوننا الداخلية إما أن تفصل بحد الحسام واما أن تحل بتوسط الدول العظمى ، فان كانت الاخرى وقبلنا توسط الدول العظمى كان ذلك اعترافا بحق مداخلة هذه الحكومات وهو حق لم تكن تحلم بنيله من قبل ولا يمكن أن يحتمله مثلنا لمثلها . على أنه لا يرجى أن تسكن بذلك ثائرتها وتنقطع شرورها فلم يبق هناك علاج سوى الارهاب والتأديب الذي يليق بأمثالها ، لمثل هذه الحال تنظم الجيوش وتدخر الاموال وفي مثلها تسترخص النفوس ذبًا عن بيضة الملك وذودا عن حياضه .

وعلى مثل هؤلاء الاعداء الطامعين ترسل قذائف المدافع ويصب سوط العذاب وتظهر آثار السطوة والقوة ، نعم يجب اظهار القوة في وجوه الاجانب ، وصرف الاموال وبذل النفوس في الحروب الخارجية التي يكون الظفر فيها مبدأ لحياة جديدة تدخل بها الامة الظافرة في حوزة العز والمنعة وتتحرك بها نحو الرقي المادي والمعنوي ، أما تكلّف مثل ذلك في الحروب الداخلية التي كانت تثيرها الحكومة السابقة إظهارا لسطوتها ، واذلالاً لنفوس بعض الاقوام من رعيتها ، فلا يجنى سوى الخيبة والخسران وقطع صلات الاخاء بين أبناء الوطن الواحد . ولولا حرج موقف الدولة وأن نتائج الحروب لا يمكن أن تعرف من مقدماتها لقلنا ان المبادرة الى الحرب والسبق الى مبادهة هذه الحكومات بالسطوة العثمانية من أول الواجبات للمحافظة على الشرف الملي والمنافع الوطنية.

ومن أجل ما تقدم يحسب العقلاء بدأ حكومة الجبل الاسود بالعدوان وسبقها الى اعلان الحرب أثرا من آثار التوفيق الذي سيرافق الدولة العلية ومقدمةً من مقدمات ظفرها .

وكأن الله تعالى قد أراد تحقيق أماني هذه الامة وتصديق آمالها ، فان رحى الحرب لم تكد تدور دورتها الاولى حتى بشّرنا البرق بظفر الجنود العثمانية ودخولها في أراضي الجبل مسافة أربع ساعات في إثر الفلّ المنهزم من جنود الاعداء .

على أن الظفر المنتظر يجب أن لا يحول عزيمة الحكومة عن تطبيق اللائحة القانونية التي مرّ ذكرها ، ولا عن ادخال الاصلاحات التي تنوي ادخالها في ولايات الروم أيلي وغيرها من الولايات العثمانية ، فان موقف دول أوربا تجاهنا ونسبتنا السياسة اليها وحالة الزمن الحاضر لم تعد مساعدة على التردد والمخاتلة وخلف الوعد ، والادارة التي كانت

متبعة في الازمنة الغابرة والتي جرت عليها الحكومة السابقة أصبح تطبيقها في حكم المحال وأصبحت البلاد معها عرضة للزوال •

من الغرور الفاضح أن يقاس الزمن الماضي بهذا الزمن الحاضر الذي دخلت فيه عناصر الدولة في طور جديد من الرقي الاجتماعي والسياسي ونبغت فيهم الاميال القومية وتأثرت نفوسهم بالترقيات العلمية والصناعية وأصبح من الضروري ادارتهم بشكل يتفق مع شعورهم وينطبق على ما يعتقدونه من مصالح جماعاتهم ولا ينافي مصلحة الهيئة الاجتماعية العامة ، ولا يمكن لأمة أن تستقر على مستقر ثابت من النجاة أو تتمتع بثمرة من ثمرات الحياة في هذا العصر ما لم تقف على ما تحس به رعيتها من الحاجات الاجتماعية والادبية والادارية وتتوسل الى سدها بالوسائل الممكنة ، فانها إن قدرت على ذلك ولم تفعله لا تلبث تلك الحاجات أن تلح بأصحابها فتنهض بهم الى قضائها وهو مالا يتم معه نظام ولا يجتمع به شمل •

والرجاء بحكمة الحكومة الحاضرة وبما ظهر من بوادر سعيها في خدمة الوطن العثماني أن توفق من ذلك الى ما فيه صلاح الحال ونجاح الاستقبال ان شاء الله تعالى •

(س)

* * *

الحرب والموازنة الدولية (*)

أوجست الدول الاوربية خيفة مما عساه ينتج عن الحرب العثمانية البلقانية من النتائج الوخيمة ، وارتاعت لما يحتمل أن تنتهي اليه الحال في السياسة العامة ، وأخذت وزارات تلك الدول تتقلب في التدبير ، وتبالغ في التحذير ، وترجع كل واحدة منهن الى نفسها تسائلها عن الموقف الذي يجب أن تقف عنده تجاه هذه الحرب وعن الوسائل التي ينبغي أن تتوسل بها لحفظ مصالحها ووقاية حقوقها مما يتوقع طرؤه اذا تغيرت الحال الحاضرة في البلقان وتبدل شكل ما لبعضهن هناك من النفوذ والسلطان .

وقد أخذت المطامع تخيل لبعض تلك الدول أن الوقت قد حان لبلوغ مالها من الاماني والآمال في تلك الجهات فتحول بينها وبين النظر في عواقب الحرب ، وتتربص بها عن السعي في تلافي أمرها ، وتوقي شرها ، وتعطف ببصرها تارة أخرى الى ما هناك من تزاحم المطامع ، وضيق المضطرب ، فتجد أمامها أهوالا لا يتيسر اقتحامها ، وعقابا يصعب تذليلها ، وطريقا الى الامل ربما ينتهي بحرب عامة تتقطع فيها الاوصال ، وتقصر دونها الآجال ، فهذه الفئة من الدول تتردد بين عامل الطمع ، وعامل الجزع ؛ تتمثل لها هذه الحرب أحيانا فرصة

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٣٤ (٣٠ تشرين الاول) ١٩١٢ .

سانحة للاستيلاء على الغاية التي تسعى اليها فتميل الى إثارتها وإضرامها أو تركها وانتظار مصيرها على الاقل • وتتمثل لها أحيانا نارا مشتعلة لا تلبث أن يمتد لظاها الى ما حولها فتندفع مرتاعة الى السعي في استئصال شأفتها ، وحسم مادتها •

ومهما يكن من أمر هذه الدول فان مما لا ريب فيه أن هذه الحرب لم تكد تنشب بين الفريقين حتى أصبح السلم العام مهددا وحتى لجأت حكومتا أوستريا وروسية الى القوة العسكرية فجعلت كل واحدة منهما تحشد جيشها على الحدود خشية ان تعدو عليها الاخرى قبل أن تعد لها عدتها ، وتأخذ للحرب أهبتها • ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان صحافة الانكليز وفرنسا أخذت تتناقش وتتنافس وظهرت آثار العنف والمشاكسة بين صحافتي ألمانيا وأستريا أيضا ، ولا غرو فان تغير الحالة الحاضرة في البلقان يحدث لهذه الدول منازعة جديدة وينزع ببعضهن الى مطامع يتعذر الاتفاق عليها ، ويخشى لذلك أن تختل بها الموازنة الدولية الحاضرة التي هي ولا ريب الضمان الوحيد للسلم العام ، ومن تلك المطامع مسألة مضيق الدردنيل واخلاء السبيل بينه وبين البحر الاسود لروسية ، ومسألة ولاية سلانيك وتركها لاوستريا على أن استيلاء كل من هاتين الدولتين على غايتها من ذلك لا يسهل على الاخرى ولا يروق في عينها فضلا عن سائر الدول اللائي لاينتظر لهن حظ من هذه القسمة سوى أن تبقى مصالحهن الكثيرة وحقوقهن المكتسبة في البحر الابيض عرضة للزوال، وسلطتهن في أملاكهن الواسعة مهددة بالضعف والاضمحلال •

الدول الاوربية على فرط تنافسها وحرص كل واحدة منها على

أن تنفرد دون الاخرى بالمنافع وعلى ما بينها لاجل ذلك من الاحقاد والاحن وخصوصا ما بين ألمانيا وانكلترة تعلم جد العلم أن بقاء جمعها وضمان سلامته انما هو في كل واحدة منهن ضمن دائرتها التي رسمتها لها أحكام الموازنة بحيث أن اختلال هذا النظام في احداهن يحدث في أنظمة الجميع اختلالا ربما أدى الى خراب شامل يجعل هذا البناء العظيم الذي شادته المدنية قاعا صفصفا ويحول تلك الجنِاب التي أنشأتها الحضارة الى جحيم يتقد سعيرها ويتردى فيها مثيرها ، فهي من هذا القبيل كالنظام الشمسي يتوقف بقاء مجموعه على بقاء كل واحد من الكواكب وانتظام سيره ودورانه في فلكه الخاص به بحيث اذا اختل نظام واحد منها انتثرت تلك الكواكب وتداعى ذلك البنيان المشيد وقضي على هذا العالم بالخراب والفناء .

من أجل ذلك تبودلت المخابرات بين الدول العظمى منذ ظهور هذه الحرب في مجموع المسائل التي تتزاحم عليها الاطماع ، وجعلت كل واحدة منهن تظهر أن لا مطمع لها فيما يتوقع أن تطمح اليه تسكينا لروع الاخرى ودفعا للتهمة عن نفسها تجاه رقيباتها أو حليفاتها .

كل ذلك رغما عن وثائق العهود وروابط المحالفة ، على حين أنه لم يحدث أدنى تغير في حالة البلقان فكيف اذا حدث هذا التغير فأثار المطامع الكامنة ، وحرك الاماني الساكنة ، ووهنت من أجل ذلك روابط الصلات بين تلك الممالك التي شرقت بالمدمرات الحربية ، وملأ الحرص قلوبها حمية وعصبية . لا ريب أن النفوس تتبع اذ ذاك نزواتها ، وتركب غواياتها فتقع هنالك الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، أو قاطعة مانعة . وهذا الذي تهلع له أوربا وتبذل

جهد وسعها دون وقوعه ومن أجلـه كانت بادرت فأعلنت لحكومات البلقان قبل نشوب الحرب تنصح لها بلزوم السكنية ، وتنذرها بسوء المغبة ، وتصرح لها أن الحرب مهما كانت نتيجتها لا يمكن أن تغير شيئا من وضعية الاقطار البلقانية ولا تبدل شأنا من شؤونها الحاضرة ، ولكن يظهر أن تلك الحكومات لم تحفل بهذه الانذارات اعتمادا علـى ما بينها وبين المنذرين من روابط الدين وأواصر الجنسية في الجملـة ولو جزمت بنفوذ هذه الانذارات لما رأت فائدة في الاقدام على الحرب والتقحم في غمراتها .

على أنه يظهر ان الدول العظمى لم تكن صادقة اللهجة في انذارها لحكومات البلقـان فانها لو كانت كذلك لما وسـع تلك الحكومات مخالفتها ، وذلك أن بينهن من يطمح الى مطامع قديمة في تلك الاقطار وينتظر من وراء هذه الحرب سنوح فرصة مناسبة لبلوغها ، وبديهي أن هذا الفريق لا يرجى منه أن يخلص النصح لتلك الحكومات ولا أن يسعى سعيا جديا في اطفاء جمرة الحرب بل المتبادر أنـه نظـر الى المسألة من الجهة المأمولة وغفل بعامل الاثرة عن النظر في الجهـة المرهوبة فألقى لهاته الحكومات الثملـة بخمرة الامل قولا مضطربا ليس من شأنـه أن يؤثر التأثير المطلوب .

وهناك من هذه الدول من لا شأن له في تلك الاقطار ولا صلة تصله بها ، فهذه انما يهمها بقاء الحالة الحاضرة وتنظر الى المسألة من ناحية الخوف والحذر نظر الناقد البصير الذي لا يجوز به عن جادة الصواب أمل يطبيه ، أو طمع يستهويه ، فهذه ترى أن تمادي الحرب لا بـد

أن يفضي الى اتساع دائرتها وسريانها الى الدول الاخرى ولا سيما بعد أن امتنعت أوستريا وروسية عن اعلان حيادهما مما يدل على أن لهمـا هناك آرابا ، على أن أرب احداهما ينافي ولا شك أرب الاخرى، فلا جرم يكون ذلك سببا لنشوب الحرب بينهما .

وعند ذلك لا يسع انكلترة وفرنسة الاعراض عن نجدة روسيـة كما لا يسع ألمـانيا وايطاليا ترك أوستريا وشأنها ، وعندها تضطرم بين هؤلاء حرب لا تقتصر ويلاتها على مضرميها بل تشمل مصائبها أوربا بجملتها . وقـد أدركت الدول العظمى هذه الحقيقة بعد أن جدت الحرب العثمانية البلقانية ، فشرعت دوائرها السياسية تشتغل في وضع حد لها قبل أن يستفحل أمرها ، ودار في الاندية السياسية وعلى ألسنة كثير من المفكرين الاوربيين أنه ليس من السهل المحافظة على الحالة في مكدونيا اذا كتب لحكومات البلقان الفوز على الدولة العلية لا سمح الله ، كما أنـه ليس من السهل أن يبقى للدول ذات العلاقة في تلك القطعة نفوذها الاول اذا كتب الظفر للدولة العلية ، نعم ان الدولة لا طمع لها في بسطة الملك في تلك الاقطار ولكن نفوذها بالظفر المنتظر ولا سيما اذا دخلت الاصلاح المنوي على ولايات الروم أيلي سيكون غالبا على كل نفوذ سواه ، وهو مالا يتفق مـع آمال تلك الدول ولا يناسب غاياتها ، فلم يبق الا أن يبادرن الحرب بحسم مادتها قبل أن تفضي الى احدى النتيجتين ، ولذلك أخذت تجدّ متفقة على المداخلة في أمر الصلح وفي مقدمتها فرنسا وهي تنتظر في ذلك الملحمة الكبرى التي يتوقع نشوبها بين العثمانيين والبلغاريين في هذه الايام .

ولم يبق للدولة الا أن تبادر هذه المداخلة بالجد في محاربة الاعداء

والسرعة في مناجزتهم كيلا تخرج المذاكرات الصلحية الى حيز الفعل حتى تكون الدولة قد استولت على الغايـة التي ترجوها في هؤلاء الاعـداء واكتسحت بلادهم أو على الاقل حتى تكون قـد ظفرت بهم ظفرا بينا يكون لـه شأن في مذاكرات الصلح .

على أن الجيش العثماني قد تم الآن نظامه واكتملت معداته وتوفرت أسباب ظفره بإذن الله وأصبح متحفزا للهجوم بعد أن أدى ما عليـه من الدفاع أداء كسر شرة العدو الباغي وكفكف من غلوائه ، هذا وهو في موقف الدفاع فكيف به اذا سلك خطة الهجوم واتسعت لليوثه سبل الوثوب ثم جعلت تعرض أمام أعينها الفرائس البلقانية ارسالا ، وتفر من بين أيديها عجالا .

لا جرم أنه سيمدها بنصره وتأييده ، تصديقا لوعده وتحقيقـا لوعيده ، وما النصر الا من عنـد الله .

(س)

تأثير القوّة (*)

لم تزل آثار القوة تظهر في ميول الناس وارادتهم ، وتتصرف في هممهم وعزائمهم ، وينفذ سلطانها على أرجحهم عقلا ، وأوفرهم حكمة ، وأبعدهم في درك الامور نظرا ، ومن غريب شأنها أن تأثيرها لا ينحصر في من ضعف عن مقاواتها فقط بل يتعدى الى أعظم الناس قوة وأوسعهم حولا حتى يجري حكمه في أعمال الدول الكبيرة وتصاريف السياسة العامة ، فلقد شهدنا في هذه الحرب الحاضرة أن القوة حينما ظهرت في أصغر مظاهرها خطرا ونبعت من أقل منابعها مددا أثرت حتى على أكبر الدول الاوربية قوة ، وأعظمها بطشا ، وتلاعبت بعقول أكثر ساسة العالم دهاء ، حتى حملتهم على نقض ما أبرموه ، وابطال ما قرروه ، ولجأت بهم الى تأويل ما كانوا أبلغوه لحكومات البلقان جهارا ، وصرحوا به على رؤوس الأشهاد علانية .

يعلم القراء الكرام أن الدول العظمى كانت أعلنت لحكومات البلقان قبل نشوب الحرب أن هذه الحرب مهما كانت نتيجتها لا يمكن أن تحدث تأثيرا ما في حالة البلقان ولا تغير شيئا من شكله الحاضر ، وأنهن تضافرن على هذا البلاغ متفقات فيه ، مجتمعات عليه ، ولكن لم تكد تصيب الحكومات البلقانية شيئا من الفوز في بعض المواقع حتى أنشأت تلك الدول تفكر في مخلص لها من هذا العهد الوثيق

* جريدة (الحضارة) : السنة الثالثة ، العدد ١٣٥ (٧ تشرين الثاني ١٩١٢) .

فجعلت تضطرب لهجاتها في تأويل هذا القول ، وتتناقض أساليبها في معالجة تفسيره ، وما زالت كلما سمعت خبراً عن انتصار الحكومات البلقانية وتقدمها في الاراضي العثمانية تزداد ميلا الى التأويل ، وتشتد مبالغة في الايهام والتضليل .

ومن غريب ما ذهبن اليه في تأويل ما قرنه من المحافظة على الحالة الحاضرة والوقوف دون تبسط حكومات البلقان في الملك هناك أن قيدوا ذلك بما اذا كان يخل بمصالح الدول العظمى أو يعدو على حقوقهن ، وأن حكومات البلقان ان تنكبت في هذا جادة العدوان فليس لاحد أن يمنع ظافرا من غنيمته ، وليس لهذا الانحراف سبب سوى ظهور هذه الحكومات بقوة الغلبة وسطوة الظفر .

ولقد سبقت جرائدهن فمهدت الى هذا التأويل ، وهيأت لقبوله موضعا في عقول الكافة ومداركهم ، فجعلت تنشر المقالات الضافية تنحى بها على من يريد أن يحول دون استفادة الحكومات البلقانية من الاراضي التي دخلتها عنوة حتى استملن اليهن الرأي العام في أوربا وخصوصا في روسية ، على أن أول ناطق بهذا انما هي الجرائد الروسية وأول متأثر به هو الشعب الروسي ، وما زالت الآراء تجوب ميادين البحث متموّرة بين تحريك العواطف الدينية ، وإثارة النعرة الجنسية ، حتى عدلت الدول العظمى عن تصريحها الاول في شأن المحافظة على حالة البلقان وقررت فيما بينها موافقة الحكومات البلقانية على التبسيط في الاراضي العثمانية على أن لا يخل ذلك بمصالح الدول العظمى هناك وعلى أن تكون بمثابة حكم يرجع اليه في النظر في دعوى كل واحدة من حكومات البلقان وتخصيصها من تلك الاراضي بالجزء الذي تمس حاجتها اليه .

اتفقت الدول العظمى على ذلك وان كانت مختلفــة في المقاصد والآمــال ومتناقضة في المصالح والاميال ، وبقيت أوستريا وحليفتها ألمانيا مترددة في قبوله لان للاولى أملا في أخذ ما تطمع اليه هناك حين القسمــة .

أما أركان الائتلاف المثلث فقد صرح رجال سياستهم بالارتياح الى هذا الاتفاق ، واقترحت جريدة (الديبا) لسان حال الحكومة الفرنسية زيادة على ذلك أن لا يكون لاحدى الدول العظمى نصيب في شيء من أراضي البلقان .

والواقف على سياسة الاتفــاق المثلث والائتلاف المثلث ومناحي أفكار الفريقين وغاية كل منهما خصوصا فيما يتعلق بأوربة العثمانية يجزم لاول وهلــة أن هذا الاقتراح لا يروق في نظر الاتفاق المثلث ، ولا يتفق مع مصلحته ، وأن نفوذه بالفعل يقضي على آماله قضــاء أخيراً ، وخصوصا حكومة أوستريا التي تقضي مصالحها الاقتصادية والسياسية أن يكون لها نصيب وافر من الاراضي البلقانية .

ومن المعلوم أن لاركان الائتلاف المثلث سعيا مؤثرا في ايجــاد الاتحــاد البلقاني ، وأن روسية عالجت ما بين حكومات البلقان من الأحن زمانا طويلا حتى ألفت بينها ومهدت لها سبل الاتحاد ، وانمــا عنيت بذلك لتقيم من هذا الاتحاد قوة مدافعة لمطامــع الجرمانيين ، وتتخذ منه سدا منيعا دون انحدارهم الى الجنوب خشيــة مزاحمتهم للعرق السلافي هناك وتغلبهم عليــه ، فاذا تأيد هذا الاتحاد بتوسع دائرة ملكه في تلك الانحاء كان ضربة قاضية على آمال الاتفاق المثلث ، ونازلة مجتاحة لمنافع أوستريا الاقتصادية .

ثم ان من آمال الاتفاق المثلث أن تتقدم الشعوب الجرمانية منه الى الشرق كما مرّ ، وأستريا تطمع أن تنحدر بطريق الأرناؤوط الى سلانيك فتستولي عليها وعلى مايليها ، وايطاليا تتوقع أن تسنح لها فرصة للاستيلاء على موقع مناسب لها على سواحل الأدرياتيك ، فاذا نالت حكومات البلقان أربها فيما تدعيه من تملك الاراضي هناك وقويت بذلك شكيمتها ، وتحقق ما تكيده روسية وحليفاتها ، انهدمت تلك الآمال التي يحلم بهـ الاتفاق المثلث ، وذهبت أماني أوستريا أدراج الرياح .

لاجل ذلك كلـه نرى من البعيد جد البعد أن يتم أمر هذا القرار الذي تريد الدول اتخاذه أساسا للمذاكرة ومدارا للمداخلة في حسم هذه الحرب وما يتبعها من المسائل ، لان اتفاق المثلث لا يمكن أن يوافق عليه ، على أن حكومات البلقان لم تكد تعرب عن دعواها ملكية الاراضي التي دخلتها حتى انبرت حكومة رومانيا لحكومة البلغار تكلفها ترك قسم من أملاكها له شأن من الجهة العسكرية تصحيحا للحدود بينهما ، وحتى أعلنت الصحافة النمسوية حاجة أوستريا الى توسيع أملاكها في البلقان محافظة على مصالحها الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، على حين أن المواضع التي تطمع أوستريا في الاستيلاء عليها هي التي تدعيها حكومات الاتحاد البلقاني ، ومن هنا تبدو وجوه الاشكال ، وتصبح المسألة أعقد من ذنب الضب ؛ والذي يزيد المسألة إشكالا أن الاتحاد البلقاني مصر كل الاصرار على مطالبه ، وحكومة أوستريا ستضطر الى المداخلة في الامر مداخلة فعلية ، ويشتد الخلاف بينها وبين الاتحاد البلقاني وخصوصا الصرب والجبل الاسود ، ومداخلتها على هذا النحو تستوجب ولا ريب مداخلة

روسيا ، ولا يبعد حينئذ أن تصطدم قوى الفريقين ، ويتبع هذا اشتعال نار الحرب بين هيئتي الدول العظمى مما يفضي الى المصائب الفادحة التي أشرنا اليها في العدد الماضي من هذه الجريدة، ومن كل ما تقدم يتبين للقارىء اللبيب أن هذه المشكلات انما تنتج عن طروء تغير في وضعية البلقان ، وأن الذي سيؤدي الى ذلك التغير هو ما ظهر الى الآن من ظفر الحكومات المتحدة ، وانقياد الرأي العام في أوربا لمطالبها ، ونحن لا نيأس من روح الله ولا نجزم بأن الظفر سيظل مرافقا للاعداء وان كان الجيش العثماني قد تراجع أمامهم الى الوراء حتى بلغ (جتالجه) حيث أقام هناك خط مدافعة ووقف يجمع نفسه ليهجم على العدو هجمة واحدة يكون له فيها موت شريف ، أو حياة عزيزة .

بل ثقتنا بالله تعالى وعجيب قدرته تحملنا على ترجيح الفوز له اذا صدق في الحملة ، واستمات في اماطة العار عن نفسه ، ودفع الاعداء عن وطنه ، فان النصر بيد الله وحده ، وهو قادر على تأييد عباده وتبصيرهم بمواضع القصور ، ونتائج الغرور ، والى الله ترجع الامور .

❋ ❋ ❋

تباشير الصلح (*)

علمت حكومات البلقان أن تمادي الحرب سيظهر عوارها ، ويكشف عن ضعفها ، ويتزحزح بها عن المنزلة التي ارتقت اليها بما اتفق لها من الفوز منذ أوائل الحرب الى أن وقف لها الجيش العثماني في (جتالجة) وقفته الاخيرة ، وأدركت أن الغاية التي استولت عليها الى الآن انما كانت بمعظم ما لديها من قوة وبأعز ما في جيشها من رجال وذخيرة وأداة ، وبأنفس مافي خزائنها من أموال ، وأن العثمانيين ينفقون عن سعة ويستمدون القوة من منابع لا يكاد ينتهي عددها ولا ينقطع مددها ، وأنهم لا يزالون يحشدون من الاقطار المختلفة كل يوم عسكرا جديدا يطير الى موقف القتال بحياة جديدة ، وحماسة شديدة ، ويستحضرون من أعظم معامل أوربا أحسن طراز من العدة يكملون به ما ينقصهم ، ويسدون به الثغور التي كانت منفذا لاستيلاء الاعداء على بلادهم .

ادركت جميع ذلك وشعرت بعظم الخطب ووهن القوة ولا سيما بعد الصدمة الشديدة التي لاقتها من مدافعة العثمانيين لها في الملحمة الاخيرة في جتالجه ، والتفت الى الوراء فاذا منابع قوتها في نضوب ، وهمم رجالها في خمود ، وعواصم بلادها في خمول وذهول ، من

---

* جريدة (الحضارة) السنة الثالثة ، العدد ١٣٧ (٢٨ تشرين الثاني ١٩١٢) .

توالي المصائب الثقيلة وفتك الامراض الوبيلة والنقص الفاحش في الاموال والانفس ، فثابت الى رشدها منصرفة عن الشروط التي كانت اقترحتها ورفضتها الحكومة العثمانية رفضا باتا ، وعادت منقادة الى المذاكرة في أمر الهدنـة على أن يكون ما تقدمه من الشروط والتكاليف أخف محملا وألين ملمسا وأدنى الى القبول سبيلا •

ومن يمعن النظر في القرار الذي رفضت به الحكومة العثمانية تلك الشروط اذ ذاك وأعلنت فيه لقوادها وجوب المثابرة على الحرب يعلم أن تلك الحكومات قـد وطنت النفس على العدول عن معظم ما كانت اقترحته من التكاليف الشاقة ، وأن موقف الدولة العثمانية الاخير ورغائب الدول العظمى الحقيقية وثورة الطمع في رؤوس بعض الدول ذات العلاقة في البلقان قـد أخذت السبيل على آمـال تلك الحكومات ونزلت بهـا عن غرورها فعدلت الى الطريق الاقوم في تلافي أمر الحرب واجتناب نتائجها الوخيمة •

فلقد جاء في ذلك القرار أن الحكومة العثمانية ترفض الشروط الموضوعة لمنافاتها للشرف العثماني وأنهـا مستعدة مع ذلك للدخول في المذاكرة ثانية اذا عادت تلك الحكومات فعدلت تلك الشروط تعديلا يمكن معه القبول ولا يخل بشرف الدولة وحيثيتها ، فعودتها الآن الى المذاكرة بالفعل دليل واضح على أنها أعدت لها شروطا يستقيم معهـا تقرير مقدمات الصلح وتأسيس قواعد السلام وهو ما يغتبط بـه الفريقان المتحاربان ويرتاح له محبو السلام في أوربـا •

ولا ريب أن الصلح خير من حيث هو ، وأنه مما تقتضيه منافـع الدولة العلية الآن ، ولكن ليست فائـدة الدولة ولا حاجة الدولة اليه أمس ، بل الذي يلوح لنا أن تلك الحكومات أشد احتياطا اليه في

الوقت الحاضر وأكثر استفادة منه وذلك أن الدولة العلية تعتبر مسألة بقائها في مكدونيا مسألة حيوية لها فهي ترجح أن تقوم على الحرب الى الابد على أن تخرج من تلك البلاد ، فاذا امتنع عليها الظفر بشروط تتفق مع شرفها كان الدوام على الحرب أمرا حتما ، وعندها يرجح أن تفقد الحكومات المتفقة نتائج مانالته من الظفر .

فان الخبيرين بالفنون الحربية من الواقفين على منابع قوة الطرفين وثروتهما كادت تجمع آراؤهم على ترجيح فوز الدولة العلية اذا طال أمد الحرب ، وهم قائلون بأن الحكومات المتفقة ليس في قوتها أن تقف أمام قوى الدولة مدة طويلة مهما كانت فائقة عليها في حسن العدة وجودة المهمات الحربية وفي النظام العسكري ، فاذا اضطرت الحكومات المتفقة الى مغادرة البلاد التي استولت عليها متراجعة الى حدود بلادها من وجه العثمانيين فقدت ما ظفرت به من ذلك بالكلية وخسرت المنزلة التي أحرزتها في انتصاراتها الاولى ، وهي نتيجة يبعد أن ترضى بها أو بما يفضي اليها ، على أنه لو فرض أن الدولة العثمانية رضخت لشروط هاته الحكومات ونزلت على حكمها في تسليم بلاد الأرناؤوط للصرب وسلانيك لليونان مثلا فهل يعقل أن ترضى بذلك ايتاليا وأستريا وفيهما عرق ينبض ، أم هل يعقل أن تصبر رومانيا على اكتساح الصقالبة البلاد التي يقطنها بنو جلدتها من الاولاخ، وهي تعلم أنهم ان فعلوا محوا آثار الأولاخيين وطمسوا أعلام قوميتهم وأتوا على مقومات حياتهم ؟ .

نعم ليس لهذه الدول الثلاث ولا لغيرها من ذوات المصالح في مكدونيا علاقة فعلية بالمحاربة ، ولكن ليس أمر الصلح مع ذلك منوطا بالطرفين المتحاربين فقط بل لا بد من ملاحظة رغائب الطرف الثالث

من الدول ذات الشأن هناك ، وهو أمر معهود في معاملات الامم والشعوب ومؤيد بقواعد حقوق الدول ، وقد علمت أن أوستريا واقفة دون استيلاء الصرب ولو على جزء يسير من بلاد الارناؤوط وأنها كاشفتها بالعداوة وآذنتها إن لم تنته عن الطموح الى ثغر من ثغـور الأدرياتيك بحرب ضروس غير حافلة بابراق روسيا وارعادها ، وأنها أبدت ناجذيها لليونان أيضا بسبب احتلالها لسلانيك ، وقد روت البرقيات اليوم أنها أنذرتها بوجوب الجلاء وهددتها بتجهيز جيش يحتل سلانيك ويخرجها منهـا بالقوة ، وأن المانيا وايتاليا ورومانيا لمظاهرات" لها في كل ذلك ، ولا يبعد إن أصرت حكومات البلقان على مطالبها ولم تعد سلانيك وبلاد الارناؤوط الى سلطة العثمانيين أن تنبسط سلطة الاتفاق المثلث على ذينك القطرين باحتلال أوستريا لهما ، وبديهي أن مجاورة حكـومات البلقان للدولة العلية هناك أضمن لمنافعها وأبقى على سلامتها من مجاورة احدى دول هذا الاتفاق الرهيب •

وابن اللبون إذا ما لزَّ في قَرَنٍ   لم يستطع صولةَ البُزْلِ القناعيس

فلا يبقى لحكومات البلقان اذ ذاك الا أن تراجع القوة وتتحاكم مع أوستريا الى السلاح ، ومن لهذه الحكومات الصغيرة بمقاواة أوستريا أو مناهضتها وهي قد طاولت روسية قوة ومنعة وسبقتها دربة في الفنون الحربية ونظاماً وفاقتها في هذه الايام الاخيرة جرأة وإقداما اذا حشدت لها الجيوش على الحدود ووقفت تلفظ عليها من أفواه ساستها جمراً من التهديد ، وترسل اليها من أقـلام كتابها سهاما من الوعيد ، ولا غرو فان أوستريا انما تحافظ على حقوق لها هناك يؤثر فقدها تأثيرا سيئا في حياتها الاقتصادية ووضعيتها السياسية ، فهي تدافع عنهـا دفاع

المستميت ويشاركها في معظم ذلك حليفتاها ايتاليا وألمانيا ومظاهرتها رومانيا .

أما دول الائتلاف المثلث فليست آمالها على غرار واحد في المسألة: فان فرنسا ليس لها علاقة ذات شأن في تلك الاقطار ولا يهمها من الامر الا أن ينحصر النفوذ الجرماني في دائرة محدودة ، وأما انكلترة فانه مهما ظهر من رغبتها في مظاهرة حكومات البلقان في توسيع ممالكها والتبسط في الاقطار التي استولت عليها فان حقيقة مصلحتها تقضي أن لا تنبسط سلطة الشعوب السلافية الى الشرق .

ليست خشية انكلترة من انحدار العنصر السلافي الى البحر الابيض (على كونها مؤتلفة مع دولته العظمى روسية) بأقل من خشيتها من انحدار العنصر الجرماني ، وليست آمال السلافيين أو (روسية) في البحر الابيض وبالتالي في مزاحمة انكلترة بأصغر من آمال الجرمانيين أو دولتهم العظيمة ألمانيا .

ومثل انكلترة وهي هي في الدهاء وبعد النظر لا ينسيها الائتلاف مع روسيا منافستها لها ومنازعتها إياها في النفوذ والسلطان ، ولا يذهب بها ذلك مذهب الغفلة عما عساها تلده الليالي وتأتي به عجائب الايام ، فهي ستأخذ بالحزم الذي امتازت به مهما قيل بتغير وضعيتها السياسية في الشرق وتفرغ المجهود في محافظة الحالة الحاضرة في البلقان ابقاء على مصالحها الكثيرة ولا نراها تتمادى في تأييد السلافيين أكثر من أن تحفظ لهم نفوذهم في البلقان الى درجة يقاومون بها نفوذ الجرمانيين ويصدونهم عن التقدم الى سواحل البحر المتوسط .

ومهما يكن من الامر فان المسألة ان لم يمكن حلها بين الطرفين

المتحاربين بتنازل الدول المتفقة عن مطالبها فلا بد أن تفضي الى احدى نتيجتين ، إما مداخلة احدى الدول العظمى ذات العلاقة هناك مداخلة فعلية بالقوة وهو ما يخشى معه من أن تنشب الحرب بين هيئتي الموازنة الدولية حيث يختل النظام الحاضر بتمامه وتنقلب الوضعية الجغرافية في أوربة رأسا على عقب وعندها لا يرجى لحكومات البلقان — إن سلم استقلالها من العدوان — أن تجد موضعا للمطامع التي تحلم بها الآن ·

وإما أن تتفق الدول العظمى على عقد مؤتمر عمومي لحل المسألة حلا سلميا مبنيا على التوفيق بين مصلحة الجميع ، وأنت تعلم مما قدمناه أنه لا يمكن ذلك التوفيق اذا نفذ شرط واحد من الشروط التي تطمع بها دول البلقان ، وأن أوستريا أو الاتفاق المثلث سيكون في ذلك المؤتمر سدا محكما دون خروج تلك الحكومات عن دائرة أملاكها ، وكذلك الحكومة العثمانية ورومانيا ، وقد مر بك أن مصلحة انكلترة الحقيقة قاضية بذلك أيضا فهي إن بقيت موافقة للروس في مظاهرة الحكومات المحاربة فستكون موافقتها مضطربة ضعيفة التأثير ·

فخير وسيلة للتوفيق بين المصالح المختلفة أن تبقى ، أوروبا العثمانية في سلطان الدولة العلية كما كانت من قبل ، وهي تمنح عناصرها وأقوامها امتيازات تحفظ لها استقلالها ومقوماتها وتطبق فيها الاصلاحات اللازمة بمعرفة الدول العظمى توفيقا لمنطوق معاهدة برلين ، وبذلك تنجو أوربا من الخطر الذي يهددها على تقدير نشوب الحرب بين أوستريا وروسيا واتصالها بحرب عامة بين هيئتي الموازنة ، وتبقى لحكومات البلقان منزلتها التي نالتها بفضل نظامها العسكري وكفاءة رجالها ·

ولقد باتت الدول العظمى بعد أن وصل العناد بين أوستريا وروسيا

الى ما وصل اليه تخشى أن تقضي الحال الى محاربة عمومية فلذلك جعلت تنظر الى المسألة باهتمام أشد ، وترى أن زمن المداخلة الفعليـة قد حان تفاديا من مصائب الحروب ، فقد نقلت البرقيات العمومية أن دول الاتفاق المثلث اتفقن على وجوب السعي في عقد مؤتمر عمومي لحل هذه المسألة وانهاء أمر الحرب ، وأنهن كلفن دول الائتلاف المثلث مشاركتهن في هذا السعي ، واذا لاحظنا مع ذلك أن الحكومة العثمانية أبلغت القائد العام أن يجعل أساس المذاكرات الصلحية انسحاب الحكومات المحاربة الى حدود بلادهن ندرك أنها تعتمد من الدول العظمى في ذلك على من تضطلع بمعونتها وتثق منهن بوعد ، وأنها وقفت على أميالهن الحقيقية وعلمت أنهن يظاهرنها في بقاء سلطتها على الروم أيلي لان التوفيق بين المصالح أصبح غير ممكن بغير هذا الوجه .

على انه لا يمكن الجزم الآن بما يكون من أمر الصلح حتى ترد الاخبار الصحيحة بمجرى المذاكرة وبماهية الشروط التي يدور عليها البحث ، وهي لم يرد منها ما يوثق بصحته الى ساعة صدور هذه الجريدة، ونرجو ان تكون النتيجة موافقة لرغائب العثمانيين ومنطبقة على مصالحهم على النحو الذي قدمناه والله على كل شيء قدير .

(س)

* * *

مذاكرات الصلح (*)

بدأت المذاكرات الصلحية بين مندوبي الدول العليـة وحكومات البلقان منذ أيام في مدينة لوندره ، فاتجهت نحوها الانظار وتطالت اليها الاعناق واشتغلت بخرص تتائجها المحافل السياسية والافكار العامة ليس عند الفريقين المتحاربين فقط بل عند الامم الاوربية عامة ، وقد جعل الواقفون على شؤون السياسة والعارفون بمناحي أفكار الامم يستشفون من وراء أقوال المندوبين وأوضاعهم رموزا خفية ويستخرجـون من اشاراتهم معاني دقيقة يسهبون في شرحها وبيانها ويمعنون في حـل معماها واستخراج مكنونها ، وهم بين ميال الى الحرب مولع باثبات كل ما يؤدي الى دوامها وبين متشائم بها شديد الفرق من تتائجها يود لو تحول الموانع دون عودتها وتصدف الصوادف بالفريقين عن اصطلائها .

وليس ما يظهره هؤلاء وأولئك من الاميال وما يرقبونه من الاماني الا مثالا لما عند الامم الاوربية من ذلك وترجمانا عما تضمره تلك الدول القابضة على صولجان النفوذ والمنقسمة بحسب منافعها المتخالفة ومصالحها المتناقضة الى قسمين عظيمين : قسم يرى مصلحته في حسم مادة الحرب واستئصال شأفتها ووقوف الحكومات البلقانية عند الحد الذي وصلت اليه ، وقسم يراها في عودة الحرب جذعة وامتداد أجلها الى أن تخضد شوكة الاتفاق البلقاني وتتسرب العناصر المحللة بين أعضائه وتتقلب بالخيبة الدول العاملة على حمايته وولائه .

---

* (الحضارة) ، السنة الثالثة ، العدد ١٤٠ (١٩ كانون الاول ١٩١٢) .

أما الدول التي أنشأت هذا الاتفاق وعنيت بتقويته وشد أزره ليكون لها عدة عند الشدائد وآلة مؤثرة في الوصول الى ما تطمح اليـه من المطامع فهي ولاشك عاملة على تقصير أمد الحرب وإقامة الموانع دون عودتها ضنا بهذا الاتفاق الذي صرفت زمنا في تكوينه ان يعتريه شيء من طوارىء الوهن أو يمنى بالتفرق والانحلال اذا استؤنفت الحرب وكانت الدائرة عليه وهو ما يرجحه الخبيرون أو يجزمون به بعد ان اجتمعت للجيش العثماني قوته وبعد أن تطلعت بين اليونان والبلغار رؤوس الفتنة وبدت طلائع الاختلاف .

ومن أجل ذلك أنشأت جرائد الائتلاف المثلث تكتب الفصول الطوال في وجوب اجتناب الحرب وتشير بلهجة شديدة الى الحكومات المحاربة بالتزام القصد في الطلب والى الدولة العثمانيـة بالانقياد الى قبـول الشروط .

وأما دول الاتفاق المثلث فهي شديدة الميل الى اخفاق هذه المذاكرة ، كثيرة السعي في جعلها عقيمة فهي لا تأتلي تثير حمية الدولة العليـة وتستوري زناد غضبها وتعدها بالمدد والمعونة لتشتد هذه في الاعراض عن قبول الشروط التي تقترحها الحكومات المحاربة وتعود معهن الى تحكيم السلاح فيتم لتلك الدول ما تريد من توهين الاتفاق البلقاني واضعاف قوته أو تهوين أمره على الاقل بحيث لا يعود يحدث نفسه بمغالبتها على ما يطمح اليه من امتلاك الاراضي التي يضر امتلاكها بتلك الدول وعلى ما يحاوله من النفوذ الى سواحل الادرياتيك .

على هذين الاساسين ستبنى المذاكرات الصلحية وعن هذين الرأيين المتناقضين سيصدر المندوبون فيما يأخذون به ويدعونه في مفاوضاتهم

وقد رأيت ما بينهما من المعارضة ، هذا الى ما يستشف من أقوال ساسة الفريقين من بعد المسافة بين رغائبهما واختلاف مرامي أنظارهما ، فلقد صرح الصدر الاعظم أنه لا يمكن أن يتنازل عن شيء من أدرنة ويانيا وسلانيك ولا يسمح قطعا بقسمة البلاد الارناؤوطية لتنفذ منها الصرب الى ساحل الادرياتيك ، وغاية ما يمكن التساهل به ترك قسم من الاراضي الخارجة عن دائرة هذه المواقع تصحيحا للحدود بين الفريقين المتحاربين، ولا ريب أن الصدر الاعظم يترجم في تصريحه هذا عما يضمره الرأي العام العثماني الذي يعلم أن تركه لواحد من هذه المواقع ولا سيما موقع أدرنه مقدمة لخروج الدولة العثمانية من القارة الاوربية وتعريض بالاستانة لهجوم دول البلقان متى شاءت ، والعثمانيون يعدون بقاءهم في أوروبا مسألة حيوية لهم لا يمكن ان يتساهلوا بها ما دام فيهم ذماء من قوة أو رمق من حياة .

هذا على حين أن الموسيو دانيف رئيس مندوبي البلغار قد صرح أيضا بأن الاتفاق البلقاني لا يمكن أن يأخذ طريق الصلح ما لم توافق الدولة العثمانية على تسليم أدرنه وتخلي طريق الادرياتيك للصرب ، وأنه لا يرضى قط بترك شيء من المواقع التي احتلها عنوة ، وبين هذين التصريحين من البعد والمناقضة مما لا يمكن معه تأليف الا بتنازل أحد الفريقين وانقياده لمطالب الآخر .

على أن تنازل الدولة العثمانية عن شيء من هذه المواقع لا يأتي بالفائدة المطلوبة ولا ينجي العالم الاروبي من ويلات هذه المشكلة المعضلة، اذ لو فرض أنها فعلت ذلك ميلا الى السلم وايثارا لحقن الدماء فان من المحقق أن أستريا تنبري اذ ذاك لحكومات البلقان فتحاربها على هذه

المواقع التي يؤثر استيلاء البلقانين عليها تأثيرا سيئا في مصلحة اوستريا الاقتصادية والسياسية ويخل اخلالا فاحشا بنفوذ دول الاتفاق المثلث . فلم يبق الا أن تسلك حكومات البلقان سبيل القصد في مطالبهن ويكتفين من شروط الصلح بما يسهل على الدولة العثمانية احتماله ولا يخل بمنافع أوستريا أو الاتفاق المثلث بجملته ، وهي لا يرجى أن تسلك هذا السبيل ما دامت روسيا من ورائها تغريها بالاصرار على مطالبها وتمدها بأنواع المعونات المادية رغما عما تتظاهر به من نصيحتها وحملها على الاعتدال وما دامت سائر دول الائتلاف مضطرة الى مظاهرة روسيا على ذلك ولو ظاهرا .

ولقد فطنت انكلترة من قبل الى حرج الموقف بسبب اختلاف منافع الدول العظمى على حل مسائل البلقان وتقرير قواعد الصلح بين حكوماتها والدولة العثمانية فاقترحت من أجل ذلك على الدول المشروع الـذي سمته مؤتمر السفراء ، وقد قبل اقتراحها واجتمع المؤتمر بالفعل على أن تكون وظيفته التأليف بين مصالح الدول وخصوصا منهن ذوات العلاقة في البلقان وتهيئة مواد للبحث يمكن الجمع معها بين تلك المصالح .

ولكن هذا التدبير على ما فيه من روح الحكمة لا نخاله يأتي بنتيجة مرضية فان المحور الذي تدور عليه السياسة الاوربية انما هو المنفعـة، ومثل هذا المؤتمر لا يمكن أن يغير شيئا من ماهية المنافع الراهنة ، ويبعد أن تؤثر المجادلات الادبية على القوة التي تشرأب كل واحدة من هذه الدول المتنافسة الى استعمالها ، وناهيك بمـا تقوم به أوستـريا من الاستعداد للحرب وبما صرح به رئيس الوزارة الالمانية من استعداد المانيا لمساعدة حليفتها أوستريا في أول حملة ، وبما تقوم به روسية كذلك

من هذا القبيل وإن لم تصرح واحـدة من حليفاتها بالاستعـداد الى مساعدتها بالفعل •

هذه هي الصورة التي تتجلى بها المذاكرات الصلحية اليوم وهـذه الحدود التي تحيط بمركز البحث ، ومن يمعن النظر فيها جيدا يظهر له أن دون تقرر الصلح عقابا صعبة المرتقى وأن المذاكرات الحاضرة ستسفر عن احدى نتائج ثلاث : اما أن يعود الفريقان الى الحرب فيحكم للفريق الظافر ، واما أن تتغلب سياسة الاتفاق المثلث فتتنازل حكومات البلقان عن أطماعها مكتفية بجزء يسير من مطالبها الكبيرة ، واما أن تنشب الحرب بين حكومات البلقان وأستريا وبالتالي بين منظومتي الـدول العظمى ، ولا ريب أن الدولة العلية تدخل حينئذ في عداد دول الاتفاق، ولهذا لا يجوز القول بانتهاء الحرب وانطفاء جذوتها بل لا يزال أمر المسألة غامضا ومستقبلها مظلما والجزم باحدى هذه النتائج أو ترجيحها قبل أن تعلم ماهية المذاكرات ضرب من التخرص والرجم بالغيب ، ونحن نسأل الله أن يمد دولتنا بمعونته ويختصها بعنايته فمنه النصر والمعونة وبه الحول والقوة •

(س)

❋ ❋ ❋

مقالات لا تحمل توقيعاً صريحاً

ويُرجّح أنها للمؤلف

نظرة في العواقب (*)

طرابلس الغرب وايطاليا

من له إلمام بأحوال الامم وتاريخ العالم يعلم علم اليقين أن البغي وخيم المرتع ووبيل المكرع ، ما انهمك به ذو سطوة الا ظفر بالخسران وآب بالحرمان ، ومن لم يتبصر بعواقب الامور يوشك أن تسد أمامه أبواب الرجاء ويغترب غارب الفشل والخذلان . ولقد هبت عاصفة الشر ولمعت بوارق الفتن من أنحاء روما ، فتيقظ الغافل ، وحلم الجاهل ، وثبت المتبصرون .

يظن الباغي – وبعض الظن إثم – أن امتلاك البلاد والفتك بالعباد سهل النوال لكل طامع ، عذب الموارد لكل جاشع ، هنيء المساغ ، ودون ذلك خرط القتاد وفقدان الشعور . ومن ذا الذي يصبر على الاذى ، ويغضي العيون على القذى ، ويتحمل الضيم ، ويسام خفض الجناح ، ويخضع للدنية والهوان ؟

قد يغتر الانسان بسطوته واقتداره ، ويساعده على ذلك ما يتراءى في خصمه من المسامحة ولين الجانب ، فتشره نفسه على انتهابه واغتياله، ولكنه لم يدر أنه اذا اشتد البأس واحمرت الاحداق وحمي الوطيس فلربما يقوى الضعيف ويضعف القوي ، شأن عواقب الغرور ، فيصبح

---

* (الحضارة) ، السنة الثانية ، العدد ٧٨ (٥ تشرين الاول ١٩١١) .

السالب المسلوب ، والناهب المنهوب ، والله يفعل ما يشاء • لو تبصرنا في الحروب المنتشبة بين الامم الراقية المتمدنة لوجدناها تصدر عن المنازعة في حق أو ما يشبه الحق ، لا عن ما ينتحل من الخيالات والاوهام •

كيف تزعم أمة أنها في الصف الاول من عالم المدنية وأعمالها بنهاية الهمجية وغاية التوحش ، تقول مالا تصنع ولسان الحال أنطق من لسان المقال •

لو تتبعت آراء الاقوام وصحف العالم وجدتها تقيم النكير على أعمال ايطاليا التي لم تنطبق على قاعدة من قواعد الحقوق الدولية ولا على أصل من أصول السياسة • إن الحكومة في الدور السابق منحتها بتواريخ شتى من المساعدات وأنواع الامتيازات في الممالك العثمانية لا سيما في طرابلس الغرب ما يضيق عنه نطاق البيان ويقصر عنه طمع الطامعين ، كل ذلك لم يرق في عين ايطاليا حتى تصدت لإهاجة الشرور، وإثارة الفتن ، وعدلت عن السلم للحرب ، وعن الائتلاف للطعن والضرب، ولربما يحيط بها سوء العاقبة وعلى الباغي تدور الدوائر • اذا دارت رحى الحرب فانما تطحن أعناق الرجال وهامات الابطال • ولقد علم القاصي والداني والصديق والحميم ما لدينا من قوة الجنان ، والاقدام في الملمات ، والصبر على الشدائد ، والثبات في أعظم المواقف •والعاقل البصير لا ينفك يذود عن حوضه ويذب عن ماله وعرضه ويحافظ على حماه من الوحوش الضارية والذئاب الكاسرة ويأبى ان يسام الخسف ويوضع على عنقه نير المذلة • وحينئذفطمع الطامع انما هو أمنية مخدوع• إن هذه الحرب ظاهرا بيننا وبين ايطاليا في طرابلس الغرب بيد أنه يخشى أن يفتق ما رتق وينصدع ما التأم فيمتد لهيبها في أطراف افريقيا ساريا

نحو عواصم أوربا وحينئذ تعظم الغـوائل وتصفر الانامل ويتعـذر الخلاص ، ولات حين مناص •

ان الحكومة لا يمكن أن تساعد ايطاليا على احتلال طرابلس الغرب البتة ، بل تبذل المجهود بما لديها من القوى للمدافعة عنها حق الدفاع ، على ان الاهالي يتفانون في الذب عن أوطانهم بنية خالصة وقلب سليم، ولديهم من البواتر القواطع والاسنة اللوامع ما يفتت الاكباد ويفتك في الاعضاد :

لوامع يبصر الأعمى سنـاهـا ويعمى دونهـا طرف البصير

إن طرابلس الغرب فيها من الاستحكامات والقلاع المدرعـة بأهم المدافع وأعظم القنابل ما تدافع الايطاليين وتطاردهم زمنا طويلا •

وايطاليا دخلت في الحرب فعلا قبل إعلانه رسما ، فقـد جهزت أسطولها نحو طرابلس الغرب والثغور العثمانية قبل ذلك بحين ، وفيه من المغايرة لقواعد الحرب وأصول السياسة مالا يخفى ، ولو فاتنـا تجهيز الجيوش على طرابلس الغرب لِتَعذر ذلك أو تعسره فينوب عنا بتحمل هذه الغائلة اخواننا الوطنيون حفظهم الله ، كما وردت البرقيات مشعرة بذلك ، فنشكرهم على هذه الاريحية وخلوص النية ونسأل الله التوفيق والنجاح •

ويستفاد من الحوادث الصحيحة أنه حتى الآن ما استطاع الايطاليون الدنو من طرابلس الغرب وما شاع من طلوع العساكر للبر لا أصل له • على أنه لم ينقطع حبل الرجاء من حل المسألة بطريق الصلح والمسالمة ، وهذا هو المنتظر من وزارة سعيد باشا المشهور بالاقدام والثبات وحل

المشاكل وعويص المسائل ٠ والذي يقتضيه الرأي السديد والفكر الرشيد ان المسألة لا تحل بتاتا قبل افتتاح المجلس ، وافتتاحه سيكون بالقريب العاجل ٠ وبمقتضى أصول الحرب انقطـاع الروابط بين الدولتـين المتحاربتين ، وبهذه الوسيلة تبطل أحكام الامتيازات المندرجة في العهود القديمة التي كانت تضر بمنافعنا وصالح بلادنا ، والامل أنها لا تعود بعد ذلك أبداً ٠



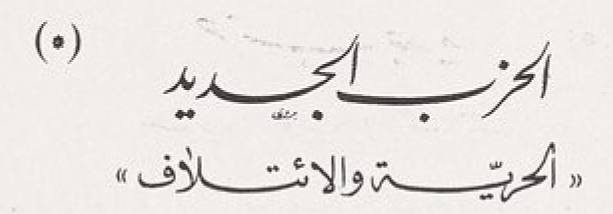
حزب جديد (*)

حزب «الحريّة والائتلاف»

يعلم القراء الكرام أن المعارضين للاكثرية قد بذلوا غاية الجهدونهاية المستطاع في تقويم الأود ، وتخفيف سورة الغـرور التي لعبت ببعض الرؤوس ، فأضرت بالبلاد ضررا عظيما ، ولم يبق من أحد لم يحط خبرا بما وقع من سيئات أولئك الاشخاص الذين استلموا أزمة الامور ، وادعوا ارادة الاصلاح والقدرة عليه . ولو كان المعارضون أكثر عددا وأقوى ناصرا لكان أثرهم أشمل ونفعهم أكمل ، ولهذا طالما تفكروا بالطرق التي تؤدي الى كثرتهم ، ولعل القراء الاعزاء يعرفون أن هـذه المسالك صعبة لقلة من يقدمون على مقاومة القوة ، لكن الله سبحانه من حسن تدبيره في هذا الكون أن جعل لكل مجال رجالا ، ولكل رجال مجالا ، ومهما تعاظمت القوة وطغى الذين تيسر لهم ان يكونوا أربابها ومستثمري شجرتها لا تعدم الدنيا من تقوى قلوبهم على الوقوف في وجهها غير ناظرين الى ما قد ينتظره لهم الناس من آثار غضب القوة ، وهكذا وفق الله للوقوف في وجه أولئك الذين أشرنا اليهم أناسا من خادمي هذه الامة ، وما زالوا يتعارفون ويتعاهدون على التعاضـد ، ويتذاكرون في المناهج التي ينبغي السلوك عليها ، حتى أتموا كل شيء من مقدمات تأليف حزب جديد جامع ، فلما تمت هذه المقدمات أعلن حزبهم نفسه أمس وقدم برغرامه لنظارة الداخلية وعنوانه هكذا «حزب الحرية والائتلاف» ، وسنتكلم عنه مفصلا في العدد الآتي إن شاء الله تعالى .

---

* (الحضارة) ، السنة الثانية ، العدد ٨٥ ص ٩ (٢٣ تشرين الثاني ١٩١١) .



أشرنا في العدد الماضي الى تأليف حزب جديد باسم حزب « الحرية والائتلاف » وأرجأنا التفصيل فيه الى هذا العدد ، فالآن نوافي القراء الاعزاء بما وعدناهم به .

هذا الحزب يصح أن نقول هـو الحزب الذي اجتهـد بتأسيسه « صادق بك » أكبر أبطال الدستور ، ويصح أن نقول ان حاجة البلاد هي أسسته على يد عدد كبير من نواب الامة ومظاهريهم ، أما مؤسسوه الرسميون فهم هؤلاء :

صادق بك أمير ألاي متقاعد .

فريد باشا من الاعيان وأحد أصهار البيت السلطاني .

أمير اللواء اسماعيل حقي باشا مبعوث أماسية .

عبد الحميد الزهراوي مبعوث حمص وحماة (صاحب هذه الجريدة)

مصطفى صبري أفندي مبعوث توقاد .

حسن بك مبعوث برشتنه .

داغاوريان أفندي مبعوث سيواس .

---

* (الحضارة) ، السنة الثانيـة ، العدد ٨٦ ص ٨ (٣٠ تشرين الثاني ١٩١١) .

وفيق بك والي قونية سابقا (هو ختن المرحوم مدحت باشا) ٠

سليمان باشا فريق متقاعد ٠

ثم انضم اليهم حسين حسني أفندي شيخ الاسلام السابق ٠

وقد انتخب أعضاءً للمركز العمومي هؤلاء :

صادق بك . رضا نور بك . لطفي فكري بك . اسماعيل بك (كوملنجة) . شكري العسلي بك . بصري بك . حمدي أفندي (أنطالية) . ماهر سعيد بك . رضا توفيق بك . صدقي بك (ايدين) . سيرت بك (من الفضلاء والمحررين) . كمال مدحت بك (سبط مدحت باشا) ٠ ثم ارتأى هؤلاء انتخاب صاحب هذه الجريدة معهم أيضا ٠

الغرض الاعظم لهذا الحزب شيئان : الاول مقاومة الاستبداد ولا سيما الاستبداد تحت ستائر القانون ، والثاني اصلاح ذات البين بين جميع العناصر ٠ والعناصر ثلاثة أنواع : (١) عنصر الجنسية ، (٢) عنصر الدين ، (٣) عنصر الفكر والاجتهاد الاجتماعي ٠ والمقصود أن يكون كل عنصر من هذه العناصر حراً أي ليس مضغوطا عليه ولا مضايقا في رغائبه بما يعود لمصلحة عنصره مما لا تضر بالعثمانية ، وأن تكون هذه العناصر كلها متآلفة مع التخالف ، متعارفة متعاطفة مع التغاير ٠ ولذلك يضم هذا الحزب ضما حقيقيا المسلم وغير المسلم ، والتركي وغير التركي من سائر الاجناس ، والمتعصبين وغير المتعصبين ٠ وقد انتمى لهذا الحزب فرقة كبيرة في مجلس الامة تألفت من جميع الاحزاب التي كانت في المجلس ما عدا حزب الاتحاد ٠

واليك البيان عن الفرقة التي في المجلس : (وقد ذكر بعدئذ أسماء الاعضاء الذين هم من مجلس المبعوثان المنتسبين الى حزب الحرية والائتلاف ، كما ذكر بعدئذ برغرام الحزب في الصفحة ٩ من العدد ٨٦ من جريدة الحضارة) ٠

حزب « الحرّية والائتلاف » (*)

قد بينا في العدد الماضي ما هو حزب الحرية والائتلاف وما مقصده ومن مؤسسوه ، وذكرنا قسما من برغرامه ، وفي هذا العدد نكمل برغرامه ونأتي في هذه الافتتاحية بالبيان العام الذي توج به البرغرام ، ونستسمح القراء الاعزاء في جعل هذا العدد ثماني صحائف فان المرتبين لم يشتغلوا أيام العيد . وكذلك نستسمحهم في جعل أكثر ما فيه قاصرا على برغرام هذا الحزب الجديد فان ذلك يعد من المسائل الوطنية المهمة في هذه الايام . وقد رأيت من الواجب علي لقرائي الكرام تبيين أن جريدتهم هذه لا تزال كما عهدوها جريدة اعتدال ولا يجرّها الى التطرف اشتراك صاحبها بتأسيس هذا الحزب .

(بيان عام)

لقد كان أعظم الامراض السياسية المؤدية لضعف هذه الدولة العثمانية وانحطاطها تكليف الامة بواجبات ومغارم ليس لها حد ، من غير أن يكون لها تلقاء ذلك مغانم أساسية وحق ، واعطاء ملوكها اطلاقا في الحكم متعاليا عن المقيّدات ، غير مشروط عليه شيء من الواجبات . ولعدم هذا التوازن نتائج رديئة ممقوتة قد نجم عنها وعن أسباب أخرى اعتقادٌ بقرب موت هذه الدولة التي سماها أحد أفراد السياسة في أوربا

* (الحضارة) ، السنة الثانية ، العدد ٨٧ (٧ كانون الاول ١٩١١) .

قبل خمسين سنة بالرجل المريض . ومن آثار هذا الاعتقاد تلك الثورات المؤلمة التي ظهرت في كل جهة من هذه المملكة ، كما أن من مقتضاه ظهور تلك الثورة التي انتهت بالتوفيق في تموز سنة ٣٢٤ .

إن ذوي الهمة الأُلى نهضوا لهدم سدّ الاستبداد الذي كان قد حصر لديه جميع قوى الدولة ، ولجعل تلك القوى جارية في مجاريها الطبيعية قد نجحوا بقوة إجماع الامة في هدم الاستبداد ، وقد كان الواجب بعد ذلك الانقلاب أن تعطّل الآلات التي كانت لائقة بالهدم فقط ، وأن تتخذ الوسائل لتقرير الامن وايجاد حكومة قوية قانونية قد تمت فيها معدات التجدد ، لكن باللأسف قدأقيم مقام تلك الوسائل الاهتمام بتقوية القواعد التي بنيت عليها تلك الثورة ، وبتكثير السواد فيها ، وبهدم كثير من الاسس التي يمكن التأليف بينها وبين الحرية والدستور ، فأصبحت الدولة في حالة مدهشة وطفق اليأس يستحوذ من جديد على أفكار العالم ، لأن ذلك الاستبداد السابق الذي وصف آنفا قد ظل مستمرا وانما غيَّر مكانه فقط ، وبالضرورة قد أصبحت الحقوق المتعالية عن التقليد التي اغتنمتها تلك الفئة الكثيرة الافراد منحصرةً بيد بضعة أشخاص ، وتحول استبداد الفرد الى استبداد الجماعة ، على أننا مهما رأينا من العبث ومن الخطر أيضا الاجتهاد بأن تبقى في مكانها القديم أمة فتحت بقوة عضدها باب الانقلاب ورمت بخطواتها الاولى في ميدان التكمل نرى أكثر خطرا أن يتخذ اسم الحرية واسطةَ تحكّم ، وقواعد الدستور آلةَ استبداد .

الذين يطرقون سبل التحكم والاستبداد لا مناص لهم من اللياذ بأبواب القسر والاجبار ، ومتى هوى أحد في تلك المهواة كان من الضروري أن يتنوع ويتعدد ما يلوذ به من تلك الابواب ، ولذلك

لم يُستحى في السنوات الثلاث المواضي من استعمال كل أنواع القسر والمضايقة ، وقد قطع هذا عرى الآمال ، وجرّع كؤوس الآلام ، وفرّق الأمة الواحدة العثمانية زُمَراً قومية ، وكان سببا في إراقة دماء بريئة في بلاد الارناؤوط واليمن وحوران والكرك ، وبه أصبح مستقبل المملكة معتماً يحجبه ضباب دموي •

والحاكمية الامية (أي كون الحكم للامة) التي نوه بها كثيراأول الأمر بسائق الحمية ، لم تَعْدُ أن تكون حاكمية المبعوثين بالنظر للانتخاب الواقع لمجلس المبعوثين ، وبسبب هذا الانحصار المفرط أصبح الدستور المؤسس على قاعدة تفريق القوى مضيعا شكلـه •

حقـاً قـد أضحت وخيمة جدا نتائج هذا الواقع الذي أجملناه ، وهو مستغن عن زيادة لايضاح بما يشاهد الملأ من تفاصيله ، فانـا نرى من جهة كل قوم أصبحوا يخشون على أنفسهم الاضمحلال ، وراحوا يفكرون في وسائل وقايتهم مندفعين بسائق طبيعي من حب البقـاء ، فصار كل عنصر يشتغل لنفسه وحده ، وطفقت العناصر بسبب ذلك يبتعد بعضها عن بعض ، ونرى من جهة أخرى أن كل واحد من العثمانيين ــ اللهم الا قليلا من الواقفين على الحقائق ــ قد استسلم الى اليأس كمن أخذتـه الدهشة تجاه عائلة عظيمة ، ولعل هذا هو السبب في عدم إثمار مسعى من المساعي النافعة في هـذه السنوات الثلاث التي أعطيت اسم « سني الدستور » •

أما المقـام الخارجي فهو كالداخلي متزلزل الى درجة أنه لمـا اجترحت من الآثام ما اجترحته ايطاليا التي عدت الحال الحاضر فرصة مناسبة لتطاولها الممقوت الى طرابلس الغرب وداست ما لا يقبل الجدال

والاعتراض من الحقوق الدولية ، ومالا يحتاج الى التفكر من لوازم الانسانية ، اختار السكوت العالم المتمدن الذي هو متألم باطنا من همجية ايطاليا ، وأشار لسان حاله ولعله صرح بأنه لا يوجد اليوم في هذه الدولة حكومة يعتمد عليها ولو بحيث تكون أهلا للخطاب والمذاكرة .

فلم يبق اذن من ريب في أن السعي لتخليص مملكتنا من الانقراض هو أول واجب على كل عثماني ، وقيام العثمانيين بهذا الواجب العظيم الحياتي يتوقف على تعاضدهم وتوحيد مساعيهم ضمن تشكيلات سياسية تقتضيها طبيعة الدستور نفسه . وقد علم أن المساعي التي بذلت لجمع التشكيلات الموجودة في هذا الطريق المأمون لم تثمر ولا تثمر ، فلهذا ولاجل دعوة أبناء الوطن الى توحيد المساعي في طريق السلامة عزمنا على تأليف فرقة سياسية على أشد الاسس التصاقا بالحرية .

الفريق الفعال من الفرقة سيكون في المجلس ، والمنتمون الى الفرقة من العثمانيين يكونون سندا وظهرا لمساعي المبعوثين المفيدة ، وأعظم الاسس لبرغرام الفرقة المحافظة على الحرية والمساواة الحقيقيتين بين الافرادوالجماعاتدائما ، وتربية حسن المحبة والاحترامللسلطنة العثمانية عند جميع الافراد والعناصر العثمانية التي ينبغي أن تكون آمنة من كل قسر وتغلب ، والوصول الى هذه الغاية يكون بالتماس التوازن بين قوى الدولة من أسس المشروطية ، وبكفالة الرغائب القومية والمذهبية التي هي طبيعة مقبولة لكل قوم وعنصر ، مع التأليف بينها كلها وجعلها متوجهة لاعلاء العثمانية ، ويكون بدفع أحقاد الاحزاب والاشخاص في

معاملات الدولة ، وبتقوية القواعد التي تحول دون تغلب بعض الافراد على بعض في مجلس الامة وخارجـه .

متى طولع البروغرام بامعان يتجلى هذا المقصد ناصعا ، ومن المحقق أن التكملات التي يحتاج اليها الوطن ستأتي تلو المشروطية الحقيقية .

ان الروح الاصلي في هذا البروغرام هو صون حريـة الافراد والمساواة وحفظ حقوق العناصر وتأييد الدستور فهذا لايتغير ، أمـا الفروع فاصلاحها بأكثرية الآراء مطلوب ، وكذلك يجوز تعديل « النظام الداخلي » وهو متضمن بيان كيفية ارتباط أفراد الفرقة بمراكزها ، وعلاقة كل شعبة بالمركز العمومي ، ومؤسس على جعل تلك العلاقات بقدر اللزوم وتوسيع حرية الشعب ، وعلى أن المبعوثين الذين هم عماد الفرقة لهم الحرية الكاملة في اجتهـاداتهم بعد موافقتهم على الروح الاصلي الذي لا يتغير .

هذا ولاننا لا نسعى الى غاية شخصية أو قومية وانمـا نسعى لادامة حياة هذه الدولة ، واعـلاء شأنها ، وسعادة الامـة العثمانية وانجاح بلادها وترقية عمرانها ، تأمل أن يسارع الى معاضدتنـا جميع اخواننا أبناء الوطن المحبين للحرية والائتلاف ، المتحسرين على راحة الفكر والانصاف ، ومن الله التوفيق .

ايطاليا في بيروت (*)

ضاقت الحكومة الايطالية ذرعا بما تلاقيه من شجاعة المجاهدين في طرابلس الغرب . وبما يذيقون عسكرها المجرمين آلام الخيبة . فانها لا تفرغ من هزيمة الا الى أخرى ولا تخرج من معركة الا خروج الذليل الضعيف من قبضة العزيز القوي ، وانصراف الأعزل الرعديد من وجه الشجاع الكامل العدة الوافر الاداة . ذلك على كثرة العدد ووفرة الذخيرة وقيام الاساطيل العظيمة من ورائها تدفع عنها بقنابلها المدمرة ومقذوفاتها الملتهبة ، وعلى ما تعتمد عليه من مظاهرة حليفاتها من الدول العظمى وتثق به من وقوف الباقيات موقف الحياد حيال خيانتها وغدرها وخرقها للمعاهدات وعبثها بالحقوق الدولية ، بل خروجها في كل ذلك عن حدود الانسانية مما كان من شأنه أن يزيدها الى قوتها المادية قوة معنوية تضعف عن مقاومتها أعظم الدول بأسا واكملها نظاما . ولكن علمت ايطاليا بعد طول التجربة وممارسة المجاهدين زمنا أن كل ما لديها من قوة لا يغني عنها شيئا وأنها لا تزداد على تمادي زمن الحرب الا خزيا وخذلانا ، وذلا وهوانا ، نقصا وخسرانا . وأنها وان دامت الحال بها كذلك يسقط ما أحرزته باطلا من مقامها بين الدول وتفقد منزلتها ، ولا يبعد أن تبلغ

* جريدة (الحضارة) : السنة الثانية ، العدد ٩٩ (٢٩ شباط ١٩١٢) .

الاستهانة بها وبلين قناتها الى حد تطمع بها فيه حليفاتها في العهد ، وضريباتها في الجنس ، فضلا عن رقيباتها ؛ فيسوقهن ما تعهده فيهن من الشره الى اجتياح ممالكها والعدوان على استقلالها •

علمت ذلك كله فانصرفت عن المقارعة الى المراوغة ، ونزلت عن المناجزة الى استعمال الحيل الدنيئة ، فجعلت تطوف على الثغور العثمانية وهي خالية من أداة الدفاع ، بارزة لتلقّي تجارات الامم فتوسعها تهديدا ، وتقذف عليها نيران أساطيلها عيثا وتخريبا على أمل أن يحدث ذلك في الدوائر الرسمية العثمانية ميلا الى الصلح ، وعندها تنجو ايطاليا مما تتوقعه من السقوط الابدي ، وتتخلص من براثن المجاهدين الواقفين لها في مواطن القتال دون الساحل يردونها اليه كلما أرادت أن تتقدم خطوة الى الامام • غير أن كلما أتته من هذه المخازي لم يُحدث أدنى تأثير في شعور الامة يميل بها الى الصلح الذي ترجوه ، بل كان ذلك يزيدها ثباتا واقداما ويثير في قلبها الحفيظة ويذكي نيران الحقد ويدفع بها الى الاخذ بالثأر ، فتهيج الحمية في رؤوس المجاهدين منها في مواقف القتال فيذيقون الطليان أنواع الهوان •

ولقد فاجأنا مساء السبت من هذا الاسبوع خبر كان وقعه على العثمانيين أليما ، وخطبه عظيما • وهو أن قسما من أسطول هذه الدولة الخائنة باغت ثغر بيروت بمقذوفاته فأغرق سفينتين عثمانيتين هناك ، وأودى بحياة جمع كبير من الاهالي ، وهدم بعض الابنية ؛ فارتاعت القلوب لهذا النبأ واضطربت الخواطر واستغرق العالم العثماني بالاحزان على تلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية المطامع الوحشية والآمال الدنيئة والسياسة القاسية التي تتخذها الدول الاوربية

باطلاقها العنان لتلك الدولة الباغية ووقوفها أمام فظائعها هذه وأمثالها موقف الحياد ؛ وهي مع ذلك تزعم أنها آية الرحمة بين البشر ، وناشرة لواء العدل والنصفة على بني الانسان .

هلعت القلوب لهذا الحادث الاليم واهتزت أعصاب المملكة وتطالت الاعناق تتطلع الى ما وراءه من الخطوب . ولكن البيروتيين تلقوا هذا الحادث بما عُهِدَ فيهم من الصبر والروية والحكمة والاناة ، فقرنوا مزية الشجاعة والاقدام الى مزية الحكمة والحزم ، فلم يحدث هناك شيء من البوادر التي تنتجها فورة الغضب ويثيرها العدوان الفجائي عادة ، بل لم تلبث السكينة أن ثابت الى المدينة .

فانقطعت بهذا الاسباب التي يحذر منها العقلاء ، وعادت ايطاليا بالخزي والعار وقد انكشف للعالم الانساني أمرها وأصبحت عنوان الدناءة ومثال القحة والغدر بين الامم .

ماذا تريد ايطاليا من هذه الغارات التي تشنها ؟ هل تريد أن تحمل الحكومة العثمانية على الصلح بعد ما شهد العالم كله شجاعة رجالها وحسن بلائهم ؟ وهل تظن ايطاليا ان تيسر لها الصلح على ما تريد (لا سمح الله) أنها يطيب لها مقام في تلك الولاية وهي قد شاهدت بأم رأسها حمية سكانها الابطال واستبسالهم في المدافعة عن حوذتهم والذب عن بيضتهم ؟

وهل في وسع ايطاليا أن تقف السنين الطويلة أمام هؤلاء المجاهدين، تنفق الالوف المؤلفة من الاموال ، وتخسر مثلها من الرجال ، وهي قد نضبت منابع ثروتها ، ووهنت قوة عسكرها ، وبدا الفتور والتبرم تبدو آثاره في أقوال ساستها وعقلائها ؟

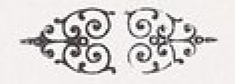
أم تظن ايطاليا أن الدول العظمى تنهض الى مظاهرتها مظاهرة تضطر معها الدولة العلية الى قبول الصلح على ما تريد بعد أن فاوض عدد من سفرائها ناظر الخارجية العثمانية مرارا في ذلك وسمعوا منه أبلغ الادلة على وجوب بقاء الحكومة العثمانية على المدافعة الى أن يدفع الله عنها عدوان المعتدين ، ذلك قبل أن يظهر فوز المجاهدين على أعدائهم ذلك الفوز الذي ملأ العالم المتمدن اعجابا ، وبهر الايطاليين تخويفا وإرهابا ؟

على أن الصلح لا يمكن أن ينبس به في البلاد العثمانية فم ، ولا تنهض فيه لاحد شبهة . كيف والشعوب العثمانية كلها ترى أن تسليم هذه الولاية تمهيدا لزوال استقلالها ، وزلزال بقائها ، وتعريض بلادها للمطامع ، ومن وراء هؤلاء العالم الاسلامي بأسره يرقب هذه الحادثة بعين الحذر وينتظر من دولة الخلافة المقاومة اللائقة بمقامها والدفاع الجدير بمنزلتها . فالحكومة العثمانية من هذه الجهة أيضا مضطرة الى الثبات على الدفاع لان انقيادها الى الصلح يسقطها من نظر رعيتها ويوجب انحراف العالم الاسلامي عن الثقة بها ، وهي أمتن عزما وأعظم قدرا من أن يزيلها التهديد عن موقفها ، وأجدر أن تحفظ بهذه القلوب المتوجهة اليها والآمال المنوطة بحزمها من رعيتها الاقربين وسائر من يرتبط بها من المسلمين .

فهل لايطاليا بعد ذلك أن تقلع عما ترتكبه من الخزي والعار وتربأ بنفسها وبما بقي لها من القيمة الادبية فتلتمس وسيلة الى النجاة من قبضة المجاهدين غير ما تأتيه من المنكرات والفظائع ؟ وهل لنا نحن أن نعتبر بحوادث الدهر ونجمع القلوب على الاحتفاظ بهذا الوطن ونتقي الاسباب التي تمهد لهذه العدوة الغادرة سبيل العدوان ؟ فانها

انمـا تجرأت بزعمها على فعلتها الشنعاء في بيروت بحجة أن هناك سفنا حربية تجيز الحقوق الدولية مهاجمتها وكان من الممكن تجريدها من السلاح وآلات الدفاع حتى تعود في حكم السفن التجارية الى أن تضع الحرب أوزارها ما دامت لا تغني عن نفسها شيئا .

نحـن ولا كفـران لله كمـا
قد قيل في السارب أخلى فارتعي
اذا أحسَّ نبـأة ريـع وإن
تطامنت عنـه تمـادى ولهـا



آثار الحروب (*)

ما زال الناس قديما وحديثا يتوقّون أسباب الحروب ويتبرمون بآثارها ويقلقون اذ لاحت لهم مقدماتها أو حدثت فيهم داعية لنشوبها ، وما زالوا ــ ولا سيما الحكماء منهم ــ يصفون وقائعهـا وأخبارها بأوصاف تشمئز منها النفوس وينعتون جناياتها على البشر واغتيالهـا للنفوس البريئـة وتنغيصها لحياة الامم نعتا ترتعد منه الفرائص وتهلع لـه القلوب وتقشعر منـه الجلود ، حتى صار اسمها عنوان المصائب ونذير الدمار ودليل الكوارث والخطوب . في الغالب والمغلوب ، وحتى صارت تحضر في النفوس عند ذكرها صورة خراب الممالك وسقوط العروش وتقوّض قواعد العمران ، ومـا يتبع من ذلك بوار التجارات الرائجة وكساد الصناعات الزاهية وذبول نضارة الحضارة وخمود جذوة الاذهـان ووقوف حركة العلم والعرفان .

وهم في كل ذلك لم يبعدوا بها في نظر الحكمة عن حقيقتها ، ولم يتجاوزوا في الوصف حدها ، هذا اذا نُظر اليها من حيث هي وصُرف النظر عن موضع حدوثها وعن الشؤون والاحوال التي تكتنفها . ولكن مهما عظم ضرر الحروب واستطار شرها فانها لا تخرج عن حكم الحوادث التي تختلف عليها وجوه النفع والضرر وتتقلب بين صورتي الخيـر

---

* جريدة (الحضارة) : السنة الثانية ، العـدد ١٠٢ (٢١ مارت ١٩١٢) .

والشر ، بل هي خاضعة أيضا لهذا الناموس ونازلة على حكمه • فانها كما تكون تارة داعية الخراب وجالبة البوار تكون أحيانا مقدمة الفلاح وبشير الفوز والنجاح • بل تكون في آن واحد مجلبة للضر ووسيلة للخير من جهة أخرى • فبينما تجدها تبتلع النفوس وتطحن الاجساد وتقوّض عمران البلاد وتنتقص أرزاق العباد تراها تمحص النفوس من الملكات الرديئة وتنشيء الممالك على القواعد الثابتة ، وتنتهي بالعزة بعد الذل وبالنباهة بعد الخمول ،وتنقذ الامم من عوادي الادواء الاجتماعية وتدخل بها الى بحبوحة المدنية •

تختلف نتائج الحروب باختلاف حال المتحاربَيْن ، وتجري على حسب استعدادهما والاخلاق والتقاليد الشائعة فيهما ، فكم من أمة توالت عليها صروف الغِيَر حتى كادت تمحوها من صحيفة الوجود وحتى أعيتها الحيل في المحافظة على البقاء وحتى استحكم منها اليأس وعزّت وجوه علاجها ، ثم اتفق لها الدخول في حرب ضروس فلم يعترض شك في أنها ستلاقي حتفها ، ثم ما لبثت أن انجلت عنها غمرة الوغى وقد نشطت من عقل الغفلة ، واستجمعت أسباب القوة ، وحدثت فيها للرقي بواعث لم تكن تتسنى لها لولا تلك الحرب •

اذا كان المقوّم للأمم والحافظ لبقائها هو ما ثبت في أفرادها وفي هيئتها الاجتماعية من الاخلاق والملكات الفاضلة والتقاليد والعادات القويمة ، وكان قد عرض عليها في ذلك عاهات عدلت بها عن طريق نجاتها ، فليس من البعيد أن تكون الحرب علاجا لامراضها ومرهما نافعا لجراح نفوسها ، فلا تنجلي عنها غمرات الحرب حتى تعود صحيحة البنية قوية العزم سليمة من آفات المرض الذي كاد يقضي عليها القضاء الاخير • واذا كان الشأن في الغلبة أن تستدعي انتعاش الغالب

ونشاطه الى التقدم وطموحه الى المنزلة التي لم تكن لـه قبل الفوز فانها تقضي به أحيانا الى فتور الهمة وضعف العزيمة ، وتبعثه علـى الاستهتار في الغفلـة وتشغله بنشوة الظفر الحاضر عن الفكـر في الخطب المستقبل . وذلك هو أقتل أدواء الامم وأنكى آفاتها .

واذا كانت الخيبة مولدة للخمول ومضعفة للهمم وباعثة علـى الاستكانة الى الذل ، فانها قـد تكون أحيانا داعية الى اتفاق الكلمة واجتماع الشمل وتواصل الروابط المتقاطعة وتعارف القلوب المتناكرة ثم الطموح الى مقام في الحياة أعظم وجودا وأوسع مجالا وأهنـأ حالا واستقبالا . وهذه أوفـر أسباب الحياة وأثبت دعائم البقاء وأدنى السبل الى السعادة والارتقاء .

فليست آثـار الظفر حميدة على الاطلاق ولا آثـار الخيبة ذميمة على الاطلاق ، بل وربما أنتجت الخيبة ظفرا وأدى الظفر الى خيبة .

وأكثر ما تحمد آثار الظفر اذا أتيح لامة غافلـة عن موضع قوتها مستهينة بمواهب نفسها شاعرة بالقصور عن شأو خصمها فانها اذ ذاك تجد للظفر لذة غير منتظرة وتهجم من الفوز على مالم تكـن تتوقعه فتقع منه على ضالة كانت تنشدها ولا تكاد تجدها ، فتشد في الحرص عليها والاحتفاظ بالاسباب التي أوصلتها اليها ، ثم تندفع في الاستزادة منها والتوفر على سائر أنواعها حتى يتم لها ما ترجوه ؛ ولذلك يقدر للامم التي يكتب لهـا الفوز على هذا الوجه أن لا تقف منه عند الذي نالته بل تطمح بما تجـدد لها من الهمة الى ما هو أبعد شأوا ، وتسمو الى غايات من المجد لم تكن تفكر في الوصول اليها من قبل ، فتلتفت الى اقتناء ما يمهد لها السبيل الى هذه الغايات ، فيعظم بذلك شأنها

ويرهب جانبها . وناهيك بما اتفق من ذلك لالمانيا بعد حرب السبعين وان لم يكن على نحو ما ذكرناه تماما .

نالت أمـة البوير في الترانسفال بعض الفوز في أوائل الحـرب بينها وبين انكلترة منذ بضع عشرة سنة ، فارتاعت لذلك جاراتها من دول الاستعمار الاوربي في افريقية وخشين من امتداد أطماعها ان هي ظفرت الى مستعمراتهن ، واشتغلت محافل السياسة في ذلك زمنا ، وما زلن في قلق على مقامهن في مستعمراتهن حتى انتهت المسألة بظفر انكلترة . وقدر العارفون بطبائع الامم اذ ذاك أن هذه الامة الصغيرة لو تمّ لهـا الفوز لكانت خطرا على المستعمرات الاوربية في الجـانب الشرقي من افريقية .

ذلك شأن الامم فيما تلاقيه من الحروب ، تدور منفعتها بها أو مضرتها على ما ثبت لها من الشعور الذي هو الاساس في تكـوين النتائج الصادرة عن أعمالها . والذي يلوح لنا بعد ما تقدم أن نتيجة الحرب القائمة الآن بين دولتنا العلية وحكومة ايطاليا ستكون محمودة الاثر عائدة علينا بالفوائد الجمـة . فانها قد نشبت بيننا ونحن في غفلـة عن تدارك آلات الدفاع ، قد غلب علينا اليأس من لحاق الامم العزيزة بأساطيلها ونظام جندها وانتظام آلاتها وعدتها ، وشغلنا مانسمعه من تناصر أقوامها ونجدة عناصرها عن ادراك ما رسخ في أقوامنا من خلق التكافل على نجدة الوطن ، والمفاداة بالانفس والاموال في سبيل المحافظة عليه ، والاستهانة بالموت في الذب عن الجامعة العثمانية . فلم تدر رحى الحرب دورتها الاولى حتى ظهرت آثار تلك الغرائز الشريفة بما قام به عرب طرابلس الغرب من الاقدام والعزم والثبات والصبر

والاستماتة في سبيل المدافعة عن أوطانهم والاخلاص لدولتهم استماتة أدهشت العالم كلـه وأقامت له أدل البراهين على أن الصفات التي امتاز بها سلف من هـذا الجيل لم تزل كامنة في أبنائهم ، وأنهم مهما حاربتهم عوادي الدهر وضربتهم يـد الجهالة واستطالت عليهم سلطة القهر لا يزالون يحفظون الذمار ويحمون الديـار ويفدون دولتهـم ووطنهم بالارواح •

اضطربت لاعتداء ايطاليا على طرابلس الاقطار العثمانية حمية ، والتهبت قلوب سكانها غيرة ، فتسابقوا الى نجدة اخوانهم المجاهدين بمـا استطاعوا من الاموال والذخـائر ، وتوالت نجداتهم من مصر وسورية والعراق والاناضول والروم أيلـي وتونس والجزائر ، بل ومن الافغان وجزائر المحيط وسائر الممالك الاسلامية ، مما دل على أن لهذه الدولة من عناصرها ـ ولاسيما العرب منهم ـ قوة لاتضاهيها قوة عنـد الحكومات الاوربية ، وأن لهـا وراء ذلك من ارتباط كافـة المسلمين بها في أقطـار المسكونـة ما تتخذه عـدة يعتمد عليهـا حين الحاجـة •

ولا ريب أن ذلك مما يولّد في العثمانيين أملا كبـيرا بالمستقبل ، ويكشف لهم عن استعدادهم لمدافعة الخطوب مهما عظم خطرها ، ويقوي ثقتهم باخلاص هذا العنصر الكريم ، ولا يلبثون بعد ذلك أن يشرعوا في تمدين عشائره وادخال الحضارة والعمران الى أقطاره التي قضت عليها الادارة المستبـدة بالخراب ، فيجنون من ثمرات حضارته وارتقائـه أضعاف ما يجنونه من ثمرات اقدامه وشجاعته الفطرية •

هذا المظهر الذي تجلت فيه الدولة العثمانية في طرابلس الغرب وفر

لها الشعور بقوتها وتكافل جماعاتها على ما فيه صياتتها ، وهو الشعور المحمود الذي أشرنا اليه وبينا أن بقاء الامم وتقدمها يتوقف عليه ، كما أن نقص قوتها البحرية وتمكين العـدو بسبب ذلك من الاعتداء على ثغورها نبّـه شعورها بالحاجة الى أسطول عظيم يدفع عنهـا العدوان . ومتى صح هذا الشعور توجهت به الارادة الى طلب الكمال ، ووطنت الانفس على السعي له . ومن التمس شيئا وجده ، ومن وطن نفسـه على أمـر سهل عليـه .

وفضلا عن هـذا فان انتصارات الدولة المتوالية في ميدان الحرب قـد حقق للدول أن العدوان عليها ليس من الامور السهلة ، وأن دون ذلك رجالا يعشقون الصدام ويستلذون في سبيلها الموت الزؤام .

وبالجملة فان من أظهر فوائد هذه الحرب أنهـا ألفتت العثمانيين الى أنفسهم ، وجددت لهم الشعور بقوتهم ، بعد أن كاد اليأس يستولي على خاصتهم وعامتهم ، ويشغل موضـع الشعور والوجدان مـن أفئدتهم . وظهر لهم وللعالم كلـه أنهم لم تزل لهم مميزاتهم وقوة بأسهم وتكافل عناصرهم على حفظ مجموعهم ، وأن لهم فضلا عن ذلك من ارتباط العالم الاسلامي بهم وقيامه حين الحاجة بأنواع المساعدة لهم ، وعلى الاقل المساعدة المالية ، ، ما يضمن لهم بقاءهم في الحال ورقيهم وسعادتهم في الاستقبال .

أمام أي حقيقة نحن (*)

نحن الآن حقيقة في زمان عجيب ، أصبحت الاحوال السياسية فيه مشتبهة لا يستطيع أحد تعيينها تعيينا قطعيا ، لكن يمكن أن يستخرج من هذه الاحوال المشتبهة حالة منتظمة ، فاننا نرى خلال البرقيات العمومية أن النمسة وروسية وايطاليا تلتزم قطعا حفظ الامن في البلقان، فبعضها بلغ انداراته وتنبهاته في (جتنة) وبعضها في (بلغراد) وبعضها في (صوفية) • وجميع هذه الدول لها في البلقان أعمال تقوم بها وآمال خاصة تسعى وراءها ، ومن أمعن النظر يظهر له أن اثنتين من هذه الدول لا بد أن تكونا على طرفي نقيض ، فان مصالح النمسة منذ عهد قديم لا تتفق مع مصالح روسية لا في سياسة البلقان ولا في غيرها وهي مع ايطاليا كذلك •

ومن المعلوم أن نفوذ النمسة بعد مؤتمر برلين قام مقام نفوذ روسية في بلاد البلقان ، وكانت روسية روّجت في تلك البلاد سياسة الصقالبة بداعي النعرة العرقية ، ونحت النمسة نحوها في ذلك لوفرة ما لديها من العرق الصقلبي بحيث لا يقل عن العرق الالماني فهي صقلبية المانية معا ، نعم إن الذي أعد وقعة البوسنة والهرسك منذ أكثر من ثلاثين سنة انما هو (القونت ايغناتبه ف) سفير روسية في الاستانة ، لكن النمسة ما كانت تفتر عن مساعدته وكانت مظاهرة لوقائع الصقالبة بحملتها أيضا، على أن مؤتمر برلين قام بمساعدتها أكثر من روسية التي أريقت دماء

---

* (الحضارة) ، السنة الثالثة ، العدد ١١٠ (١٦ مايو ١٩١٢) •

جنودها وحلت بعد مسائل البلقان بما يوافق مصالح النمسة أيضا .

ومن جهة أخرى نرى أن الروابط بين النمسا وايطاليا ما زالت ولا تزال غير وثيقة لأن أقصى آمال الطليان استعادة ما هو في عهدة النمسا من بلادهم ، وعدا عن ذلك فان الطليان رقباء على النمساويين من جهة أن النمسا ترى النفوذ لها في سواحل الارناؤوط .

فكيف يصح من هذا أن تكون هذه الدول الثلاث متحدة الكلمة في تأسيس السكينة والامان في قطعة واحدة ، وكل منها يقتضي أن تكون عدوة للأخرى وكلها انما تضمن منافعها بتأمين منافع العثمانيين من جهات شتى ؟ . وأما روسية وايطاليا فيمكن اتفاق رغائبهما لأنها لا تتصادم ، ولهذا تسيران متفقتين ولكن لا يمكن أن تتحد منافع النمسا وروسية ولا منافع النمسا وايطاليا فمن أين تريد ايطاليا حسب الظاهر تقرير الامن في مملكتنا ؟ . والخلاصة أن الاحوال الحاضرة تجري بصورة غريبة جدا وربما كان هناك مقاولات ليست معلومة عندنا بعد ولا يمكن معرفة مضمونها ، ونحن نفرض وجود بعض معاهدات مستندة على أساس المساعدة والمحافظة على المواقع والمنافع فيما يحدث بعد ذلك لاننا نرى إحدى الدول التي لا تساعدها أوقاتها على بعض الاحوال منذ زمن قد ساعدتها الآن ، فلا يمكن أن يعد هذا من قبيل الصدفة بل يجوز أن يكون هناك مفاوضات تعينت فيها المنافع المختلفة أولا لما كانت الوقائع الجارية أمام أعيننا تمر بصورة طبيعية بسيطة ، ولا ريب أن أعمال السياسة كلها نتائج مقدرة محسوبة فمن قويت فطنته وعظمت درايته فهو الرابح ، وساسة الانكليز أحذق من ساسة كل دولة ولذا كانت منافعهم جارية على حساب مقرر ، وهي اذا لم تجد لسياستها

فرصة مساعدة تتربص بها لظروف ولا تنساها أبدا والذي يظن أنها نسيته من ذلك لا يلبث أن يظهر للعيان في الوقت المناسب له .

ولذا كان الوقوف أمام المنافع التي تسير خلفها سياسة انكلترة مشكلا ، والانكليز متعصبون جدا بهذا الخصوص ، ولهم الحق بذلك فان هذه الامة التي حصرت في جزائر بريطانيا اذا لم تستول على سياسة الدنيا فهي محكومة بالفناء العاجل ، ولذا كانت حكومة انكلترة لا تغفل طرفة عين عن تتبع الحوادث بل تستقصي حتى المسائل الطفيفة ، والدولة المعروضة للتقلبات المختلفة يجب أن لا تدخل بين انكلترة وبين الامة التي وقفت لها موقف الرقيب فانها ان فعلت كان دمارها محققا ، بل عليها أن تقف حواليها موقف المتأمل البصير ، ونحن قد تضررنا جدا وتساهلنا في تطبيق الاصلاحات التي تنتظرها منا انكلترة منذ محاربة القرم الى زمان خلع السلطان السابق ، فالعادات السالفة والتربية القديمة كانت تمنعنا عن تجديد أمور الادارة ، ونحن نظن أننا في مأمن من المراقبة ، كانت روسية لذلك العهد ألد أعداء انكلترة وكانت انكلترة تريد أن تتخذ الدولة العثمانية ترسا أمام استيلاء هذه على الهند ، ولهذا كانت انكلترة تطلب الاصلاحات من الدولة العلية ولكن لما تساهلت في تطبيق تلك الاصلاحات لعدم معرفتها بمقاصد أوربا الحقيقية ألقت انكلترة ذلك الترس من يدها فأخذت الدولة العلية ترى أمورها بنفسها ، وشرع الضرر يتجلى لنا حتى صار مستقبلنا على خطر عظيم ومع ذلك فقد بقينا عاجزين عن فهم مقاصد أوربا .

وهذه صحيفة تاريخية لا حاجة لإعادة تسطيرها اذ قلّ من لا يعرفها غير أنه من الواجب ادامة النظر فيها وجعلها نصب أعيننا دائما .

(إقتحام)

 (*)

ارتفع اليوم برقع الشك عن وجه الحقيقة وانجلت سحابة التغرير والتمويه بعد أن دامت ثلاث سنوات وما كان أطولها على ذوي الحق وأثقلها على ضمائر أهل الوجدان .

ما كادت تسقط وزارة الاتحاديين وتخلفها هذه الوزارة الرشيدة الحاضرة حتى بدت ادارة الحكومة الداخلية للعيون بشكل يحببها اليها ويدنيها من القلوب بعد أن كانت نفرت منها ، فأخذ كل من حضرات الوكلاء الحاليين يحل الامر في محله ويعهد بالوظائف الى المقتدرين عليها ، فيعين في المناصب رجالا من ذوي الدراية والوقوف على اللسان المحلي ، فاستبشر عقلاء الامة خيرا وعاد الى الارناؤوط سكونهم والى أبناء العرب ذاك الامل الحي الناهض الذي استقبلوا به الدستور منذ أربعة اعوام بقلوب ملؤها الاخلاص والوفاء ، وبدأت طوالع الفرق بين سياسة الجهل وسياسة العقل تبدو للعيان ، فتبين للمغرور وجه غروره وحمد العاقل مغبة سعيه وجهاده .

فلما رأى الاتحاديون وصحافيوهم بوادر الاصلاح وأيقنوا افتضاح مسلكهم السابق سلكوا في المعارضة مسلكا لاينطبق على حسن الخلق والمبدأ

---

* (الحضارة) ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٦ (٥ أيلول ١٩١٢) .

القويم ، فأخذوا يذيعون الاكاذيب بدلا من الحقائق، ويرتدون فوق جلود الضواري التي لبسوها في هذه الاعوام الثلاثة جلود الحملان ، فأذاعوا أن الوزارة وهبت الالبانيين استقلالهم ، وأنهم أصبحوا على وشك الخروج من دائرة الوحدة العثمانية ، في حين أن جميع ما رضيت به الحكومة من مطالبهم انما ينحصر في استخدام لسانهم المحلي في دوائرهم وتعيين موظفين لهم يفهمون هذا اللسان وقبول أداء الخدمة العسكرية في الولايات الروملية . وهي مطالب يجب على كل وزارة عاقلة في بلاد دستورية أن تحلها المحل الاعلى .

لما ضمّت حكومة النمسا والمجر ولايتي البوسنة والهرسك اليها رسمت على ورق التمغة (بول) رسم النسر النمسوي مبسوط الجناحين فاحتج البوشناقيون على هذا الرسم طالبين استبداله فاستبدلته لهم الحكومة برسم جامع كبير . وقد حدث انه رأى أحد الوكلاء في هذه الوزارة الحاضرة ورقة (بول) من هذا النوع في يدي فطلب حفظها وقدمتها لحضرته .

فعلت حكومة النمسا ذلك راضية مختارة دون أن تحدث ثورة أو اضطرابا في الولايتين المذكورتين ، فأين مطالب الارناؤوط من هذا المطلب الذي تقدم بيانه . فلو أنهم طلبوا شيئا من هذا النوع أو أن الوزارة كانت قبلت لهم به لقامت قيامة الاتحاديين فنادوا بالويل والثبور وعظائم الامور .

ولم يكفهم هذا التهويل باعظام أمر المطالب الالبانية التي قبلتها الحكومة بل ظهروا بمظاهر العطف على العرب والروم والعناصر الاخرى فطلبوا من الحكومة أن لا تعين بعد الآن موظفين ألبانيين في بلادهم ،

فعلوا ذلك مسوقين بعاطفة الانتقام والحقد والضغينة ، فالالباني اليوم هو في نظر الاتحاديين عدو مبين .

ولقد تدرجوا من البحث في مطالب الالبانيين وما يمكن ان تطالب به العناصر الاخرى الى ان انتهوا بطبيعة الجدال والمناقشة الى مسألتي المركزية واللامركزية . فوقفت (طنين) في الجانب الاول و (تنظيمات) في الجانب الثاني . وظل الاتحاديون وحدهم في ساحة جدالهم لا يمد لهم أحد يدا حتى الذين عاهدوهم في الانتخابات الماضية وعقدوا معهم المواثيق ، وهم جماعة التاشناقسيونيين . فقد كتبت جريدة آزاد مارد التي هي لسان حالهم مقالة حملت فيها على (طنين) حملة عنيفة ، عجبت بعد تلاوة ترجمتها كيف استطاع هذان الحليفان بالامس أن يتفقا ولو لشهور قليلة مع شدة اختلاف مشاربهما السياسية .

فالاتحاديون و (طنين) يقولون اليوم نحن نود المحافظـة على « الوحدة العثمانية » ولقد أعجبني لطفي فكري بك في قوله لهم منذ يومين أخرجوا من هذا الغموض واتركوا سياسة الشقاق وتكلموا بجرأة أدبية تحمدون عليها ، نحن والامة نعلم ما الذي تريدونه بـ « الوحدة العثمانية » فأنتم انما تريدون سلب العناصر الاخرى حقوقها ، ولقد أرتكم سياستكم فشلها في هذه السنوات الثلاث ولم ترجعوا الى الآن عن خطتكم .

فاعلموا أنه لم يبق سبيل للسير في طريق الخطأ ، فكل يوم نتأخره يسجل علينا لا لنا ، فالحكومة العثمانية إما أن تنصف العناصر انصافا حقيقيا واما أن لا تكون . هذه هي الوسيلة التي لا يوجد لنا غيرهـا بعد اليوم .

فلقد انتهت هذه المناقشة بين الفريقين الى النقطة التي لم يكن لهما مناص للهرب منها . والتي يجب أن تدور عليها اليوم كل الافكار والآراء لأنها مدار سلامة الدولة . وهذه النقطة هي :

١ ــ هل يجب على الدولة ان تنصف حقيقة العناصر العثمانية ؟

٢ ــ أن تعتبر لغاتها ؟

٣ ــ أن تساوي بين أبنائها وغيرهم ؟

٤ ــ أن تعاملهم معاملة نسبية ؟

٥ ــ أن تغير سير إداراتها الداخلية ؟

أم أن تكتفي بتوسيع سلطة الولاة أمثال بعض الذين رأيناهم في ولايات سوريا وغيرها وتطرح كل ما عدا ذلك جانبا ؟ .

هنا موضع البحث ونقطة دائرة الخلاف . فالاتحاديون يودون خدعة العثمانيين بالألفاظ والكلمات فيعلنون (الوحدة العثمانية) ويبطنون (السيادة التركية) فاذا دعاهم كاتب الى التبسط والتوسع في بيـان أفكارهم يحجمون ويترددون أو يتوارون وراء الاحاجي والمعميات ، ولقد أظهر لهم التاريخ لو عقلوا فساد هذه السياسة التي ذهبت بنصف الملك والتي تهدد نصفه الباقي بالضياع اذا أصروا على الغي واتبعوا وحي العواطف بدلا من أن يتبعوا وحي العقل والضمير .

ولقد كان الذين وقفوا على حياة الاحزاب في البلاد المتنوعةالاجناس والعناصر كالنمسا وسويسرا يتوقعون وصول الاحزاب العثمانية الى هذه النقطة التي كان لا غنى لها عنها . فالامم انما هي صور بعضها اذا اختلفت في الظواهر لا تختلف في الروح والجوهر . فلا بد للحكومة العثمانية رضيت أم أبت من أن تسير في السبيل الذي سلكته الحكومات

الاخرى من قبلها مدفوعة بعامل السير الطبيعي الذي يحرك جميع الامم، فلقد أدار الاتحاديون ظهرهم له مدة ثلاثة أعوام ثم اضطروا اليوم أن يقفوا أمامه وجها لوجه يحاذرون أن يسحقهم تحت أقدامه الهائلة التي سحقت أحزابا كثيرة قبلهم كانت أكثر منهم قوة أو أكثر خللا .

ولقد بسطت الايام صفحة الاتحاديين للامة بكل وضوح وجلاء فعلى العقلاء أن يقرأوا فيها نياتها السيئة ومما تضمره لهذا الملك . وعلى أبناء العرب خاصة الذين تستوجب غيرتهم على دينهم أن يغاروا على لغة هذا الدين أيضا أن ينظروا بعين العقل والحكمة والانصاف الى مسلكي الحزبين الواقفين أمامهم ، فلقد ظهر لهم من مسلك الاتحاديين أنهم يودون قتل لغة القرآن الشريف ، وأنهم يودون سلبهم حقهم وإبعاد رجالهم عن مناصب الحكم ، أو « كسر انوفهم » كما يقولون هم في تعابيرهم الخصوصية حينما يتكلمون عن الارناؤوط والعرب . فلينصفوا اليوم أنفسهم بإقصاء هؤلاء القوم الذين أوردوا البلاد موارد الهلاك عن مقاعد النيابة والحكم ، فانهم اذا فعلوا ذلك نجوا بأنفسهم وأمتهم ووطنهم، وانتشلوا هذه الدولة العثمانية التي هي بقية الدول الاسلامية من مخالب الأسود ، وأظنهم فاعلين ذلك باذن الله .

(عثماني حرّ)

* * *

على أبواب الانتخاب (*)

يقولون في بلاد الغرب إن لاانتخاب سؤال الامة أو رجوع الى رأيها ، ويريدون بذلك أنه اذا وقعت الحكومة في إشكال يصعب عليها حله تلتفت الى الامة وتقول لها : أفتيني في هذا الإشكال .

ولقد وقفت اليوم الحكومة العثمانية في أكثر من إشكال واحد ، جنتها كلها عليها يد الحدثان ويد الاعداء الخارجيين والداخليين ، فهل تحسن هذه الامة وظيفة الافتاء ؟

يجب علينا قبل الجواب على هذا السؤال أن نبين للقراء ما هي المواضيع التي تستفتي فيها الحكومة الامة . تستفتي الحكومة الامة في ما يأتي فتقول لها :

أولا — عرفتِ أن الاتحاديين استندوا الى المركزية الضيقة فرجعوا في هذه الاعوام الاربعة الى ما نحن فيه الآن فهل انتِ راضية عن هذه السياسة ؟

ثانيا — عرفتِ أن الاتحاديين أهملوا تحصين طرابلس الغرب فأطمعوا الاعداء بها وجنوا على هذه الامة بهذا الاهمال جناية الحرب ، وأنهم عرضوا مقاتل الامة كلها الى الهلاك ، فما هو رأيك في نهايتها ؟ وعلى أي شرط من الشروط يجب حسمها ؟

ثالثا — عرفتِ أن وضع العناصر العثمانية في بودقة جمعية الاتحاد

---

* (الحضارة) ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٧ (١٢ أيلول ١٩١٢) .

والترقي لإخراج عنصر واحد منها ضرب من الحمق ، وتبينت ثمرة هذه السياسة في خلال الدور السابق المنصرم فهل أنت راضية برجوع الاتحاديين الى موقع السلطة ؟ .

فعلى الامة العثمانية أن تجيب غدا على هذه الاسئلة الثلاثة فهل هي قادرة على أن تجيب عليها ؟

أود أن أجيب بنعم .

أود ذلك لأن الامة التي ترفع نير الاستبداد مرتين عن عنقها تقدر أن تميز الصحيح من الخطأ وأن تعرف الحلال من الحرام وأن تقول للجاني عليها قف عند حدك لقد ائتمنتك علي أمري الى الامس أما اليوم فلا أقدر على ذلك ؟ .

نحن نعلم أن في كل أمة عقلاء وجهلاء وذوي غايات ، ومخلصين ومنافقين وصادقين ، فعلى العقلاء الصادقين المخلصين أن يتولوا ارشاد الامة وأن يبينوا لأبنائها سبيل الحق ، فعلى قدر سعيهم ونجاحهم وخدمتهم يكون النجاح .

يجب عليهم أن يعلموا أن أعداءنا الخارجيين وخصومنا الداخليين يقاتلون بكل سلاح . هم يقاتلوننا بسلاح المال الذي أخذوه من الامة وامتصوه من دمائنا ، يقاتلوننا بسلاح النفاق والكذب والافتراء علينا .

هم يجعلون الوهم ظناً والظن إشاعة والإشاعة حقيقة ثم يكبرونها بمنظار غاياتهم لتضليل الناس اتكالا على بساطة العقول وسذاجة العامة .

ولرب قائل يقول نحن نعترف بأننا رأينا الشر في زمن الاتحاديين فهل أنتم أفضل منهم في ساحة عراك هذا الوجود ؟

فعليه تقول :

رأى الناس مسلك الاتحاديين مع خصومهم ورأوا مسلك وزارة اليوم مع الاتحاديين ، رأى العثمانيون مسلك دول الغرب مع الاتحاديين ورأوا مسلكها مع وزارة اليوم •

رأوا وزارات الاتحاديين في ثلاثة أعوام تشن الغارات الداخليـة وتهلك العثمانيين وتنفق أموالهم على قتلهم ، ورأوا وزارة اليوم تحقن الدماء وتكسب اميال العثمانيين والغربيين في شهرين ، رأوا كل ذلك في أقرب زمن وأقصره فهل هم يحتاجون بعد ذلك الى برهان ؟

نحن نقول للعقلاء الذين خلت صدورهم من الغرض الاعمى والغايات القاتلة والمطامع الآكلة جربتم الاتحاديين فزاغوا عن سبيل الهدى فجربوا اليوم أهل التجارب والاقتدار انهم قد يكونون أوسع فكرا وأرحب صدرا وأقدر على عمل الخير ، خصوصا وأنكم رأيتم من بوادر أفعالهم ما يزيد أملكم في تواليها •

فاعلوا الفكرة وأخلصوا النية واعطوا أصواتكم الى من لم يخونوا لكم عهدا ، ولا وقعوا على أوراق قتل أبنائكم ، ولا أخذوا أموالكم لإنفاقها على إرشاد مساعديهم على الظلم •

ساعدوهم على خدمتكم وخدمة هذا الوطن فيحفظ لكم التـاريخ هذه المأثرة ، ويقول لكم الآتون هنيئا لكم لقد أحسنتم في الحياة الينا أحسن الله اليكم في الآخرة •

(عثماني حرّ)

مكانك تحمدي أو تستريحي (*)

هذا مصراع من الشعر ينشده لسان حال العثمانيين خطابا لحكومات البلقان الباغية ، وينطق به اليوم كل جندي عثماني شجاع من جسر مصطفى باشا الى (بـدغورتيزا) ومن مضايـق (كاتشانيـك) الى (آلاصونية) فلقد باتت الولايات الروملية منذ اسبوعين مسرح الأسود ومرابط الخيل ، ومخزن كرات المدافع تتجاوب بصداها تخومنا عـلى حدود جيراننا الممالك البلقانية الاربع .

جيراننا وهم شرّ الجـوار لنـا   وصحبنا وهم شرّ الأصاحيب

الا أنها لم تردد الى الآن بحمد الله سوى أصوات كلمات الفوز والظفر ، فلقد رافق النصر أعلامنا منذ اعلنا الحرب على تلك الحكومات الى الآن مرافقة تبشر بخير كبير وتعدُ فألا حسنا باذن الله .

لا تزال الى الآن في أوائل الحرب على جميع الحدود الا أن المناوشات الكبرى قد بدأت بين طلائع جيوشنا في أدرنة حيث زحف عبد الله باشا على العدو بكل قواته وبين جيوش البلغار كما يتبين للقارىء من مطالعة الاخبار في غير هذا المكان من هذا العدد . والمظنون أن الواقعة الكبرى التي سينصر الله بها سيوف فوارسنا الشجعان ستحدث اليوم أو غدا . فيرد كيد البلغاريين الى نحورهم ويقضي الله على أمانيهم القضاء الاخير .

---

* (الحضارة) ، السنة الثالثة ، العدد ١٣٣ (٢٤ تشرين الاول ١٩١٢) .

اما المناوشات على حدود الصربيين واليونانيين والجبليين فليس لها ما لمناوشات أدرنه من الشأن الاكبر ، فقد فشل أعداؤنا على الحدود المذكورة فشلا دلهم على أن جني النصر من ورق الحديد الاخضر أمر بعيد المنال عليهم ، ولقد عادت عمارتنا الى الحوض منذ يومين بعد أن دمرت حصون وارنة والنقط العسكرية التي تجاورها وعطلت النسافات البلغارية فيها حيث أمنت طريق نقل الجنود بحرا من ولايات الاناضول الى ساحة القتال •

وستكون الواقعة الكبرى الناشبة على حدود البلغار ونحن نكتب هذه السطور أهم واقعة عسكرية تحدث في هذا الاسبوع •

والامر الذي يجدر بكل عثماني ذكره مقرونا بالشكر لناظر الحربية السرعة التي حشد بها الجنود على الحدود ، فلقد أدهشت هذه السرعة كتاب الصحف الاوروبية العسكريين الذين أثنوا عليه الثناء الذي استحقه بسهره وجهاده الحسن •

وقد دار على الالسن منذ يومين أن بعض الحكومات الاوربية ينوي التداخل بين المتحاربين لعقد الصلح عقب حدوث بعض المعارك الاولى ذات الشأن ، الا أن الدولة العلية استدركت هذه المداخلة بأن أبلغت وزارات حكومات أوربا أنها لا ترضى بما عساه يصدر من هذا القبيل ولا تقبل المذاكرة في شأنه سواء كانت نتيجة هذه الوقائع لها أم عليها •

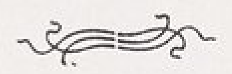
فعلى العثمانيين الآن أن يمدوا لحكومتهم يد المساعد والعضد بكل مالديهم من الوسائل بالمال والرجال واعانة الجرحى بتأليف جمعيات لإعانة الهلال الاحمر اقتداءً بذوي الغيرة والحمية من العثمانيين الذين

نهضوا لهذه الغاية الكبرى ، وليعلموا اليوم أن على أذرعهم جيوش أربع حكومات هي وإن صغرت لا يستهان بعددها .

فعلى كل منهم أن يردد الآن هذا البيت من الشعر الذي يردده كل جندي على الحدود مع ترديد أنفاسه .

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

(عثماني)



الفهرس

الصفحة

الصفحة

مقالات لا تحمل توقيعا صريحا ويرجح انها للمؤلف

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م



المطبعة الهاشمية